

التبليغ
في تفسير القرآن

تأليف
شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن
الطوسي

دار
إحياء التراث العربي
بيروت

الطوسي

التبليغ
في
تفسير
القرآن

٥

دار
إحياء التراث العربي



التَّيَّانُ

في تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي

٣٨٥-٤٦٠ هـ

تحقيق وتصحيح

أحمد صبيح قصير القاملي

المجلد الخامس

دار

أحياء التراث العربي

قوله تعالى :

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ
مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (١٥٧) آية .

أمر الله تعالى نبيه ﷺ ان يخاطب الخلق ، ويقول لهم اني رسـول الله
أرسلني اليكم يعني الى الناس أجمع « الذي له ملك السماوات والأرض » يعني ارسلني
اليكم الذي له التصرف في السماوات والارض من غير دافع ، ولا منازع « لا إله
اي لامعبود » إلا هو يحيي ويميت فأمنوا بالله « أمر من النبي ﷺ للخلق بأن
يصدقوا بتوحيد الله ويقرؤا بنبوة النبي « الأمي الذي يؤمن » يعني يصدق بالله
و كلماته ، وأمرهم بأن يتبعوه ويرجعوا الى طاعته لكي يهتدوا الى الثواب والجنة .
و « جميعاً » نصب على الحال من ضمير المخاطب الذي عمل حرف الاضافة فيه
والعامل في الحال معنى الفعل في « رسوله » الا أنه لا يتقدم على حرف الاضافة ،
لانه قد صار بمنزلة العامل .

وإنما وصفه بأنه يحيي ويميت لأنه لا يقدر على الاحياء إلا الله ، ولا على
الاماتة أيضاً سواه لانهار قدر أحد على الاماتة لقدرة على الاحياء ، لأن من شأن
القادر على الشيء أن يكون قادراً أعلى ضده، وانما استعمل به معنى لتهدوا على الرجاء
والطمع في الفوز به من العذاب .

قوله تعالى :

(وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٍ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) (١٥٨) آية .

أخبر الله تعالى أن من قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون .
قال ابن عباس والسدي : قوم وراء الصين .
وقال ابو جعفر عليه السلام : هم قوم خلف الرمل لم يغيروا ولم يبدلوا .
وأنكر الجبائي قول ابن عباس ، وقال شرع موسى عليه السلام ، منسوخ بشرع
عيسى عليه السلام وشرع محمد صلى الله عليه وآله فلو كانوا باقين لكفروا بنبوته محمد .
وهذا ليس بشيء ، لأنه لا يمتنع أن يكون قوم لم تبلغهم الدعوة من النبي صلى الله عليه وآله
فلا نحكم بكفرهم .

وقال الجبائي يحتمل ذلك وجهين :

احدهما - انهم كانوا قوماً متمسكين بالحق في وقت ضلالتهم (١) بقتل أنبيائهم .
والآخر - انهم الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وآله مثل ابن سلام وابن سوريا وغيرهما .
وتقدير الكلام في معنى الآية إذاً : كان من قوم موسى أمة يهدون بالحق
وبه يعدلون ، قد مدحوا بذلك وعظموا ، فعلى كل أمة أن يكونوا كهذه الأمة
الكريمة في هذا المعنى . والامة الجماعة التي تؤم أمراً بأن تقصده وتطلبه . وأمة
محمد صلى الله عليه وآله تؤم شريعته وأمة موسى وعيسى مثل ذلك .

وليس في الآية ما يدل على ان في كل عصر أمة هادية من قوم موسى لأن
بعد نبوة نبينا صلى الله عليه وآله لم يبق احد يجب اتباعه في شرع موسى عليه السلام وكذلك قوله
تعالى « ومن خلفنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » (٢) ولادلالة في ذلك على ان
تلك الأمة موجودة في كل عصر ، بل لولم توجد هذه الأمة الا في وقت واحد هادية
بالحق عارلة به لصح معنى الآية على ان عندنا في كل عصر لا يخلون من قوم بهذا
الوصف وهم حجج الله على خلقه ، المعصومين الذين لا يجوز عليهم الخطأ والزلل ،
فقد قلنا بموجب الآية .

(١) أي وقت ضلالة قومهم (٢) سورة ٧ الأعراف آية .

وصريح الآية يدل على بطلان قول من قال لا يهدي الى الحق الا الله تعالى، لأن الله تعالى بين ان فيمن خلقه امة يهدون بالحق وبه يعدلون، وظاهر ذلك الحقيقة وصريح الآية بخلاف ما يقوله المخالف، ولا ينافي ذلك قوله تعالى « من يهد الله فهو المهتدي » (١) لانه يصح اجتماعه مع ذلك، والمعنى من يهده الله الى الجنة فهو المهتدي اليها على ان قوله تعالى « من يهد الله فهو المهتدي » لا يمنع من ان يهديه أيضاً غير الله ويهتدي، لان المتعلق بذلك تعلق بدليل الخطاب. وهو ليس بصحيح عند اكثر العلماء، على ان من هدى غيره الى الحق فانما يهديه بأن ينبهه على الحجج التي نصبها الله على الحق فجاز ان يضاف ذلك الى انه بهداية الله. ومن حمل قوله تعالى « يهدون » على ان المعنى يهتدون فقد غلط، لان ذلك لا يعرف في اللغة.

قوله تعالى :

(وَ قَطَعْنَاهُمْ اَثْنَتَيْ عَشْرَةَ اَسْبَاطًا اُمَّمًا وَاَوْحَيْنَا اِلَى مُوسَى اِذِ اسْتَسْقَمَ قَوْمُهُ اَنْ اَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحِجْرَ فَاَنْبَجَسَتْ مِنْهُ اَثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ اُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْعَمَامَ وَاَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّانَ وَاَسَلُّوْا كُلُّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُوْنَا وَلٰكِنْ كَانُوْا اَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُوْنَ) (١٥٩) آية.

قدمضى تأويل معنى اكثر هذه الآية في سورة البقرة (٢) فلا معنى للتطويل بذكر ماضى وانما نذكر ما لم يذكر هناك : انما انت قوله اثنتي عشرة اسباطاً لان النية التقديم والتأخير والتقدير وقطعناهم اماً اثنتي عشرة اسباطاً ولم

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٧٧

(٢) آية ٦٠ من سورة البقرة المجلد ١/٢٦٩

يقول سبطاً لآحد ثلاثة اشياء :

احدها - انه بدل ليس بتمييز والمعنى قطعناهم اسباطاً ذكر ذلك الزجاج.
الثاني - على ان كل قسم اسباط لان الواحد يقال له سبط ، فيجوز على هذا
عندي عشرون دراهم على ان كل قسم منها دراهم قال كثير :

علي والثلاثة من بنيه هم الاسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط ايمان وبر وسبط غيبته كربلا (١)

الثالث - ان يكون اقام الصفة مقام الموصوف . وتقديره اثنتي عشرة
فرقة اسباطاً .

والسبط : الجماعة التي تجري في الامر بسهولة لاتفاقهم في الكلمة على انه
مأخوذ من السبوط . وقيل انه مأخوذ من السبط ضرب من الشجر ، فجعل الاب
الذي يجمعهم كالشجرة التي تنفرع عنها الاغصان الكثيرة . وقال ابو علي لانهم
كانوا بني اثني عشر رجلا من ولد يعقوب . وقيل انما فرقوا اسباطاً لاختلاف رتبتهم .
والانبياس : خروج الماء الجاري بقله ، والانفجار خروجه بكثرة ، فكان
يبتدىء بقله ثم يتسع حتى يصير الى الكثرة ، فلذلك ذكره ههنا بالانبياس وفي
البقرة بالانفجار .

والظلمة السترة التي تقي من الشمس ، والأغلب عليها العلو .

فجعل الله عزوجل لهم من الغمام ظلة تكنهم لما احتاجوا الى ذلك في النهي كما
اعطاهم المن والسوى . والمن ضرب من الحلاوة يسقط على الشجر . والسوى طائر
كالسماني . وانما انث « اثنتا عشرة اسباطاً » مع ان السبط ذكر ، لأحد ثلاثة اشياء :

احدها - اثنتي عشرة فرقة ثم حذف .

الثاني - وقطعناهم قطعاً اثنتي عشرة ، فحذف على هذا التقدير .

الثالث - أن السبط لما وقع على الامة أنث . كما قال الشاعر :

وان كلاباً هذه عشر أبطن وانت بريء من قبائلها العشر
وقوله تعالى « وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » معناه : ما أنقصونا
شيئاً ولكن انقصوا أنفسهم تقول العرب : ظلمت سقائك إذا سقيته قبل ان يخرج
زبده ، ويقال : ظلم الوادي إذا بلغ الماء منه موضعاً لم يكن ناله فيما مضى ، قال
الفراء وانشدني بعضهم :

يكاد يطلع ظلماً ثم يمنعه
عن الشواحق فالوادي به شرق
ويقال هو أظلم من حية . لأنها تأتي جحراً لم تحفره فتسكنه ويقال ما ظلمك
ان تفعل كذا أي مامنك . والارض المظلومة التي لم ينلها المطر .

قوله تعالى

(وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اَسْكِنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ
شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ
سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ) (١٦٠) آية بالاخلاف .

قرأ اهل المدينة و ابن عامر ويعقوب (يغفر) بالياء وضمها ، وفتح الفاء الباقيون
بالنون و كسر الفاء ، وقرأ اهل المدينة ويعقوب (خطيئاتكم) على جمع السلامة
ورفع التاء ، وقرأ ابن عامر على التوحيد ورفع التاء ، وقرأ ابو عمرو (خطاياكم)
بغير همز على جمع التكسير ، الباقيون وهم ابن كثير واهل الكوفة (خطيئاتكم)
على جمع السلامة و كسر التاء .

من قرأ « يغفر » حمله على قوله تعالى « وإذ قيل لهم ادخلوا . . . يغفر ،
والتي في البقرة (يغفر) بالنون ، فالنون هناك احسن لقوله « وإذ قلنا » و جازهمنا
بالنون كأنه قيل لهم ادخلوا . . . يغفر . أي إن دخلتم غفرنا .
ومن قرأ تغفر بالتاء المضمومة فلانه اسند اليها خطيئاتكم وهو مؤنث فأنث

وبنى الفعل للمفعول اشبه بما قبله ، لان قبله واذ قيل .

ومن قرأ بالنون فلقوله « سنزيد المحسنين » .

وخطايا جمع خطيئة جمع تكسير (وخطيا تكم) مسكناً لأنه يكثر فيه السكون

وسميت القرية قرية لان الماء يقري اليها يقال قرئت الماء في الحوض أقره قرياً

إذا جمعته . ويجوز ان يكون مشتقاً من اجتماع الناس اليها .

وقد مضى تفسير مثل هذه الآيات في سورة البقرة (١) فلا معنى لاعادته .

وإنما نذكر جمل ذلك فنقول :

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ يقول اذ كر يا محمد اذ قيل لبي

اسرائيل اسكنوا هذه القرية وهي بيت المقدس على قول الجبائي وغيره من المفسرين

وقال الحسين هي ارض الشام . وقال قوم غير ذلك . وقد ذكرنا اختلافهم

في سورة البقرة (٢) لأنه كان امرهم بدخولها واخراج من فيها من الكفار وغيرهم

ووعدهم ان يوسع عليهم فيها الرزق ويبيحهم ذلك لياً كلوا من حيث شاؤوا ما يريدون

من انواع الاغذية والرزق . وقال لهم : « كلوا من حيث شئتم » على كثرة الرزق

والغذاء في هذه القرية وفي كل ناحية منها .

وقوله تعالى : « وادخلوا الباب سجداً » يعني متواضعين وكانوا امرؤا بأن

يدخلوا باباً منه معيناً في هذا الموضع كانوا فيه - في قول الجبائي - وقال ذلك قبل

دخولهم الى بيت المقدس ، قال ولم يرد ان يدخلوا الباب سجداً منحنيين .

قال ابن عباس كان هناك باب ضيق امرؤا بان يدخلوه ركباً فدخلوه على

استاهم . وقيل لهم « قولوا حطة » أي مغفرة ، فقالوا حنطة . وذكرنا اختلاف

الناس في ذلك .

وقوله «وقولوا حطة» معناه قولوا حط عنا ذنوبنا وهو بمنزلة الاستغفار والتوبة.

وقوله «نغفر لكم خطاياكم» جواب الامر وفيه معنى الجزاء . والتقدير انكم

ان فعلتم ذلك غفرا لنا لكم خطاياكم . وقوله (سنزيد المحسنين) معناه سنزيد المحسنين منكم نعماً وفضلاً في الدنيا والاخرة ، ولانقتصر لهم على نعم هذه القرية . ورفع حطة على تقدير مسألتنا حطة ومطلوبنا حطة . وان نصب جاز بمعنى حط عنا حطة . وقوله سجداً نصب على الحال من دخول الباب . وقال ابو علي ليس بحال لدخول الباب ، لانهم بدلوا في حياة موسى .

قوله تعالى :

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦١) آية

اخبر الله تعالى عن هؤلاء الذين امرهم بدخول القرية متواضعين ، وان يقولوا حطة لذنوبنا ، انهم بدلوا قولاً غير الذي قيل لهم . والتبديل تغيير الشيء برفعه الى بدل ، فقال الحسن قالوا حنطة بدل حطة . وقال قوم: قالوا قولاً بنا في الاستغفار ويخالف التوبة . وقالوا ما يدل على الاصرار . واخبر تعالى انه ارسل عليهم عند ذلك رجزاً وهو العذاب والعقوبة جزاء بما كانوا يفعلونه من معاصي الله تعالى ويظلمون بها انفسهم .

واصل الرجز الميل عن الحق فمنه الرجاسة وما يعدل به الحمل اذا مال عن خفة والرجز عبادة الوثن . والناقاة الرجاء التي تميل في احد شقيها لداء يعرض لها في عجزها .

قوله تعالى :

وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٢) آية .

القراء كلهم على فتح الياء في قوله تعالى (لايسبتون) وروي عن الحسن ضمها .
من قال أسبتوا اراد دخلوا في السبت ومن فتح الياء اراد يفعلون السبت اي
يقومون بأمره كما يفعل المسلمون يوم الجمعة ، ومثله أجمعنا اي مرت بناجمعة ،
وجمعنا شهدنا الجمعة . قال الفراء : قال لي بعض العرب : أترانا اشهرنا منذ لم
نلتقى يريد من بنا شهراً .

امر الله نبيه ﷺ أن يسأل بني اسرائيل الذين كانوا في وقته عن القرية التي
كانت حاضرة البحر ، وعن سبب هلاكها ، سؤال تقرير وتوبيخ لاسؤال استنهام ،
كما يقول الرجل لغيره أنا فعلت كذا؟ وانت تعلم أنك لم تفعل ، وانما تسأل لتقريره
وتوبيخه ، فوجه امر النبي ﷺ ان يسأل اهل الكتاب عن اهل هذه القرية مع ما اخبره
الله تعالى بقصتها لتقريرهم تقديم كفرهم وتعلمهم ما لا يعلم الا بكتاب او وحي ، وهو ﷺ
لم يكن ممن قرأ الكتب ، فعلموا بذلك ان ذلك وحي انزل عليه .

وقوله تعالى (اذ يعدون في السبت) معناه اذ يظلمون في السبت ، يقال عدا
فلان يعدو عدواناً ، وعدا عدواً اذا ظلم .

وقوله تعالى (اذ تأتيهم حيتانهم) في موضع نصب يعدون .

والمعنى سلمهم اذ عدوا في وقت اتيان الحيتان « شرعاً » اي ظاهرة والحيتان
جمع حوت واكثرها يسمى العرب السمك بالحيتان والنيتان ، وكانت الحيتان تأتي
ظاهرة فكانوا يجتالون بحبسها يوم السبت ثم يأخذونها في يوم الأحد . وقال
قوم : جأهروا بأخذها يوم السبت .

وقوله تعالى (كذلك نبلوهم) اي مثل هذا الاختبار الشديد نخبرهم .
وموضع الكاف نصب بقوله : (نبلوهم بما كانوا يفسقون) اي شددت عليهم المحنة
بفسقهم . قال الزجاج ويحتمل ان يكون « ويوم يسبتون لانتأيتهم كذلك » اي
لانتأيتهم شرعاً ويكون « نبلوهم » مستأنفاً . والأول قول اكثر المفسرين .

والوجه في تشديد المحنة التي هي التكليف أن الله تعالى أمر بني اسرائيل

بامساك السبت والنفرغ فيه للعبادة وأن لا يتشاغلوا بشيء من أمر الدنيا فيه فتهاون قوم ممن كان يسكن هذه القرية وهي (ايلدة) في قول قوم من المفسرين . وقال قوم هي مدين ، ورويا جميعاً عن ابن عباس . ولم يقوموا بما وجب عليهم فشد الله على من اخذوه . قال الحسن : كانت تشرع على ابوابهم كأنها الكباش البيض فيعدون فيهاخذونها وتبعد عنهم في باقي الايام وامرهم ان لا يضطادوا يوم السبت فكان ذلك تشديداً للتكليف وتغليظاً للمحنة والبلوى ، وكان ذلك عتوبة على تهاونهم بما أوجب الله عليهم فخالقوا فأرسلوا الشباك يوم السبت واخترجوها يوم الاحد .

قوله تعالى :

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُبْلِغُكُمْ
أَوْ مَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ
(١٦٣) آية بلاخلاف .

قرأ حفص وحده عن عاصم « معذرة » بالنصب . الباقون بالرفع .
من رفع فعلى تقدير موعظتنا معذرة الى ربكم . ومن نصب فعلى المصدر ،
كما يقول القائل لغيره : معذرة الى الله واليك من كذا على النصب .
والمعنى قالوا نعتذر معذرة واعذاراً .

قال ابو زيد عذرتة اعذره عذراً ومعذرة وعذرى . والتقدير واذا ذكر اذا قالت
امة منهم لطائفة منهم لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا علمتم انهم هالكون في الدنيا ويعذبهم الله
عذاباً شديداً في الآخرة ، فقالوا في جوابهم وعظناهم إعذاراً الى الله اي نعظهم
اعتذاراً الى ربكم لئلا يقول لنا لم تعظوهم ولعلمهم ايضاً بالوعظ يتقون ويرجعون .
وفي ذلك دليل على انه يجب النهي عن القبيح وإن علم الناهي ان المنهي
لا ينزجر ولا يقبل ، وان ذلك هو الحكمة والصواب الذي لا يجوز غيره .

واختلفوا في هذه الفرقة التي قالت: لم تعظون قوماً الله مهلكهم؟ هل كانت من الناجية أو من الهالكة عن الاعتداء في السبت. ذهب إليه ابن عباس وقال نجت الطائفتان من الهلاك الناهية والتي قالت لها لم تعظون، وبه قال السدي وقال قوم الفرقة التي قالت لم تعظون قوماً الله مهلكهم كانت من الفرقة الهالكة ذهب إليه ابن عباس في رواية أخرى عنه.

وقال قتادة عن ابن عباس هم ثلاث فرق التي وعظت والموعظة، فنجت الأولى وهلكت الثانية، والله اعلم ما فعلت الفرقة الثالثة، وعم الذين قالوا لم تعظون واختاره الجبائي.

وقال الكلبي: هما فرقتان الواعظة والموعظة.

وقال الجبائي لم يريدوا بذلك الا نهيمهم اياهم عن ذلك القبيح. وانما قالوا ذلك على سبيل الاياس من قبولهم منهم. وقوله «لم» اصله (لما) الا انه حذف الألف مع حرف الجر نحو «عم يتساءلون ولم يقولوا (عن ما)».

قوله تعالى:

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْأَسْوَءِ
وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٤) آية

قرأ أبو بكر إلا العليمي «بئس» بفتح الباء وبعدها ياء ساكنة وبعدها همزة مفتوحة على وزن (فيعل) وروي عنه بكسر الهمزة. وقرأ أهل المدينة والداحوني عن هشام بكسر الهاء وبعدها ياء ساكنة من غير همز. وقرأ مثل ذلك ابن عامر إلا الداخوني عن هشام إلا أنه همز. الباقيون بفتح الباء وبعدها همزة مكسورة بعدها ياء ساكنة على وزن (فيعل). وروى خارجة عن نافع بفتح الباء بعدها

ياء بلا همز على وزن (فعل) .

قال ابو زيد : قد بؤس الرجل يبؤس بأساً إذا كان شديد البأس ، وفي البؤس
ئس وبئس يبأس بؤساً وبئساً وبأساً والبأساء الاسم .

قال أبو علي : من قرأ على وزن (فعيل) يحتمل أمرين :

أحدهما - أن يكون فعيلاً من بؤس يبؤس إذا كان شديد البأس مثل « من

عذاب شديد » (١) قال ابو محمد الفقعسي :

أشعث غير حسن اللبوس باق على عيش له بئس
أي شديد .

والثاني - أن يكون من عذاب ذي بئس . فوصفه بالمصدر ، والمصدر قد
يجيء على (فعيل) مثل نكير ونذير وشحيح وعذير الحلي ، والتقدير من عذاب ذي
بئس أي عذاب ذي بؤس .

ومن قرأ بكسر الباء من غير همز فإنه جعلها اسماً ، فوصفه به مثل قوله صلى الله عليه وآله
(إن الله نهى عن قيل وقال) ومثله : منذ شب الى رب . ونظيره من الصفة نقض وبصق .

ومن فتح الباء من غير همز فهو أيضاً (فعل) في الاصل وصف به وابدلت الهمزة
ياء وحكى سيبويه أنه سمع بعض العرب يقول : بئس فلا يحقق الهمزة ويدع الحرف
على الاصل الذي هو (فعل) كأنه يسكن العين كما يسكن من (علم) ويقلب
الهمزة ياء الا أنه لما أسكنها لم يجز أن يجعلها بين بين فأخلصها ياء .

وقراءة ابن عامر مثل قراءة نافع إلا أن ابن عامر حقق الهمزة .

وقراءة ابي بكر على وزن «فيعل» ، فإنه جعله وصفاً كضيغم وحيدر ، وهذا
البناء كثير في الصفة ولا يجوز كسر العين من بيئس لان « فيعل » بناء اختص به ما
كان عينه ياء أو واواً مثل سيد وطيب ، ولم يجيء مثل ضيغم وجاء في المعتل
حكى سيبويه عين وانشد لرؤبة .

ما بال عيني كالشعيب العين (١)

فبينغي ان يحمل بيئس على الوهم عن رواه عن عاصم والاعمش بالكسرو وقد
أنشد بعضهم :

كلاهما كان رئيساً بيئسا يضرب في يوم الهياج القونسا (٢)
أعلمى كل شي قونسه بكسر العين . فمدن كسر العين حملة على هذه اللفظة.
أخبر الله تعالى أنه لما ترك أهل هذه القرية الرجوع عن ارتكاب المعصية بصيد
السماك يوم السبت بعد أن ذكروهم الواعظون ذلك ولم ينتهوا عن ذلك أنه انجى
الناهين عن ذلك وأخذ الذين ظلموا انفسهم بعذاب شديد جزاء بما كانوا يفسقون
ويخرجون عن طاعة الله الى معصيته .

وروي عن عطا أن رجلاً دخل على ابن عباس وبين يديه المصحف وهو يبكي
وقد أتى على هذه الآية الى آخرها ، فقال ابن عباس قد علمت ان الله اهلك الذين
أخذوا الحيتان وانجى الذين نهوهم ، ولا ادري ما صنع بالذين لم ينهوهم ولم
يواقعوا المعصية وهي حالنا .

و « نسوا » في الآية معناه تركوا ويحتمل ان يكون تركهم القبول في منزلة
من نسي ، ولا يجوز أن يكون المراد النسيان الذي هو السهو ، لأنه ليس من فعلهم
فلا يذمون عليه .

وقال الجبائي العذاب الشديد لحقهم قبل ان يمسحوا قررة خاسئين .

قوله تعالى

فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كَسُوتُوا قَرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٥) آية

(١) وقيل قائله الطرماح . اللسان (عين)

(٢) قائله امرىء القيس بن عابس الكندي . تفسير ابن حبان ١٤٣/٤

أخبر الله تعالى عن هؤلاء العصاة الذين عصوا بصيد السمك في السبت، ونهوا فلم ينتهوا ووعظوا فلم يتعظوا ، وأنه أنزل عليهم العذاب الشديد ، فلما عتوا عما نهى الله وتمردوا في معصيته مسخهم الله قردة خاسئين .

والعاتى الشديد الدخول في الفساد المتمردين الذي لا يقبل موعظة . والعتوا الخروج الى الجرأة على أفحش الذنوب . وقوله « خاسئين » معناه مبعدين من قولهم خسأت الكلب إذا أقصيته فحسأ أي بعد . وقال الحسن معناه صاغرين ، وقال : إن أهل المسخ يتناسلون . وقال ابن عباس : لا يتناسلون . وأجاز الزجاج كلا الأمرين . وسئل أبو مالك : أكايت القردة والخنازير قبل ان يمسخوا ؟ قال : نعم وكانوا فيما خلق الله من الأمم . وقول ابن عباس أصح ، لأن المعلوم أن القردة ليست من ولد آدم كما أن الكلاب ليست من ولد آدم . قال قتادة : صاروا قردة لها أذنان تعاوي بعد ما كانوا نساء ورجالا .

وقوله تعالى : « كونوا قردة » صيغته صيغة الامر والمراد به الاخبار : من أنه جعلهم قردة على وجه يسهل عليه ولم يتعب به ولم ينصب كما قال تعالى : «إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » (١) . وقال « اثنتا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين » (٢) ولم يكن هناك أمر لانه تعالى لا يأمر المعدم ، وإنما هو إخبار عن تسهيل الفعل، وأجاز الزجاج أن يكون قيل لهم ذلك بكلام سمعوه فيكون ذلك أبلغ في الآلية النازلة بهم لما يدل على وقوع الأول الذي تبعه الثاني . وليس كذلك إذا قلت : لما جاء المطر خرج النباب ، وقوله تعالى « ولو ردوا لعادوا » فلا يقع الرد أصلاً .

قوله تعالى:

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ

(١) سورة ١٦ النحل آية ٤٠ (٢) سورة ٤١ حم السجدة (فصلت) آية ١١

يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٦) آية بلاخلاف .

التقدير اذكر يا محمد « إذ تأذن ربك » ومعنى تأذن : أعلم ، والعرب تقول تعلم ان هذا كذا بمعنى أعلم ، قال زهير :

تعلم أن شرَّ الناس حي ينادي في شعارهم يسار (١)
ويسار اسم عبد . وقال زهير ايضاً :

فقلت تعلم ان للصيد غرة والا تضيعه فانك قاتله (٢)

وقال الزجاج معنى (تأذن) تألأ ربك ليعثن . وقال قوم : معناه امر من اذن يأذن . وقوله : « ليعثن عليهم الى يوم القيمة من يسومهم سوء العذاب » قسم من الله تعالى انه يبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب اي من يوليهم سوء العذاب . قال ابو جعفر عليه السلام وابن عباس وقتادة وسعيد بن جبير والحسن : اراد به امة تجر عليه السلام يأخذون منهم الجزية .

فان قيل فقد جعلوا قردة كيف يقون الى يوم القيامة ؟

قلنا : إن الذكر لليهود فممنهم من مسخ فجعل منهم القردة والخنازير ومن بقى قمع بذل من الله ، فهم اذلاء بالقتل او اذلاء باعطاء الجزية ، فهم في كل مكان اذل اهله لقوله تعالى « ضربت عليهم الذلّة ايما ثقفوا إلا بجبل من الله وجبل من الناس » (٣) اي إلا ان يعطوا الذمة والعهد .

وفي الآية دليل على ان اليهود لا يكون لهم دولة الى يوم القيامة ولا عزلهم ايضاً وقيل في معنى البعث ههنا قولان : احدهما - الأمر والاطلاق . والآخر -

(١) الاغانى - دارالثقافة بيروت - ١٠ : ٣١٧ . الشعار علامة ينصبونها في سفرهم

(٢) تفسير القرطبي ٧ : ٣٠٩ . وروايته (تضيّعها) بدل (تضيّعها) .

(٣) سورة آل عمران آية ١١٢

التخلية ، وإن وقع على وجه المعصية ، كما قال تعالى : « أنا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا » (١) .

وقوله تعالى : « إن ربك لشديد العقاب » معناه إن ربك يا محمد لدريع العقاب لمن يستوجبه على كفره ومعصيته « وانه لغفور رحيم » اي صفوح عن ذنوب من تاب إليه من معاصيه ورجع الى طاعته يستر عليهم بعفوه وبفضله رحمة بهم فلا ينبغي لأحد ان يصرّ ويأمن عقابه بل ينبغي ان يجوز سرعة عقابه فيبادر إلى التوبة والاستغفار .

قوله تعالى :

وَقَطَعْنَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَدَلُونَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٧) آية

اخبار الله تعالى انه قطع بني اسرائيل يعني فرقهم فرقاً في الارض «امماً» يعني جماعات شتى متفرقين في البلاد ، وهو قول ابن عباس ومجاهد ، وعلى اي وجه فرقهم ؟ قيل فيه قولان :

احدهما - فرقهم حتى تشتت امرهم وذهب عزهم عقوبة لهم .

الثاني - فرقهم على ما علم انه اصلح لهم في دينهم .

ثم اخبر عنهم فقال : من هؤلاء الصالحون يعني من بني اسرائيل الصالحون ، وهم الذين يؤمنون بالله ورسوله ، ومنهم دون ذلك يعني دون الصالح ، وإنما وصفهم بذلك لما كانوا عليه قبل ارتدادهم عن دينهم ، وقبل كفرهم بربهم ، وذلك قبل ان يبعث فيهم عيسى عليه السلام .

وقوله : « وبلو ناهم بالحسنات والسيئات » معناه اختبر ناهم بالرشاء في العيش

والخفص في الدنيا والدعة والسعة في الرزق ، وهي الحسنات ، ويعني بالسيئات الشدائد
في الحبس والمعائب في الأنفس والأموال « لعلهم يرجعون » اي لكي يرجعوا
الى طاعته وينيبوا الى إمتثال امره .

فان قيل كيف قال : لكي يرجعوا الى الحق ، وهم لم يكونوا عليه قط ؟
قلنا عنه جوابان :

احدهما - انهم مارون على وجوههم الى جهة الباطل فدعوا الى الرجوع الى
جهة الحق لأن الانصراف عن الباطل رجوع الى الحق .

الثاني - انهم ولدوا على الفطرة وهي دين الحق الذي يلزمهم الرجوع اليه .

قوله تعالى :

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَا خُدُونَ
عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ
مِّثْلُ الَّذِي أَخَذُوهُ آلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَا يَقُولُوا عَلَىٰ
اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأُخْرَىٰ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٨) آية بلاخلاف .

معنى الآية ان الله اخبرانه خلف - بعد القوم الذين كانوا افرقهم في الارض -
خلف ، وهم قوم نشؤوا بعدهم من اولادهم ونسلهم . يقال للمقرن الذي يجيء في
اثر قرن خلف ، والخلف ما اخلف عليك بدلا مما اخذ منك . ويقال في هذا خلف
ايضاً . فأما ما اخلف عليك بدلا مما ذهب منك ، فهو - بفتح اللام - افصح . قال
الفراء : يقال : اعطاك الله خلفاً مما ذهب لك ، فأنت خلف صدق وخلف سوء ، قال
الله تعالى « فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة » (١) واكثر ما يجيء في المدح

- بفتح اللام - وفي الظم بتسكينها - وقد تحرك في الظم وتسكن في المدح ، فمن ذلك في تسكين اللام في المدح قول حسان بن ثابت :

لنا القدم الاولى اليك وخلفنا لأولنا في طاعة الله تابع (١)

ويقال : خلف اللبن إذا حمض من طول تركه في السقاء حتى يفسد ، فالرجل الفاسق مشبه به ، ومنه خاوف نم الصائم وهو تغيره . وأما بتسكين اللام في الظم فقول لبيد :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الاجرب (٢)

وقيل ان الخائف الذين ذكرهم الله في هذه الآية أنهم خلفوا من قبلهم هم النصارى - ذهب اليه مجاهد - وهذا الذي قاله جائر، وجائر أيضاً أن يكون المراد به قوم خلفهم من اليهود .

وقوله تعالى « ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى » قال قوم . كانوا يرتشون على الأحكام ، ويحكمون بجور . وقال آخرون : كانوا يرتشون ويحكمون بحق ، وكل ذلك عرض خسيس ، ومعنى « هذا الأدنى » هذا العاجل ، و « يقولون سيغفر لنا » معناه إذا فعلوا ذلك يقولون الله يغفر لنا ذلك تمنياً منهم للباطيل كما قال تعالى « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » (٣) . وقوله تعالى « وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه » دليل على اصرارهم وأنهم تدنوا أن يغفر لهم مع الاصرار ، لان المعنى وان جاءهم حرام من الرشوة بعد ذلك أخذوه واستحلوه ، ولم يرتدعوا عنه - وهو قول سعيد بن جبيرة وقتادة والسدي وابن عباس وقال الحسن : معناه لا يشعبهم شيء .

(١) ديوانه : ٨٤ . واللسان (خلف) وتفسير القرطبي ٣١٠/٧

(٢) ديوان القصيد : ٨ . واللسان (خلف) وتفسير القرطبي ٣١٠/٧

(٣) سورة ٢ البقرة آية ٧٩

وقوله « ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ان لا يقولوا على الله الا الحق ودرسوا ما فيه » معناه الم يؤخذ على هؤلاء المرتشين في الاحكام القائلين سيغفر لنا هذا اذا عوتبوا على ذلك و « ميثاق الكتاب » هو ما أخذ الله على بني اسرائيل من العهود باقامة التوراة والعمل بما فيها ، فقال تعالى لهؤلاء الذين قصمهم توبيخاً لهم على خـلافهم امره ونقضهم عهده وميثاقه : ألم يأخذ الله عليهم الميثاق في كتابه ان لا يقولوا على الله الا الحق ، ولا يضيفوا اليه الا ما انزله على رسوله موسى في التوراة ولا يكتنّبوا عليه وانما احتج عليهم بميثاق الكتاب، ولم يحتج عليهم بالعقل، ليعلمنا ما لانعلمه مما هو في كتبهم من ادلة تؤكده ما في العقل .

وقوله تعالى : « ودرسوا ما فيه » المعنى قرؤوا ما فيه ودرسوه فضيعوه ، وتركوا العمل به . والدرس تكرر الشيء يقال درس الكتاب اذا كرر قراءته ، ودرس المنزل : اذا تكرر عليه مرور الأمطار والرياح حتى يمحى اثره .

وقوله تعالى « والدار الآخرة خير للذين يتقون » أي ما اعده الله تعالى لأوليائه في دار الآخرة من النعيم والثواب وذخره للعاملين بطاعته الحافظين لحدوده « خير للذين يتقون » يعني يجتنّبون معاصي الله ويحذرون عقابه .

وقوله : « أفلا تعقلون » فمن قرأ بالياء معناه أفلا تعقل هذه الطائفة التي تقدم ذكرها وهم الذين يأخذون عرض هذا الأدنى على أحكامهم ويقولون سيغفر لنا . ومن قرأ بالتاء قال : معناه قل لهم : أفلا تعقلون ان الامر على ما اخبر الله به وحكي ان طياً تقول في جمع ميثاق : ميثاق ، وفي جمع ميزان : ميازين ، وحكي عن غيرهم من اهل الحجاز أيضاً ذلك وانشد بعض الطائيين :

حمى لايجل الدهر الا باذننا ولانسلا الاقوام عقد الميثاق (١)

(١) قائله عياض بن درة الطائي . اللسان (وثق)

قوله تعالى:

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ
أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٦٩) آية.

قرأ أبو بكر « يمسكون » بتسكين الميم ، الباقون بفتحها وتشديد السين . من خفف السين فلقوله تعالى « فامسك بمعروف » (١) وقوله « إمسك عليك زوجك » (٢) وقوله « فكلوا مما أمسكن » (٣) . ومن شدد أراد التكثير ، وهو اولى لقوله تعالى « وتؤمنون بالكتاب كله » (٤) اي لا يؤمنون ببعضه وتكفرون ببعضه بل يؤمنون بجميعة . ويقوي التشديد ماروي عن أبي أنه قرأ (مسكوا بالكتاب » ومعنى « يمسكون » اي يأخذون بما فيه من حلاله وحرامه .

أخبر الله تعالى ان الذين يعملون بما في الكتاب ويقىمون الصلاة مع دخولها في التمسك بالكتاب لجلالة موقعها وشدة تأكدها أنه لا يضيع جزاء عملهم ، ويشيهم بما يستحقونه ، لأنني لا اضيع لاحد - اصلح عمله فعمل بطاعتي - أجر عمله ، وهو قول ابن زيد ومجاهد ، وجميع المفسرين . والتقدير إنما لانضيع أجر المصلحين منهم لان من كان غير مؤمن واصلح فأجره ساقط ، لأنه يوقعه على خلاف الوجه الذي يستحق به الثواب . ويمسكون بالكتاب ويمسكون ويتمسكون ويتمسكون بمعنى واحد أي يعتمون به ويعملون بما فيه . وخبر (الذين) قوله « إنما لانضيع اجر المصلحين » فاستغنى بذكر العلة عن ذكر المعلول .

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٢٩ (٢) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٣٧ .

(٣) سورة ٥ المائدة آية ٥

(٤) سورة ٣ آل عمران آية ١١٩

قوله تعالى :

وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ
خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٠) آية

هذا خطاب لنبينا محمد ﷺ يقول الله له : اذكر يا محمد الوقت الذي نتقا فيه الجبل اي رفعناه فوقهم حتى صار كأنه ظلة . وقيل : إنه رفع الجبل على عسكرهم فرسخاً في فرسخ .

وامرأة مناتق وناتق كثيرة الولد . وقال ابن الاعرابي الناتق الرافع ، والناثق الفاتق ، والناثق الباسط ، وقال العجاج :

ينتق انتقاق الشليل نتقا (١)

يعني يرفعه عن ظهره . وقال الآخر :

ونتقوا أحلامنا الاثاقلا (٢)

وقال المابغة :

لم يجرموا حسن الغذاء وامهم رحقت عليك بناتق مذكار (٣)

ويروى طفحت عليك بناتق . ويقال : نتق السير اذا حر كه ، ويقال : ماينتق برجله ولا يركض ، والنتق نتق الدابة صاحبها حين تعدوبه وتتبعه حتى تربو فذلك النتق . وقال بعضهم : معنى « نتقنا الجبل فوقهم » رفعناه بنتقه نتقاً . قال ابو عبيدة : سمعت من يقول : أخذ الجراب فنتق ما فيه إذا نثر ما فيه والاصل نتقت كل شيء وقوله عز وجل « كأنه ظلة » يعني به تماماً من الظلال . وقوله « وظنوا أنه واقع بهم » قال الحسن وعناه علموا . وقال الجبائي والرماني : هو الظن بعينه ، لأنه قوي في

(١) ديوانه ٤٠ وتفسير الطبري الطبعة الثانية ١٠٩/٩

(٢) (٣٠٢) اللسان (نتق) . وتفسير الطبري الطبعة الثانية ١١٠/٩

نفوسهم ذلك .

وقوله « خذوا ما آتيناكم بقوة » أي قلنا لهم : خذوا ما آتيناكم بجهد يعني ما ألزمناكم من احكام كتابنا وفرائضه فاقبلوه باجتهاد منكم في اوانه من غير تقصير ولا توان . وقال الجبائي : معناه خذوه بالقدرة التي آتاكم الله وأقدركم بها لأنهم لو لم يكونوا قادرين لما كلفهم الله ذلك ، وذلك يفسد مذهب من قال القدرة مع الفعل .

وقوله « واذكروا ما فيه » معناه ما في كتابه من العهود والمواثيق التي أخذناها عليكم ، بالعمل بما فيه لكي تتقوا ربكم فتخافوا عقابه بترككم العمل به إذا ذكرتم ما أخذ عليكم فيه من مواثيق .

وكان سبب رفع الجبل عليهم ان موسى عليه السلام لما اتاهم بالتوراة ووقفوا على ما فيها من الاحكام والحدود والتشديد في العبادة ابوا أن يقبلوا ذلك وان يتمسكوا به وان يعملوا بما فيه . وقالوا: إن ذلك يغلظ علينا، فرفع الله الجبل كالظلة عليهم، وعرفهم موسى انهم إن لم يقبلوا التوراة ولم يعملوا بما فيها وقع عليهم فأخذوا بالتوراة وقبلوا ما فيها وصرف الله نزول الجبل عليهم . قال ابن عباس فلذلك صارت اليهود تسجد على قرنها الأيسر ، لأنهم سجدوا كذلك ينظرون الى الجبل وكأنها سجدة نصبها الله . وإنما اتخذت النصارى المشرق قبلة ، لأن مريم عليها السلام اتخذت مكاناً شرقياً حين حملت بعميسى . وقال مجاهد : معناه إن أخذتموه بجد وحسن نية وإلا لقي الجبل عليكم . وقال ابو مسلم إن رفع الجبل كان ليظلم من الغمام ، وذلك خلاف اقوال المفسرين وما يقتضيه سياق الكلام .

قوله تعالى :

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ
عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ

إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧١) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٢) آية

قرأ ابن كثير وأهل الكوفة « ذريتهم » على التوحيد . الباؤون ذرياتهم على الجمع . وقرأ أبو عمرو « وان يقولوا ، او يقولوا » بالياء فيهما . الباؤون بالياء . (الذرية) قد يكون جمعاً نحو قوله تعالى « وكنا ذرية من بعدهم » وقوله تعالى « ذرية من حملنا مع نوح » (١) وقد يكون واحداً كقوله : « هب لي من لدنك ذرية طيبة ٠٠٠ فنارته الملائكة ٠٠٠ أن الله يبشرك بيحيى » (٢) فهو مثل قوله : « هب لي من لدنك ولياً يرثني » (٣) فقال الله : « يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى » (٤) .

فمن أفرد جعله اسماً واستغنى عن جمعه بوقوعه على الجمع . ومن جمع قال : لأنه إن كان واقعاً على الواحد فلا شك في جواز جمعه وإن كان جمعاً فجمعه أيضاً حسن ، لأنه قد وردت الجموع المكسرة وقد جمعت نحو الطرقات وصواحبات يوسف .

وحجة من أفرد قال : لا يقع على الواحد والجمع . فأما وزن (ذرية) فإنه يجوز أن تكون (فعلولة) من الذر ، فابدلت من الراء التي هي لام الفعل الأخيرة ياء كما أبدلت من دهرية ، يدل ذلك على البدل فيه قولهم : دهرورة ، ويحتمل أن تكون فعلية منه فأبدلت من الراء الياء ، كما تبدل من هذه الحروف في التضعيف وإن وقع فيها الفصل . ويحتمل أن تكون (فعلية) نسبة إلى الذر وأبدلت الفتحة منها ضمة كما أبدلوا في الإضافة إلى الدهر دهرري وإلى سهل سهلي . ويجوز أن تكون (فعلية) من ذرأ الله الخلق ، أجمعوا على تخفيفها كما أجمعوا على تخفيف البرية . ويجوز أن

(٢) سورة آل عمران آية ٣٨-٣٩

(١) سورة الإسراء آية ٣

(٤) سورة مريم آية ٦

(٣) سورة مريم آية ٤

تكون من قوله « تذروه الرياح » (١) ابدلت من الواو الياء لوقوع ياء قبلها .
وحجة أبي عمرو في قراءته بالياء ان ما تقدم ذكره من الغيبة وهو قوله عز وجل
« واذأخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم » كراهية
ان يقولوا أولئلا يقول ، ويؤكد ذلك ما جاء بعد من الاخبار عن الغيبة وهو قوله:
« قالوا بلى » .

وحجة من قرأ بالياء انه قد جرى في الكلام خطاب وهو قوله « ألسن بر بكم
قالوا بلى شهدنا » وكلا الوجهين حسن لأن الغيب هم المخاطبون في المعنى .
وهذا خطاب للنبي ﷺ قال الله تعالى له : واذكر أيضاً الوقت الذي اخذ الله
فيه من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بر بكم ؟ .
واختلفوا في معنى هذا الأخذ فيه وهذا الاشهاد :

فقال البلخي والرماني اراد بذلك البالغين من بني آدم واخرجه اياهم ذرية
قرناً بعد قرن وعصراً بعد عصر واشهادهم اياهم على انفسهم تبليغه اياهم وإكمالهم
عقولهم ، وما نصب فيهما من الأدلة الدالة بأنهم مصنوعون وان المصنوع لا يبدله من صانع ،
وبما اشهدهم مما يحدث فيهم من الزيادة والنقصان والآلام والأمراض الدال بجميعة
ذلك على ان لهم خالقاً رازقاً تجب معرفته والقيام بشكره ، وما اخطر بقلوبهم من
تأكيد ذلك والحث على الفكر فيه ، ثم إرساله الرسل وإنزاله الكتب ، لئلا يقولوا
إذا صاروا الى العذاب : إنا كنا عن هذا غافلين ، لم ينبه علمنا ولم تقم لنا حجة عليه
ولم تكمل عقولنا فنفكر فيه ، او يقول قوم منهم : إنما أشرك آبائنا حين بلغوا
وعقلوا فأما نحن فكنا أطفالاً لا نعقل ولا نصلح للفكر والنظر والتدبير .

وقال الجبائي : أخذه ذرياتهم من ظهورهم انه خلقهم نطفة من ظهور الآباء ، ثم
خلقهم في ارحام الامهات ، ثم نقلهم من خلقة الى خلقة ، وصورة الى صورة ، ثم صاروا
حيواناً بأن احياهم الله في الأرحام ، واتم خلقهم ، ثم اخرجهم من الارحام بالولادة

وقوله تعالى : « واشهدهم على أنفسهم » يعني عند البلوغ وكمال العقل وعندما عرفوا ربهم فقال لهم على لسان بعض انبيائه « الست بربكم » ؟ فقالوا : بلى شهدنا بذلك واقربنا به لأنهم كانوا بالله عارفين انه ربهم .

وقوله تعالى « ان تقولوا إنا كنا عن هذا غافلين » دعناه لئلا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين فأراد بذلك اني انا قررتكم بهذا لتواظبوا على طاعتي وتشكروا نعمتي ولا تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين .

وقوله تعالى « اوتقولوا إنما اشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم » فنشأنا على شركهم فتحتمجوا يوم القيامة بذلك ، فبين اني قد قطعت بذلك حجتكم هذه بما قررتكم به من معرفتي واشهدتكم على انفسكم باقراركم وبمعرفة فتكم إياي . وقوله « اقتلكنما بما فعل المبطلون » من آباؤنا . وهذا يدل على انها مخصوصة في قوم من بني آدم؛ انها ليست في جميعهم ، لأن جميع بني آدم لم يؤخذوا من ظهور بني آدم لان ولد آدم لصلبه لا يجوز ان يقال : إنهم اخذوا من ظهور بني آدم فقد خرج ولد آدم لصلبه من ذلك وخرج ايضاً اولاد المؤمنين من ولد آدم الذين لم يكن آباؤهم مشركين ، لانه بين ان هؤلاء الذين اقروا بمعرفة الله واخذوا ميثاقهم بذلك كان قد سلف لهم في الشرك آباء . فصح بذلك انهم قوم مخصوصون من اولاد آدم .

فأما ما روي ان الله تعالى اخرج ذرية آدم من ظهره واشهدهم على انفسهم وهم كالذر ، فان ذلك غير جائز لأن الاطفال فضلا عن هو كالذر لا حجة عليهم ، ولا يحسن خطابهم بما يتعلق بالتكليف ، ثم ان الآية تدل على خلاف ما قالوه . لأن الله تعالى قال « وإذ اخذ ربك من بني آدم » وقال « من ظهورهم » ولم يقل من ظهره . وقال « ذريتهم » ولم يقل ذريته ، ثم قال « اوتقولوا إنما اشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم اقتلكنما بما فعل المبطلون » فأخبر ان هذه الذرية قد كان قبلهم آباء مبطلون وكانوا هم بعدهم .

على ان راوي هذا الخبر سليمان بن بشار الجهني ، وقيل مسلم بن بشار عن عمر بن الخطاب وقال يحيى بن معين : سليمان هذا لا يدري اين هو . وايضاً فتعليل الآية يفسد ما قالوه . لأنه قال : فعلت هذا لئلا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين والعقلاء اليوم في دار الدنيا عن ذلك غافلون .

فان قيل نسوا ذلك لطول العهد اولاًن الزمان كان قصيراً كما يعلم الواحد منا اشياء كثيرة ضرورة ثم ينساها كما ينسى ما فعله في امسه وما مضى من عمره . قلنا : إنما يجوز ان ينسى ما لا يتكرر العلم به ولا يشتد الاهتمام به ، فأما الامور العظيمة الخارقة للعادة ، فلا يجوز ان ينساها العاقل . الا ترى ان الواحد منا لو دخل بلاد الزنج وراى الأفيلة ولو يوماً واحداً من الدهر لايجوز ان ينسى ذلك حتى لا يذكره اصلا مع شدة اجتهاده واستذكاره ؟ ! ولو جاز ان ينساها واحد لما حاز ان ينساها الخلق بأجمعهم . ولو جوزنا ذلك للزمنا مذهب التناسخ وان الله كان قد كلف الخلق فيما مضى واعادهم ، إما لينعمهم اوليعاقبهم . ونسوا ذلك ، وذلك يؤدي الى التجاهل .

على ان أهل الآخرة يذكرون ما كان منهم من احوال الدنيا ولم يجب ان ينسوا ذلك لطول العهد ، ولا المدة التي مرت عليهم وهم اموات وكذلك اصحاب الكهف لم ينسوا ما كانوا فيه قبل نومهم لما اتبهبوا مع طول المدة في حال نومهم ، فعلمنا ان هؤلاء العقلاء لما كانوا شاهدوا ذلك وحضروه وهم عقلاء لما جاز ان يذهب عنهم معرفة ذلك لطول العهد ، ولو جب أن يكونوا كذلك عارفين .

وقال قوم وهو المروري في أخبارنا إنه لا يمنع ان يكون ذلك مختصاً بقوم خلقهم الله وأشهدهم على أنفسهم بعد ان أكمل عقولهم واجابوه بـ (بلى) ، وهم اليوم يذكرونه ولا يغفلون عنه ، ولا يكون ذلك عاماً في جميع العقلاء وهذا وجه ايضاً قريب يحتمله الكلام .

وحكى أبو الهذيل في كتابه الحججة : أن الحسن البصري واصحابه كانوا

يذهبون الى ان نعيم الاطفال في الجنة ثواب عن إيمانهم في الذر .
 وحكى الرماني عن كعب الاحبار : انه كان يخبر خبر السذر غير انه يقول
 ليس تأويل الآية على ذلك . وإنما فعل ليحجروا على الاعراف الكريمة في شكر النعمة
 والاقرار لله بالوحدانية ، كما روي انهم ولدوا على الفطرة .
 ويدل على فسار قولهم قوله تعالى « والله اخرجكم من بطون امهاتكم لاتعلمون
 شيئاً » (١) فهم لو كانوا اخرجوا من ظهر آدم على صورة الذر كانوا ابعد من ان
 يعلموا او يعقلوا ومتى قالوا أكمل الله عقولهم فقد مضى الكلام عليهم .
 وذكر الأزهري وروي ذلك عن بعض من تقدم ان قوله : « وإذ اخذ ربك
 من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على انفسهم ألسنت بر بكم قالوا بلى » تمام
 الكلام . وقوله « شهدنا ان تقولوا يوم القيامة » حكاية عن قول الملائكة انهم يقولون
 شهدنا لثلاثا تقولوا .

وهذا خلاف الظاهر وخلاف ما عليه جميع المفسرين لأن الكل قالوا (شهدنا)
 من قول من قال (بلى) وان اختلفوا في كيفية الشهادة على ان الملائكة لم يجر
 لها ذكر ، فكيف يكون ذلك إخباراً عنهم .

قوله تعالى :

وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٣) آية

إننا كما بينا لكم هذه الآيات كذلك نفضلها للعباد ونبينها لهم . وتفصيله
 الآيات هو تمييز بعضها من بعض ليتمكنوا من الاستدلال بكل واحدة منها على
 جہتها وبين أنه فعل ذلك بهم ليتوبوا وليرجعوا عن معاصيه الى طاعته وعن الكفر
 الى الايمان به .



قوله تعالى :

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَأَنْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتَّبَعَهُ
الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٤) آية بلاخلاف .

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه ﷺ يأمره بأن يقرأ على بني اسرائيل وغيرهم من أمته خبر الذي آتاه الله حججه وبياناته فانسلخ منها فاتبعه الشيطان وكان من جملة الغاوين الخائبين الخاسرين . وقيل معناه الضالين الهالكين .

واختلفوا في المعنى بقوله « آتيناه آياتنا » : فقال ابن عباس ومجاهد : هو بلعام بن باعورا من بني اسرائيل . وقال : معنى « فانسلخ منها » ما نزع منه من العلم . وروي عن عبد الله بن عمر انها نزلت في أمية بن ابي الصلت . وقال مسروق وعبد الله : هي في رجل من بني اسرائيل يقال له بلعم بن باعورا . وقال قوم : هو رجل من الكنعانيين . وقال الحسن : هذا مثل ضربه الله للكافر آتاه الله آيات رينه « فانسلخ منها » يقول اعرض عنها وتركها « فاتبعه الشيطان » خذله الله وخلقى عنه وعن الشيطان ، وهو مثل قوله تعالى « كتب عليه انه من تولاه فانسه يضل » (١) اى كتب على الشيطان انه من تولى الشيطان فان الشيطان يضل . وقال الجبائى اراد به المرتد الذي كان الله آتاه العلم به وبآياته فكفر به وبآياته وبدينه من بعد ان كان به عارفاً فانسلخ من العلم بذلك ومن الايمان .

وقوله « فاتبعه الشيطان » معناه ان الشيطان اتبعه كفار الانس وغواتهم حتى اتبعوه على ما صار اليه من الكفر بالله وبآياته . وقيل اتبعه الشيطان بالتزيين والاعواء حتى تمسك بحبله وكان من الغاوين الخائبين من رحمة الله ، قال وهو رجل من المتقدمين يقال له : بلعام بن باعورا .

اتبعه الشيطان، واتبعد لغتان وبالتخفيف معناه قفاه، وبالتشديد حذاه حذوه وإذا اردت اقتدا به فبالتشديد لا غير . فأما ماروي أن الآية كانت النبوة فانه باطل ، فان الله تعالى لا يؤتي نبوته من يجوز عليه مثل ذلك ، وقد دل دليل العقل والسمع على ذلك قال الله تعالى « ولقد اخترناهم على علم على العالمين » (١) وقال « المصطفين الأخيار » (٢) فكيف يختار من ينسلخ عن النبوة .

وقيل : إن الآية كانت الاسم الاعظم وهذا أيضاً نظير الاول لايجوز ان يكون مراداً، والقول هو ما تقدم من اكثر المفسرين : ان المعني به بلعم بن باعورا ومن قال امية بن ابي الصلت قال كان اوتي علم الكتاب فلم يعمل به . والوجه الذي قاله الحسن يليق بمذهبنا دون الذي قاله الجبائي ، لان عندنا لايجوز ان يرتد المؤمن الذي عرف الله على وجه يستحق به الثواب .

والنبا الخبر عن الامر العظيم ومنه اشتقاق النبوة : نباه الله جعله نبياً وإنما آناه الله الايات باللفظ حتى تعلمها وفهم معانيها وقال ابو مسلم: الآية في كل كافر بين الله له الحق فلم يتمسك به . وقال ابو جعفر عليه السلام في الاصل بلعم ثم ضرب مثلاً لكل مؤثر هو اه على هدى الله تعالى من اهل القبلة .

قوله تعالى :

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ
هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ
يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ
لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٥) آية .

الهاء في (لرفعناه) كناية عن الذي تقدم ذكره ، وهو الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها ، فأخبره الله تعالى انه لو شاء لرفعه بتلك الايات .
واختلفوا في معنى هذه المشيئة فقال الجبائي : المعنى لو شئنا لرفعناه بايمانه .
ومعرفته قبل ان يكفر - لكن ابقيناه ليزداد الايمان ، فكفر . وقال البلخي هذا اخبار عن قدرته انه لو شاء لحال بينه وبين الكفر والارتداد ، وهو الذي نختاره لأننا قد بينا ان المؤمن لايجوز ان يرتد . وقال الزجاج : معناه لو شئنا ان نحول بينه وبين المعصية لفعلنا .

وقوله « ولكنّه أخلد الى الارض » معناه سكن الى الدنيا وركن اليها ولم يسم الى الغرض الأعلى . يقال أخلد فلان الى كذا وكذا وخذ ، وبالألف اكثر في كلام العرب ، والمعنى إنه سكن الى لذات الدنيا واتبع هواه أي لم يرفع بالايات لاتباع هواه . وقيل معنى أخلد قعد ويقال : فلا مخذ إذا أبطأ عنه الشيب ومخذ إذا لم تسقط اسنانه - هكذا ذكره الفراء - ومن الدواب الذي تبقى ثنياه حتى تخرج رباعيتها . وأخلد بالمكان اذا اقام به ، قال زهير :

لمن السديار غشيتها بالفدود كالوحي في حجر المسيل المخلد (١)
وقال مالك بن نويرة :

بأبناء حي من قبائل مالك وعمرو بن ربوع أقاءوا فأخلدوا (٢)
وقال ابو عبيدة هو اللزوم للشيء والتقاعس فيد وقال سعيد بن جبير معناه
كن الى الارض ، وقال مجاهد : معناه سكن اليها .

(١) ديوانه ٢٦٨ ، واللسان (خلد) . و (الفدود) الفلاة التي لاشيء بها .
وقيل : هي الارض الغليظة ذات الحصى ، وقيل غير ذلك و (الوحي) الكتابة
(حجر المسيل) هو حجر صلب يكتبون فيه .
(٢) الاصمعيات : ٣٢٣ .

وقوله : « فهمله كمثل الكلب » ضرب الله مثل المبارك لا آياته والعاقل عنها بأخس مثل في أخس احواله ، فشبهه بالكلب ، لأن كل شيء يلهث فانهما يلهث في حال الاعياء والكلال إلا الكلب فانه يلهث في حال الراحة والتعب ، وحال الصحة وحال المرض . وحال الري وحال العطش . وجميع الاحوال ، فقال تعالى إن وعظته فهو ضال، وإن لم تعظه فهو ضال كالكلب إن طردته وزجرته فانه يلهث ، وإن تركته يلهث ، وهو مثل قوله « وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أذعوتهم وهم أم انتم صامتون » (١) .

وقوله تعالى « ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا » يعني هذا المثل الذي ضربه بالكلب هو مثل الذين كذبوا بآيات الله . وقال الجبائي إنما شبهه بالكلب لأنه لما كفر بعد إيمانه صار يعادي المؤمنين ويؤذيهم ، كما أن الكلب يؤذي الناس طردته أو لم تطرده فانه لا يسلم من اذاه .

وقوله تعالى « فاقصص القصص » معناه فاقصص على الناس ما نبينه لك لكي يتذكروا ويتفكروا فيرجعوا إلى طاعة الله وينزجروا عن معاصيه . وقال ابن جريج مثله بالكلب ، لأن الكلب لافؤار له فيقطعه الفؤار حملت عليه وتركت ، شبه من ترك الآيات كأنه لافؤار له . واللهث التنفس الشديد من شدة الاعياء ، وفي الكلب طباع يقال : لهث يلهث لهثاً فهو لاهث ولهثان .

قوله تعالى :

سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا
يَظْلِمُونَ (١٧٦) آية بلاخلاف .

التقدير ساء مثلاً مثل القوم ، وحذف لدلالة الكلام عليه و « أنفسهم » نصب

ب (يظلمون) وصف الله تعالى هذا المثل الذي ضربه وذكّره بأنه ساء مثلاً اي
بئس مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، وانهم بذلك لا يظلمون إلا انفسهم دون
غيرهم ، لأن عقاب ما يفعلونه من المعاصي يحل بهم فان الله تعالى لا يضره كفرهم
ولا معصيتهم كما لا ينتفع طاعتهم وإيمانهم .

قوله تعالى

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ

الْخَاسِرُونَ (١٧٧) آية .

« فهو المهتدي » كتب - ههنا - بالياء ليس في القرآن غيره بالياء ، واثبت
الياء في اللفظ ههنا جميع القراء . وقال الجبائي : معنى الآية من يهديه الله الى
نيل الثواب . كما يهدي المؤمن إلى ذلك والى دخول الجنة فهو المهتدي للايمان
والخير ، لأن المهتدي هو المؤمن فقد صار مهتدياً الى الايمان والى نيل الثواب .
ومن يضلّه الله عن الجنة وعن نيل ثوابها عقوبة على كفره او فسقه ، « فأولئك هم
الخاسرون » لأنهم خسروا الجنة ونعيمها وخسروا انفسهم والاتفاح بها . وقال
البلخي المهتدي هو الذي هداه الله فقبل الهداية واجاب اليها ، والذي أضله الله هو
الضال الذي اختار الضلالة فأضله الله بمعنى خلى بينه وبين ما اختاره وترك منعه
بالخير على انه إذا ضل عن امر الله عند امتحانه وتكليفه جاز أن يقال : ان الله
أضله . وقيل : معنى « من يهدي الله » من يحكم الله بهدايته « فهو المهتدي » ومن
حكّم بضالته فهو الخائب الخاسر .

قوله تعالى :

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ

لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ
بِهَا أُولَئِكَ كَمَا لَأَنْعَامٍ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ
(١٧٨) آية بلاخلاف .

معنى « ذرأنا » خلقنا يقال: ذرأهم يذرأهم واللام في (لجهنم) لام العاقبة .
والمعنى انه لما كانوا يصيرون اليها بسوء اختيارهم وقبح أعمالهم جاز أن يقال : إنه
ذرأهم لها والذي يدل على ان ذلك جزاء على أعمالهم قوله « لهم قلوب لا يفقهون بها »
وأخبر عن ضلالهم الذي يصيرون به الى النار ، وهو مثل قوله تعالى « إنما نملي لهم
للزادوا إثماً » (١) ومثل قوله « ربنا إنك آتيت فرعون وملائه زينة واموالا في
الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك » (٢) ومثل قوله عز وجل « فالتقطه آل فرعون
ليكون لهم عدواً وحزناً » (٣) وإنما التقطوه ليكون قررة عين كما قالت امرأة
فرعون عند التقاطه « قررة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا او نتخذة ولدأء » (٤)
ومثله قول القائل : اعددت هذه الخشبة ليميل الحائط فاستدم بها وهو لا يريد عميل
الحائط . ومثله قول الشاعر :

وللموت تغذو الوالدات سخالها كما لخراب الدهر تبني المساكين (٥)
وقال الآخر :

اموالنا لذوي الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدهر نبنيها (٦)
وقال الآخر :

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٧٨ (٢) سورة ١٠ يونس آية ٨٨

(٣) سورة ٢٨ القصص آية ٨ (٤) سورة ٢٨ القصص آية ٩

(٥) قائله سابق البربري او (البريدي) المقدم القريني ٢٦٩ / ١

(٦) إنظر ٦٠ / ٣ من هذا الكتاب .

وام سماك فـ لا تجزعي فللموت ماتلد الوالدة (١)
وقال آخر :

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير الى ذهاب (٢)
وقوله « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها » معناه انهم لما لم يفقهوا بقلوبهم ولم يسمعوا بآذانهم ولم يبصروا بعيونهم ما كانوا يؤمرون به ويدعون اليه سموا بكما عمياً صماً . ولما لم ينتفعوا بجوارحهم اشبهوا العمي البكم الصم ، لان هؤلاء لا ينتفعون بجوارحهم فأشبهوهم في زوال الانتفاع بالجوارح وسموا باسمائهم ، ومثله قول مسكين الدارمي :

أعمى اذا ماجرتي خرجت حتى يوارى جارتى الخدر
ويصم عملاً كان بينهما سمعي وما يبي غيره وقر (٣)
فجعل نفسه اصماً واعمى لما لم ينظر ولم يسمع وقال آخر :
وكلام سيء قد وقرت أذني عنه وما يبي من صمم
وقال آخر :

صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا (٤)
وهذا كثير . ويجوز أن يكون قوله تعالى « ذرأنا لجهنم » معناه ميزنا .
ويقال : ذرأت الطعام والشعير أي ميزت ذلك من التبن والمدر ، فلما كان الله

(١ ، ٢) إنظر ٣ / ٦٠ من هذا الكتاب .

(٣) تفسير الطبري الطبعة الثانية ٩ / ١٣٢ . وروايته « الستر » بدل « الخدر »
« وما بالسمع من وقر » بدل « وما يبي غيره وقر » وقد مر البيتان في ١ / ٩٠ وفي
٢ / ١١٣ من هذا الكتاب .

(٤) قائله قنعب بن أم صاحب اللسان والتاج (أذن) وفي مجاز القران ١٧٧ / ١ هكذا:
إن يسمعون ربيّة طاروا بها فرحا وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

تعالى قد ميز اهل النار من اهل الجنة في الدنيا بالتسمية والحكم والشهادة جاز ان يقول ذرأناهم اي ميزناهم . ثم وصفهم بصفة تخالف اوصاف اهل الجنة يعرفون بها فقال « لهم قلوب لا يفقهون بها » إلى آخرها .

ويجوز ان يكون قوله « ذرأنا » بمعنى سنذرأ كما قال : « ونادى اصحاب الجنة اصحاب النار » (١) بمعنى سينادون ، فكأنه قال سيخلقهم خلقاً ثانياً للنار بأعمالهم التي تقدمت منهم في الدنيا إذ كانوا استحقوا النار بتلك الاعمال . ولا يجوز أن يكون معنى الآية إن الله خلقهم لجهنم وارادهم ان يفعلوا المعاصي ، فيدخلوا بها النار ، لأن الله تعالى لا يريد القبيح ، لأن إرادة القبيح قبيحة ، ولأن مريد القبيح منقوص عند العقلاء تعالى الله عن صفة النقص ، ولأنه قال « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » (٢) فيبين انه خلق الخلق للعبادة والطاعة وقال « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع » (٣) وقال « ولقد صرفناه بينهم ليعبدوا » (٤) وقال « ولقد أرسلنا رسلاً بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » (٥) وقال « إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً لتؤمنوا بالله ورسوله » (٦) ونظائر ذلك أكثر من ان تحصى ، فكيف يقول بعد ذلك « ولقد ذرأنا لجهنم » وهل هذا إلا تناقض تنزه كلام الله عنه .

وقوله « اولئك كالانعام » يعني هؤلاء الذين لا يتدبرون بآيات الله ولا يستدلون بها على وحدانيته وصدق رسله اشباه الانعام والبهائم التي لا تفقه ولا تعلم ثم قال « بل هم اضل » يعني من البهائم ، لأن في البهائم ما إذا زجرت انزجرت وإذا أرشدتها الى طريق اهتدت . وهؤلاء لعنهم وكفرهم لا يهتدون الى شيء من الخيرات مع ما ركب الله فيهم من العقول التي تدلهم على الرشاد وتصرفهم عن الضلال

(١) سورة الأعراف آية ٤٣ (٢) سورة ٥١ الذاريات آية ٥٦

(٣) سورة ٤ النساء آية ٦٣ (٤) سورة ٢٥ الفرقان آية ٥٠

(٥) سورة ٥٧ الحديد آية ٢٥ (٦) سورة ٦٣ المؤمنون آية ٤٥

وليس ذلك في البهائم ، ومع ذلك تهتدي الى منافعها وتتحرز عن مضارها ، والكافر لا يفعل ذلك. ثم قال «أولئك هم الغافلون» يعني هؤلاء هم الغافلون عن آياتي وحججي والاستدلال بها والاعتبار بتدبرها على ما تدل عليه من توحيده ، لان البهائم النبي هي مسخرة مصروفة لاختيار لها .

قوله تعالى :

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي
أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧٩) آية اجماعاً .

قرأ حمزة « يلحدون » بفتح الحاء والياء - ههنا - وفي النحل وحم السجدة وافقه الكسائي وخلف في النحل ، والباقون بضم الياء . من قرأ بكسر الحاء ، فلقوله « ومن يرد فيه بالحار » (١) وألحد أكثر في الكلام قال الشاعر :

ليس الامام بالشحيح الماحد ولا يكار يسمع لأحد (٢)

والاحاد العدول عن الاستقامة والانحراف عنها ومنه اللحد الذي يحفر في جانب القبر خلاف الضريح الذي يحفر في وسطه فمعنى « يلحدون في آياتنا » يجورون عن الحق فيها . وروى ابو عبيدة عن الأحمر : لحدت جرت وملت وألحدت ما ريت . جادلت قال : وقال ابو عبيدة : لحدت له والحدت للميت بمعنى واحد .

قال ابن جريج اشفقوا المزي من العزيز واللات من الله . وكان ذلك إحداء . وقال ابن عباس : الحارهم تكذيبهم . وقال قتادة : هو شركهم . وقال قوم : هو تسميتهم الاصنام بآنها آلهة .

أخبر الله تعالى ان له الاسماء الحسنى نحو قوله تعالى « بسم الله الرحمن الرحيم »

(١) سورة ٢٢ الحج آية ٢٥

(٢) قائله حميد بن ثور . اللسان « لحد »

وغير ذلك من الاسماء التي تليق به، وهي الأسماء الراجعة إلى ذاته اوقمله نحو العالم العادل، والسميع البصير المحسن المجمل، وكل اسم لله فهو صفة مفيدة لأن اللقب لا يجوز عليه. وامر تعالى ان يدعو خلقه بها وان يتركوا اسماء اهل الجاهلية وتسميتهم اصنامهم آلهة ولاتاً وغير ذلك. وقال الجبائي: يحتمل أن يكون اراد تسميتهم المسيح بأنه ابن الله وعزيراً بأنه ابن الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وقال قوم: هذا يدل على أنه لا يجوز أن يسمى الله إلا بما سمي به نفسه.

وقوله «وذروا الذين يلحدون» فيه تهديد للكفار وأن الله تعالى سيعاقبهم على عدولهم عن الحق في تغيير أسمائه.

وقوله تعالى «سيجزون ما كانوا يعملون» معناه سيجزون جزاء ما كانوا يعملون من المعاصي بانواع العذاب. قال الرماني الاسم كلمة تدل على المعنى دلالة الاشارة، والفعل كلمة تدل على المعنى دلالة الافادة. والصفة كلمة مأخوذة للمذكور من اصل من الاصول لتجري عليه تابعة له.

قوله تعالى:

وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨٠) آية.

أخبر الله تعالى أن من جملة من خلقه جماعة يهدون بالحق، وعدائم بالحق هو دعاؤهم الناس الى توحيد الله والى دينه وتنبئهم إياهم على ذلك. وقال قوم معنى (يهدون) «وبه يعدلون» معناه إنهم يعملون بالعدل والانصاف فيما بينهم وبين الناس.

وهذا إخبار ان فيما خلق قوماً هذه صفتهم ولا يدل ذلك على ان في كل عصر يوجد قوم هذه صفتهم ولو لم يوجدوا إلا في وقت واحد كانت الفائدة حاصلة بالآية، فلا يمكن الاستدلال بها على ان اجماع اهل الاعصار حجة. على ان عندنا انه لا يخلوا وقت من الاوقات ممن يجب اتباعه وتثبت عصمته ويكون حجة الله على

خلقه فيمكن أن يكون المراد بالآية من ذكرناه . وقال ابو جعفر عليه السلام وقنادة وابن جريج : الآية في أمة محمد عليه السلام وهو مثل قوله تعالى « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » (١) فكما أنه لا يدل على وجود أئمة في كل وقت فكذلك ما قالوه .

قوله تعالى :

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨١) وَأَمْ لِي لَهُمْ إِنْ كَسِيتُ مَتِينًا (١٨٢) آيتان

المعنى إن الذين كذبوا بآيات الله التي تضمنها القرآن والمعجزات الدالة على صدق النبي عليه السلام وكفروا بها سنستدرجهم من حيث لا يعلمون استدراجاً لهم الى الهلكة حتى يقعوا فيها بغتة من حيث لا يعلمون ، كما قال تعالى « بل تأتيتهم بغتة فتبتهتهم فلا يستطيعون ردها » (٢) وقال : « فيأتيتهم بغتة وهم لا يشعرون » (٣) فيقولوا هل نحن منظرون ؟ ويجوز ان يكون من عذاب الآخرة .

فأما من قال من المجبرة : إن معنى الآية أن الله يستدرجهم الى الكفر والضلال فباطل ، لأن الله تعالى لا يفعل ذلك لانه قبيح ينافي الحكمة، ثم إن الآية بخلاف ذلك لأنه بين أن هؤلاء الذين يستدرجهم كفار بالله ورسوله وبآياته ، وانه سيستدرجهم في المستقبل لأن السين لا تدخل إلا على المستقبل فلا معنى لقوله « إن الذين كفروا سنستدرجهم » الى الكفر ، لأنهم كفار قبل ذلك ، ولا يجب في الكافر أن يبقى حتى يواقع كفراً آخر ، لأنه يجوز أن يميتة الله تعالى ، فبان بذلك أن المراد أنه سيستدرجهم الى العذاب والعقوبات من حيث لا يعلمون في مستقبل أمرهم بقوا أو لم يبقوا . على ان الاستدرج عقوبة من الله والله لا يعاقب أحداً على فعل نفسه كما لا يعاقبهم

(٢) سورة ٢١ الانبياء آية ٤٠

(١) سورة ٢١ الانبياء آية ٧٣

(٢) سورة ٢٦ الشعراء آية ٢٠٢

على طولهم اوقصرهم .

ويحتمل ان يكون معنى الآية إنا نعاقبهم على استدراجهم للناس وإغوائهم إياهم ونعاقبهم على كيدهم ، فجعل العقوبة على الاستدراج استدراجاً ، والعقوبة على الكيد كيداً ، كما قال « سخر الله منهم » (١) وقال « الله يستهزئ بهم » (٢) وقال « يخادعون الله وهو خادعهم » (٣) وقال « والله خير الماكرين » (٤) وما اشبه ذلك .

ويحتمل ان يكون المراد : إني سأفعل بهم ما يدرجون في الفسوق والضلال عنده ويكون ذلك إخبار عن بقاءهم على الكفر عند إملائه لهم ، فسمى ذلك استدراجاً لأنهم عند البقاء كفروا وازدادوا كفراً ومعصية . وان كان الله لم يرد منهم ذلك ولا بعثهم عليه ، كما قال « أولم نعمر كم ما يتذكر ويد من تذكر » (٥) كما يقول القائل : أبطر فلان فلاناً بانعامه عليه . ولقد ابطرته النعمة واكفرت السلامة ، وإن كان المنعم لا يريد ذلك بل اراد ان يشكره عليها .

ومعنى قوله « وأملئ لهم » أوخر هؤلاء الكفار في الدنيا وابقهم مع إصرارهم على الكفر ولأعاجلهم بالعقوبة على كفرهم ، لانهم لا يفوتوني ولا يعجزوني ، ولا يجدون مهرباً ولا ملجأ .

وقوله تعالى « إن كيدي متين » معناه إن عذابي وسماء كيداً لنزوله بهم من حيث لا يشعرون . وقيل : إنه اراد أن جزاء كيدهم وسماء كيداً للازدواج على ما بيننا نظائره . ومعنى « متين » شديد قوي قال الشاعر :

عدلن عدول اليأس والشيخ يبتلى

افانين من الهوب شد ممانتي (٦)

(١) سورة ٩ التوبة آية ٨٠

(٢) سورة ٢ البقرة آية ١٥

(٣) سورة ٤ النساء آية ١٤١

(٤) سورة ٣ آل عمران آية ٥٤

(٥) سورة ٣٥ فاطر آية ٤٧

(٦) تفسير الطبري ٢٨٨ / ١٣ . و الطبعة الثانية ١٣٦ / ٩ وفيه اختلاف

يعني شد او شديداً باقياً لا ينقطع . والمتن أصله اللحم الغليظ الذي عن جانب الصلب وهما متنان . والكيد والمكر واحد ، وهو الميل الى الشر في خفى ، كاد يكيد كيداً ومكيدة ، وفلان يكيد بنفسه .

وأصل الاستدراج اغترار المستدرج من حيث يرى أن المستدرج محسن اليه حتى يورطه مكرهاً . والاستدراج أن يأتيه من مأمنه من حيث لا يعلم .
(ألملي) بمعنى أُوخِر من الملتى - ثقيلة الباء - يقال مضى عليه ملي من الدهر وملاؤ من الدهر - بفتح الميم وضمها وكسرها - أي قطعة منه . ووجه الحكمة في اخذهم من حيث لا يعلمون أنه لو اعلمهم وقت ما يأخذهم وعرفهم ذلك لأمنوه قبل ذلك وكانوا مغريين بالقبيح قبله تعويلاً على التوبة فيما بعد وذلك لا يجوز عليه تعالى .
والاستدراج على ضربين :

احدهما - ان يكون الرجل يعادي غيره فيطلب له المكايدة والغتيل من وجه يغتريه به ويخدعه ويدس اليه من بوقعه في ورطة حتى يشفي صدره ولا يبالي كيف كان ذلك ، فهذا سفيه غير حكيم .

والآخر - أن يعلم فيه ويتأنى ويترك العجلة في عقوبته التي يستحقها على معاصيه كيداً ومكراً واستدراجاً . ألا ترى لو ان إنساناً عادى غيره فجعل يشتمه ويعيبه وذاك يعرض عنه ولا يكافيه مع قدرته على مكافاته جاز أن يسمى كيداً واستدراجاً ومكراً وحيلة ، ولجاز ان يقال : فلان متين الكيد شديد الاستدراج ، بعيد الغور محكم التدبير .

وقيل في معنى « سنستدرجهم » سناً أخذهم قليلاً قليلاً ولا نباغتهم ، يقال : امتنع فلان على فلان واتى عليه حتى استدرجه اي خدعه حتى حمله على ان درج اليه درجاً أي اخذ في الحركة نحوه كما يدرج الصبي اول ما يمشي . ويقال : صبي دارج : ويقال : درجوا قرناً بعد قرن اي فنيوا قليلاً قليلاً .

قوله تعالى :

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ
مُبِينٌ (١٨٣) أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدًا اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ
حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٤) آيتان

هذا خطاب من الله تعالى للكفار الذين كانوا ينسبون النبي ﷺ الى الجنون على وجه التوبيخ لهم والتفريع « أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة » اي وليس بالنبي ﷺ جنة وهي الجنون ، فانه لاياتي بمثل ماياتي به المجنون ، وهم يرون الاصحاء منقطعين دونه ويرون صحة تدبيره واستقامة أعماله وذلك ينافي أعمال المجانين .

وبين انه ليس به ﷺ إلا الخوف للعباد من عقاب الله ، لان الانذار هو الاعلام عن المخاوف، فبين لهم ما عليهم من أليم العذاب بمخالفته ثم قال « أولم ينظروا » ومعناه يفكروا « في ملكوت السماوات والارض » وعجيب صنعهما فينظروا فيهما نظر مستدل معتبر ، فيعرفون بما يرون من اقامة السموات والارض مع عظم أحسامهما وثقلهما على غير عمد وتسكينها من غير آلة فيستدلوا بذلك على انه خالقها ومالكها وأنه لا يشبهها ولا تشبهه .

وقوله « وما خلق الله من شيء » يعني وينظروا فيما خلق الله تعالى من اصناف خلقه فيستدلوا بذلك على انه تعالى خالق جميع الاجسام وأنه أولى بالالهيّة من الاجسام المحدثّة .

وقوله تعالى « وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم » معناه اولم يتفكروا

في ان عسى ان يكون قد اقترب اجلهم ، وهو اجل موتهم فيدعوهم ذلك إلى ان يحتاطوا لدينهم ولا نفسهم فيما يصرون اليه بعد الموت من امور الآخرة ويوزهدهم في الدنيا وفيما يطلبونه من فخرها وعزها وشرفها فيدعوهم ذلك الى النظر في الأمور التي أمرهم بالنظر فيها .

وقوله تعالى « فبأي حديث بعده يؤمنون » معناه بأي حديث بعد القرآن يؤمنون مع وضوح دلالة على أنه كلام الله إذ كان معجزاً لا يقدر أحد من البشر ان يأتي بمثله ، وسماه حديثاً لأنه محدث غير قديم . لأن إثباته حديثاً ينافي كونه قديماً .

وفي الآيات دلالة على وجوب النظر وفساد التقليد ، لان النظر المراد به الفكر دون نظر العين ، لان البهائم ايضاً تنظر بالعين ، وكذلك الاطفال والمجانين ، والفكر موقوف على العقلاء .

وقال الحسن وقتادة سبب نزول الآية ان النبي ﷺ وقف على الصفا يدعو قريشاً فخذاً فخذاً ، فيقول : يا بني فلان يا بني فلان يحذركم بأس الله وعقابه ، فقال قائلهم : إن صاحبكم طجنون بأن يصوت على الصباح : فأنزل الله الآية .
والملكوت هو الملك الاعظم للمالك الذي ليس بمملك .

قوله تعالى :

مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا هَادِي لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ
يَعْمَهُونَ (١٨٥) آية .

قرأ أهل العراق « ويذركم » بالياء ، واسكن الراء منه حمزة والكسائي وخلف الباؤون بالنون وضم الراء . من قرأ بالنون قال لأن الشرط من الله ، فكأنه قال « من يضل الله . . . فندركهم » . ومن قرأ بالياء رده الى اسم الله تعالى وتقديره الله يذركم .

ومن ضم الراء قطعه عن الأول ولم يجعله جواباً . ويجوز ان يكون أضمر المبتدأ وكان تقديره ونحن نذرهم ، فيكون في موضع الجزم . ويجوز أن يكون استأنف الفعل فيرفعه ومن جزمه فإنه عطفه على موضع الفاء وما بعدها من قوله « فلا هادي له » لان موضعه جزم ، فحمل « ونذرهم » على الموضع ، ومثله في الحمل على الموضع قوله تعالى « فأصدق وأكن » (١) لأنه لو لم يلحق الفاء لقلت لولا أخرتني أصدق ، لان معنى « لولا أخرتني » (٢) أخرتني أصدق . فحمل قوله تعالى « واكن » على الموضع .

ومعنى قوله « من يضل الله فلا هادي له » اي يمتحنه الله فيضل عند امتحانه وأمره إياه بالطاعة والخير والرشاد « فلا هادي له » أي لا يقدر أحد أن يأتيه بالهدى والبرهان بمثل الذي آتاه الله تعالى ، ولا بما يقارنه أو يزيد عليه « وينذرهم في طغيانهم » بمعنى يخلي بينهم وبين ذلك ، وترك اخراجه بالقسر والجبر ، ومنعه إياه لطفه الذي يؤتیه من آمن واهتدى وقيل الوعظ .

والطغيان الغلو في الكفر ، والعمه : التجير والتردد في الكفر . ويحتمل ان يكون المراد من يضل الله عن الجنة عقوبة على كفره فلا هادي له اليها وإن الله لا يحول بين الكافر بل يتركه مع اختياره لأن ما فعله من الزجر والوعيد كاف في ازاحة علة المكلف . وقيل معناه من حكم الله تعالى بضلاله وسماه ضالا بما فعله من الكفر والضلال فلا احد يقدر على إزالة هذا الاسم عنه ولا يوصف بالهداية ، وكل ذلك واضح بحمد الله تعالى .

قوله تعالى .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِيهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ

رَبِّي لَا يُجَلِّبُهَا لَوْ قَتَبَهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْتَلُونَكَ كَمَا تَنكَّ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عَلِمَهَا
عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٦) آية بلاخلاف .

« أيان » معناه متى ، وهي سؤال عن الزمان على وجه الظرف .

أخبر الله تعالى ان الكفار يسألون النبي ﷺ عن الساعة ، وهي القيامة
« أيان مرساها » أي وقت قيامها وثباتها . ومعنى « أيان » متى قال الراجز :

ايان تقضي حاجتي أيانا أما ترى لنججها إيانا (١)

و «مرساها» في موضع رفع بالابتداء ، يقال: رسي يرسوا إذا ثبت فهو راس
وجبال راسيات ثابتات ، وارساها الله أي ثبتها . وقيل معنى « مرساها » الوقت
الذي يموت فيه جميع الخلق ، ومعنى سؤالهم عنها أي متى وقوعها وكونها . فأمر
الله تعالى نبيه ﷺ ان يجيبهم ويقول لهم « علمها عند الله » لم يطلع عليها احداً
كما قال « إن الله عنده علم الساعة » (٢) وقوله تعالى « لا يجلبها لوقتها الا هو »
أي لا يظهرها في وقتها إلا الله .

وقوله تعالى « ثقلت في السموات والارض » قيل في معناه قولان :

احدهما - ثقل علمها على السماوات والارض ذهب اليه السدي وغيره .

الثاني - ثقل وقوعها على اهل السموات والارض - ذكره ابن جريج وغيره .

ثم اخبر الله تعالى نبيه ﷺ بكيفية وقوعها فقال « لا تأتاكم إلا بغتة » يعني فجأة .

وقوله « يسألونك كأنك حفي عنها » قيل في معناه ثلاثة اقوال :

احدها - ان معناه وتقديره حفي عنها يسألونك عن الساعة ووقتها كأنك عالم بها

(١) تفسير القرطبي ٣٣٥/٧ ومجاز القرآن ٢٣٤/١ واللسان (ابن)

(٢) سورة لقمان آية ٣٤ .

وذلك يفسد تأويل المجبرة الذين قالوا : معنى الآية إن الله يريد جميع ما ينال الناس من النفع والضرر وإن كان ظلماً وجوراً من أفعال عباده .
 وقوله عز وجل « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء »
 معناه إنني لو كنت أعلم الغيب لعلمت ما يربح من التجارات في المستقبل وما يخسر من ذلك فكنت اشتري ما أربح واتجنب ما أخسر فيه ، فتكثر بذلك الأموال والخيرات عندي ، وكنت أعده في زمان الخصب لزمان الجذب « وما مسني السوء »
 يعني الفقر إذا فعلت ذلك . وقيل : وما مسني تعذيب . وقيل : وما مسني جنون جواً لهم حين نسبوه إلى الجنون . وقال ابن جريج « لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من العمل الصالح قبل حضور الاجل ، وهو قول مجاهد وابن زيد . وقال البلخي : لو كنت أعلم الغيب لكنت قديماً ، والقديم لا يمسه السوء لان احداً لا يعلم الغيب الا الله .

وفي الآية دلالة على ان القدرة قبل الفعل ، لأن قوله « لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير » يفيد أنه كان قادراً لأنه لو لم تكن القدرة لإمعة الفعل لو علم الغيب لما أمكنه الاستكثار من الخير وذلك خلاف الآية .
 وقوله تعالى « إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » معناه لست الامخوفاً من العقاب محذراً من المعاصي ومبشراً بالجنة حاثاً عليها غير عالم بالغيب « لقوم يؤمنون » فيصدقون بما أقول ، وخصهم بذلك لانهم الذين ينتفعون بانذاره وبشارته دون من لا يصدق به كما قال « هدى للمتقين » .

قوله تعالى :

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّيْهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيئاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ

دَعُوا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتُمَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٨)
فَلَمَّا آتَيْتُمَا صَالِحًا جَعَلْنَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَيْتُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا
يُشْرِكُونَ (١٨٩) آيتان .

قرأ اهل المدينة وابو بكر وعكرمة والاعرج « شر كاً » بكسر الشين منوناً
الباقون بضم الشين على الجمع . وقرا ابن يعمر « فمرت » بتخفيف الراء وهوشاذ .
قال ابو علي الفارسي : من قرأ « شر كاً » بكسر الشين منوناً - حذف المضاف
كأنه اراد جعلاً له ذا شرك اي ذا نصيب او ذوي شرك ، ويكون كقول من جمع
فالقراءتان يؤلان الى معنى واحد . والضمير في قوله « له » يعود الى اسم الله كأنه
قال جعلاً لله شركاء .

وقال ابو الحسن : كان ينبغي لمن قرأ - بكسر الشين - أن يقول جـمـلا لغيره
شركا . وقول من قرأ « جعلاً له شركاء » يجوز ان يريد جعلاً لغيره فيه شركاء ،
فحذف المضاف ، فالضمير على هذا ايضاً في « له » راجع الى الله تعالى . وقال ابو علي
يجوز ان يكون الكلام على ظاهره ، ولا يقدر حذف المضاف في قوله تعالى « جعلاً له »
وانت تريد لغيره ولكن يقدر حذف المضاف الى شرك فيكون المعنى جعلاً له ذوي
شرك ، واذا جعلاً له ذوي شرك كان في المعنى مثل لغيره شركاً ، فلا يحتاج الى
تقدير جعلاً لغيره شركاً .

قال ابو علي : ويجوز ان يكون قوله تعالى « جعلاً له شركاء » جعل احدهما
له شركاء او ذوي شرك فحذف المضاف واقام المضاف اليه مقامه كما حذف من قوله
تعالى « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » والمعنى على رجل واحد
من احد رجلي القريتين . وحكى الازهري ان الشرك والشريك واحد ويكون
بمعنى النصيب .

قوله « هو الذي » كناية عن الله تعالى وإخبار عن الذي خلق البشر من نفس واحدة وهي آدم وخلق منها زوجها يعني حواء .
وقيل : انه خلقها من ضلعه وبين انه إنما خلقها ليسكن اليها آدم ويأنس بها .

وقوله « فلما تغشاها » معناه لما وطأها وجامعها . وقيل : تغشاها بدنوه بها لقضاء حاجة ، ففقد حاجته منها « حملت » ففي الكلام حذف « حملت حملاً خفيفاً » لأن الحمل اول ما يكون خفيفاً ، لانه الماء الذي يحصل في رحمها . والحمل - بفتح الحاء ما كان في الجوف وكذلك ما كان على نخلة او شجرة فهو مفتوح . - وبكسر الحاء - ما كان من الثقل على الظهر .

وقوله تعالى « فمرت به » معناه استمرت به وقامت وقعدت وقيل : شكت له وآلمها ثقلها . ومن خفف الراء اراد شكت ومارت فلم تدر هي حامل ام لا . وقال الحسن أغلاماً ام جارية .

وقوله تعالى « فلما اثقلت » اي صارت ذات ثقل كما يقال اثمر اي صار ذا ثمر ، وذلك قرب ولادتها . « دعوا الله ربهما » يعني آدم وحواء دعوا الله اي سألاه « لئن آتيتنا صالحاً » اي لو أعطينا ولداً صالحاً . قال الجبائي : صالحاً يعني سليماً من الآفات صحيح الحواس والآلات . وقال غيره : معنى صالحاً مطيعاً قاعلاً للخير « لنكونن من الشاكرين » اي نكونن معترفين بنعمك علينا نعمة بعد نعمة تسديها الينا .

وقوله عز وجل « فلما آتاها صالحاً » يعني فلما آتى الله آدم وحواء ولداً صالحاً جعل له شركاء ، واختلفوا في الكناية الى من ترجع في قوله « جعلاً » : فقال قوم هي راجعة الى الذكور والاناث من اولادهما او الى جنسي من اشرك من نسلهما ، وإن كانت الادلة تتعلق بهما . ويكون تقدير الكلام فلما آتى الله آدم وحواء الولد الصالح الذي تمنياه وطلباه جعل كفار اولادهما ذلك مضافاً الى غير

الله . ويقوي ذلك قوله تعالى « فتعالى الله عما يشركون » فلو كانت الكناية عن آدم وحواء لقال عما يشركان . وإنما اراد تعالى الله عما يشرك هذان النوعان او الجنسان وجمعه على المعنى . وقد ينتقل الفصيح من خطاب الى خطاب غيره . ومن كناية الى غيرها . قال الله تعالى « إنا ارسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً لتؤمنوا بالله ورسوله » (١) فانصرف من مخاطبة الرسول الى المرسل اليهم ثم قال « وتعزروه وتوقروه » (٢) يعني الرسول ثم قال « وتسبحوه » يعني الله تعالى ، قال الهذلي :

يالهدف نفسي كان جده خالد
وبياض وجهك للتراب الأعقر (٣)

ولم يقل وبياض وجهه . وقال كثير :

اسيء بنا او احسني لاملومة
لدنيا ولا مقلية إن تقلت (٤)

فخطبها ثم ترك الخطاب . وقال الاخر :

فدى لك ناقتي وجميع اهلي
ومالي إنه منه آتاني

ولم يقل منك اتاني . وليس لاحد ان يقول كيف يكني عن لم يجز له

ذكر ، وذلك ان لنا عنه جوابين :

احدهما - انه يجوز ذلك إذا دل الدليل عليه ، كما قال « حتى توارت

بالحجاب (٥) ولم يتقدم للشمس ذكر . وقال الشاعر :

لعمرك ما يغني الثراء عن الفنى
إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر (٦)

ولم يتقدم للنفس ذكر .

والجواب الثاني - انه تقدم ذكر ولد آدم في قوله « هو الذي خلقكم من نفس

واحدة » و اراد بذلك جميع ولد آدم ، وتقدم ايضاً في قوله « فلما آتاهاما صالحاً »

(١ ، ٢) سورة ٤٨ القمحة آية ٨ - ٩

(٣) مر هذا البيت في ١ : ٣٥ من هذا الكتاب .

(٤) اللسان (سوأ) (٥) سورة ٣٨ ص آية ٣٢

(٦) اللسان (حشرج)

لان معناه ولداً صالحاً ، ويريد بذلك الجنس . وإن كان لفظه واحداً ، وإذا تقدم مذكوران وعقبا بأمر لا يليق بأحدهما وجب ان يضاف الى الآخر ، والشرك لا يليق بآدم ، لأنه نبي نزهه الله عن ذلك ، وعن جميع القبائح ، ويلق بكفار ولده ونسله فوجب ان نرده اليهم .

وقال الزجاج وإبن الاخشاد : جعل من كل نفس زوجها كأنه قال : وجعل من النفس زوجها على طريق الجنس واضمر لتقدم الذكر .

وقال ابو مسلم محمد بن بحر الاصفهاني : الكناية في جميع ذلك غير متعلقة بآدم وحواء وجعل الهاء في « تغشاها » والكناية في « دعوا الله ربهما ، وآتاها ما صالحاً » راجعين الى من اشرك ولم يتعلق بآدم وحواء لإقوله : « خلقكم من نفس واحدة » والاشارة بذلك الى جميع الخلق . وكذلك قوله « وجعل منها زوجها » ثم خص بها بعضهم ، كما قال « هو الذي يسير كم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة » (١) فخاطب الجماعة ثم خص راكب البحر ، فكذلك اخبر الله تعالى عن جملة امر البشر بأنهم مخلوقون من نفس واحدة وزوجها وهما آدم وحواء ثم عاد الذكر الى الذي سأل الله تعالى ما سأل فلما اعطاه إياه ادعى له الشركاء في عطيته .

وقال قوم : يجوز ان يكون عنى بقوله « هو الذي خلقكم من نفس واحدة » المشركين خصوصاً ، إذ كان كل بني آدم مخلوقون من نفس واحدة كأنه قال : خلق كل احد من نفس واحدة وخلق من النفس الواحدة زوجها ، ومثله كثير نحو قوله عزوجل « فاجلدوهم ثمانين جلدة » (٢) والمعنى فاجلدوا كل واحد منهم . وقال قوم : ان الهاء في قوله : « جعل له شركاء » راجعة إلى الولد لإلى الله ويكون المعنى انهما طلبا من الله تعالى امثالاً للولد الصالح فاشركا بين الطلبتين ، كما يقول القائل : طلبت مني درهما فلما اعطيتك شر كته بآخر أي طلبت آخر مضافاً اليه ، فعلى هذا

يجوز أن تكون الكناية من اول الكلام إلى آخره راجعة إلى آدم وحواء .
فان قيل : فعلى هذا فأى تعلق لقوله « فتعالى الله عما يشركون » بذلك .
وكيف ينزه نفسه عن ان يطلب منه ولد آخر ؟ !

قلنا : لم ينزه نفسه عن ذلك وإنما نزهها عن الاشرار به ، وليس يمتنع ان
يقطع هذا الكلام عن حكم الاول ، لانه قال بعد ذلك « ايشركون ما لا يخلق شيئاً
وهم يخلقون » فنزه نفسه عن هذا الشرك دون ما تقدم .

فأما الخبر المدعى في هذا الباب ، فلا يلتفت اليه ، لأن الاخبار تبني على ادلة
العقول ، فاذا علمنا بدليل العقل ان الأنبياء لا يجوز عليهم المعاصي تأولنا كل خبر
يتضمن خلافه او ابطالناه ، كما تفعل ذلك بأخبار الجبر والتشبيه . على ان هذا الخبر
مطعون في سنده ، لأنه يرويه قتادة عن الحسن عن سمرة ، وهو مرسل ، لأن الحسن
لم يسمع من سمرة شيئاً - في قول البغداديين - ولأن الحسن قال بخلاف ذلك فيما
روى عنه عروة - في قوله عز وجل « فلما آتاها صالحاً جملاً له شركاء فيما آتاها »
قال هـ-م المشركون . ويعارض ذلك ما روي عن سعيد بن جبير وعكرمة والحسن
وغيرهم : من ان الشرك غير منسوب الى آدم وزوجته ، وأن المراد به غيرهما
على ان في الخبر اشركا إبليس الملعين فيما ولد لهما بأن سمياه عبد الحرث ، والاية
تقضي انهم اشركو الاصنام التي لا تخلق وهي تخلق ، والتي لا تستطيع ضرراً ولا نفعاً
وليس لابليس في الآيات ذكر ، ولو كان له ذكر لقال أنشركون من . وقال في
آخر القصة « ألهم ارجلهم مشون بها . . . » وكذا ، ولا يليق ذلك بابليس . ويقوي
ان الاية مصروفة عن آدم الى ولده انه قال « فلما تغشاها » ولو كان منسوقاً على
النفس الواحدة لقال فلما تغشها ، لان ذلك هو الأجود والأفصح وإن جاز خلافه .
وحكى البلخي عن قوم انهم قالوا : لو صح الخبر لم يكن في ذلك الا إشراكاً في
التسمية ، وليس ذلك بكفر ولا معصية كبيرة ، وذهب اليه كثير من المفسرين
واختاره الطبري .

قوله تعالى :

أَيْشِرْ كُونِ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ (١٩٠) وَلَا
يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩١) وَإِنْ
تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ
صَامِتُونَ (١٩٢) ثلاث آيات

قرأ نافع « لا يتبعوكم » وفي الشعراء « يتبعهم » بالتخفيف . الباقر بالتشديد
وهما لغتان ، وبالتشديد أكثر . قال ابو زيد تقول : رأيت القوم فأتبعتهم إتباعاً
إذا سبقوك فأسرعت نحوهم ومرروا علي فاتبعتهم اتباعاً إذا ذهبتم معهم ولم يسبقوك ،
قال : وتبعتمهم اتبعهم تبعاً مثل ذلك .

وفي الآية توبيخ من الله وتعنيف للمشركين ، وإن خرج مخرج الاستفهام ،
بأنهم يعبدون مع الله جماداً لا يخلق شيئاً من الاجسام ولا ما يستحق به العبادة ، وهم
مع ذلك مخلوقون محدثون ولهم خالق خلقهم . ونبيهم بذلك على انه لا ينبغي أن
يعبد إلا من يقدر على إنشاء الاجسام واختراعها وخلق اصول النعم التي يستحق
بها العبادة ، وان ذلك لا يقدر عليه إلا الله تعالى الذي ليس بجسم ، والقادر لنفسه ،
ثم بين أن هذه الاشياء التي يعبدونها ويتخذونها آلهة واشركوا بها مع الله تعالى
لا تقدر لمن عبدها واتخذها إلهاً على نفع ولا على ضرر ولا أن ينصروهم ، ولا ان
ينصروا انفسهم إن اراد بهم غيرهم سوءاً ، ومن هذه صورته فهو على غاية العجز ،
ولا يجوز أن يكون إلهاً . وإنما يجب ان يكون كذلك من يقدر على الضر والنفع
ونصرة اوليائه .

وقوله تعالى « وإن تدعوهم الى الهدى لا يتبعوكم » معناه إن الاصنام والأوثان

التي كانوا يعبدونها ويتخذونها آلهة إن دعوها إلى الهدى والرشد لم يستمعوا ذلك ،
ولا تمكنوا من اتباعهم ، لأنها جمادات لا تفقه ولا تعقل - في قول ابي وغيره - وقال
الحسن: إن ذلك راجع الى قوم من المشركين قد عموا بالكفر فهم لا يعلمون .

ثم قال « سواء عليكم ادعوتموهم ام انتم صامتون » يعني سواء عندها دعاؤها
والسكوت عنها لكونها جماداً لا تعقل وإنما قال « أم انتم صامتون » ولم يقل أم
صمتم ليكون في مقابلة « ادعوتموهم » فيفيد الماضي والحال لأن المقابلة دلت على معنى
الماضي ، واللفظ يدل على معنى الحال ، وعليه أكثر الكلام يقولون : سواء علي*
أقمت ام قعدت ، ولا يقولون أقمت أم انت قاعد ، قال الشاعر :

سواء إذا ما صلح الله امرهم علمينا اثر ما لهم ام اصارم (١)
وانشد الكسائي :

سواء عليك النقر ام بت ليلة بأهل القبا من نميرين عامر (٢)
وانشد بعضهم : (ام انت بائت)

قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَأَدْعُوهُمْ
فَلَيْسَ تَجِيبُواكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٣) آية.

إنما قال « إن الذين » وهو يريد الاصنام ، لأنها لما كانت عندهم معبودة تنفع
وتضر ، جازأن يكني عنها بما يكنى عن الحي ، كما قال في موضع آخر « بل فعله كبيرهم

(١) معاني القرآن ٤٠١/١ « الدثر » المال الكثير . و « اصارم » جمع

اصرام وهو الفريق القليل العدوي يقصد - هنا - الفريق من الابل . واصله اصاريم ،
وحذف الياء لضرورة الشعر .

(٢) معاني القرآن ٤٠١/١ . يريد النقر من منى .

هذا فاسألوهم» (١) ولم يقل فعله كبيرها فاسألوها ، وقال « والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين » (٢) لما أضاف السجود إليها جمعها بالواو والنون التي تختص بالعقلاء ومعنى « من دون الله » غير الله ، كأنه قال كل مدعو إليها غير الله « عباد أمثالكم » و« من » لا بداء الغاية في أن الدعاء دون دعاء الله إلى حيث انتهى إنما هو لعباد الله . ثم قال « عباد أمثالكم » فانما سماها كذلك لأن التعبد التذلل ، فلما كانت الاصنام تنصرف على مشيئة الله ، وهي غير ممتنعة عما يريد الله تعالى بها كانت بذلك في معنى العباد . ويقال عبدت الطرق إذا وطئته حتى تقرر وسهل سلوكه . ومنه قوله تعالى « وتلك نعمة تمنها علي ان عبدت بني اسرائيل » (٣) اي ذللتهم واستخدمتهم ضروباً من الخدم . وقال الجبائي وغيره : معنى « عباد » أي املاك لربهم كما انتم عبيد له ، فان كنتم صادقين في ادعائكم انها آلهة فادعوهم فليستجيبوا لدعائكم ، وهذه لام الأمر على معنى التهجين كما قال « ها توابر هانكم إن كنتم صادقين » (٤) فاذا لم يستجيبوا لركم ، لانها لا تسمع دعاءكم فاعلموا انها لا تنفع ولا تضر ولا تستحق العبادة .

فأما من قال الاصنام تعبد الله على الحقيقة كما يعبد العقلاء ، وان كنا لاننمقه ذلك فتند تجاهل ، لأن العبادة ضرب من الشكر ، والشكر هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم . والعبادة وان كانت شكراً فانه يقارنها خضوع وتذلل . وكل ذلك يستحيل من الجماد .

ويحتمل من حيث انهم توهموا انها تضر وتنفع فقبل لهم ليس يخرج هؤلاء بذلك عن حكم الله تعالى . وقال الحسن : معناه إنها مخلوقة امثالكم . والعبد المملوك من جنس ما يعقل ، لأن الثوب مملوك ، ولا يسمى عبداً .

وقيل الدعاء الأول في الآية تسميتهم الاصنام آلهة كأنه قال « إن الذين تدعون »

(١) سورة ٢١ الانبياء آية ٦٣ (٢) سورة ١٢ يوسف آية ٤

(٣) سورة ٢٦ الشعراء آية ٢٢ (٤) سورة ٢٧ النمل آية ٦٤

آلهة من دون الله فاطلبوا منهم المنافع وكشف المضار ، فاذا كان ذلك ميؤساً منها ، فعبادتها جهل وسخف . وقوله « إن كنتم صادقين » قال الحسن : معناه : في أنهم آلهة .

قوله تعالى .

أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ عَيْنٌ
يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ
كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ (١٩٤) آية

قرأ ابو جعفر « يبطشون » وبيطش - بظم الطاء - حيث وقع . الباقون بكسرها . وهما الغتان ، والكسر افصح واكثر . وقرأ « كيدوني » بياء في الحاليين الوقف والوصل الحلواني عن هشام ويعقوب وافقهما في الوصل أبو عمرو وواو ابو جعفر واسماعيل والدحواني عن هشام . الباقون بغير ياء في الحاليين . و« تنظرونني » بياء في الحاليين عن يعقوب .

قال ابو علي الفارسي : الفواصل وما أشبهها من الكلام التام تجري مجرى القوافي لاجتماعهما في أن الفاصلة آخر الآية ، كما ان القافية آخر البيت وقد الزموا الحذف في هذا الباب في القوافي كقوله :

فهل يمتنع ارتيادي البلاد من قدر الموت أن يأتين
والبياء التي هي لام الكلمة كذلك نحو قوله :

يلمس الأحلاس في منزله بيديه كاليهودي المصل (١)

أكد الله تعالى في هذه الآية الحججة على المشركين في انه لا ينبغي لهم أن يعبدوا هذه الاصنام ولا يتخذونها آلهة ، فقال « ألهم ارجل يمشون بها » . لأن لفظه وإن

(١) قائله ليبيد . اللسان « لمس » والأحلاس ملازمة المنزل وعدم التدخل

بشؤون الدولة . و« المصل » بمعنى الخاسر الذي ليس له شيء في الامر .

كان لفظ الاستفهام ، فالمراد به الانكار ، اي ليس لهم ارجل يمشون بها ولا لهم
أيد يبطشون بها ولا اعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها ، فعرفهم بذلك انهم
دون منزلتهم وأن الكفار مفضلون عليهم بما انعم الله عليهم من هذه الحواس التي
لم تؤت الاصنام . واذا كنتم مفضلين عليها وكنتم أقدر على الاشياء وأعلم ، فكيف
يجوز لكم ان تتخذوها مع ذلك آلهة لأنفسكم .

وقوله تعالى « قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون » معناه ادعوا هذه
الاوئان والاصنام التي تزعمون أنها آلهة وتشركونها في اموالكم فتجعلون لها حظاً
من الاموال والمواشي وتوجهون عبادتكم اليها اشر كما بالله لها . واسألوهم ان يضروني
وان يكيدوني معكم ، ولا تؤخروا ذلك إن قدروا عليه ، ومتى لم يتمكنوا من ذلك
فتبينوا انها لا تستحق العبادة ، لانها في غاية الضعف والعجز .

قوله تعالى :

إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ

(١٩٥) آية بلاخلاف .

روى ابن خنيس عن السوسي « ان ولي الله » بياء مشددة مفتوحة . الباكون
بثلاث ياءات الأولى ساكنة والثانية مكسورة والثالثة مفتوحة - على الاضافة -
ومن قرأ مشدداً حذف الوسطى وادغم الاولى في الثالثة . ولا يجوز إدغام الثانية في
الثالثة ، لأنها متحركة وقبلها ساكن لا يمكن الإدغام .

امر الله تعالى نبيه ﷺ ان يقول للمشركين « ان وليي الله الذي » يحفظني
وينصرني ويحوطنني ويدفع شر ككم عني هو الله الذي خلقني وإياكم جميعاً ويملكني
ويملككم الذي نزل القرآن ، وهو ينصر الصالحين الذين يطيعونه ويجتنبون معاصيه
تارة بالحجة واخرى بالدفع عنهم .

قوله تعالى :

وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصَرَكُمْ وَلَا
أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٦) آية .

هذا عطف على الآية الاولى ، فكأنه قال، قل وليي الله القادر على نصرتي عليكم
وعلى من اراد بي ضرراً. والذين تتخذونهم انتم آلهة لا يقدرون على ان ينصروكم ولا
أن يدفعوا عنكم ضرراً . ولا يقدرون ان ينصروا أنفسهم ايضاً لو ان إنساناً اراد
بهم سوءاً من كسر او غيره .

وإنما كرر هذا المعنى لأنه ذكره في الآية التي قبلها على وجه التقرير، وذكره
ههنا على وجه الفرق بين صفة من تجوز له العبادة ممن لا تجوز، كأنه قال : إن ناصري
الله ولا ناصر لكم ممن تعبدون .

وانما قال تدعون من دونه وهم يدعونهم معه ، لأن معنى من دونه من غيره ومع
ذلك فانه بمنزلة من افرد غيره بالعبادة في عظم الكفر والشرك .

قوله تعالى

وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ
وَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ (١٩٧) آية .

قال الفراء والزجاج: المعنى إن دعوتهم هؤلاء الذين تعبدونهم من الأصنام الى
صلاح ومنافع لا يسمعون دعاءكم ، وتراهم فاتحة اعينهم نحوكم على ما صورتموهم
عليه من الصور ، وهم مع ذلك لا يبصرونكم .

قال الجبائي : جعل الله انفتاح عيونهم في مقابلتهم نظراً منهم اليهم مجازاً، لان
النظر حقيقة تغلب الحدقة الصحيحة نحو المرئي طلباً لرؤيته وذلك لا يتأتى في الجماد.

ويقال في اللغة : تناظر الحائطان إذا تقابلا وكل شيء قابل غيره يقال : نظر اليه .
وقال الحسن : المعنى وإن تدع يا محمد المشر كين ، فلم يجعل الكناية عن الاوثان
وقال الرماني : الكناية عن الاوثان لأنهم جعلوها تضر وتنفع ، كما يكون
ذلك فيما يعقل .

وفي الآية دلالة على ان النظر غير الرؤية ، لانه تعالى أثبت النظر ونفى الرؤية
وقوله « وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون » وجه الخطاب الى النبي ﷺ ولو
كان امره بخطاب المشر كين بمعنى قل لهم لقال وترونهم . وقال السدي ومجاهد :
اراد به المشر كين ، فعلى هذا يكون قوله « وإن تدعوهم » خطاباً للنبي ﷺ انه
ن دعا المشر كين الى الهدى لا يسمعون بمعنى لا يقبلوا وهم يرونه ولا ينتفعون برويته .
قوله تعالى :

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٨) آية

امر الله تعالى نبيه أن يأخذ مع الناس بالعفو ، وهو التساهل فيما بينه وبينهم
وقبول اليسير منهم الذي سهله عليهم ويسر فعله لهم ، وان يترك الاستقصاء عليهم في
ذلك ، وهذا يكون في مطالبة الحقوق الواجبة لله تعالى وللناس وغيرها . وهو في معنى
الخبر عن النبي ﷺ « رحم الله سهل القضاء سهل الاقتضاء » . ولا ينافي ذلك ان
لصاحب الحق والديون وغيرها استيفاء الحق وملازمة صاحبه حتى يستوفيه ، لأن
ذلك مندوب إليه دون ان يكون واجباً . وقد يكون العفو في قبول العذر من المعتذر
وترك المؤاخذة بالاساءة .

وقوله « وامر بالعرف » يعني بالمعروف ، وهو كل ما حسن في العقل فعمله او
في الشرع ، ولم يكن منكراً ولا قبيحاً عند العقلاء .
وقوله عز وجل « وأعرض عن الجاهلين » امر بالاعراض عن الجاهل : السفیه
الذي إن كلمه سفه عليه وآذاه بكلامه . وأمره إذا أقام عليهم الحجة وبين بطلان

ماهم عليه من الكفر والمعاصي أن يعرض عنهم ولا يجاوزهم في مكروهه يسمعه ، صيانة لنفسه عنهم . وقال عطا العفو : الفضل . وقال مجاهد : العفو من اخلاق الناس ، وعفو أموالهم من غير تجسس عليهم . وقال : ماغفا لك من أموالهم ، وذلك قبل فرض الزكاة . وقال السدي : نسخ ذلك بآية الزكاة . وقال ابن زيد : امره بالاعراض عنهم ثم نسخ بقوله « واغلتظ عليهم » (١) .

وروي عن النبي ﷺ في قوله : « وامر بالعرف » أن جبرائيل قال له معناه تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك .

قوله تعالى :

وَإِذَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٩٩) آية .

النزع ادنى حرمة تقول : نزعته اذا حرته . والمعنى ان نالك يا محمد من الشيطان ادنى حرمة من معاندة وسوء عشرة « فاستعذ بالله » اي سل الله ان يعينك ، ويحفظك منه فانه سميع للمسموعات وعالم بالخفيات يسمع دعاء من يدعوه ويعلم دعاءه وما يستحقه بذلك من الله .

والنزع الفساد ايضاً يقال : نزع فلان بينما اي افسد ، ومنه قوله تعالى : « نزع الشيطان بيني وبين اخوتي » (٢) ونزع ينزع ونعز ينعز اذا افسد . وموضع ينزعك جزم بـ (إن) التي للجزاء الا انه لا يبين فيه الاعراب ، لأنه مبني مع نون التأكيد على الفتح واذا كانت مشددة لا بد من تحريك ما قبلها في الجزم لالتقاء الساكنين والنزع الازعاج بالاغواء واكثر ما يكون ذلك عند الغضب واصل النزع الازعاج بالحرمة نزعته انزعته نزعاً .

(١) سورة ٩ التوبة آية ٧٤ وسورة ٦٦ التحريم آية ٩

(٢) سورة ١٢ يوسف آية ١٠٠

قوله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠٠) آية بلاخلاف .

قرأ ابن كثير واهل البصرة والكسائي « طيف » بغير الف وبغير همز. الباقون بألف بعدها همزة . قال الحسن : الطيف في كلام العرب اكثر من طائف . وقال ابو زيد : : طاف الرجل يطوف طَوْفًا إذا اقبل وادبر واطاف يطوف طَوْفًا إذا جعل يستدبر القوم ويأتيهم من نواحيهم . وطاق الخيال طيفاً إذا ألم في المنام . وقال ابو عبيدة : طيف من الشيطان بأن يلهم به ، لما يقال منه : طفت اطف طيفاً . وقال قوم : الطائف ما أطاق بك من وسوسة الباطل . والطيف اللمس والمس . وقال ابو عمرو ابن العلاء : الطيف الوسوسة . وحكى الرماني : ان الطيف اصله طوف من الواو مثل سيد وميت . فخفف ، وانشدا ابو عبيدة للاعشى في الامام .

ونصبح عن غب السرى وكأنا ألم بها من طائف الجن اولق (١) وكان معنى الآية إذا مسهم من ينظر لهم نظرة من الشيطان. ويكون طائف مثل العاقبة والعافية ، مما جاء المصدر منه على فاعل وفاعلة ، فالطيف اكثر لان المصدر على هذا الوزن اكثر منه على وزن فاعل ، والطائف كالاخاطر . وقال الحسن معناه يطوف عليهم الشيطان بوساوسه ، فيقبل بعض وجهه من يعصي الله . وقوله « تذكروا » أي تذكروا ما عندهم من المخرج والتوبة « فإذا هم مبصرون » قد تابوا . وقال مجاهد: هم المؤمنون إذا مسهم طيف أي غضب تذكروا . وقال سعيد ابن جبير : هو الرجل يغضب الغضب فيذكر فيكظم غيظه . وقال مجاهد : هو الرجل يهيم بالذنب فيذكر الله تعالى فيتركه .

(١) ديوانه ١٤٧ و مجاز القرآن ٢٣٦/١ واللسان «طيف»

أخبر الله تعالى بأن الذين يتقون الله باجتناب معاصيه إذا وسوس اليهم الشيطان واغراهم بمعاصيه تذكروا، فعفر فوا ما عليهم من العقاب بذلك فيجتنبونه ويتركونه. وقال مجاهد وسعيد بن جبير: الطيف الغضب. وقال ابن عباس والسدي: هي الزلزلة التي إذا ارتكبتها تاب منها. و«إذا» الأولى بمنزلة الجزاء ولها جواب، والثانية بمعنى المفاجأة كقولك خرجت، فاذا زيد. وقال ابن عباس الطيف النزغ. وقال أبو عمرو بن العلاء: الوسوسة. وقال غيره هو اللهم.

قوله تعالى:

وَإِخْوَانِهِمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠١) آية.

قريء «يمدوهم» بضم الياء وكسر الميم عن نافع. الباقون بفتح الياء وضم الميم ومعنى الآية أن إخوان الشياطين من الكفار يمددهم الشياطين في الغي، ومعناه يزيدونهم في الغواية، والاضلال، ويزينون لهم ما هم فيه.

ثم أخبر أن هؤلاء مع ذلك «لا يقصرون» كما يقصر الذين اتقوا إذا مسهم طيف من الشيطان. وهو قول ابن عباس والسدي وابن جريج وأبي علي، وأكثر المفسرين. وقال مجاهد: هم إخوان المشركين من الشياطين. وقال قتادة قوله «ثم لا يقصرون» يعني الشياطين «لا يقصرون» عن استغوائهم ولا يرحمونهم.

وقصرت واقصرت لغتان، والقراءة على لغة اقصرت، ومن ضم الياء من «يمدوهم» فلقوله تعالى «إنما نمددكم به من مال بنين» (١) وقوله عز وجل «وأمددناهم بتنا كهة» (٢) وقوله «أتمدونني بمال» (٣) ومن فتح الياء فلقوله تعالى «ويمددكم في ظغيانهم يعمهون» (٤). وأمددت فيما يستحب، ومددت فيما يكره. قال أبو زيد: أمددت القائد بالجند وأمددت السدوة وأمددت القوم بالمال والرجال. وقال أبو عبدة

(١) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٥٥ (٢) سورة ٥٢ الطور آية ٢٢

(٣) سورة ٢٧ النمل آية ٣٦ (٤) سورة ٢ البقرة آية ١٥

« يمدونهم في الغي » اي يزيفون لهم يقال : مد له في غيه . هكذا يتكلمون به ووجه قراءة نافع قوله تعالى « فبشرهم بعذاب أليم » .

قوله تعالى :

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ
مَا يُوحىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْقَوْمِ
يُؤْمِنُونَ (٢٠٢) آية .

معنى الآية اذك يا محمد إذا لم تأت بهم بآية يقترحونها ، قالوا : لم لا تطلبها من الله فيأتينا بها . وقوله « لولا » معناه هلا « اجتبيتها » معناه اختلقتها واقتلعتها من قبل نفسك في قول الزجاج ، والفراء ، والحسن ، والضحاك ، وقتادة ، وابن جريج ، وابن زيد ، وابن عباس .

وفي رواية أخرى عن ابن عباس وقتادة : معناه هلا اخذتها من ربك وتقبلتها منه . ويكون الاجتباء بمعنى الاختيار . وقال الفراء : اجتبيت الكلام واختلقتها وارجلته إذا اقتلعته من قبل نفسك . وقال ابو عبيدة : اخترعته مثل ذلك . وقال ابو زيد : هذه الحروف تقولها العرب للكلام يبتدؤه الرجل لم يكن اعده قبل ذلك في نفسه .

فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهم إنني لست آتي بالآيات من عندي وإنما يفعلها الله ويظهرها على حسب ما يعلم من المصلحة في ذلك لا بحسب اقتراح الخلق ، وإنما اتبع ما يوحى إلي .

وقوله « هذا بصائر من ربكم » يعني هذا القرآن حجج وبراهين وأدلة من ربكم . والبصائر جمع بصيرة ، وهي البراهين الواضحة والحجج النيرة . وتكون البصائر جمع بصيرة . وهي طريق الدم . والبصيرة الرأس ايضاً . وجما بصائر ، ومعناه ظهور

الشيء وبيانه . وإنما قال « هذا بصائر » لأن المراد بالقرآن ، وقوله تعالى « وهدى » يعني بيان وحجة ورحمة لقوم يؤمنون ، فأضافه اليهم لأنهم هم المنتفعون بها ، دون غيرهم من الكفار ، وان كان بياناً للكل . وقال الجبائي قوله « هذا بصائر » إشارة إلى الأدلة الدالة على توحيد صفاته وعدله وحكمته وصحة نبوة النبي وصحة ما أتى به النبي ﷺ .

قوله تعالى :

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٣) آية بلا خلاف .

امر الله تعالى المكلفين بأنه إذا قرئ القرآن ان يسمعوا له ويصغوا إليه ليفهموا معانيه ويعتبروا بمواعظه وان ينصتوا لتلاوته ويتدبروه ولا يبالغوا في دليل رحمتهم بذلك ربهم ، وباعتبارهم به وإتعاظهم بمواعظه .

واختلفوا في الوقت الذي أمروا بالانصات والاستماع :

فقال قوم : امروا حال كون المصلي في الصلاة خلف الامام الذي يأتيه . وهو يسمع قراءة الامام ، فعليه أن ينصت ولا يقرأ ويتسمع لقراءته .

ومنهم من قال : لأنهم كانوا يتكلمون في صلاتهم ويسلم بعضهم على بعض ، وإذا دخل داخل وهم في الصلاة قال لهم كم صليتم فيخبرونه وكان مباحاً فنسخ ذلك ، ذهب إليه عبد الله بن مسعود ، وأبو هريرة والزهري وعطا وعبيد الله بن أبي عمير ومجاهد وقتادة وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبيرة والضحاك وإبراهيم وعامر الشعبي وابن عباس وابن زيد ، واختاره الجبائي .

وقال قوم : هو امر بالانصات للامام إذا قرأ القرآن في خطبته . روي ذلك عن مجاهد . وقال قوم : هو امر بذلك في الصلاة والخطبة . وروي ذلك عن مجاهد .

مثل ذلك فبنوا آدم بذلك اولى واحق ولهم أوجب والزم .

قال الجبائي معنى « عند ربك » إنهم في المكان الذي لا يملك فيه الحكيم بين الخلق سواه لأنه ملك عباده الحكيم في الارض على وجه حسن . قال : ويجوز ان يكون المراد بذلك أنهم رسله الذين يبعثهم في أمور الانس ، واذا كانوا رسله جاز أن ينسبهم الى نفسه فيقول : إنهم عنده ، كما يقال : عند الخليفة جيش كثير ، ولا يراد به في مكانه ، ولا بالقرب منه ، وإنما يراد انهم اصحابه وإن كانوا متفرقين في البلاد . وقال الزجاج : من قرب من رحمة الله وفضله فهو عند الله اي قريب من تفضله وإحسانه .

وهذه اول سجدة القرآن ، وهي - عندنا - مستحبة غير واجبة وفي ذلك خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف .
وسبب نزول الآية ان قريشاً لما قالت : وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا ؟
نزلت هذه الآية .



٨ - سريرة الانفال

هذه السورة مدنية في قول قتادة وابن عباس ومجاهد وعثمان ، وقال : هي اول ما نزل على النبي ﷺ بالمدينة ، وحكي عن ابن عباس : انها مدنية الاسبع آيات : اولها « وإذ يمكر بك الذين كفروا) إلى آخر سبع آيات بعدها . وهي خمس وسبعون آية في الكوفي ، وسبع وسبعون آية في الشامي ، وست وسبعون في المدنيين والبصري .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ نَقَالَ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرُّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١) آية .

اختلف المفسرون في معنى الأنفال - ههنا - فقال بعضهم : هي الغنائم التي غنمها النبي ﷺ يوم بدر ، فسألوه لمن هي ؟ فأمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم : هي لله ولرسوله - ذهب اليه عكرمة ومجاهد والضحاك وابن عباس وقتادة وابن زيد - وقال قوم : هي أنفال السرايا - ذهب اليه علي بن صالح بن يحيى - وقال قوم : وهو ما شذ من المشركين الى المسلمين من عبد او جارية من غير قتال او ما اشبه ذلك - عن عطا - وقال : هو للنبي ﷺ خاصة يعمل به ما يشاء .
وروي عن ابن عباس - في رواية اخرى - انه ما سقط من المتاع بعد قسمة

الغنائم من الفرس والدرع والرمح . وفي رواية أخرى - أنه سلب الرجل وفرسه
ينقل النبي ﷺ من شاء .

وقال قوم : هو الخمس ، روي ذلك مجاهد ، قال : قال المهاجرون : لم يرفع
منا هذا الخمس ويخرج منا ؟ فقال الله : هو لله والرسول .

وروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله ﷺ (أن الأنفال كل ما أخذ من دار
الحرب بغير قتال إذا انجلى عنها أهلها) . ويسميه الفقهاء فَيْئاً ، وميراث من لا وارث
له ، وقطائع المملوك إذا كانت في أيديهم من غير غضب ، والآجام وبطون الأودية
والموات وغير ذلك مما ذكرناه في كتب الفقه . وقالوا : هو لله وللرسول وبعده للفقهاء
مقامه يصرفه حيث يشاء من مصالح نفسه ومن يلزمه مؤنته ليس لاحد فيه شيء .
وقالوا : إن غنائم بدر كانت للنبي ﷺ خاصة ، فسألوه أن يعطيهم .

وفي قراءة اهل البيت : « يسألونك الأنفال » فأنزل الله تعالى قوله « قل
الأنفال لله والرسول » ولذلك قال « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم » ولو سألوه
عن موضع الاستحقاق لم يقل لهم : اتقوا الله .

والأنفال جمع نفل والنفل هو الزيادة على الشيء ، يقال : نفلتك كذا إذا زدت
قال لبيد بن ربيعة :

إن تقوى ربنا خير نفل وباذن الله ريثي والعجل (١)

والنفل هو ما أعطته المرء على البلاء ، والفناء على الجيش على غير قسمة .
وكل شيء كان زيادة على الأصل فهو نفل ونافلة ، ومنه قيل لولد الولد : نافلة ،
ولما زاد على فرائض الصلاة نافلة .

واختلفوا في سبب نزول هذه الآية ، فقال قوم : نزلت في غنائم بدر ، لأن
النبي ﷺ كان نفل أقواماً على بلاء ، فأبلى أقوام وتخلف آخرون مع النبي ﷺ
فلما انقضى الحرب اختلفوا ، فقال قوم : نحن اخذنا ، لأننا قتلنا . وقال آخرون :

(١) تفسير القرطبي ٣٦١/٨ واللسان (نفل) ومجاز القرآن ١/٢٤٠ .

نحن احطنا بالنبى ﷺ ولو اردنا لأخذنا. وقال آخرون: نحن كنا وراءكم نحفظكم فأَنْزَلَ اللهُ هذه الآية يعلمهم أن ما فعل فيها رسول الله ﷺ ماض جائز. ذهب إليه ابن عباس وعكرمة وعبادة بن الصامت - .

وقال قوم: نزلت في بعض اصحاب النبي ﷺ سأل من المغنم شيئاً قبل قسمتها فلم يعطه إياها إذ كان شر كاً بين الجيش، فجعل الله جميع ذلك للنبي ﷺ روي ذلك عن سعد بن مالك، وهو ابن ابي وقاص. قال: وكان سيف سعد بن العاص لما قتله اخوته، وكان يسمى ذا الكشيعة، قال سعد أتيت النبي ﷺ فسألته سيفاً فقال: ليس هذا لي ولا لك فوليت عنه. قال: فاذا رسول الله ﷺ خلفي فقال: إن السيف قد صار لي فأعطانيه، ونزلت الآية.

وروي عن ابي أسيد مالك بن ربيعة قال: اصبت سيفاً بن عابد، وكان يسمى المرزبان فألقبته في النفل، فقام الأرقم بن ابي الأرقم المخزومي، فسأل رسول الله ﷺ فأعطاه إياه.

وقال آخرون: إن أصحاب النبي ﷺ سألوه أن يقسم غنيمة بدر عليهم يوم بدر، واعلمهم الله أن ذلك لله ولرسوله دونهم ليس لهم فيه شيء. وقالوا معنى «عن» ههنا معنى «من» وكان ابن مسعود يقرأه «يسألونك الانفال» على هذا التأويل. وهذا مثل ماروينام عن ابي جعفر وابي عبدالله عليه السلام وروي ذلك عن الأعمش، والضحاك عن ابن مسعود، وروي ذلك عن ابن عباس وابن جريح وعمرو ابن شعيب عن ابيه عن جده وعن الضحاك، وعكرمة، واختاره الطبري وهو قول الحسن. وقال الحسن: قال رسول الله ﷺ: أيما سرية خرجت بغير إذن إمامها فما أصابت من شيء، فهو غلول. وقال الزجاج: كانت الغنائم قبل النبي ﷺ حراماً، فسألوا النبي عن ذلك، فنزلت الآية، وهذا بعيد.

واختلفوا هل هي منسوخة أم لا؟

فقال قوم: هي منسوخة بقوله «واعلموا انها غنمتم من شيء ٠٠٠» الآية. وروي

ذلك عن مجاهد وعكرمة والسدي وعامر الشعبي واختاره الجبائي .

وقال آخرون : ليست منسوخة ، ذهب اليه ابن زيد واختاره الطبري ، وهو الصحيح ، لأن النسخ محتاج إلى دليل ، ولاتنافي بين هذه الآية وبين آية الخمس ، فيقال انها نسختها .

واختلفوا هل لأحد بعد النبي ﷺ ان ينقل احداً - ذكرناه في الخلاف - فقال سعيد بن المسيب لانقل بعد رسول الله . وبد قال عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . وعندنا وعند جماعة من الفقهاء واختاره الطبري : أن للأئمة أن يتأسوا بالنبي ﷺ في ذلك .

وقوله « فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم » امر من الله للمكلفين أن يتقوا معاصيه ويفعلوا طاعاته وان يصلحوا ذات بينهم .

واختلفوا في معناه ، فقال قوم : هو ان النبي ﷺ كان ينقل الرجل من المؤمنين سلب الرجل من الكفار إذا قتله ، فلما نزلت الآية امرهم أن يرد بعضهم على بعض ، ذهب اليه قتادة وابن جريج .

وقال قوم : هذا نهى من الله للقوم عن الاختلاف فيما اختلفوا فيه من أمر الغنيمة يوم بدر ، ذهب اليه مجاهد وابن عباس وسفيان والسدي .

واختلفوا لم قال « ذات بينكم » فأنت، والبين مذكر ؟ فقال قوم : أراد « ذات بينكم » للحال التي للبين ، كما يقولون ذات العشاء يريدون الساعة التي فيها العشاء ، ولم يصفوا مذكراً لمؤنث ولا مؤنثاً لمذكر . قال الزجاج : اراد الحال التي يصلح بها أمر المسلمين . وقال الأخفش : جعله « ذات » لأن بعض الاشياء يوضع عليه اسم المؤنث وبعضه يذكر مثل الدار والحائط انت الدار وذكر الحائط .

وقوله « واطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين » امر من الله للخلق ان يطيعوه ولا يعصوه ، ويطيعوا رسوله فيما يأمرهم به إن كانوا مصدقين لرسوله فيما يأتهم به من قبل الله ، لأنهم متى لم يطيعوه ولم يقبلوا منه لم يكونوا مؤمنين .

وروي : ان رسول الله ﷺ قسم غنائم بدر بينهم عن تواء ، يعني سواء ، ولم يخمس وإنما خمس بعد ذلك .

وقال الزجاج : « ذات بينكم » معناه حقيقة وصلكم ، والبين الوصل ، لقوله تعالى « لقد تقطع بينكم » اي وصلكم .

قوله تعالى :

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)

ثلاث آيات بلاخلاف .

استدل - من قال : إن الايمان يزيد وينقص وان أفعال الجوارح قد تكون إيماناً - بهذه الآيات ، فقالوا : نفى الله ان يكون المؤمن إلا من إذا ذكر الله وجل قلبه وإذا تليت عليه آياته أي قرئت زادتهم الآية إيماناً ، بمعنى أنهم يزدادون عند تلاوتها إيماناً ، وانهم على الله يتوكلون في جميع أمورهم « الذين يقيمون الصلاة » بمعنى يأتون بها على ما بينها النبي ﷺ وينفقون مما رزقهم الله في ابواب البر . وإخراج الواجبات من الزكاة وغيرها . ثم وصفهم بأن هؤلاء الذين وصفهم بهذه الأوصاف هم المؤمنون حقاً ، يعني الذين اخلصوا الايمان ، لا كمن كان له اسم على الظاهر ، وإن لهم الدرجات عند الله وهي المنازل التي يتفاضل بها بعضهم على بعض وإن لهم المغفرة والرزق الكريم فدل على أن من ليس كذلك ليس له ذلك .

ومن خالف في ذلك قال : هذه اوصاف افاضل المؤمنين ، وخيارهم ، وليس

يتمتع أن يتفاضل المؤمنون في الطاعات وان لم يتفاضلوا في الايمان، يبين ذلك انه قال في اول الاية « اذا ذكر الله وجلت قلوبهم » ووجل القلب ليس بواجب بلا خلاف ، وانما ذلك من المندوبات . وقوله « واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون » لانه اذا صدق بآية آية انها من عند الله ، فلا شك ان معارفه تزداد وإن لم يزد بفعل الجوارح .

وقوله « الذين يقيمون الصلاة » يدخل في ذلك الفرائض والنوافل ، ولاشك أن الاخلال بالنوافل لا يخرج من الايمان ولا ينقص منه عند الأكثر . والاتفاق أيضاً قديكون بالواجب والنفل. والاخلال بما ليس بواجب منه لا يخرج من الايمان بلا خلاف . وقوله « أولئك هم المؤمنون حتماً » يبين ذلك انه اشار به : الى خيارهم وافاضلهم ، لأن هذه اوصافهم فمن اين ان غيرهم وإن كان دونهم في المنزلة لا يكون مؤمناً!؟

وقال ابن عباس : اراد ان المنافق لا يدخل قلبه شيء من ذلك عند ذكر الله . وأن هذه الأوصاف منتقية عنه .

والوجل والخوف والفرع واحد، يقال وجل فلان يوجل وجلا ، ويقال ياجل وييجل وأفصحها يوجل . قال الله تعالى « لاتوجل » أي لاتخف وقال الشاعر :

لعمر ك ما ادري وإنني لأوجل على أينا تعدو المنية أول (١)
وإنما وصفهم بالوجل - ههنا - وباطمئنان القلوب في قوله : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله » (٢) لأن الوجل يكون بالخوف من عقابه وبارتكاب معاصيه . والاطمئنان بذكر الله معناه : بنعمه وعدله ، ووصفهم بالوجل يكون في دار الدنيا ، وأما في الآخرة فانه « لا يحزنهم الفرع الأكبر » (٣)

(١) قطر الندى ٢٣ الشاهد ٦ باب المعرب والمبني .

(٢) سورة ١٣ الرعد آية ٣٠ (٣) سورة ٢١ الأنبياء آية ١٠٣

وقال الربيع : معنى زادتهم إيماناً زادتهم حسنة ، والدرجات عند الله ، قال قوم : معناه أعمال رفيعة وقضايا استحقوها في أيام حياتهم - ذهب اليه مجاهد - وقال غيره : معناه لهم مراتب رفيعة . والرزق الكريم ، قال قتادة : هو الجنة . وقال غيره : هو ما أعد الله لهم ووعدهم به في الجنة من انواع النعيم والمغفرة يعني لذنوبهم ومعاصيهم سترها الله عليهم .

وقوله « حقاً » منصوب بمعنى دلت عليه الجملة ، وهي قوله « اولئك هم المؤمنون » والمعنى احق ذلك حقاً . والتوكل هو الثقة بالله في كل امر يحتاج اليه تقول وكلت الأمر الى فلان ، إذا جعلت اليه القيام به ، ومنه الوكيل القائم بالامر لغيره . والكريم القادر على النعم من غير مانع ، ولم يزل الله كريماً بهذا المعنى .

قوله تعالى:

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا
يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦) آيَتَانِ

من مد الف (كما) فلأن المد يقع في حروف اللين، وهي الالف والواو والياء، فاذا كان الحرف منها قبل همزة ، وكانت الواو والياء ساكتين والالف لا تكون الا ساكنة مدوا الالف كألف هذه الكلمة ، وكقوله « من السماء من ماء » (١) بمد الف السماء والفاء نحو قوله « وما ينطق عن الهوي ان هو الا وحي يوحى » (٢) بمد الياء من الهوي ، والواو نحو قوله « قالوا أنت فعلت هذا » (٣) بمد الواو .

(٢) سورة ٥٣ النجم آية ٣- ٤

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٦٤

(٣) سورة ٢١ الأنبياء آية ٦٢

واختلفوا في الكاف من قوله « كما » إشارة الى ماذا ؟ فقال الزجاج وغيره : قوله « كما أخرجك » معطوف على قوله « قل الأنفال لله والرسول » والمعنى في ذلك أن رسول الله لما جعل النفل لمن جعله له وسلمه المؤمنون لذلك على كراهية بعضهم له كراهية طباع ، فقال « الأنفال لله والرسول » فامض لذلك ، وإن كرهه قوم كما مضيت « كما اخرجك ربك من بيتك بالحق » وهم كارهون أيضاً لأنهم كانوا كرهوا خروج الكراهية التي ذكرناها ، وليس على المؤمنين في هذه الكراهية حرج ، إذا سلموا الأمر لله ورسوله وعملوا بما فيه طاعتها . وقال غيره : ذلك معطوف على قوله « يسألونك عن الأنفال » كأنه قال : يسألونك الأنفال كما جادلوك عند ما اخرجك ربك من بيتك ، فذلك قوله « يجادلونك في الحق بعد ما تبين » . وقال قوم : يجوز أن يكون الكاف عطفاً على قوله « أولئك هم المؤمنون حقاً ٥٥٥ كما اخرجك ربك من بيتك بالحق » . وقال بعضهم « كما أخرجك ربك من بيتك ... فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم » . وقال مجاهد « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ٥٥٥ يجادلونك في الحق من بعد ما تبين » يعني يجادلونك في القتال بعد ما أمرت به . وقال الفراء : قوله « كما اخرجك ربك من بيتك بالحق » جواب قوله « وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون » فقال : فامض لأمرك في الغنائم على ما شئت « كما أخرجك ربك » مجاز اليمين كأنه ، قال والذي اخرجك ربك ، فتكون « ما » في موضع السذي كقوله « وما خلق الذكر والانثى » (١) وتقديره والسذي خلق الذكر ، وقال ابو عبيدة معمر بن المبنى : « ما » في قوله « كما اخرجك » كما في قوله « وما بناها » (٢) اي وبنائها . وقال عكرمة : المعنى « اتقوا الله واصلوا ذات بينكم » فان ذلك خير لكم « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق » وكان خير لكم . وقال بعضهم : الكاف بمعنى (على) كأنه قال : إمض على الذي اخرجك

من بيتك . والحق الذي جادلوا فيه هو القتال في قول مجاهد . « بيتك » يراد به المدينة، اخرج الله الى بدر - في قول ابن جريج، وابن ابي نجيح واكثر المفسرين - ووجه كراهية القتال - ما ذكره ابن عباس - من ان ابا سفيان لما اقبل بعير قریش من الشام فيها أموالهم ، نذب النبي ﷺ المسلمين الى الخروج اليها ، قال لعل الله أن يتفلكموها ، فانتدب اليهم ، فخفف بعضهم ، وثقل بعضهم ، ولم يظنوا أن رسول الله ملقي كيداً ولا حزناً ، وهو قول السدي والمفسرين . واختلفوا في المؤمنين الذين كرهوا القتال ، وجادلوا النبي ﷺ . فقال قوم : أراد به أهـل الايمان يوم بدر - ذكر ذلك عن ابن عباس ، وابن اسحاق - وقال قوم : عنى المشركين - ذهب اليه ابن زيد - وقال : هؤلاء المشركون جادلوه في الحق كأنما يساقون إلى الموت حين يدعوهم الى الاسلام ، وهم ينظرون ، قال وتكون هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر . وقول ابن عباس هو الظاهر ، وعليه اكثر المفسرين ، وهو ان هذا صفة للمؤمنين لكن كرهوا ذلك كراهية الطبع ، لكونهم غير مستعدين للقتال ، ولقنيتهم وكثرة المشركين ، ويقوي ذلك قوله بعد هذه الآية « وإذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم » فيبين بذلك انهم كانوا يودون العير دون الحرب .

وقوله « بعد ماتين » انك يا محمد لاتصنع إلا ما امرك الله به . وقال ابن عباس معناه يجادلونك في القتال بعد ما امرت به . والجدل شدة القتال ومنه قولهم : جدلت الزمام إذا شددت فتله ، والاجدل الصقر لشدته .

وقوله « كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون » معناه كأن هؤلاء الذين يجادلونك في لقاء العدو في كراهتهم للقتال إذا دعوا اليه وصعوبته عليه بمنزلة من يساق الى الموت ، وهم يرونه أو يتوقعونه .

والسوق الحث على السير عجلة . والاخراج في الآية معناه الدعاء الى الخروج الذي يقع به ، تقول : اخرجته فخرج اي دعاه فخرج ، ومثله اضربت زيدا عمراً ،

فضربه وسمي البيت بيتاً لأنه جاء مهيئاً للبيتوتة فيه. وقوله « من بيتك » قال الحسن وابن أبي برة وابن جريج معناه من المدينة .

قوله تعالى :

وَإِذْ يَبْعِدُكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنْهَآ لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ
ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ
وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ
الْمُجْرِمُونَ (٨) آيتان

تقدير الآية واذكر يا محمد إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين إما العير وإما قريشاً. قال الحسن كان المسلمون يريدون العير ، ورسول الله يريد ذات الشوكة لما وعده الله . وقوله « إحدى الطائفتين » يعني عير قريش او قريشاً ، وكان الله وعده نبيه حصول احدهما .

وقوله « إحدى الطائفتين » في موضع نصب بـ « يعدكم الله » وقوله « إنها لكم » نصب بدل من قوله « إحدى الطائفتين » ومثله « هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة » (١) فإنها في موضع نصب بدلا من (الساعة) . ومثله : « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ان تطوؤهم » (٢) قال الزجاج : تقديره لو لا أن تطوؤهم .

وقوله « وتودون » معناه وتحبون « ان غير ذات الشوكة » يعني القتال . وانما قال « ذات الشوكة » فأنت لأنه عنى الطائفة ، والشوكة الجذ ، يقال : ما اشد شوكة بني فلان ، وفلان شاك في السلاح وشائك وشاك - بتشديد الكاف - من الشكة .

ومثله شك في قول الشاعر :

فيوهوموني انني هو ذاكم شك سلاحي في الحوارث معلم
وقال الضحاك ، وغيره : كرهوا القتال واعجبهم أن يأخذوا العير .

وقوله « ويريد الله ان يحق الحق » معناه إن الله يريد أن يظهر محمدًا ﷺ
ومن معه على الحق « ويبطل الباطل » اي يبطل ما جاء به المشركون .
وقيل : هذه الآية نزلت قبل قوله « كما اخرجك ربك من بينك بالحق »
وهي في القراءة بعدها - ذكره البلخي والحسن -

وفي الآية دلالة على ان الله لا يريد الباطل ولا يريد ابطال الحق بخلاف ما يقول
المجبرة من ان كل ما في الأرض من باطل وسفه وفسق فان الله يريد ان ذلك
خلاف الآية .

وقوله « ويقطع دابر الكافرين » معناه يريد الله ان يجتث الجاحدين من اصلهم
والدابر المأخر ، وقطعه الاتيان على جميعهم - وهو قول ابن زيد وغيره - وقال
قوم : الحق في هذا الموضع القرآن . والباطل ابليس . وقيل الحق الاسلام ،
والباطل الشرك .

وقال ابن عباس : كان عدة اهل بدر مع النبي ﷺ ثلثمائة وثلاث عشر رجلا
وروي ان النبي ﷺ لما بلغه خروج قريش لحماية العير شاور اصحابه ، فقال قوم :
خزرجنا غير مستعدين للقتال . وقال المقداد : امض لما امرك الله به ، فوالله لو خضت
بنا الجمر لتبعناك ، فجزاه خيراً . وأعاد الاستشارة ، فقال سعد بن معاذ (رحمه الله)
يارسول الله لعلك تريدنا ؟ قال : نعم ، فقال سعد : إنا آمننا بك وصدقناك ، وشهدنا
أن ما جئت به حق واعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض
يارسول الله لما أردت ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لنخوضه
معك ، فسّر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك . ثم قال سيروا على بركة الله
وايشروا فان الله وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن انظر الى مصارع القوم .

(و) الحق (وقوع الشيء في موضعه الذي هو له فاذا اعتقد شيء بضرورة او حجة فهو حق ، لأنه وقع موقعه الذي هو له ، وعكسه الباطل .

وروي ان احداً لم يشاهد الملائكة يوم بدر إلا رسول الله ﷺ . ومعنى قوله « ليحق الحق » ليظهر تحقيق الحق للمخلوقين ، ويبطل الباطل ، لأنهما لم يكونا كذلك عنده .

قوله تعالى :

إِذ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ
الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) آية بلاخلاف .

قرأ أهل المدينة ويعقوب « مردفين » بفتح الدال . الباكون بكسرهما . قال ابو علي : من قرأ بكسر الدال احتمل شيئين :

أحدهما - ان يكونوا مردفين مثلهم . كما تقول : اردفت زيدا دابتي فيكون المفعول الثاني محذوفاً في الآية وذلك كثير .

الثاني - ان يكون معنى « مردفين » جاءوا بعدهم . قال ابو الحسن : تقول العرب بنو فلان يردفوننا أي هم يجيئون بعدنا . وهو قول ابي عبيدة . وردفني وأردفني واحد . قال الشاعر :

إذا الجوزاء اردفت الثريا ظننت بآل فاطمة الظنونا (١)

وقال قوم : ردفة صار له ردفاً واردفه جعله له ردفاً . ويكون أردفت الثريا الجوزاء . ومعنى البيت ان الجوزاء إذا طلعت في شدة الحر لم يبق حينئذ احد من

(١) قائله خزيمه بن مالك وهو من قداماء شعراء الجاهلية الاغانى ١٣ / ٧٥

طبعة دار الثقافة . ومعجم ما استعجم ١٩ ، وسمط اللآلى ١٠٠ واللسان (قرظ) . (ردف) .

البوادي في مناجعهم ، لأن مياه الغدران يبست فتنفرك الحلل بعد اجتماعها فتنفرك ظنونه في امر فاطمة انها اي ماء تأخذ لتعلق قلبه بها ، وهي فاطمة بنت حل بن عدي .
وقول ابي عبدة : ردفني وأردفني واحد أقوى لقوله « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم اني ممدكم بألف من الملائكة مردفين » اي جاء من بعد استغاثتكم ربكم ف- « مردفين » على هذه صفة اللالف الذين هم الملائكة .

ومن قرأ بفتح الدال فمعناه اردفوا الناس أي انزلوا بعدهم ، فيجوز على هذا أن يكون حالامن الضمير المنصوب في « ممدكم » مردفين بألف من الملائكة ، والعامل في (إذ) يحتمل شيئين : احدهما - ويبطل الباطل (إذا) والثاني - بتقدير اذ كروا (اذ) فعلى الوجه الأول يكون متصلا بما قبله وعلى الثاني يكون مستأنفاً .

والاستغاثة طلب المعونة وهو سد الخلة في وقت شدة الحاجة . وقيل : في معنى « تستغيثون ربكم » تستجيرون به من عدوكم والاستجابة موافقة المسألة بالعطية ، وأمله طلب الموافقة بالارادة وليس في الاجابة معنى الطلب من هذه الجهة .

وقيل في معنى « مردفين » ثلاثة أقوال :

قال ابن عباس : مع كل ملك ملك ردفاً له ، وقال الجبائي : هم ألقان لأن مع كل واحد واحد ردفاً له .

والثاني - قال السدي وقتادة : إن معناه متتابعين .

والثالث - قال مجاهد ممدين بالارداف وامداد المسلمين بهم . ويقال هذه دابة لائرادف ، ولا يقال تردف ، ويقال : أردفت الرجل إذا جئت بعده . وكان يجوز أن يقرأ بتشديد الدال وفتح الراء وضمها - لأن الأصل مرتدفين ، وقرىء في الشواذ - بضمها - فمن فتح الراء نقل فتحة التاء اليها ، ومن كسرهما فلاجتماع الساكنين ومن ضمها فللاتباع .

أخبر الله تعالى عن حال اهل بدر انهم لقللة عددهم استغاثوا بالله والتجأوا اليه فأمدهم الله بألف من الملائكة مردفين ، رحمة لهم ورأفة بهم ، وهو قول ابن عباس ،

وقال : الداعي كان رسول الله ﷺ وهو قول ابي جعفر عليه السلام والسدي وابي صالح وهو المروري عن عمر بن الخطاب . وقيل : إنهم قتلوا يومئذ سبعين واسروا سبعين . وقال الحسن : جميع ما امدوا به من الملائكة خمسة آلاف : ما ذكر هنا ، وما ذكر في آل عمران . وقال غيره : جميعهم ثمانية آلاف . وقال الحسن : اردف بهؤلاء الألف الثلاثة آلاف الذين ذكرهم في آل عمران . ثم أردفهم بألف آخر فصاروا خمسة آلاف .

قوله تعالى !

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) آية .

الهاء في قوله « جعله الله » يحتمل أن تكون عائدة الى الامدار ، لأنه معتمد الكلام . وقال الفراء : هي راجعة الى الارداف .

ويحتمل أن تكون عائدة على الخبر بالمدد ، لان تقديم ذلك اليهم بشارة في الحقيقة اخبر الله تعالى أنه لم يجعل هذا الذي اخبر به من إمداد الملائكة إلا بشرى . وإنما جعله بأن اراده به فقلبه الى هذا المعنى . وقيل : جعله بشرى بأن امر الملائكة أن تبشر به ، والجعل على ضروب : اولها - أن يكون بمعنى القلب ، كقولك : جعلت الطين خزفاً . وبمعنى الحكم كقولك : جعله الحاكم فاسقاً . وبمعنى الظن كقولك جعلته كريماً بحسن ظني به . وبمعنى الأمر كقولك جعله الله مسلماً بمعنى امره بالاسلام .

وقوله « ولتطمئن به قلوبكم » فالاطمئنان الثقة ببلوغ المحبوب ، وهو خلاف الانزعاج . والطمأنينة : السكون والدعة .

وقوله « وما النصر إلا من عند الله » معناه لا يكون النصر وقهر الاعداء من الكفار إلا بفضل من عند الله ونصر من جهته . وليس ذلك بشدتكم وقوة بأسكم

وإنما أضافه الى الله ، لثلا يظن أنه من قبل الملائكة من غير امره .
فأما الغلبة بكثرة العدد ، فقد يتفق للكافر والمبطل ، فعلى هذا المؤمن وان
قتل ، فهو منصور غير مخذول ، والكافر وإن غلب وقُتل فهو مخذول .
وهل قاتلت الملائكة يوم بدر قيل فيه قولان :

قال ابو علي الجبائي : ما قاتلت ، وإنما أراد الله بالامداد البشارة بالنصر
واطمئنان القلب ليزول عنهم الخوف الذي كان بهم ، قال لأن ملكاً واحداً يقدر ان
يدمر على جميع المشركين كما اهلك جبرائيل قريات لوط .
وروي عن ابن مسعود : أنها قاتلت . وقيل : سألت ابو جهل من اين كان يأتينا
الضرب ولانرى الشخص ، قالوا له : من قبل الملائكة ، فقال هم غلبونا لا أنتم .
وقوله « إن الله عزيز » يعني قادر لا يغالب « حكيم » في أفعاله ليثقوا بوعدده .

قوله تعالى !

إِذْ يُغَشِّيكُمْ النَّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى
قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) آية .

قرأ ابن كثير و ابو عمرو « يغشاكم » بفتح الياء وسكون الغين وبالف مخفف .
وقرأ اهل المدينة - بضم الياء وسكون الغين وكسر الشين مخفياً من غير الف . الباقيون
بضم الياء وفتح الغين وتشديد الشين وكسرها من غير الف . وكلهم نصب النعاس
إلا ابن كثير و ابو عمرو ، فانهما رفعاه .

وحجة من فتح الياء قوله « أمانة نعاساً يغشى » (١) . فكما اسند الفعل الى النعاس
والأمانة ، كذلك ههنا . ومن قرأ بضم الياء وشد الشين او خففها ، فالمعنى واحد .

قال الله تعالى « فأغشيناهم فلم لا يبصرون » (١) وقال « فغشاها ما غشى » (٢) وقال « كأنما اغشيت وجوههم » (٣) وحجتهم أنها أشبه بما بعده . لأنه قال « وينزل عليكم من السماء ماء » فكما أن (ينزل) مسند إلى اسم الله كذلك « يغشى » . و « الغشيان » لباس الشيء ما يتصل به ، ومنه غشي الرجل امرأته ، فكأن النعاس قد لا يسهم بمخالطته إياهم . و « النعاس » ابتداء حال النوم قبل الاستئصال فيه ، وهو السنة ، تقول : نفس ينعس نعاساً فهو نعاس . وحكى الفراء أنه سمع نعانسان . و « الأمانة » الدعة التي تنافي المخافة ، تقول : أمن أمانةً وأماناً وأمنة . وانتصب « أمنة » بأنه المفعول له ، والعامل فيه « يغشى » .

وقوله « وينزل عليكم من السماء ماء » يعني مطراً وغيثاً .

وقوله : « ليظهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان » قال ابن عباس : معناه يذهب عنكم وسوسة الشيطان ، بأنه غلبكم على الماء المشركون حتى تصلوا وانتم مجننين ، لأن المسلمين باتوا ليلة بدر على غير ماء ، فأصبحوا مجننين ، فوسوس إليهم الشيطان ، فيقول : تزعمون أنكم على دين الله وانتم على غير الماء تصلون مجننين ، وعدوكم على الماء ، فأرسل الله عليهم السماء ، فشرّبوا واغتسلوا وأذهب به وسوسة الشيطان ، وكانوا في رمل تغوص فيه الأقدام ، فشده المطر حتى تثبت عليه الرجال فهو قوله « ويثبت به الأقدام » . والهاء في « به » راجعة إلى الماء . وقال ابن زيد : يذهب بوسوسته أنه ليس لكم بهؤلاء طاقة . وقال الجبائي : لان الاحتلام بوسوسة الشيطان .

وقوله « وليربط على قلوبكم » معناه ليشد عليها بما يسكنها

وقوله « ويثبت به الأقدام » قيل في معناه قولان :

أحدهما - قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وأكثر المفسرين : لتليبه الرمل

(٢) سورة ٥٣ النجم آية ٥٤

(١) سورة ٣٦ يس آية ٩

(٣) سورة ١٠ يونس آية ٢٧

الذي لا يثبت عليه القدم .

والثاني - الصبر الذي افرغد عليهم عند ذلك حتى ثبتوا لعدوهم - في قول
ابي عبيدة والزجاج - . و « إذ » في موضع نصب على معنى وما جعله الله إلا بشرى
في ذلك الوقت ، ويجوز على تقدير إذ كروا « إذ يغشاكم » .

قوله تعالى

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ إِلَيْنِي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ
آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ
الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) آية

معنى الآية كروا « إذ يوحى ربك الى الملائكة أني معكم » يعني بالمعونة
والنصرة ، كما يقال : فلان مع فلان بمعنى ان معونته معه . وذكر الفراء قال :
كان الملك يأتي الرجل من اصحاب النبي ﷺ فيقول سمعت المشركين يقولون ،
والله لئن حملوا علينا لنكشفن ، فيحدث المسلمون بعضهم بعضاً فيقوي انفسهم بذلك
و « الايحاء » إلقاء المعنى إلى النفس من وجه يخفى ، وقد يكون ذلك بنصب
دليل يخفى إلا على من إلقى اليه من الملائكة .

وقوله « فثبتوا الذين آمنوا » قيل في معناه قولان : احضروا معهم
الحرب . والثاني - قال الحسن : قاتلوا معهم يوم بدر . وقال قوم : معنى ذلك الاخبار
بأنه لا بأس عليهم من عدوهم .

وقوله « سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب » اخبار من الله تعالى انه يلقي
في قلوب الكفار الرعب ، وهو الخوف . تقول : رعبته اربعة رعباً ورعباناً ، فانا
رابع ، وذلك مرعوب . و « الرعب » إنزعاج النفس بتوقع المكروه . واصل الرعب
التقطيع من قولهم رعبت السنام ترعبياً : اذا قطعته مستطيلاً . والرعب يقطع حال

السرور بضده من انزعاج النفس بتوقع المكروه . وجارية رعبوبة اذا كانت شظنة مشبهة بقطعة من السنام . ورعب السيل فهو راعب : اذا امتلأ منه الوادي ، لأنه انقطع اليه من كل جهة . والرعب من الرجال النصير . قال الراجز :

ولأجيب الرعب ان دعيت (١)

وقوله « فاضربوا فوق الاعناق » قيل في معناه ثلاثة أقوال :

احدها - اضربوا الاعناق - ذهب اليه عطية - وقال غيره اضربوا على الاعناق .

وقال قوم اضربوا فوق جلدة الاعناق .

وقوله « واضربوا منهم كل بنان » قال ابن جريح والضحاك والسدي :

أراد بنان الأطراف من اليدين والرجلين والواحد بنانة . ويقال : للاصبع بنانة . واصله اللزوم من قولهم : أبنت السحابة إبناناً إذا لزمت . وأبن بالمكان اذا لزمه فسمي البنان بناناً ، لأنه يلزم به ما يقبض عليه ، قال الشاعر :

ألا ليتني قطعت مني بنانة ولا قيمته في البيت يقظان حاذرا (٢)

وقال الفراء : أعلمهم مواضع الضرب ، فقال : اضربوا الرؤوس والأيدي والأرجل .

وقال الزجاج : اباح الله قتلهم بكل نوع يكون في الحرب . و«اذ» في موضع نصب على قوله « وليربط ٠٠٠ اذ يوحى » ويجوز على تقدير واذكروا .

قوله تعالى :

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) آية .

أخبر الله تعالى أنه فعل بهؤلاء الكفار ، ما فعل وامر بقتلهم وضرب اعناقهم

(١) قائله رؤبة . اللسان (رعب) ويروى (إن رعبت)

(٢) قائله عباس بن مرداس اللسان والتاج (بنن) ومجاز القرآن ١ / ٢٤٢

وقطع بنانهم جزاء بما شاقوا الله ورسوله . قال الزجاج : معناه جانبوا الله ، اي صاروا في جانب غير جانب المؤمنين ، ومثله حاربوا الله . و «الشقاق» اصله الانفصال من قولهم : انشق انشقاقاً ، وشقه شقاً ، واشتق القوم إذا مر بينهم ، وشاقه شقاقاً إذا صار في شق عدوه عليه ، وتشقق تشققاً ، وشقق تشقيقاً ، ومنه اشتقاق الكلام لأنه انفصال الكلمة عما يحتمله الأصل . ومعنى « شاقوا الله » شاقوا اولياء الله كما قال « ان الذين يؤذون الله ورسوله » (١) . وقوله « ومن يشاقق الله » يعجز في العربية الاظهار والادغام ، فاما أن يأتي على الأصل للحاجة إلى حركة الأول ، وإما ان يحرك الثاني - لالتقاء الساكنين - بالكسر . ويعجز الفتحة والأول اجود مع الألف واللام لتأكيد سببه .

وقوله « فان الله شديد العقاب » شدة العقاب عظمه بجنس فوق جنس أدنى منه ، لأن العظم على ضربين : احدهما - بالتضاعف في المرتبة الواحدة . والثاني - بالترقي الى مرتبة بجنس يخالف الجنس الذي في ادنى مرتبة .

قوله تعالى :

ذُلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار (١٤) آية .

العامل في « ذلكم » يحتمل احد وجبين : أحدهما - الابتداء على تقدير الأمر « ذلكم » ، قال الزجاج : من قال : إنه يرفع « ذلكم » بما عاد عليه من الهاء او بالابتداء وجعل « فذوقوه » الخبر ، فقد أخطأ ، لأن ما بعد الفاء لا يكون خبر المبتدأ لايجوز « زيد فمطلق » ولا « زيد فاضربه » الا أن تضمير هذا كقول الشاعر :

وقائلة خولان فانكح فتاتهم وأكرومة الحيين خلو كما هي (٢)
أي هذه خولان . الثاني - أن يكون نصباً بذوقوا ، كما تقول : زيداً فاضربه .

والكاف في قوله « ذلكم » لاموضع له من الاعراف لأنه حرف خطاب ، ولو كان اسماً لجاز أن يؤكد بالنفس وذلك غير جائز اجماعاً . والاشارة بذلك الى ماتقدم من انواع العقوبات ، وانما ضم الى الكاف الميم ، لأنه خطاب للمشركين . وقوله « فذوقوه » فالذوق طلب ادراك الطعم بتناول اليسير بالغم كما ان الشم طلب ادراك الرائحة بالانف ، وليس بالادراك ، لأنه يقال ذقته فلم أجد له طعماً ، وشمته فلم أجد له رائحة ، وانما قال « فذوقوه » والذوق اليسير من الطعام ، لان المعنى كونوا للعذاب كالذائق للطعام ، لأن معظمه بعده . وقيل : لان الذائق أشد احساساً بالطعم من المستمر عليه ، فكأن حالهم ابدأ حال الذائق في شدة احساسه نعوذ بالله منه .

وقوله « وأن للكافرين » فموضع « أن » يحتمل النصب والرفع ، فالرفع بالعطف على ذلكم كأنه قال « ذلكم ، فذوقوه » وذلكم « ان للكافرين عذاب النار » مع ذا والنصب من وجبين : احدهما - وبان للكافرين ، والآخر - واعلموا ان للكافرين ، كما انشده القراء :

تسمع للأحشاء منه لفظاً ولليدين حساً وبدداً (١)

اي وترى لليدين وانما قدم الخبر في قوله : « وأن للكافرين » على الاسم لدلالته على الكفر الذي هو السبب للعذاب . ومرتبة السبب قبل المسبب .

قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْآدْبَارَ (١٥) آية .

(١) معاني القرآن للقراء ٤٠٥/١ . (اللفظ) الاصوات المهممة ، والجسأة

— بضم الجيم — الخشونة والصلابة والغلظ . والبدر تباعد ما بين اليدين .

هذا خطاب للذين آمنوا من بين المكلفين ناداهم الله ليقبلوا الى امر الله بما يأمرهم به وابتهاهم عما ينهاهم عنه بالتأمل له والتدبر لموجبه ليعملوا به ويكونوا على يقين منه . وقوله « اذا لقيتم الذين كفروا » فالالتقاء الاجتماع على وجه المقاربة لأن الاجتماع قد يكون على غير وجه المقاربة ، فلا يكون لقاء كاجتماع الاعراض في المحل الواحد . و « الذين كفروا » هم الذين جحدوا نعم الله او من كان بمنزلة الجاحد ، فالمشرك كافر ، لأنه في حكم الجاحد لنعم الله إذ عبد غيره .

وقوله « زحفاً » نصب على المصدر ، فالزحف هو الدنو قليلاً قليلاً والتزاحف التداني ، زحف يزحف زحفاً ، وازحفت القوم اذا دنوت لقتالهم وثبت لهم ، والمزحفت من الشعر الذى قد تدانت حروفه على ما ابطت وزنه .

وقوله : « فلا تولوهم الادبار » نهي لهم عن الفرار عند لقاءهم الكفار وقتالهم ايهم .

قوله تعالى :

وَمَنْ يُؤَلِّمِهِ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَسِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا وِیْهُ جَنَّتُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) آیة

اخبر الله تعالى ان « من يؤلمه » يعنى الكفار « يومئذ » يوم القتال « دبره » فقد باء بغضب من الله . والتولية جعل الشيء يلي غيره وهو متعد الى مفعولين . ولاء دبره اذا جعله يليه ، ومنه ولاء البلد من ولاية الامارة ، وتولى هو اذا قبل الولاية واولاه نعمة ، لانه جعلها تليه .

وقوله « يومئذ » يجوز اعرابه وبنائه ، فاعرابه لانه متمكن اضيف على تقدير الاضافة الحقيقية ، كقولك هذا يوم ذلك ، وأما البناء فلانه اضيف الى مبني اضافة غير حقيقية ، فأشبه الأسماء المر كبة . وقوله « الا متحرفاً لقتال » فالتحرف الزوال

من جهة الاستواء الى جهة الحرف . تقول تحرف تحرفاً ، وانحرف انحرفاً وحرفه تحريفاً واحترف احترافاً ، لأنه يقصد جهة الحرف اطلب الرزق ، مثل ابعده في طلب الرزق، والمحارف المحدود من جهة الرزق الى جهة الحرف. ومنه حروف الهجاء لأنها اطراف الكلمة كحرف الجبل ، ونحوه .

وقوله « او متحيزاً الى فئة » فالتحيز طلب حيز يتمكن فيه ، تحيز تحيزاً او انحاز انحيازاً وحازه يحوزه حوزاً ، والحيز المكان الذي فيه الجوهر . والفئة القطعة من الناس ، وهي جماعة منقطعة عن غيرها . وذكر الفئة في هذا الموضوع حسن جداً ، وهو من فاوت راسه بالسيف اذا قطعته .

وفي تناول الوعيد لكل فار من الزحف خلاف .

فقال الحسن وقتادة والضحاك : انما كان ذلك يوم بدر خاصة .

وقال ابن عباس : هو عام ، وهو قول ابي جعفر وابي عبد الله عليهما السلام .

ثم اخبر تعالى ان من ولي دبره على وجه التحرف للمقتال ، او التحيز الى الفئة انه باء بغضب من الله . أي رجع بسخطه تعالى واستحقاق عقابه . وان مستقره « جهنم وبئس المصير » هي لمن صار اليها .

وقوله « متحرفاً لقتال » نصب على الحال ، وتقديره الا ان يتحرف لان يقاتل ، وكذلك « متحيزاً » نصب على الحال وتقديره حال تحيزه الى فئة . ويجوز النصب فيهما على الاستثناء ، وتقديره الا رجلاً متحيزاً او يكون متفرداً ، فينحاز ليكون مع المقاتلة . واصل متحيز متحيز فادغمت الياء في الواو بعد قلبها ياء .

قوله تعالى :

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ
وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ (١٧) آية بالاخلاف .

قرأ ابن عامر وحذيفة والكسائي وخلف «ولكن الله قتلهم ٠٠٠ ولكن الله رمى»
 بالتخفيف فيهما ورفع اسم الله فيهما . الباقر بتشديد النون ونصب «الله» .
 نفى الله ان يكون المؤمنون قتلوا المشركين يوم بدر فقال « فلم تقتلوهم
 ولكن الله قتلهم » وإنما نفى القتل عن هو فعله على الحقيقة ونسبه الى نفسه
 وليس بفعل له من حيث كانت أفعاله تعالى كالسبب لهذا الفعل ، والمؤدي اليه من
 إقداره إياهم ومعونته لهم وتشجيع قلوبهم فيه ، والقاء الرعب في قلوب اعدائهم
 المشركين حتى خذلوا وقتلوا على شركهم عقاباً لهم . وقوله « وما رميت إذ رميت
 ولكن الله رمى » مثل الأول في انه نفى الرمي عن النبي ﷺ وإن كان هو الرامي
 وأضافه الى نفسه من حيث كان بلطفه ، واقداره .

وهذه الرمية ذكر جماعة من المفسرين ، كابن عباس وغيره : أن النبي ﷺ
 أخذ كفاً من الحصباء فرماها في وجوههم ، وقال : شامت الوجوه ، فقسمها الله تعالى
 على ابصارهم ، وشعلهم بأنفهم حتى غلبهم المسلمون ، وقتلواهم كل مقتل . وقال
 بعضهم : اراد بذلك رمي النبي ﷺ أبي امية بن الخلف الجمحي يوم احد فأصابه
 فقتله . وقال آخرون : اراد بذلك رمية سهمه يوم خيبر ، فأصاب ابن ابي الحقيق في
 فراشة رأسه ، فقتله . والأول أشهر الأقوال .

فأما تعلق من تعلق بذلك من الغلاة ، بأن قال : لما قال « ولكن الله رمى »
 - وكان النبي هو الرامي - دل ذلك على انه هو الله تعالى ، فهو جهل وقلة معرفة بوجوه
 الكلام لانه لو كان على ما قالوه لكان الكلام متناقضاً ، لانه خطاب للنبي ﷺ بأنه
 لم يرم ، فان كان هو الله تعالى فالى من توجه الخطاب ؟ وإن توجه اليه الخطاب دل
 على ان الله غيره . وأيضاً فاذا كان هو الله فقد نفى عنه الرمي فاذا أضافه بعد ذلك
 الى الله كان متناقضاً على انه قد دلت الأدلة العقلية على ان الله ليس بجسم ، ولا
 حال في جسم ، فبطل قول من قال إن الله كان حل في حجر ﷺ وليس هذا موضع
 نقضه . وقد ذكرنا الكلام في ذلك واستوفينا في الاصول .

وأما من قال : إن الفعل واجد ، وهو من الله تعالى بالاجداد ، ومن العبد بالاكْتِسَابِ فباطل ، لأنه خلاف المفهوم من الكلام ، ولو كان كذلك لم يجز أن ينقى عنه إلا بتقييد كما لا ينقى عن الله إلا بتقييد .

وقوله « وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً » معناه لينعم عليهم نعمة حسنة . والمعنى ولينصرهم الله نصرأ جميلاً ويختبرهم بالتي هي احسن ، ومعنى يبلّهم - ههنا - يسدي اليهم . وقيل للنعمة بلاء وللمضرة أيضاً مثل ذلك ، لأن أصله ما يظهر به الأمر من الشكر أو الصبر ، ومنه يبئلي بمعنى يختبر ويمتحن . وسميت النعمة بذلك لظهور الشكر ، والضر لظهور الصبر الذي يجب به الأجر .

وقوله « إن الله سميع عليم » معناه انه يسمع دعاء من يدعوه ويعلم ما له فيه من المصلحة فيجيبه اليه .

قوله تعالى :

ذَالِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨) آية .

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم : « موهن » خفيفة منونة . وقرأ ابو عمرو وابن كثير ونافع شديدة . وقرأ حفص عن عاصم خفيفة مضافة وخفض « كيد » . وقرأ الباقون بنصب كيد .

تقول : وهن الشيء واوهنته انا كما تقول : فرح وافرحته ، وخرج واخرجه فمن قرأ « موهن » مخففاً فمن اوهن اي جعله واهناً ، ومن شدد فمن قولهم : وهنته كما تقول خرج واخرجه وعرف وعرفته . ومنه قوله « فما وهنوا لما اصابهم » (١) وتقول : وهن يهن مثل ومق يمق وولي يلي ، وهو أيضاً ينقل بالهمزة وتثقل العين ايضاً والامران جميعاً حسنان ، واختار الاخفش القراءة بالتخفيف . والوهن الضعف ومنه قولهم : توهن توهناً اي ضعف ، ومن قال قوله « ذالكم » في موضع رفع قال

الزجاج : تقديره الامر « ذلكم وأن الله » والامر ان الله .
 وقوله « ذلكم » اشارة الى قتل المشركين ورميهم حتى انهزموا وابتلاء المؤمنين
 البلاء الحسن بالظفر بهم وامكانهم من قتلهم واسرهم فعلنا الذي فعلناه . ومعنى
 « وأن الله موعد كيد الكافرين » يضعف مكرهم حتى يذلوا ويهلكوا . وفي فتح
 « أن » من الوجوه ما في قوله « ذلكم فذوقوه ، وأن للكافرين عذاب النار » - وقد
 بيناه - والكيد يقع بأشياء منها الاطلاع على عوراتهم ، ومنها إبطال حيلتهم ، ومنها
 إلقاء الرعب في قلوبهم ، ومنها تغريق كلمتهم، ومنها نقض ما ابرموا باختلاف عزومهم
 قوله تعالى :

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فُوَّ خَيْرٌ لَكُمْ
 وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ
 اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩) آية

قرأ نافع وابن عامر وحفص « وان الله » بفتح الالف . الباقون بالكسر، من
 فتح الهمزة فوجهه « ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت » ولأن الله مع المؤمنين
 اي لذلك لا تغني عنكم فئتكم شيئاً ، ومن كسر قطعه عما قبله واستأنفه ، وقوي ذلك
 لما روي ان في قراءة ابن مسعود « والله مع المؤمنين » . والكسر اختيار القراء، ومن
 نصب فعلى ان موضعه نصب بحذف حرف الجر ، ويجوز ان يكون عطفاً على قوله
 « وأن الله موعد » .

والاستفتاح طلب النصرة التي بها يفتح بلاد العدو كأنه قال ان تستنصروا على
 اعدائكم فقد جاءكم النصر بالنبى ﷺ . وقال الزجاج : يجوز ان يكون المراد
 استحكموا لأن الاستفتاح الاستقضاء . ويقال للقاضي : الفتح ، والمعنى فقد جاءكم
 الحكم من عند الله ، وهو قول الضحاك وعكرمة ومجاهد والزهري ، والأول قول

ابن عباس وغيره ، والمعنيان متقاربان . وقيل في معنى الآية قولان :
أحدهما - قال الحسن ومجاهد والزهري والضحاك والسدي والفراء : انه خطاب
للمشركين لانهم استنصروا بان قالوا : اللهم اقطعنا للرحم ، واطلمنا لصاحبه فانصرنا
عليه روي ان ابا جهل قال ذلك .

الثاني - قال ابو علي : هو خطاب للمؤمنين والمعنى وان تعودوا الي مثل ما
كان منكم يوم بدر في الأشر والبطر بالنعمة بعد الانكار عليكم . وقال الحسن وان
تعودوا لقتال محمد ﷺ نعد عليكم بالقتل والاسر يامعشر قريش وجماعة الكفار
وان تنهوا عن الكفر بالله العظيم ورسوله وعن قتال نبيه فهو خير لكم وانفع لكم
واقرب الي مرضاة الله .

والانتهاء ترك الفعل لاجل النهي عنه ، تقول نهيته عن كذا فانتهى ، وامرته
فاتمر ، على فعل المطاوع وقد يطاوع بأن يقال : كسرته فانكسر ، وقد يكون الانتهاء
بمعنى بلوغ الغاية .

وقوله تعالى « ولن تغني عنكم قتلكم شيئاً » معناه انه لن يغني عنكم جمعكم في
الدفاع عنكم والنصرة - وان كانوا كثيرين - وإن الله مع المؤمنین بالنصرة
لهم والمعونة .

قوله تعالى

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ

تَسْمَعُونَ (٢٠) آية.

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين ، وإنما خصهم بالخطاب ، لان غيرهم
بمنزلة من لا يعتد به في العمل بما يجب عليه مع ما في إفراده إياهم بالخطاب من
إعظام لهم واجلال ورفع من اقدارهم ، وإن دخل في معناه غيرهم .
والايمان : هو التصديق بما اوجب الله على المكلف او نذبه اليه .

وقال الرماني : هو التصديق بما يؤمن من العقاب مع العمل به .
امر الله تعالى المؤمنين أن يطيعوا الله ورسوله ، والطاعة هي امتثال امره
وموافقة إرادته الجاذبة الى الفعل بطريق الرغبة او الرهبة ، والاجابة موافقة الارادة
فيما يعمل من اجلها . وقوله « ولا تولوا عنه وانتم تسمعون » معناه ولا تعرضوا عن
امرهِ ونهيهِ وانتم تسمعون دعاءه لكم، فمنهاهم عن التولي في هذه الحال . وقال الحسن :
معناه وانتم تسمعون الحجة .

قوله تعالى :

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) آية .

« ولا تكونوا » في موضع جزم وحذف النون دلالة على الجزم .
نهى الله تعالى المؤمنين الذين خصهم بالذكر في الآية الاولى عن ان يكونوا
كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ، وفي الكلام حذف المنهي عنه ، لانه قد دل عليه
من غير جهة الذكر له ، وفي ذلك غاية البلاغة ، والتقدير ولا يكونوا في قولهم المنكر
هذا « كالذين » والتشبيه على ثلاثة اوجه : أعلى وأدنى واوسط ، فالاعلى هو الذي
حذف معه أداة التشبيه ، كقولهم للانسان : هذا الأسد ، والاوسط تثبت معه مجردة
كقوله « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة » (١) والادنى تأتي معه مقيدة كقولهم
الجسم كالعرض في الحدوث .

ومعنى قوله « قالوا سمعنا وهم لا يسمعون » معناه سمعنا سماع عالم قابل ،
وليسوا كذلك ، وهو من صفة المنافقين في قول ابن اسحاق وابي علي . وقال
الحسن : يعني به أهل الكتاب . وقيل : هو من صفة المشركين ، فجعلوا بمنزلة
من لا يسمع في أنهم لم ينتفعوا بالمسموع . وقال ابو علي : هي نفي القبول من قولك

سمع الله لمن حمده . وقال الزجاج : يعني الذين قالوا « لو نشاء لقلنا مثل هذا » فسماهم الله لا يسمعون لانهم استمعوا استماع عداوة وبغضاء فلم يفهموا ولم يتفكروا فكانوا بمنزلة من لم يسمع . وقال ابن اسحاق : أراد به الذين يظهرون الايمان ويسرون النفاق .

قوله تعالى :

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ
(٢٢) آية بلاخلاف .

اخبر الله تعالى « أن شر الدواب عند الله الصم » والشر إظهار السوء الذي يبلغ من صاحبه وهو نقيض الخير . وقيل الشر الضر القبيح ، والخير النفع الحسن . وقيل الشر الضر الشديد . والخير النفع الكثير . واصل الشر الاظهار من قول الشاعر :

كما اشرت بالأكف المصاحف (١)

اي أظهرت ، وشر الرجل يشر شرّاً وشررت الثوب إذا بسطته في الشمس وشرر النار ما تطاير منه لظهوره بانتشاره وتفرقه ، ومنه الشر وهو ما يظهر من الضر كشرر النار .

والدواب جمع دابة وهي مادب على وجه الارض إلا انه تخصص في العرف بالخيول دب يدب ديبباً .

فبين ان هؤلاء الكفار شر مادب على الارض من الحيوان . ثم شبههم بالصم

(١) نسب الى كعب بن جعيل . وقيل هولابن الحمام المري . وقيل لابن جهمة

الأسدي راجع : وقعة صفين : ٣٣٦ ، ٤١١ ، واللسان « شرر » وروايته :

فما برحوا حتى رأى الله صبرهم وحتمى أشرت بالأكف المصاحف

واشرت - بتشديد الراء المفتوحة ، مبني للمفعول - اي أظهرت بكثرة .

البكم الذين لا يعقلون من حيث لم ينتفعوا بما كانوا يسمعون من وعظ الله ولا يتكلمون بكلمة الحق ، والصمم آفة في الاذن تمنع السمع ، صم يصم صمماً وهو اصم . وصمم على الامر إذا حقق العزم عليه وتصام عن القول إذا تغافل عنه . وعود اصم خلاف المجوف وأصله المطابقة من غير خلل . والبكم الخرس : الذي يولد به صاحبه لأنه قد يكون لآفة عارضة ، وقد يكون لآفة لازمة .

وقال ابو جعفر عليه السلام نزلت الآية في بني عبد الدار لم يكن اسلم منهم غير مصعب بن عمير وحليف لهم يقال له سويبط . وقيل : نزلت الآية في النضر ابن الحارث بن كعدة من بني عبد الدار بن قصي .

قوله تعالى :

وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) آية .

معنى الآية ان الله تعالى اخبر انبه لو علم فيهم . يعني هؤلاء الكافرين انهم يصلحون بما يورده عليهم من حججه وآياته لاسمعهم إياها ولم يخاف عنهم شيئاً منها وإن كان قد أراح علمتهم في التكليف بما نصب لهم من الأدلة الموصلة الى الحق ، ولكنهم لا يصلحون بل يتولون وهم معرضون .

وقال ابن جريج وابن زيد : لاسمعهم الحجج والمواعظ سماع تفهم .

وقال ابو علي : لاسمعهم كلام الموتى الذين طلبوا احياءهم من قصي بن كلاب وغيره وقال الزجاج : لاسمعهم جواب كل ما يسألون عنه .

والاعراض خلاف الاقبال وهو الانصراف بالوجه عن جهة الشيء والاقبال الانصراف بالوجه الى جهته والاستماع إيجاد السماع بايجاده والتعريض له . فان الله تعالى يسمعهم بأن يوجد السماع لهم ، والانسان يسمعهم بأن يمرضهم للسمع

الذي يوجد لهم ، هذا على مذهب من قال : إن الإدراك معنى ، ومن قال : انه ليس بمعنى ، فمعنى الاسماع هو ان يوجد من كلامه الدال على ما يجب أن يسمعه لكونهم أحياء لا آفة بهم في حواسهم .

وقال الزجاج المعنى « ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم » كلما يسألون عنه ولو اسمعهم كلما يخطر ببالهم لتولوا وهم معرضون . وقال الحسن : هو إخبار عن علمه كما قال « ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه » (١).

وفي الآية دلالة على بطلان قول من يقول : يجوز ان يكون في مقدوره لطف لو فعله بالكافر لا من .

قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) آية .

أمر الله تعالى المؤمنين ان يجيبوا الله والرسول إذا دعاهم وان يطلبوا موافقته والاستجابة طلب موافقة الداعي فيما دعا اليه على القطع به . وقال ابو عبدة والزجاج : معنى استجبوا اجيبوا . وقال كعب بن سعد الغنوي :

وداع دعا يا من يجيب الى النداء فلم يستجبه عند ذلك مجيب (٢)
اي لم يجبه . والفرق بين الدعاء الى الفعل وبين الامر به أن الامر فيه ترغيب في الفعل المأمور به ، ويقضي الرتبة ، وهي ان يكون متوجهاً الى من دونه ، وليس

(١) سورة ٦ الانعام آية ٢٨

(٢) مر هذا البيت في ١ / ٨٦ و ٢ / ١٣١ و ٣ / ٨٨ .

كذلك الدعاء لأنه يصح من دونك لك .

وقوله « إذا دعاكم لما يحييكم » قيل في معناه ثلاثة أقوال :

احدها - دعاكم الى احياء امركم بجهاد عدوكم مع نصر الله إياكم ، وهو قول ابن اسحاق والفراء والجبائي . وقال البلخي : معناه ما يقيكم ويصلحكم ويهديكم ويحيي امركم .

الثاني - معناه ما يورثكم الحياة الدائمة في نعيم الآخرة من اتباع الحق : القرآن الثالث - معناه ما يحييكم بالعلم الذي تهتدون به من اتباع الحق ، والاقتداء بما فيه .

وقوله « واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه » قيل في معناه ثلاثة أقوال : احدها - ان يفرق بين المرء وقلبه بالمرء او الجنون وزوال العقل ، فلا يمكن استدراك ما فات . والمعنى بادروا بالتوبة من المعاصي قبل هذه الحال . الثاني - ان معناه بادروا بالتوبة لأنه اقرب الى المرء من حبل الوريد لا يخفى عليه خافية من سره وعلايته وفي ذلك غاية التحذير .

والثالث - تبديل قلبه من حال الى حال لانه مقلب القلوب من حال الأمن الى حال الخوف ومن حال الخوف الى حال الأمن على ما يشاء .

وروي عن ابي عبد الله عليه السلام في معنى قوله « يحول بين المرء وقلبه » قال لا يستيقن القلب أن الحق باطل أبداً ولا يستيقن أن الباطل حق أبداً .

فأما من قال من المجبرة : إن المراد إن الله يحول بين المرء والايمن بعد امره إياه به فباطل ، لانه تعالى لا يجوز عليه أن يأمر أحداً بما يمنعه منه ويحول بينه وبينه ، لان ذلك غاية السفه ، تعالى الله عن ذلك . وايضاً فلا احد من الامة يقول : إن الايمان مستحيل من الكافر ، فانهم وان قالوا إنه لا يقدر على الايمان يقولون يجوز منه الايمان ويتوقع منه ذلك ، ومن ارتكب ذلك فقد خرج من الاجماع .

ويحتمل ان يكون المراد ان امر الله بالهول يحول بين المرء وقلبه ، كما قال
« هل ينظرون إلا ان يأتيهم الله » (١) أي أمر الله .

وقال قوم : يجوز ان يكون معناه يحول بينه وبين قلبه بان يسلبه قلبه فيبقى
حيأ بلا قلب وهذا قريب من معنى زوال العقل ، قالوا : يجوز أن يكون المراد : انه
عالم بما ينظرون اليه ، وما يضره العبد في نفسه من معصيته فهو في المعنى كأنه حائل
بينه وبينه ، لأن العبد لا يقدر على اضرار شيء في قلبه إلا والله عالم به ، وهذا وجه
حسن . وروي في التفسير أن الله يحول بين المؤمن وبين الكفر . والمعنى في ذلك
ان الله يحول بينه وبين الكفر بالوعد والوعيد ، والامر والنهي ، والترغيب في الثواب
والعقاب . فأما ما روي عن سعيد بن جبير وغيره من ان الله يحول بين الكافر والايمن
فقد بينا ان ذلك لا يجوز على الله . والعقل مانع منه . ولو صح ذلك لكان الوجه
فيه ان الله يحول بين الكافر وبين الايمان في المستقبل بان يميتة ، لأنه لا يجب
تبقيته حتى يؤمن ، بل لو ابقاه لكان حسناً ، وان لم يبقه كان ايضاً حسناً . وقوله
تعالى « وانه اليه تحشرون » معناه انكم تحشرون يوم القيامة للجزاء على اعمالكم
إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فلذلك يجب المبادرة بالطاعة والاقلاع عن المعصية
بالتوبة وترك الاصرار على القبائح .

قوله تعالى :

وَأَتَقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) آية

امر الله تعالى المكلفين من خلقه أن يتقوا فتنة لا تصيب الذين ظلموا منهم خاصة .
والفتنة البلية التي يظهر بها باطن امر الانسان فيها . والفتنة الهرج الذي يركب فيه

الناس بالظلم قال ابن عباس امر الله المؤمنين ان لا يقرؤا المنكر بين أظهرهم ، فيعمهم الله بالعذاب . وقال عبدالله : هو من قوله تعالى « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » (١) وقال الحسن : الفتنة البلية . وقال ابن زيد : هي الضلالة . وقال الجبائي : هي العذاب . « لاتصين » فالإصابة الأبقاع بالشيء بحسب الإرادة ، وضده الخطأ . يقال : أساب الغرض او أخطأه .

وقوله « لاتصين الذين ظلموا منكم خاصة » معناه انها تعم لان الهرج إذا وقع دخل ضرره على كل أحد . ويجوز أن يقال بخص الظالم ، ولا يعتد بما وقع بغيره للعرض الذي يصل إليه . ويحتمل أن يكون أراد إن هذه العقوبة على فتنكم لاتختص بالظالمين منكم بل كل ظالم منكم كان أو من غيركم فستصيبه عقوبة ظلمه وفسقه وفتنته وأراد بذلك تحذير الناس كلهم ، وأنهم سواء في المعصية ، وما توجه من العقوبة ليكون الزجر عاماً .

وفي دخول النور الثقيلة في « تصيين » قولان :

أحدهما - قال الفراء : لانه نهي بعد أمر وفيه معنى الجزاء ، كقوله « يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده » (٢) ومثله لا يرينكم ههنا . والثاني - أن يكون خرج مخرج جواب القسم .

وقال الزجاج : يحتمل ان يكون نهياً بعد أمر وتقديره اتقوا فتنة ، ثم نهى ، فقال « لاتصين الذين ظلموا » أي لا يتعرض الذين ظلموا لما ينزل معه العذاب . ومثله قال في قوله « لا يحطمنكم » فيكون لفظ النهي لسليمان ، ومعناه النمل ، كما يقول القائل لأرنيك ههنا ، فلفظ النهي لنفسك ، والمراد لا تكون ههنا ، فاني اراك . و « الخاصة » للشيء ما كان له دون غيره ونقيضة العامة .

(١) سورة ٨ الانفال آية ٢٨ وسورة ٦٤ التغابن آية ١٥

(٢) سورة ٢٧ النمل آية ١٨

وقوله « واعلموا أن الله شديد العقاب » معناه لمن لم يتق معاصيه ولم يتبع أوامره ،

وقال الحسن والسدي ومجاهد وابن عباس : نزلت هذه الآية في أهل الجمل .
وقال قتادة قال الزبير : لقد نزلت وما نرى ان أحداً منا يقع فيها ثم اختلفنا حتى اصا بتنا خاصة . وروى ذلك عن الزبير من جهات .

قوله تعالى :

وَإِذْ كُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَنَصِرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) آية .

الذكر ضد السهو ، وهو إحضار المعنى للنفس . وإنما أمروا بالتعرض له ، لان إحضار المعنى بقلوبهم ليس من فعلهم .

وقوله « إذ أنتم قليل » فالقلة التقصان عن المقدار في العدد وكان اصحاب النبي ﷺ قليلين في الأصل فلطف الله لهم حتى كثروا وعزوا ، وقل اعداؤهم وذلوا وكانوا مستضعفين ، فقووا .

والاستضعاف طلب ضعف الشيء بتهوين حاله . والضعف خلاف القوة .
والاستضعاف استجلاب ضعفه بتحقيق حاله ، فامتن الله عليهم بذلك وبين انهم كانوا قليلين فكثروهم وكانوا مستضعفين ، فقواهم بلطفه .

وقوله « تخافون أن يتخطفكم الناس » فالتخطف الاخذ بسرعة انتزاع ،
تخطف تخطفناً وخطف خطفاً واختطف اختطفاً ، فبين انهم كانوا خائفين من ان ينال منهم العدو .

وقوله « وآواكم » اي جعل لكم مأوى حريزاً ترجعون إليه وتسكنون فيه

وقال السدي « آواكم » الى المدينة . وقوله ، « وأيدكم بنصره » يعني بالانصار في قول السدي . وقيل في المعنى بقوله « الناس » قولان :
 احدهما - مشركوا قريش في قول عكرمة وقتادة .
 وقال وعب بن منية يعني فارس والروم ،
 وقوله « ورزقكم من الطيبات » أي أطعمكم غنيمتكم حالاً طيباً « لعلكم تشكرون » أي لكي تشكروه على هذه النعم المترادفة والآلاء المتضاعفة .
 قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرُّسُولَ وَتَخُونُوا
 أَمَا نَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) آية .

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين ينهاهم ان يخونوا الله والرسول . والخيانة منع الحق الذي قد ضمن التآدية فيه . وهي ضد الامانة . وأصل الخيانة ان تنقص من ائتمتك أمانته ، قال زهير :

بارزة الفقاوة لم تخنها قطاف في الركاب ولا خلاء (١)
 أي لم تنقص من فراحتها . والمعنى لا تخونوا مال الله الذي جعله لعباده فلا يخن بعضكم بعضاً فيما ائتمند عليه في قول ابن عباس . وقال الحسن ، والسدي : لا تخونوه كما صنع المنافقون . وقال الجبائي : نهاهم ان يخونوا الغنائم . وقال ابن زيد : الأمانة ههنا الدين ، نزلت في بعض المنافقين . والامانة مأخوذة من الأمن من منع الحق وهي حال يؤمن معها منع الحق الذي تجب فيه التآدية وقوله « وأنتم تعلمون » قيل في معناه قولان :
 أحدهما - وأنتم تعلمون انها امانة من غير شبهة .

والثاني - وانتم تعلمون عا في الخيانة من الـدم والعقاب بخلاف الجبال
بتلك المنزلة .

وقوله : « وتخونوا » موضعها الجزم بتقدير ، ولا تخونوا في قول ابن عباس
وقال السدي : هو نصب على الظرف (١) أي إنكم إذا خنتم الرسول فقد خنتم
أما ذاتكم قال الفراء ، ومثله قول الشاعر :

لأنه عن خلق وتأت مثله عار عليك إذا فعلت عظيم (٢)

وحكى الفراء في بعض القراءات : « ولا تخونوا أما تنكم »

وقال جابر بن عبدالله : نزلت الآية في بعض المنافقين حين انذر أبا سفيان
بخروج النبي لأخذ العير . وقال الزهري : نزلت في ابي لبابة في قصة بني قريظة
وخو المروري عن أبي جعفر وابي عبدالله (عليهما السلام) .

قوله تعالى

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ
عَظِيمٌ (٢٨) آية .

أمر الله تعالى المكلفين ان يعلموا ويتحققوا ان اموالهم واولادهم فتنه . وإنما
يمكنهم معرفة ذلك بالنظر والفكر في الأدلة المؤدية إليه ، وهو ما يدعو إليه الهوى
في الاموال والاولاد ، وما يصرف عنه فمن تفقد ذلك وتحرز منه نجاه من مضرته
والمراد بالفتنة ههنا المحنة التي يظهر بها ما في النفس من اتباع الهوى او
تجنبه فيخلص حاله للجزاء بالثواب او العقاب بحسب الاستحقاق .

(١) المقصود من الظرف كونه بعد الواو التي بمعنى (مع)

(٢) قطر الندى ٧٧ الشاهد ٢٣ وقد مر في أما كن كثيرة من هذا الكتاب

والولد حيوان يتكون من حيوان بخلق الله له ، فعلى هذا لم يكن آدم ولداً وكان عيسى ولد مريم . والمال هو النصاب الذي تتعلق به الزكاة من ذهب او فضة او ابل او بقر او غنم عند بعض المفسرين . وأصله الكسر من العين والورق .
و (العظيم) استحقاق الصفة بالغنى . فالكثير عظيم للاستغناء به عن القليل من جنسه . والقليل لا يستغنى [به] عنه .

بين الله تعالى ان الاموال والاولاد في هذه الدنيا محنة وبلاء وان الله تعالى عنده الثواب العظيم على الطاعات وترك المعاصي .

وروي عن ابن مسعود انه قال : ليس احد منكم إلا وهو مشتمل على فتنة لقوله «واعلموا أنما اموالكم واولادكم فتنة» فاسألوا الله تعالى ان يعيدكم منها .

قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَكُمْ قُرْآنًا وَيَكْفُرْ
عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِر لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) آية .

هذا خطاب للمؤمنين خاطبهم الله بأنهم ان يتقوا معاصيه ويمثلوا طاعاته ويمتقوا عقابه باجتنب معاصيه يجعل لهم اجراً على ذلك « فرقاناً » . وقيل في معنى الفرقان اقوال : -

احدها - قال ابن زيد وابن اسحاق يجعل هداية في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل .

وقال مجاهد : معناه يجعل لكم مخرجاً في الدنيا والآخرة .

وقال السدي : معناه يجعل لكم نجاة . وقال الفراء : يجعل لكم فتحاً ونصراً

وعزاً كقوله : « يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » (١) وقال الجبائي : يجعل لكم نصراً وعزاً وثواباً لكم ، وعلى اعدائكم خذلاً وذلاً وعقاباً كل ذلك يفرق بينكم وبينهم في الدنيا والآخرة .

وانما جاز الشرط في اخبار الله مع اقتضائه شك المخبر منا من حيث ان الله تعالى يعامل عباده في الجزاء معاملة الشاك للمظاهرة في العدل ولذلك جازت صفة الابتلاء والاختبار لما في ذلك من البيان ان الجزاء على ما يظهر من الفعل دون ما في المعلوم مما لم يقع منه . ثم بين انه يضيف الى ذلك تكفير سيئاتهم وغفران ذنوبهم وسترها عليهم تفضلاً منه تعالى .

وقوله « والله ذو الفضل العظيم » قيل في معناه قولان :

احدهما - قال الجبائي : معناه ان من ابتدأكم بالفضل العظيم لأنه كريم لنفسه لا يمنعكم ما اتحقتموه بطاعاتكم له .

الثاني - انه الذي يملك الفضل العظيم فينبغي ان يطلب من جهته .

قوله تعالى :

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) آية .

خاطب الله تعالى نبيه ﷺ فقال : واذا كر « إذ يمكر بك الذين كفروا » والمكر القتل الى جهة الشر في خفى وأصله الالتفاف من قول ذي الرمة .

عجزة ممكورة خمصانة قلق عنها الوشاح وتم الجسم والقصب (٢)

اي ملتفة . والمكر والختل والغدر نظائر . والفرق بين المكر والغدر ان الغدر نقض العهد الذي يلزم الوفاء به ، والمكر قد يكون ابتداء من غير عقد .

ووصف الله تعالى بأنه ما كر يحتمل وجهين :

احدهما - انه سمي الجزاء على المـكر مكرراً للازدواج ، كقوله « الله يستهزىء بهم » (١) اي يجازيهم على الاستهزاء فيكون التقدير والله خير المجازين على المكر ، ذكره الزجاج ،

والثاني - ان يكون على غير تضمن الحيلة لكن على اصل اللغة . قال ابو علي : ومكره بهم حق وصواب « وهو خير الماكرين » مكرراً .

وقوله « ليثبتوك » قيل في معناه قولان :

احدهما - ليثبتوك في الوثاق ، في قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقناة .

والثاني - قال عطا وعبدالله بن كثير ، والسدي « ليثبتوك » في حبس . وقال

ابو علي الجبائي : معناه ليخرجوك ، يقال : اثبته في الحرب إذا جرحه جراحة ثقيلة .

وقوله « او يخرجوك » قال الفراء : او يخرجوك على بعير تطرد به حتى تهلك

او يكفيكموه بعض العرب . وهو قول ابي البخري وهشام .

وكان سبب ذلك أنهم تآمروا في دار الندوة ، فقال عمرو بن هشام : قيدوه

تتربصون به ريب المنون . وقال البخري : أخرجوه عنكم تستريحوا من أذاه

لكم . وقال أبو جهل : ما هذا برأي ، ولكن اقتلوه بان يجتمع عليه من كل بطن

رجل فيضربونه بأسيا فهم ضربة رجل واحد ، فترضى حينئذ بنو هاشم بالدية

فصوب إبليس هذا الرأي وخطأ الأولين وزيفهما ، فاوحى الله تعالى إلى نبيه

ﷺ بذلك فامر به بالخروج ، فخرج إلى الغار ، في قول ابن عباس ، ومجاهد

وقناة ، وهو قوله « ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » ولاخلاف بين

المفسرين أنه بات على تلك الليلة ، وهي الليلة التي أمر النبي ﷺ بالخروج

على فراشه إلى أن اصبح ، وكانوا يحرسونه إلى الصباح ، ولما طلع الفجر ثاروا اليه

فاذا علي ، قالوا له أين صاحبك ؟ قال : لأدري ، فتركوه وخرجوا في أثره .

قوله تعالى :

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ
هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) آية .

أخبر الله تعالى عن عناد هؤلاء الكفار ومباهتهم للحق بأنهم بلغوا في ذلك إلى رفع الحق بما ليس فيه شبهة ، وهو أنه « إذا تلى عليهم آياته » يعني القرآن قالوا « لو نشاء لقلنا مثل هذا » وقد أبان التحدي كذبهم في ذلك وتخرصهم فيه بما ظهر من عجزهم عن سورة مثله ، وانما قالوا « لو نشاء لقلنا مثل هذا » ولم يجز أن يقولوا لو نشاء لقلبنا الجماد حيواناً ، لأنه يتموه هذا على كثير من الناس ولا يتموه ذلك ، على أن قوم فرعون ظنوا أن السحرة يمكنهم قلب الجماد حيواناً . وقوله « قد سمعنا » معناه أدر كناه بآذاننا . والسمع إدراك الصوت بحاسة الأذن ، ولو لم نذكر الصوت لانتقض بالحرارة والبرودة والآلام واللذة إذا ادرك بها ، ولا يسمى سماعاً . وعلى هذا إذا قيل : ما الرؤية بالبصر ؟ ينبغي أن يقال : هي ادراك المرئيات بها ، لأنه قد يدرك الحرارة والبرودة بها . فإذا قلنا المرئيات لم ينتقض بذلك .

ثم أخبر الله تعالى عن قولهم بأن قالوا ليس هذا الذي سمعناه « إلا أساطير الأولين » والأساطير جمع واحد أسطورة في قول الزجاج . وقال غيره : هو جمع أسطر ، واسطر جمع سطر ، وزيدت الياء للمد ، كما قالوا دراهم ، واراودا ما هذا إلا ما سطره من الاحاديث بكتبه سطرأ بعد سطر .

قوله تعالى :

وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنَّا هَذَا حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا

حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ انْتِنًا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) آية بلاخلاف .

تقديره واذكر يا محمد إذ قال هؤلاء الكفار « إن كان هذا » القرآن « هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم » شديد مؤلم . قال سعيد ابن جبير ، ومجاهد : كان الطالب لذلك النضر بن الحارث بن كلداء لأنه كان سمع سجع اهل الحيرة وكلام الرهبان ، فقتله النبي ﷺ يوم بدر صبراً فقال : يا رسول الله من للصبية ؟ قال النار . وقيل عقبه بن ابي معيط ، والمطعم بن عدي ، قتل هؤلاء الثلاثة صبراً من جملة من أسر ، وفي النضر نزل قوله « سأل سائل بعذاب واقع للكافرين » (١) يعني ما سأله ههنا . وهذا القول من قائله يجوز أن يكون عناداً ، فان المعاند قد تحمله شدة عداوته للمحق على اظهار مثل هذا القول . ليوهم انه على بصيرة في أمره . ويجوز أن يكون ذلك لشبهة تمكنت في نفوسهم .

وقال الجبائي : ذلك دليل على اعتقادهم خلاف الحق الذي اتى به النبي ﷺ وهو حجة اهل المعارف ، لأنهم لو عرفوا بطلان ما هم عليه ، لما قالوا مثل هذا القول

فان قالوا كيف طلبوا بالحق من الله العذاب وانما يطلب به الخير والثواب ؟ . قلنا : لانهم قالوا ذلك على أنه ليس بحق من الله عندهم . واذا لم يكن حقاً من الله لم يصيبهم البلاء الذي طلبوه .

فان قيل لم قالوا « امطر علينا حجارة من السماء » والامطار لا يكون إلا من السماء ؟ قلنا عنه جوابان :

احدهما - أن امطار الحجارة يمكن ان يكون من عل دون السماء .

والثاني - ان يكون على جهة البيان بـ (من) .

والحجارة واحد الاحجار ، وهو ماصلب من الاجسام ، يقال استحجر الطين إذا صلب ، فصار كالحجر . واكثر مايقال حجر المدر . ومع ذلك فالياقوت حجر ولذلك يقال الياقوت افضل الحجارة ، ولايقال الياقوت افضل الزجاج ، لانه ليس من الزجاج وكل شيء من العذاب يقال امطرت ومن الرحمة يقال مطرت . وقوله « هو » يجعل عماداً في ظننت واخواتها . ويسميه البصريون صلقةزائدة وتوكيداً كزيادة (ما) ولايزاد إلا في كل فعل لا يستغنى عن خبره ، وفي لغة تميم يرفع ذلك كله ، فيقولون « إن كان هذا هو الحق » وكذلك قوله « ولكن كانوا هم الظالمين » (١) و « تجدوه عند الله هو خيراً واعظم اجراً » (٢) كل ذلك يرفعونه . وعلى الاول ينصب ما بعدها ومثله قوله « ويرى الذين اتوا العلم » إلى قوله « هو الحق » (٣) .

قوله تعالى

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ
وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) آية .

اخبر الله تعالى نبيه ﷺ على وجه الامتنان عليه واعلامه منزلته عنده انه لايعذب احداً من هؤلاء الكفار بهذا العذاب الذي اقترحوه على وجه الفساد للمحق « وانت » يا محمد « فيهم » موجود .

والتعذيب تجديد الآلام حالاً بعد حال ، لأن اصله الاستمرار ، فالعذب من استمرار الشيء لما فيه من الملاذ . والعذاب من استمراره لما فيه من الآلام واللام في قوله « ليعذبهم » لام الجحد . واصلها لام الاضافة . وإنما دخلت في النفي

(١) سورة ٤٣ الزخرف آية ٧٦ (٢) سورة ٧٣ المزمل آية ٢٠

(٣) سورة ٣٤ سبأ آية ٦

، لم تدخل في الايجاب لتعلق الخبر بحرف النفي ، كما دخلت الباء في خبر (ما) ولم تدخل في الايجاب .

وإنما لم يعاقب الله تعالى الخلق مع كون النبي ﷺ فيهم على سلامته مما ينزل بهم - ، لأنه تعالى أرسله رحمة للعالمين . وذلك يقتضي ألا يعذبهم وهو فيهم .

وقوله « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » قيل في معناه أقوال :

احدها - ان النبي ﷺ لما خرج من مكة بنفي فيها ببقية من المؤمنين يستغفرون ، وهو قول ابن عباس ، وعطية ، وابي مالك ، والضحاك ، واختاره الجبائي .

وقال آخرون : اراد بذلك لا يعذبهم بعذاب الاستئصال في الدنيا ، وهم يقولون يارب غفرانك . ويعذبهم على شركهم في الآخرة ، وذلك عن ابن عباس في رواية أخرى ، وهو قول أبي موسى ، ويزيد بن رومان ، ومحمد بن مبشر .
الثالث - أنهم لو استغفروا لم يعذبوا ، وفي ذلك استدعاء إلى الاستغفار روي ذلك عن ابن عباس في رواية أخرى ، وبه قال مجاهد وقتادة والسدي وابن زيد .

وقال الزجاج : معناه لا يعذب الله من يؤل إلى الاسلام .

وقال الحسن وعكرمة : هذه الآية منسوخة بالتي بعدها . قال الرماني : هذا غلط ، لأن الخبر لا ينسخ .

قوله تعالى :

وَمَا لَهُمْ آلَاءُ يَعْتَدِبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ

لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) آية .

(ما) في قوله « وما لهم ان لا يعذبهم الله » خرجت مخرج الاستفهام ومعناه إيجاب العذاب ، وجاز ذلك ، لأنها بلغت في معنى الإيجاب ، من حيث انه لا جواب -- لمن سأل عن مثل هذا -- يصح في نفي العذاب ، والمعنى لم لا يعذبهم وهذا فعلهم . وموضع (أن) نصب بمعنى أي شيء لهم في أن لا يعذبهم ، لكن لما حذف الجار عمل معنى الفعل من الاستقرار ، وجاز الحذف مع (أن) ولم يجزم مع المصدر لطول (أن) بالصلة اللازمة من الفعل والفاعل ، وليس كذلك المصدر . وحكي عن الأخفش ان (أن) زائدة مع عملها .

وقوله « وهم يصدون عن المسجد » والصد المنع ، والصد الاعراض عن الشيء من غير حيلولة بينه وبين غيره والمراد ههنا المنع .

وقوله : « وما كانوا اولياءه » جمع ولي وهو الذي يستحق القيام بأمر الشيء ويكون احق به من غيره ، فعلى هذا الله تعالى ولي المتقين دون المشركين . وقال ابو جعفر عليه السلام والحسن قال المشركون : نحن اولياء المسجد ، فرد الله ذلك عليهم ، فقال « وما كانوا اولياءه » . ثم اخبر الله تعالى « إن اولياؤه » بمعنى ليس اولياء المسجد إلا المتقون الذين يتركون معاصي الله ويجتنبونها .

وقال قوم : المعنى إن اولياء الله إلا المتقون والاول احسن : لانه مما يقتضيه الانكار .

وقيل في معنى (لا) قولان : احدهما -- ان معناها الجحد اي ما لهم في الامتناع من العذاب . وقيل هي صلة . لان المعنى ايجاب العذاب ، كما قال الشاعر

لو لم تكن غظقان لارنوت لها إذن للام ذووا احما بها عمرا (١)

(١) قائله الفرزدق ديوانه ٢٨٣هـ والخزانة ٢/٨٧ والطبري ٥ | ٣٠٢ و١٣ و٥١٩

والاول احسن ، لأن المعنى لم لا يعذبهم الله . فان قيل : كيف تجمعون بين الآيتين على قول من لا ينسخ الاولى ، فان في الاولى نفى ان يعذبهم الله وهم يستغفرون وفي الثانية اثبت ذلك ؟ قلنا عنه ثلاثة اجوبة :

احدها - ان يكون أراد وما لهم ان لا يعذبهم الله في الآخرة
والثاني - ان يكون يعني بالاولى عذاب الاستئصال كما فعل بالاهم الماضية
وبالثانية اراد عذاب السيف والاسر وغير ذلك ويكون قوله « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » اي انه لا يعذبهم بعذاب الدنيا ، والآخرة إذا تابوا واستغفروا .
الثالث - أنه لا يعذبهم مادام النبي فيهم وما داموا يستغفرون وإن كانوا يستحقون العذاب بكفرهم وعنادهم .
وقوله : « ولكن أكثرهم لا يعلمون » دليل على بطلان قول من قال المعارف ضرورة .

قوله تعالى

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا
الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥) آية .

روى الحسين العجفي عن ابي بكر « صلاتهم » نصباً « إلامكاء وتصديعة » رفع فيهما . والصواب ما عليه القراء ، لان « صلاتهم » معرفة و « مكاء وتصديعة » نكرة ولا يجوز ان يجعل اسم كان نكرة وخبره معرفة . ومن قرأ كذلك فلان الصلاة لما كانت مؤنثة ولم يكن في كان علامة التأنيث اضاف الفعل إلى المذكور وهو « مكاء » . وهذا ليس بصحيح ، لأن « صلاتهم » لما كان مضافاً إلى المذكور جاز ان يذكر كما ان المذكور إذا اضيف إلى المؤنث جاز ان يؤنث ، نحو قولهم : ذهبت بعض اصابعه .

ومعنى الآية الاخبار من الله تعالى أنه لم تكن صلاة هؤلاء الكفار الصادين عن المسجد الحرام « إلا مكاء » لئلا يظن ظان ان مع كونهم مصليين ومستغفرين لا يعذبهم الله ، كما قال في الآية الاولى ، فيبين ان صلاتهم كانت مكاء وتصدية .
والمكاء صفير كصفير المكاء . وهو طائر يكون بالحجاز وله صفير قال الشاعر :

ومكائها فكأنما يمكو بأعصم عاقل (١)

وأصل المكاء جمع الريح للمصفير . ويقال مكا يمكو مكاء إذا صفر بفيه ومنه يمكو است الدابة إذا انتفخت بالريح . والاس : الكوة ، والمكو ان يجمع الرجل يديه ثم يدخلهما في فيه ثم يصيح . ومنه قول عنترة :

وحليل غانية تركت مجدلاً تمكو فريضته كشدق الاعلم (٢)

اي يصفر بالريح لما طعنه والتصدية التصفيق يقال صدى يصدى تصدية إذا صفق بيديه . ومنه الصدى صوت الجبل ، ونحوه . ومنه تصدى للملك إذا تعرض له ليكلمه . وقال ابن عباس ، وابن عمر ، والحسن ، وعطية ، ومجاهد ، وقادة والسدي : المكاء الصفير ، والتصدية التصفيق ، قال الراجز :

ضنت بخد وجلت عن خد فأنا من غرو الهوى أصدى

أي اصفق بيدي تعجباً . والغرو : العجب .

وقال ابو علي الجبائي : كان بعضهم يتصدى لبعض ليراه بذلك الفعل ، وكان يصفر له . وقال سعيد بن جبير وابن زيد : التصدية صدهم عن البيت الحرام . وقيل : إنهم كانوا يخلطون ويشوشون بذلك على النبي ﷺ .
وإنما سمي مكاءهم بأنه صلاة لأمرين :

(١) مجاز القرآن ١ | ٢٤٦

(٢) ديوانه : ٢٤ من معلقته الشهيرة . واللسان (مكا) وتفسير القرطبي

٧ | ٤٠٠ والطبري ١٣ | ٥٢١ .

احدهما - انهم كانوا يقيمون فعلهم الصغير والتصفيق مقام الصلاة والدعاء والتسبيح .

والاخر - انهم كانوا يعملون كعمل الصلاة مما فيه هذا .

وقوله « فذوقوا العذاب » قال الحسن ، والضحاك ، وابن جريج ، وابن اسحاق : إن معناه عذاب السيف . وقال ابو علي الجبائي : يقال لهم في الاخرة « ذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » في دار الدنيا وهو قول البلخي . والمعنى باشروه وليس المراد به من ذوق الغم .

قوله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ * وَالَّذِينَ
كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦)

آية في الكوفي والمدنيين وآيتان في البصري خاصة .

أخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار بأنهم ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله وغرضهم المنع عن سبيل الله . وسبيل الله ههنا ، هو دين الله الذي أتى به محمد ﷺ وسمى سبيل الله ههنا ، لان بسلوكه واتباعه يبلغ ما عند الله ، وإن لم يعلموا أنها سبيل الله لانهم قصدوا إلى الصد عنها ، وهي سبيل الله على الحقيقة . ويجوز أن يقال قصد الصد عن سبيل الله ، وإن لم يعلم . ولا يجوز قصد أن يصد من غير أن يعلم ، لأن (أن) تفسر الوجه الذي منه قصد ، فلا يكون إلا مع العلم بالوجه كقولك قصد أن يكذب ، وقصد الكذب من غير ان يعلم أنه كذب .

وإنما قال « ينفقون » ثم قال « فسيتقونها » ، لأن الاول معناه ان من

شأنهم ان يتفقوا للصد، والثاني - معناه انه سيقع الانفاق الذي يكون حسرة بما يرونه من الغلبة . والحسرة الغم بما انكشف من فوت استدراك الخطيئة والاصل الكشف من قولهم حسر عن ذراعه يحسر حسراً والحاسر خلاف الدارع . وحسر حسرة وهو حسير قال المراد :

ما انا اليوم على شيء خلا يابنة القين تولي يحسرا (١)

وكان الانفاق المذكور في الاية القائم به أبو سفيان : صخر بن حرب استأجر يوم أحد ألفين من الاحابيش من كنانة في قول سعيد ، وابن ابري ، ومجاهد والحكم ابن عيينة . وفي ذلك قال كعب بن مالك :

وجئنا إلى موج من البحر وسطه احابيش منهم حاسر ومقنع
ثلاثة آلاف ونحن نصية ثلاث مئين ان كثرن فأربع (٢)
وقال الضحاك : إنما عنى بالآية الانفاق يوم بدر .

وفي الآية دلالة على نبوة النبي ﷺ لانه اخبر بالشيء قبل كونه فكان على ما اخبر به .

قوله تعالى :

لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ
عَلَىٰ بَعْضٍ قَيْرَ كُمْهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ
(٣٧) آية بلاخلاف .

(١) اللسان (حسر) . الحسر : الندامة . والقين العبد المملوك .

(٢) سيرة ابن هشام ٣ / ١٤١ ، وطبقات فحول الشعراء : ١٨٣ . والطبري

١٣ / ٥٣٠ ومقاييس اللغة ٢ / ١٢٩ .

قرأ حمزة والكسائي « ليميز » مضمومة الياء مشددة ، والباقون بفتح الياء خفيفاً .

أخبر الله تعالى انه يحشر الكفار إلى جهنم « ليميز الخبيث » الذي هو الكافر « من الطيب » الذي هو المؤمن . (والتمييز) هو إخراج الشيء عما خالفه مما ليس منه ، وإلحاقه بما هو منه . تقول مازه يميزه ، وميزه تمييزاً . وامتاز امتيازاً وامتاز امتيازاً والخبيث الرديء من كل شيء . وصدده الطيب . ومنه خبث الحديد وخبث الفضة ، وخبث الانسان خبثاً ، وخبثت تخبثاً ، وتخابثت تخابثاً وخبثته تخبثاً و (الطيب) المستلذذ من الطعام والطيب الحلال من الرزق ، والطيب من الولد الذي يفرح به والطيب نقيض الخبيث ، وهو الجيد من كل شيء .

وقيل المعنى ليميز الله ما انفقه المؤمنون في طاعة الله مما انفقه المشركون في معاصيه . وقوله « ويجعل الخبيث بعضه على بعض » معناه إن الكافر يكون على اسوء حال كالمتاع والركام ، هواناً ، وتحقيراً ، وإذلالاً .

وقوله « فير كمه جميعاً » معناه تراكب بعضه فوق بعض . كالرمل الركام وهو المترالكب . ركمه ير كمه ركاماً وتراكم تراكماً وارتكمت ارتكاماً . ومنه قوله تعالى في صفة السحاب « ثم يجعله ركاماً » (١) وقال الحسن ير كمهم الله مع ما انفقوا في جهنم ، كما قال « يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » (٢) ثم اخبر انه اذا ركمه جميعاً يجعله في جهنم واخبر عنهم بأنهم الخاسرون نفوسهم باهلاكهم اياها بارتكاب المعاصي والكفر المؤدي الى عذاب الابد .

قوله تعالى :

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ

(١) سورة ٢٤ النور آية ٤٣

(٢) سورة ٩ التوبة آية ٣٦

يَعُودُوا وَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨) آية .

أمر الله تعالى نبيه ﷺ ان يقول للكفار إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف والمعنى إن انا بوا عن الكفر والمعاصي وتابوا منها توبة خالصة ، لأن الكف عن المعاصي مع الاصرار لا يوجب الغفران . وإنما اطلق الوعد في الآية بالانتهاة عن المعصية ، لان الانتهاة عنها لا يكون مع الاصرار عليها ، لان الاصرار معصية . وقوله « وان يعودوا فقد مضت سنة الاولين » معناه وان يعودوا ، ويرجعوا إلى المعصية « فقد مضت سنة الاولين » في تعجيل العقاب لهم في الدنيا بعدذاب الاستئصال وما جرى مجراه من الاسر والقتل ، يوم بدر ، وبالنصر من الله ، في قول الحسن ومجاهد ، والسدي .

والسلوف : التقدم ، تقول سلف يسلف سلوفاً واسلف إسلافاً وتسلف تسلفاً وسلفه تسلفاً وتسليفاً واستسلف استسلافاً ، والسالفة اعلى العنق ، والسالفة اخلص الخمر واجودها . والسلفان المتزوجان باختين والسنة الطريقة التي يجري عليها الامر ، ومنه قولهم هذا مستمر على سنن واحد .

قوله تعالى :

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كَلِمَةً لِلَّهِ فَإِنْ
 أَنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
 مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ الْمُنصِرُ (٤٠) آيتان .

أمر الله تعالى بهذه الآية نبيه ﷺ والمؤمنين ان يقاتلوا الكفار « حتى لا تكون فتنة » وهي الكفر من غير اهل العهد ، وما جرى مجراه من البغي ، لأنهم يدعون الناس إلى مثل حالهم بتعززهم على اهل الحق وتناولهم فيفنونهم في دينهم .

وقال ابن عباس ، والحسن : معناه حتى لا يكون شرك . وقال ابن اسحاق حتى لا يفتن مؤمن عن دينه ، والفرق بين قوله « حتى لا يكون فتنة » وبين قوله حتى لا يكون كفر هو ان الدليل والأسير والشريد لا يفتن الناس في دينهم لان الذل لا يدعو الى حال صاحبه كما يدعو العز .

وقوله « ويكون الدين كله لله » معناه ان يجمع اهل الباطل وأهل الحق على الدين الحق فيما يعتقدونه ويعملون به ، فيكون الدين كله حينئذ لله بالاجتماع على طاعته وعبادته ، والدين ههنا الطاعة بالعبادة .

وقوله « فان انتهوا فان الله بما تعملون بصير » معناه فان رجعوا عن الكفر وانتهوا عنه فان الله يجازيهم مجازاة البصير بهم وبأعمالهم باطنها وظاهرها لا يخفى عليه شيء منها .

وقوله « وإن تولوا فاعلموا ان الله مولاكم » قيل في معناه قولان :

احدهما - وان تولوا هؤلاء الكفار وارضوا عن الدين الحق واتباعه فثقوا بالله وتذكروا ما وعدكم به ايها المؤمنون تسكيناً لنفوسهم وتمكيناً للحق عندهم .
والثاني - فاعلموا ان الله ينصركم على طريق الأمر بعلمهم ههنا ليكونوا على بصيرة في ان الغلبة لهم وقوله « وإن تولوا » شرط . وقوله « فاعلموا أن الله » امر في موضع الجواب ، وإنما جاز ذلك لان فيد معنى الخبر ، فلم يخرج من ان يجب الثاني بالاول ، كأنه قال فواجب عليكم العلم بأن الله مولاكم او فينبغي ان تعلموا ان الله مولاكم .

والمولى ههنا هو الناصر . وهو الذي يوليكم عن الغلبة . والمولى على اقسام : بمعنى الناصر وبمعنى الحليف ، وبمعنى المعتق والمعتق . وبمعنى الأولى والأحق كما قال لبيد :

فقدت كلا الفرجين يحسب انه مولى المخافة خلفها وامامها (١)

ومنه قول النبي ﷺ «أيما امرأة نكحت بغير إذن مولاها فنكاحها باطل»،
اي من هو اولى بالعقد عليها . وقال الأخطل له يمـدح عبدالمملك بن

مروان :

فاصبحت مولاها من الناس كلهم واحرى قریش ان تهاب وتحمدا (١)
وقال ابو عبيدة : ومنه قوله « النار مولاهم » معناه الاولى بهم واستشهد بييت
لبيد المتقدم ذكره . وقد استوفينا اقسام مولى في غير هذا الموضوع (٢) فلا نطول
بذكره ههنا . والتولي عن الدين هو الذهاب عنه الى خلافه وهو والاعراض بمعنى
واحد والتولي في الدين هو الذهاب إلى حبة الحق ومباعة النبي ﷺ والنصرة له
والمعونة له .

قوله تعالى :

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ حُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ
وَلِلَّذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ
بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقْيِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) آية .

الغنيمة ما اخذ من اموال اهل الحرب من الكفار بقتال . وهي هبة من الله
تعالى للمسلمين . والفيء ما اخذ بغير قتال في قول عطا بن السائب ، وسفيان الثوري
وهو قول الشافعي ، وهو المروي في اخبارنا .

وقال قوم : الفيء والغنيمة واحد . وقالوا إن هذه الآية ناسخة للتي في
الحشر من قوله « ما افاء الله على رسوله من اهل القرى ، فله وللرسول ولذي

(٢) في ٣ / ١٨٦ ، ١٨٧ .

(١) مر هذا البيت في ٣ / ١٨٧

القريبى واليتامى والمساكين وابن السبيل» (١) لأنه بين في هذه الآية ان الأربعة اخماس للمقاتلة . وعلى القول الأول لا يحتاج إلى هذا ، وعند اصحابنا ان مال النبي ﷺ خاصة يفرقه فيمن شاء بعضه في مؤنة نفسه وذوي قرابته . واليتامى والمساكين وابن السبيل من اهل بيت رسول الله ليس لسائر الناس فيه شيء . واما خمس الغنيمة ، فانه يقسم عندنا ستة اقسام : فسهم لله ، وسهم لرسوله للنبي ، وهذان السهمان مع سهم ذي القربى . للقاء مقام النبي ﷺ يتفقها على نفسه وأهل بيته من بني هاشم ، وسهم لليتامى : وسهم للمساكين : وسهم لأبناء السبيل من أهل بيت الرسول لا يشر كههم فيها باقي الناس لأن الله تعالى عوضهم ذلك عما اباح لفقراء المسلمين ومساكينهم وابناء سبيلهم من الصدقات إذ كانت الصدقات محرمة على أهل بيت الرسول ﷺ وهو قول علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وعبد بن علي الباقر ابنه عليه السلام رواه الطبري باسناده عنهما .

وقال الحسين بن علي المغربي حاكياً عن الصابوني من اصحابنا ، إن هؤلاء الثلاثة فرق لا يدخلون في سهم ذي القربى وإن كان عموم اللفظ يقتضيه ، لأن سهامهم مفردة ، وهو الظاهر من المذهب . والذين يستحقون الخمس عندنا من كان من ولد عبدالمطلب ، لأن هاشماً لم يعقب إلا منه : من الطالبيين والعباسيين والحارثيين والزهريين ، فاما ولد عبد مناف من المطلبيين ، فلا شيء لهم فيه ، وعند اصحابنا الخمس يجب في كل فائدة تحصل للانسان من المكاسب وأرباح التجارات والكنوز والمعادن والغوص وغير ذلك مما ذكرناه في كتب الفقه .

ويمكن الاستدلال على ذلك بهذه الآية ، لأن جميع ذلك يسمى غنيمة .

وقال ابن عباس ، وابراهيم ، وقتادة ، وعطاء : الخمس يقسم خمسة أقسام فسهم الله وسهم الرسول واحد .

وقال قوم : يقسم أربعة أقسام سهم لبني هاشم وثلاثة للذين ذكروا بعد ذلك

من سائر المسلمين، ذهب اليه الشافعي .

وقال اهل العراق : يقسم الخمس ثلاثة اقسام ، لان سهم الرسول صرفه للأئمة الأربعة إلى الكراع والسلاح .

وقال مالك : يقسم على ما ذكره الله . ويجوز للامام ان يخرج عنهم حسب ما يراه وإنما جاء على طريق الأولى في بعض الاحوال .

وقال ابو العالية - وهو رجل من صالحى التابعين - يقسم ستة اقسام ، فسهم الله للكعبة ، والباقي لمن ذكر بعد ذلك .

وقال ابن عباس ومجاهد : ذوالقربى هم بنو هاشم ، وقد بينا نحن ان المراد بذى القربى اهل بيت النبي ﷺ ، وبعد النبي القائم مقامه ، وبه قال علي بن الحسين عليهما السلام وروى جبير بن مطعم عن النبي ﷺ انهم بنو هاشم ، وبنوا المطلب واختاره الشافعي وقال الحسن وقتادة : سهم الله وسهم رسوله وسهم ذى القربى لولي الأمر من بعده وهو مثل مذهبنا . وقال ابو علي الجبائي : إن الأئمة الأربعة جعلوا سهم الرسول وذى القربى في الكراع والسلاح واجمعوا على ان سهم اليتامى والمساكين وابن السبيل شائع في الناس بخلاف ما قلناه . واليتيم من مات أبوه وهو صغير قبل البلوغ . وكل حيوان يتيم من قبل أمه إلا ابن آدم ، فانه من قبل ابيه .

واما ابن السبيل ، فهو المنتقطع به في سفره . وإنما قيل ابن السبيل بمعنى اخرجته إلى هذا المستقر ، كما يخرج ابوه من مستقره لقي محتاجاً .

والمسكين المحتاج الذي من شأنه ان تسكنه الحاجة عما ينهض به الغنى . وقوله « فأن لله خمسة » قيل في فتح (ان) قولان احدهما - فعلى ان لله خمسة وحذف حرف الجر فنصب الثاني - انه عطف على (ان) الأولى وحذف خبر الأولى لدلالة الكلام عليه ، وتقديره اعلموا ان ماغنمتم من شيء يجب قسمته واعلموا ان لله خمسة . قال الفراء : إنه جزء بمنزلة « ألم يعلموا انه من يحادر الله ورسوله فان له نار جهنم خالداً » (١) قال الرماني : هذا غلط

لأن (ان) لاتدخل على الجزاء إلا مع العماد ، كما لاتدخل (ان) إلا على هذا الوجه .

وقوله « إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » معناه اعلّموا أنما غنمتم من شيء لهؤلاء الذين ذكروا نعم ان كنتم مؤمنين بالله مصدقين له في اخباره وما انزله على عبده محمد ﷺ من القرآن .

وقال الزجاج يجوز ان يكون قوله « إن كنتم آمنتم بالله » متعلقاً بقوله « فاعلموا ان الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير . ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان » اي فايقنوا ان الله ناصركم إذ كنتم شاهدتهم من نصره ماشاهدتم . وممنى « يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » يوم بدر وسمي يوم الفرقان لانه تميز اهل الحق مع قاة عددهم من المشركين مع كشرة عددهم بنصر الله المؤمنين . وقيل كان يوم السابع عشر من شهر رمضان وقيل التاسع عشر ، سنة اثنتين من الهجرة ؟ وهو المروي عن ابي عبدالله عليه السلام ثم قال « والله على كل شيء قدير » اي هو قادر على مجازاة من اطاعه بجزيل الثواب ، وعلى عقاب من عصاه باليتم العذاب .

قوله تعالى :

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ
أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافِكُمْ فِي الِيبَعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ
اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا (٤٢) لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيِيَ
مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٣)

آيتان في المدينين والبصري وآية واحدة في الكوفي .

قرأ ابن كثير وابو عمرو (بالعدوة) بكسر العين ، الباقون بضمها وهما لغتان قال الراعي في الكسر :

وعينان حمر مآقيهما كما نظر العدوة الجؤذر (١)

وقال أوس بن حجر في الضم :

وفارس لا يحل الحي عدوته ولوا سراعاً وما هموا باقبال (٢)

والعدوة شفير الوادي . وقال البصريون: الكسر اكثر اللغات . وقال احمد

ابن يحيى : بالضم اكثر . وقال قوم : هما لغتان سواء ، وقرأ نافع وابو بكر عن

عاصم وابن كثير في رواية البزي وشبل « حيي » باظهار الياءين . وقرأ الباقون

بالادغام وإنما جاز الادغام في (حيي) للزوم الحركة في الثاني يجري مجرى

(ردوا) إذا اخبروا عن جماعة قالوا : حيوا فخففوا وقد جاء مدغماً ، فقالوا حيوا

ومن اختار الاظهار ، فلأمتناع الادغام في مضارعه من يحيى فجرى على شاكلته

قال الزجاج ، لأن الحرف الثاني ينتقل عن لفظ الياء تقول حيي يحيى فاما احبا

يحيى فلا يجوز فيه الادغام عند البصريين ، لان الثاني إذا سكن في الصحيح من

المضاعف في نحو لم يردد كان الاظهار أجور فالمعتل بذلك أولى ، لان سكونه ألزم

فلذلك وجه الاظهار في (يحيى) لانه أحق من (لم يردد) لان السكون له ألزم

وقد أجاز القراء الادغام في يحيى وانشد بيتاً لا يعرف شاعره :

وكانها بين النساء سبيكة تمشي بشدة بأنها فتعي (٣)

تقدير معنى الآية واذكروا أيها المؤمنون « إذا تم بالعدوة » وهي الجهة

التي هي نهاية الشيء من احد جانبيه . ومنه قولهم عدوتنا الوادي . وهما شفيراه

وجانباه . و (الدنيا) بمعنى الأدنى الى المدينة . و (القصوى) بمعنى الأقصى

منها الى جهة مكة ، وذلك ان النبي ﷺ واصحابه نزلوا بالجانب الأدنى إلى المدينة . وقريش نزلت بالجانب الأقصى منها الى مكة فنزلا الوادي بهذه الصفة ، قد اکتنفا شفيريه . وقوله « والركب اسفل منكم » يعني اباسفيان واصحابه في موضع اسفل منكم الى ساحل البحر . وإنما نصب اسفل ، لان تقديره بمكان اسفل . فهو في موضع خفض ، ونصب لانه لا ينصرف وكان يجوز الرفع على تقدير والركب أشد سفلا منكم ، ومن نصب يجوز ان يكون اراد والركب مكاناً اسفل منكم بجعله ظرفاً . والذي حكيناه ، هو قول الحسن ، وقتادة ، وابن اسحاق ومجاهد والسدي .

واصل الدنيا الدنو بالواو ، بدلالة قولهم دنوت إلى الشيء أدنو دنواً ، فقلبت الواو ياء . ولم تقلب مثل ذلك في القصوى ، لأنه ذهب بالدنيا مذهب الاسم في قولهم الدنيا والاخرة ، وان كان اصلها صفة ، فخففت . لأن الاسم احق بالتحفيف . وتقول : ادناه ارناء واستدناه استدناء ، وتداناو تدانياً . وداناه مداناة . و (العلو) قرار تحته قرار . و (السفل) قرار فووقه قرار ، تقول : سفلى سفلا ، وتسفل تسفلا وتسافل تسافلا وسفلى تسفيلاً ، وسافله مسافلة ، وهو الاسفل ، وهي السفلى .

وقوله « ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد » والمواعدة وعد كل واحد من الاثنين الآخر وتواعدوا توعداً . و (الاختلاف) مذهب كل واحد من الشئين في نقيض الآخر ، ومنه الاختلاف في الميعاد لذهاب كل واحد من الفريقين فيما يناقض الميعاد من التقدم والتأخر والزيادة والنقصان عما انعقد به الميعاد .

وقيل: اختلفهم في الميعاد بمعنى « لو تواعدتم » أيها المؤمنون على الاجتماع في الموضوع الذي اجتمعتم فيه ثم بلغكم كثرة عددهم مع قلة عددكم لتأخرتم فتنضمتم الميعاد ، في قول ابن اسحاق . ووجه آخر « ولو تواعدتم » من غير لطف الله لكم « لاختلفتم » بالعوائق والقواطع فذكر الميعاد لتأكيد امره في الاتفاق ولولا

لطف الله مع ذلك لوقع على الاختلاف كما قال الشاعر :

جرت الرياح على محل ديارهم فكانما كانوا على ميعاد
وقوله « ليقضي الله امرأً كان مفعولا » معناه ليفصل الله امرأً كان مفعولا
من عز الاسلام وعلموا هله على عبدة الاوثان وغيرهم من الكفار بحسن
تدبيره ولطفه .

وقوله « ليهلك من هلك عن بينة » معناه ليهلك من هلك عن قيام حجة عليه
بما رأى من المعجزات الباهرات للنبي ﷺ في حروبه وغيرها « ويحيى من حي
عن بينة » يعني ليستبصر من استبصر عن قيام حجة ، فجعل الله المتبع للحق بمنزلة
الحي ، وجعل الضال بمنزلة الهالك .

وقوله : « وإن الله لسميع عليم » معناه « سميع » لما يقوله القائل في ذلك
« عليم » بما يضمه ، فهو يجازيه بحسب ما يكون منه .

قوله تعالى

إِذْ يَرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكُمْ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْكُمْ كَثِيرًا
لَفَشَلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ (٤٤) آية .

التقدير واذ كر يا محمد « إذ يريكم الله في منامك قليلا » والهاء والميم كناية
عن الكفار الذين قاتلوه يوم بدر « ولو أراكم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الامر »
وهذه الرؤية كانت في المنام عند اكثر المفسرين . والرؤيا في المنام تصور يتوهم
معه الرؤية في اليقظة والرؤيا على اربعة اقسام : رؤيا من الله عز وجل ، ولها تأويل
ورؤيا من وسوسة الشيطان ، ورؤيا من غلبة الاخلاط ، ورؤيا من الافكار ، وكلها
أضغاث أحلام إلا الرؤيا من قبل الله تعالى التي هي إلهام في المنام يتصور به الشيء

كأنه يرى في اليقظة . ورؤيا النبي ﷺ هذه بشارة له ، وللمؤمنين بالقلبة
وقال الحسن : معنى « في منامك » في عينك التي تنام بها ، وليس من الرؤيا
في النوم ، وهو قول البلخي ، وهو بعيد ، لأنه خلاف الظاهر من مفهوم الكلام .
قال الرهاني : ويجوز أن يريه الله الشيء في المنام على خلاف ما هو به ، لأن
الرؤيا في المنام يخيل له المعنى من غير قطع وإن جاء معه تطلع من الانسان على
المعنى وإنما ذلك على مثل تخييل السراب ماء من غير تطلع على أنه ماء ، فهذا
يجوز ان يفعله الله . ولا يجوز ان يلهمه إعتقاد الشيء على خلاف ما هو به . لان
ذلك يكون جهلا ، ولا يجوز أن يفعله الله تعالى .

والنوم ضرب من السهو يزول معه معظم الحس ، تقول نام ينام نوماً ونومه
تنوياً وأنامه إنامة وتناوم تناوماً واستنام استنامة . و (المنام) موضع النوم
والمضطجع موضع الاضطجاع .

و (القلة) نقصان عن عدد ، كما أن الكثرة زيادة على عدد يقال : قل يقل
قلة وقلته تقليلاً ، واستقل استقلالاً وتقلل تقللاً . والشيء يكون قليلاً بالاضافة إلى
ما هو أكثر منه . ويكون كثيراً بالاضافة إلى ما هو أقل منه وأقله إقلالاً إذا
أطاقه فصارفه قليلاً في طاقته ، فهو مشتق من هذا واستقل من المرض إذا قوي
قوة يزول بها المرض اي وجده قليلاً في قوته لا يعتمد به .

وقوله « لفشلتم » فالفشل ضعف الوجل لان الضعف قد يكون لمرض من غير
فزع وقد يكون من فزع . فالفشل إنما هو الضعف عن فزع . فشل بفشل فشلاً
فهو فاشل ، وفشله تفشيلاً : إذا نسبه إلى الفشل ، وتفاشلوا تفاشلاً .

وقوله « ولتنازعتهم » فالتنازع الاختلاف الذي يحاول كل واحد منهم نزع
ساحبه مما هو عليه تنازعوا تنازعا ، ونازعه منازعة ونزع عن الامر ينزع نزوعاً ،
واستنزعه إذا طلب نزوعه . وانزعه إذا اقتلعه عن مكانه .

وقوله « ولكن الله سلم » فالسلامة النجاة من الآفة . سلم يسلم سلامة وأسلمه

إسلاماً إذا دفعه على السلامة ، وأسلم الانسان إذا دخل في السلامة من جهة الدين وسلمه تسليماً إذا نجاه . واستسلم استسلاماً اذا سلم نفسه للامر ، وتسلم تسليماً إذا طلب السلامة ، واستلم الحجر إذا طلب مسه على السلامة وسالمه مسالمة ، وتسالما تسالماً .

وقوله « إنه عليم بذات الصدور » فالصدر الموضوع الأجل لكون القلب فيه . وصدر المجلس أجله ، لانه موضع الرئيس ، وصدر الدار مشبه بصدر الانسان لانه المستقبل منه كاستقباله من الانسان يقال صدر يصدر صدوراً واصدره اصداراً وتصدر تصدراً وصدره تصديراً وصادره مصادرة ، وتصادروا تصادراً .

فغائدة الآية إن الله لطف للمؤمنين بما لو لم يكن لفشلوا . ولاضطرب امرهم واختلقت كلمتهم . ولكن سلمهم الله من ذلك بلطفه لهم واحسانه بهم حتى بلغوا ما ارادوه من عدوهم .

قوله تعالى:

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيِّبَاتُ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٥) آية

التقدير اذكروا أيها المؤمنون إذ يريكموهم ، فالهاء والميم كناية عن المشركين ، والكاف والميم كناية عن المؤمنين ، أرى الله تعالى الكفار قليلين في أعين المؤمنين ليشدد بذلك طمعهم فيهم وجرأتهم عليهم ، وقلل المؤمنين في أعين الكفار لئلا يتأهبوا ولا يستعدوا لقتالهم ولا يكثر ثوا بهم ويظفر بهم المؤمنون . والمراد بالرؤية ههنا الرؤية بالبصر ، وهو الادراك بحاسة البصر والرائي هو المدرك . والعين حاسة يدرك بها البصر ، والعين مشتركة ، فمنها عين الماء ، وعين الميزان ، وعين الركة ، وعين الذهب ، والعين النفس ، والاتقاء اجتماع الاتصال ، لان الاجتماع

على وجهين : اجتماع الاتصال واجتماع في معنى من غير اتصال كاجتماع القوم في الدار ، وان لم يكن هناك اتصال . ويقال للعسكريين إذا تصافوا للتقيا لوقوع العين على العين .

فان قيل كيف قللهم الله في أعينهم مع رؤيتهم لهم ؟ قلنا : بأن يتخيلوهم بأعينهم قليلا من غير رؤية على الصحة لجميعهم وذلك بلطف من ألطافه تعالى مما يصد به عن الرؤية من قنات يستر بعضهم ولا يستر بعضاً آخر . وروي عن ابن مسعود انه قال رأيناهم قليلا حتى قلت لمن كان الى جانبي أترأهم سبعين رجلا ؟ فقال لي هم نحو المئة . فلما اسرنا رجلا منهم سألناه كم كانوا ، فقال ألفاً .

وقوله « ليقضي الله امرأً كان مفعولاً » إنما كرهه في هذه الآية مع ذكره في الآية الاولى ، لاختلاف الفائدة ، فمعناه في الآية الاولى « ولوتواءدتم لاختلقتم في الميعاد . ولكن ليقضي الله امرأً كان مفعولاً » من الالتقاء على الصفة التي حصلت على عليها . ومعناه في الثانية يقلل كل فريق في عين صاحبه « ليقضي الله امرأً كان مفعولاً » من اعزاز الدين بجهدكم على مادبره لكم . وإنما قال « كان مفعولاً » والمعنى يكون مفعولاً في المستقبل لتحقيق كونه لاحالة حتى صار بمنزلة ما قد كان إذ قد علم الله انه كائن لاحالة .

وقوله تعالى « والى الله ترجع الأمور » اي ترجع الامور الى ملكه وتدبيره خاصة ، ويزول ملك كل من ملكه في دار الدنيا .

قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ
كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٦) آية بلاخلاف .

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين خاصة يأمرهم بأنهم اذا لقوا جماعة من الكفار لحربهم أن يشبثوا ويذكروا الله كثيراً ، ويستنصروه عليهم لكي يفلحوا ويفوزوا بالظفر بهم ، وبالثواب عند الله يوم القيامة . وقد بينا ان معنى الايمان هو التصديق بما أوجبه الله على المكلفين أو نديهم اليه . والفئة الجماعة المنقطعة من غيرها وأصله من فأوت رأسه بالسيف اذا قطعته . والثبوت حصول الشيء في المكان على استمرار ، يقال طن استمر على صفة : قد ثبت كثبوت الطين . والذكر ضد السهو ، وقد يكون الذكر القول من غير سهو . والفئة المذكورة في الآية وان كانت مطلقة ، فالمراد بها المشركة او الباغية ، لأن الله لا يأمر المؤمنين بالثبوت لقتال احد الا من هو بهذه الصفة ، ولا يأمر بقتال المؤمنين .

قوله تعالى :

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٧) آية .

أمر الله تعالى هؤلاء المؤمنين الذين ذكرهم بأن يطيعوا الله ورسوله ، ولا يختلفوا فيضعفوا عن الحرب . والعامل في « فتفشلوا » الفاء التي هي بدل من (أن) على معنى جواب النبي كقولك لاتأت زيدا فيمينك ، ولذلك عطف بالنصب في قوله « وتذهب ريحكم » عليه .

وقوله « وتذهب ريحكم » معناه كالمثل أي ان لكم ريحاً تنصرون بها . يقال ذهب ريح فلان اي كان يجري في امره على السعادة بريح تحمله اليها ، فلما ذهبت وقف امره ، فهذه بلاغة حسنة . وقيل : المعنى ريح النصر التي يبعثها الله مع من ينصره على من يخذله ، في قول فنادة وابن زيد . وقيل : تذهب دولتكم ، من قولهم ذهب ريحه ، أي ذهبت دولته . في قول ابي عبيدة وامي علي . وقال عبيد

ابن الابرس :

كما حميناك يوم النعف من شطب والفضل للقوم من ريح ومن عدد (١)
اي من ريح عز ومن عدد . وقال أبو جعفر عليه السلام : هذه الآية نزلت حين
أشار خباب بن المنذر على النبي صلى الله عليه وآله ان ينتقل من مكانه حتى ينزلوا على الماء
ويجيئوهم من خلفهم ، فقال بعضهم لا تنفقر معصاتك يا رسول الله . فتنازعا ، فنزلت
الآية وعمل النبي صلى الله عليه وآله على قول خباب .

قوله تعالى :

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ
وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٨) آية .

نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية ان يكونوا مثل « الذين خرجوا من
ديارهم بطلاً ورئاء الناس » وهم قريش ، لما خرجت اتحمي العير ، فلما نجا ابو
سفيان ارسل اليهم ان ارجعوا ، فقد سلمت عير كم وهم بالجحفة : فقال أبو جهل
والله لانرجع حتى نرد بداراً وننجر جزراً ، ونشرب خمراً وتعزف علينا القيان
ويرانا من غشينا من اهل الحجاز ، ذكره ابن عباس ومجاهد وعروة بن الزبير
وابن اسحاق . والبطر الخروج عن موجب النعمة - من شكرها ، والقيام بحقتها -
الى خلافه . وأصله الشق فمنه البيطار الذي يشق اللحم بالمبضع ، وبطر الانسان بطلاً
وابطره كثرة النعمة عليه بطلاً وبطره تبطيراً . والرئاء اظهار الجميل مع ابطان القبيح
تقول : راعى يرأى مراعاة ورياء . والمرأى رجل سوء لما بينا . والنفاق اظهار
الايان مع ابطان الكفر . والصد المنع . وقيل هو جعل ما يدعو إلى الاعراض

(١) ديوانه : ٤٩ والطبري ٥٧٥/١٣ واعجاز القرآن للباقلاني : ١٣١

و (النعف) ما انحدر من حزونة الجبل و (شطب) اسم جبل .

فهؤلاء يصدون عن سبيل الله بما يدعون الناس إلى الاعراض عنها من معادات أهلها وقتالهم عليها وتكذيبهم بما جاء به الداعي إليها . والفرق بين الصد والمنع أن المنع ما يتعذر معه الفعل والصد ما يدعو إلى ترك الفعل .

وقوله « والله بما تعملون محيط » معناه يحتمل أمرين : أحدهما - انه يحيط علمه بما يعملونه . الثاني - انه قادر على جزاء ما يعملونه من ثواب أو عقاب .

قوله تعالى :

وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ
الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئْتَانِ نكصَ عَلَى
عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ
اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٩) آية .

التقدير : واذكر « إذ زين لهم » يعني المشركين « زين لهم الشيطان أعمالهم » بمعنى حسنها في نفوسهم والتزيين هو التحسين . والمعنى أن إبليس حسن للمشركين أعمالهم وحرصهم على قتال محمد ، وخرجهم من مكة ، وقوى نفوسهم ، وقال لهم « لا غالب لكم اليوم من الناس » . تقول غلب يغلب غلبة ، فهو غالب ، وغالبه مغالبة وتغالباتغالباً وغلبه تغليباً . والغلبة القهر للمنازع ، والملك لامره .

وقوله « وإنني جار لكم » حكاية عما قال إبليس للمشكرين ، فانه قال لهم اني جار لكم ، لأنهم خافوا بني كنانة لما كان بينهم ، فأراد إبليس بأن يسكن خوفهم ، والجار هو الدافع عن صاحبه السوء أجاره يجيره جواراً . ومنه قوله « وهو يجير ولا يجار عليه » (١) اي يعقد لمن احب دفع الضرر عنه من كل احد

ولا يعقد عليه ، فالجار المجير . وقوله « فلما تراءت الفئتان » معناه ، فلما التقنا ورأى بعضهم بعضاً « نكص » يعني ابليس « على عقبه » والنكوص هو الرجوع فقهرى خوفاً مما يرى . نكص ينكص نكوصاً ، قال زهير .

هم يضربون حبيك البيض اذ لحقوا لا ينكصون اذا ما استلجموا وحموا (١)
واختلفوا في ظهور الشيطان لهم حتى رأوه ، فقال ابن عباس ، والسدي وقتادة ، وابن اسحاق . : ظهر لهم في صورة سراقه بن مالك بن جعشم الكداني المدلجي في جماعة من جنده ، وقال لهم : هذه كنانة قد أتتكم نجدة ، فلما رأى الملائكة « نكص على عقبه » فقال الحارث بن هشام الى ابن ياسر سراقه ، فقال « اني أرى مالا ترون » وهو قول أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام . وقيل إنه رأى جبرائيل بين يدي النبي صلى الله عليه وآله . وقال ابو علي الجبائي حو له الله على صورة إنسان علماً للنبي صلى الله عليه وآله بما يخبر به عنه . وقال الحسن والبلخي : إنما هو يوسوس من غير ان يحول في صورة انسان .

وقوله « اني اخاف الله والله شديد العقاب » حكاية عن قول ابليس حين ولى فقال لقريش اني ارى من الملائكة مالا ترون اني اخاف الله والله شديد العقاب . وانما خافه من ان يأخذه في تلك الحال بعقوبته دون ان يكون خاف معصيته فامتنع منها .

قال الحسن : إبليس عدو الله لا يخاف الله - لكن كلما استؤصل جند من جنوده وقعت بذلك عليه مخافة وذلة . وقال البلخي هو كقولك للرجل جمعت بين الفريقين حتى اذا وقع الشر بينهم خليتهم وانصرفت ، وقلت اعملوا ماشئتم وتريد بذلك انك خليت بينهم دون ان يكون هناك قول ، والاول هو المشهور في التفسير .

(١) ديوانه ١٥٩ من قصيدته في هرم بن سنان . والطبري ١٤ / ١١ (وحبيك

البيض) طرائق حديد . و (البيض) الخوذ من سلاح المحارب . و (حموا) من الحمية ، وهي الانفة والغضب .

والواو دخلت في قوله « واذ زين لهم الشيطان » للعطف على خروجهم بطراً ورتاء الناس ، فعطف حالهم في تزيين الشيطان اعمالهم على حالهم في خروجهم بطراً .

قوله تعالى

إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ
دِينَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٥٠) آية .

العامل في « اذ » يحتمل أن يكون احد شيئين : احدهما - الابتداء والتقدير ذاك « اذ يقول » والاخر بتقدير اذ كر « اذ يقول المنافقون » وهم الذين يبطنون الكفر ويظهرون الايمان « والذين في قلوبهم مرض » الشاكين في الاسلام مع اظهارهم كلمة الايمان ، وهم بمكة جماعة خرجوا مع المشركين يوم بدر ، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا هذا القول ، وهم قيس بن الوليد بن المغيرة (١) والحارث بن زمة وعلي بن أمية والعاص بن المنبه بن الحجاج ، هذا قول مجاهد ، والشعبي وقال الحسن : المرض الشرك « والذين في قلوبهم مرض » المشركون . وقال ابو علي فصلوا في الذكر لان المنافقين كانوا يضمرون عداوة النبي ﷺ والمؤمنين ، وكانوا هؤلاء مرتبتين وكلمهم في معنى المنافقين ، لان الشك في الاسلام كفر .

وقوله « غر هؤلاء دينهم » معناه ان المسلمين اغتروا بالاسلام . والغرور : اظهار النصح مع إبطان الغش تقول : غره يغره غروراً واغتر به اغتراراً ومنه الغرر ، لانه عمل بما لا يؤمن معه الغرور . وقوله « ومن يتوكل على الله » معناه ومن يسلم لأمر الله ويثق به ويرضى بفعله ، لان التوكل على الله هو التسليم لأمره مع الثقة والرضا به ، تقول : و كل امره الى الله ، يكل واتكل عليه يتكل اتكالا وتوكل توكلت وتواكل القوم تواكلا اذا اتكل بعضهم على بعض ، ووكل توكلت . وقوله

(١) في بعض النسخ (ابو قيس بن الفاكهة بن المغيرة)

« فان الله عزيز حكيم » معناه انه قادر لا يغالب واضع للاشياء مواضعها

قوله تعالى :

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ
وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِّ بِقِي (٥١) آية .

قرأ ابن عامر « اذ تتوفى » بتاءين فأدغم احدهما في الاخرى هشام عنه .
الباقون بالياء والتاء . من قرأ بالتاء أسند الفعل الى الملائكة كتقوله « اذ قالت
الملائكة » (١) ومن قرأ بالياء ، فلأن التانيث غير حقيقي .

هذا خطاب من الله تعالى للنبي ﷺ يقول الله تعالى له : « ولوترى » الوقت
الذي تتوفى الملائكة الذين كفروا بمعنى انهم يقبضون ارواحهم على استيفائها ،
لان الموت انما يكون باخراج الروح على تمامها . وجواب « لو » محذوف ، وتقديره
لرأيت منظراً عظيماً او امرأ عجبياً او عقاباً شديداً ، وحذف الجواب في مثل هذا
أبلغ ، لان الكلام يدل عليه . والمرئي ليس بمذكور في الكلام لكن فيه دلالة عليه
لان تقديره : لو رأيت الملائكة يضربون من الكفار الوجوه والادبار ، وحذفه ابلغ
وأوجزمع أن الكلام يدل عليه . وقال مجاهد وسعيد بن جبير : معنى أديبارهم استأهمهم
لكنه كنى عنه . وقال الحسن : معناه ظهورهم . وقال ابو علي : المعنى ستضربهم
الملائكة عند الموت . قال الرماني : وهذا غلط ، لأنه خلاف الظاهر ، وخلاف
الاجماع المتقدم أنه يوم بدر . وروى الحسن : ان رجلاً قال يارسول الله اني رأيت
بظهر أبي جهل مثل الشرك ، فقال : ذلك ضرب الملائكة . وروي عن مجاهد ان رجلاً
قال للنبي ﷺ اني حملت على رجل من المشركين فذهبت لاضر به فبدر رأسه ،
فقال : سبقك اليه الملائكة . وعن ابن عباس انه كان يوم بدر .

وقوله : « وذوقوا عذاب الحريق » تقديره ، ويقولون يعني الملائكة للكفار يقولون لهم ذوقوا عذاب الحريق يوم القيامة وحذف لدلالة الكلام عليه . ومثله قوله « ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا » (١) أي يقولون ربنا أبصرنا ، ودل الكلام عليه . والحريق تفريق الاجسام الكبيرة بالنار العظيمة يقال : احترق احتراقاً واحرق إحراقاً وتحرق تحرقاً وحرقه تحريقاً ، وجواب « لو » محذوف ، وتقديره لرأيت منظرأ هائلاً وإنما حذف جواب « لو » لأن ذكره يخص وجهاً ومع الحذف يظن وجوه كثيرة فهو أبلغ .

قوله تعالى :

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٥٢) آية .

قوله « ذلك » إشارة من الملائكة للكفار الى ما تقدم ذكره من قولهم « ذوقوا عذاب الحريق » قالوا ذلك العذاب « بما قدمت ايديكم » وموضع « بما قدمت ايديكم » يحتمل وجهين من الاعراب : أحدهما - الرفع بأنه خبر ذلك . والثاني - النصب بأنه متصل بمذوف ، وتقديره ذلك جزاؤكم « بما قدمت ايديكم » وإنما قيل بما قدمت ايديكم مع أن اليد لا تعمل شيئاً لتبين أنه بمنزلة ما يعمل باليد في الجناية ، ولذلك لم يذكر القلوب ، وإن كان بها معتمد العصيان ، لانه قصد إظهار ما يقع به الجنایات في غالب الأمر وتعارف الناس . والتقديم ترتيب الشيء أولاً قبل غيره : قدمه تقدماً وتقدم تقدماً واستقدم استقداماً وتقدمه تقدماً وأقدم على الأمر إقداماً .

وقوله : « ان الله ليس بظلام للعبيد » العامل في « ان » يحتمل شيئين : أحدهما - أن يكون موضعه نصباً بتقدير وبأن الله او خفضاً على الخلاف فيه . والثاني - ان يكون رفعاً بمعنى وذلك ان الله كما تقول ذلك هذا .

وإنما نفى المبالغة في الظلم عنه تعالى دون نفي الظلم رأساً، لأنه جاء على جواب من اُضيف إليه فعل جميع الظلم، ولأن ما ينزل بالكفار لولم يكن باستحقاق لكان ظلماً عظيماً، ولكان فاعله ظلماً .

قوله تعالى

كَدَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ
فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٣) آية .

العامل في قوله : « كدأب آل فرعون » الابتداء وتقديره دأبهم كدأب آل فرعون ، فموضعه رفع ، لانه خبر المبتدأ ، كما تقول زيد خلفك ، فموضع خلفك رفع بأنه خبر المبتدأ ، ولفظة نصب بالاستقرار ، فكذلك الكاف في « كدأب » . والدا ب العادة والطريقة تقول ما ذلك دأبه ودينه ودينه .

والمعنى انه جوزي هؤلاء بالقتل والأسر كما جوزي آل فرعون بالغرق . وقال الزجاج الدأب إدامة الفعل داب يدأب في كذا إذا دام عليه ، ودأب يداب دأباً ودؤباً فهو دأب يفعل كذا اي يجري فيه على عادة . وقال خدش بن زهير العامري : وما زال ذلك الداب حتى تجادلت هوائين وارضضت سليم وعامر (١)

وآل فرعون المراد به اتباعه فيما دعاهم اليه من ربوبيته . سموا « آل » لأن مرجع امرهم اليه بسبب الكيد . والفرق بين « آل فلان » و « الأصحاب » ان الاصحاب مأخوذ من الصحبة لطلب علم او غيره ، كالأصحاب في السفر ، وكثري الموافقة على المذهب ، كما يقولون اصحاب مالك واصحاب الشافعي يراد به الموافقة في المذهب ، ولا يوصفون بأنهم آل الشافعي او ابي حنيفة . والآل يرجعون اليه بالسبب الأوكد الأقرب .

(١) روح المعاني ١٧/١٠ ، ومجاز القرآن ١ ٢٤٨ .

وقوله : « إن الله قوي » معناه قادر وقد يكون القوي بمعنى الشديد ، وذلك ليجوز اطلاقه على الله ، وكذلك لا يوصف بأنه شديد العقاب وإنما وصف عقابه بأنه شديد دون الله تعالى .

فمعنى الآية تشبيه حال المشركين في تكذيبهم بآيات الله التي أتى بها محمد ﷺ بحال آل فرعون في التكذيب بآيات الله التي أتى بها موسى ﷺ لأن تعجيل العقاب لهؤلاء بالاهلاك كتمجيله لأولئك بعذاب الاستئصال.

قوله تعالى :

ذٰلِكَ بِاَنَّ اللّٰهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً اَنْعَمَهَا عَلٰى قَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُ وَا
مَا بَا نَفْسِهِمْ وَاَنَّ اللّٰهَ سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ (٥٤) آية .

الإشارة بقوله : « ذلك » الى ما تقدم ذكره من اخذ الله الكفار بالعقاب فكأنه قال ذلك العقاب المدلول عليه بأن الله لا يغير النعمة الى النعمة إلا بتغيير النفس الى الحال القبيحة ، فـ « ذلك » ابتداء وخبره « بأن الله » كما يقول القائل : العقاب بذنوب العباد ، والكاف في « ذلك » للخطاب و « ذلك » إشارة الى البعيد و « ذاك » إشارة الى ما دونه ، و « ذا » إشارة الى ما هو حاضر . وقوله « لم يك » اصله يكون فحذفت الواو للجزم والتقاء الساكنين ، ثم حذفت النون استخفافاً لكثرة الاستعمال مع انه لا يقع بالحذف إخلال بالمعنى ، لأن « كان ويكون » أم الأفعال الا ترى أن كل فعل فيه معناها ، لأنك إذا قلت ضرب معناه كان ضرب ، ويضرب معناه يكون يضرب فلما قربت بأنها ام الأفعال وكثر استعمالها احمّل الحذف ولم يحتمل نظائرها ، وذلك مثل لم يجز ولم يصن كما جاز فيها . والتغيير تصيير الشيء على خلاف ما كان بما لو شوهده لشوهده على خلاف ما كان . وإنما قيل بما لو شوهده لشوهده على خلاف ما كان للتفريق بينه وبين ما يصير على خلاف ما كان بالحكم فيه بما لم يكن عليه ،

الأثرى ان المعلوم بعد ان لم يكن معلوماً لا يتغير بهذا العلم ، لأنه لو شوهـد لم يشاهد على خلاف ما كان ، والقدرة شوهدت على خلاف ما يشاهد العجز .
وفي الآية دلالة على بطلان مذهب المجبرة ، لأنها تدل على انه لا يكون العقاب الا بتغيير النفس الى ما لا يجوز ان يغير اليه ، وهذا يبين انه لا يحسن من الله العقاب الا لمن فعل قبيحاً او اخل بواجب ، وذلك يبطل قول من قال : يجوز ان يعاقب الله البريء بجرم السقيم ، وجملة معنى الآية إنا اخذنا هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا من مشركي قريش ببدر بذنوبهم ، وتغييرهم نعمة الله عليهم من بعث رسوله وتكذيبهم إياه واخراجهم له من بين اظهرهم ، ففعلنا بهم مثل ما فعلنا بالماضين من الكفار .

قوله تعالى :

كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ
فَأَهْلَكْنَاهُمْ بَدُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَاذِبٍ نَاطِقٍ (٥٥) آية

انما اعاد قوله : « كذاب آل فرعون والذين من قبلهم » لاعلى وجه التكرار بلافاضة بل لوجهين : احدهما - قال ابو علي : لأنه على نوعين مختلفين من العقاب . وقال الرماني : فيه تصريح القول في الذم بما كانوا عليه من قبح الفعل وتقدير الكلام : دأب هؤلاء الكفار مثل داب آل فرعون . ويحتمل ان يكون كناية عن هؤلاء الكفار « كذبوا بآياتنا » .

والتكذيب نسبة الخبر الى الكذب ، فالتكذيب بالحق مذموم ، والتكذيب بالباطل - لأنه باطل - ظاهر امره محمود ، وانما وجب في التكذيب بآيات الله تعجيل العقوبة ، ولم يجب ذلك في غيره . لما في تعجيل عقوبتهم من الزجر لغيرهم ، فيصلحون به مع علم الله بأنه ليس فيهم من يفلح - على مذهب من يقول : لو علم الله ان فيهم

من يؤمن ، لأبقاه . وانما كان التكذيب بآيات الله من اعظم الاجرام ، لما يتبعه من تضييع حقوق الله فيما يلزم من طاعته التي لاتصح الا بالتصديق بآياته التي جاءت بهارسله . اخبر الله انه كما اهلك هؤلاء الكفار بتكذيبهم النبي ﷺ كذلك اهلك من الكفار قوماً آخرين بتكذيبهم بآيات الله ، واغرق آل فرعون بمثل ذلك ، ثم اخبر ان كل هؤلاء كانوا ظالمين لنفوسهم بارتكاب معاصي الله وبترك طاعته .

قوله تعالى :

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِيهِمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٦) آية

الشر الرمي بالمكارة كشرر النار ومثله الضرر ، وضد الشر الخير وضد الضر النفع . والدابة مامن شأنه ان يدب على الأرض لكن بالعرف لا يطلق إلا على الخيل ، ومن ذلك قوله « ومامن دابة في الارض إلا على الله رزقها (١) » وقوله « عند الله » معناه في معلوم الله وفي حكمه . وأصل « عند » أن يكون ظرفاً من ظروف المكان إلا أنه قد تصرف فيها على هذا المعنى . والفاء في قوله « فهم لا يؤمنون » عطف جملة على جملة ، وهو من الصلة، كأنه قال : كفر وامصممين على الكفر « فهم لا يؤمنون » وانما حسن عطف جملة من ابتداء وخبره على جملة من فعل وفاعل ، لما فيها من التأدية الى معنى الحال وذلك ان صلابتهم بالكفر ادى الى الحال في انهم لا يؤمنون . فاخبر الله تعالى في هذه الآية ان شر خصلة يكون الانسان عليها هو الكفر لما في ذلك من تضييع نعم الله التي توجب اعظم العقاب .

والآية متناولة لمن علم الله منه انه لا يؤمن ، لأن قوله « فهم لا يؤمنون » اخبار عن نفى ايمانهم فيما بعد .

قوله تعالى :

الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ
لَا يَتَّقُونَ (٥٧) آية .

قال مجاهد : هذه الآية نزلت في بني قريظة ، لما نقضت عهد النبي ﷺ في ألا يحاربوه ولا يمالؤا عليه ، فمقضوا عهده ، ومالؤا عليه ، وعاونوا قريشاً يوم الخندق ، فانقم الله منهم . والمعاهدة المعاقدة على أمر يتقدم فيه للوثيقة بد بالآيمان المؤكدة على ما يعقد عليه ، ونقض العهد مثل نقض الوعد لأنه حق للمعاهد كما ان ذلك حق للموعود . ونقض العزم هو الرجوع عما عزم عليه . والنقض يكون بشيئين : احدهما - فيما كان من بناء وشبهه . الثاني - في عقد أو امر يعزم عليه . وقوله تعالى « ثم ينقضون » عطف المستقبل على الماضي ، لان الغرض ان من شأنهم نقض العهد مرة بعد اخرى في مستقبل اوقاتهم بعد العهد اليهم . وقوله « فهم لا يتقون » معناه نقضوا عهدك من غير ان يتقوا عقاب الله عاجلا وآجلا .

قوله تعالى

فَاِذَا تَشَفَّقْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ
يَذْكُرُونَ (٥٨) آية

معنى « تشققن » تصادفن وتلتقين . واصله الادراك بسرعة تقول ثقفت الكلمة فهو ثقف ، وثقفت اذا قومه وثاقفتها ثقفة اذا تدارك كل واحد منهما امر صاحبه بسرعة ودخلت نون التأكيد لما دخلت « ما » ولو لم تدخله لما حسن دخول النون ، لأن دخول « ما » كدخول القسم في أنه علامة تؤذن أنه من مواضع التأكيد المطلوب من التصديق ، لأن النون تدخل لتأكيد المطلوب فيما يدل على المطلب ، وهي في

سنة مواضع : الأمر ، والنهي ، والاستفهام ، والعرض ، والقسم ، والجزاء مع «ما»
 وقوله « فشردهم من خلفهم » يحتمل معنيين :
 احدهما - إذا اسرتهم فنكل بهم تنكيلا يشرد غيرهم من ناقضي العهد خوفاً
 منك، وهو قول الحسن وقتادة وسعيد بن جبير والسدي وابن زيد .
 الثاني - افعال بهم من القتل ما يفرق من خلفهم، في قول الزجاج .
 والتشريد التفريق على اضطراب ، شرد يشرد شروداً وشرده تشريداً وتشرد
 تشرداً . ودابة شروود . والتشريد والتطريد والتبديد والتفريق نظائر .
 وقوله « لعلهم يذكرون » معناه لكي يفكروا فيتعظوا وينزجروا عن الكفر
 والمعاصي . وروي في الشواذ « من خلفهم » والمعنى نكل بهم انت يا محمد من ورائهم
 والاول اجود . وعليه القراء .

قوله تعالى :

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ
 لَا يُحِبُّ الْخَائِتِينَ (٥٩) آية .

بني المضارع مع نون التأكيد ، لأن النون لما أبطلت السكون اللازم للجزم
 الذي هو أمكن في الفعل ، كانت على إبطال غيره من الاعراب أقوى . وإنما بني على
 الفتح لسلامتها من البابين الكسرة والضمة في المؤنث والجمع ، في قولهم لا تحسبن
 يا امرأة ، ولا تحسبن يا قوم . وثبت الألف مع الجازم في (أما تخافن) ولم تثبت
 مع الجازم في قولك (لا تخف القوم) لان الحركة في هذا عارضة ، لأن التقاء
 الساكنين من كلمتين .

أمر الله تعالى نبيه انه متى خاف - ممن بينه وبينه عهد - خيانة أن ينبذ اليه عهده
 على سواء . والخيانة نقض العهد فيما ائتمن عليه ، تقول : خانه يخونه خيانة ، واختان

المال اختيانياً . وتخونه تخوناً وخونه تخويناً . (و النبذ) القاء الخبر الى من لا يعلمه بما يوجب أنه حرب بنقض عهد أو إقامة على بنعي تقول : نبذ ينبذ نبذاً وانبذ انبذاً وانبذ القوم تانبذاً ، ونابذه مابذة .

وقوله « على سواء » قيل في معناه قولان : احدهما - على استواء في العلم به أنتوهم في انكم حرب لثلايتوهموا أنك نقضت العهد بنصب الحرب . والثاني - ان معناه على عدل من قول الراجز :

فاضرب وجوه الغدر الاعداء حتى يحويك على السواء (١)
أي على العدل . ومنه قيل للوسط سواء ، لاعتداله الى الجهات ، كما قال
حسان بن ثابت :

يا ويح انصار النبي ورهطه بعد المغيب في سواء الملحد (٢)
اي في وسطه . وقال الوليد بن مسلم : معناه على مهل وهذا بعيد ، لأنه لا يعرف في اللغة . فان قيل كيف جاز نبذ العهد ونقضه بالخوف من الخيانة ؟
قيل : انما فعل ذلك لظهور امارات الخيانة التي دلت على نقض العهد ولم تشتهر ولو اشتهرت لم يجب النبذ ، كما حارب رسول الله ﷺ أهل مكة ، لما نقضوا العهد بقتل خزاعة ، وهم في ذمة النبي ﷺ فلما فعلوا ذلك فعلاً ظاهراً مشهوراً أغنى ذلك عن نبذ العهد اليهم ، ولو نقضوه على خفي لم يكن بد من نبذ العهد اليهم ، لثلاينسب الى نقض العهد والغدر .

وقوله « ان الله لا يحب الخائنين » معناه انه يبغضهم وانما عبر بحرف النفي ، لأن صفة التقى تدل على الاثبات إذا كان هناك ما يدل عليه ، وهو أبلغ في هذا الموضع لأن معناه : انهم حرموا محبة الله بخيانتهم ووجب ذلك بغضه اياهم . ومحبة الله للخلق ارادة منافعهم وبغضه اياهم ارادة عقابهم .

(١) تفسير الطبري ٢٧/١٤ والقرطبي ٢٣ / ٨

(٢) تفسير القرطبي ٢٣ / ٨ وقد مر في ٤٠٥ / ١ من هذا الكتاب .

والآيتان معاً نزلتا في بني قريظة ، قال الواقدي : نزلت هذه الآية في بني قينقاع ، وبهذه الآية سار النبي ﷺ اليهم .

قوله تعالى :

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٦٠) آية.

قرأ ابن عامر وحمزة وحفص وأبو جعفر « ولا يحسبن » بالياء . الباقون بالتاء . وقرأ ابن عامر « انهم » بفتح الهمزة . الباقون بكسرها .

قال أبو علي الفارسي : من قرأ بالتاء جعل « الذين كفروا » المفعول الأول و « سبقوا » المفعول الثاني ، وموضعه النسب ، وهو واضح . ومن قرأ بالياء احتمل ثلاثه اشياء :

احدها - (لا يحسبن الذين كفروا) وهو قول أبي الحسن .

الثاني - أن يكون أضمر المفعول الأول وتقديره : ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقونا وإياهم سبقوا

الثالث - ان يقدر على حذف (أن) كانه قال : ولا يحسبن الذين كفروا ان سبقوا . قال الزجاج يقوي ذلك ، ان في قراءة ابن مسعود « إنهم لا يعجزون » فعلى هذا يكون ان سبقوا سد مسد المفعولين ، كما ان قوله « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا » (١) كذلك . ومن فتح الهمزة جعل الجملة متعلقة بالجملة الاولى والتقدير ولا تحسبنهم سبقوا ، لانهم لا يفوتون فهم يجازون على كفرهم . ومن كسر استأنف الكلام ، قال ابو عبيدة : سبقوا معناه فاتوا ، فانهم لا يعجزون اي لا يفوتون ، ومثله « أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا » ثم استأنف ، فقال : « ساء ما يحكمون (٢) »

(١) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٢ .

(٢) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٤ .

فكذلك ها هنا استأنف الكلام . وانما امتنع الاقتصار على احد المفعولين في (حسب) لأن المفعول الثاني خبر عن الأول ، والفعل متعلق بما دلت عليه الجملة فهو بخلاف (اعطيت) في هذا .

والحسبان هو الظن . وقال الرماني : هو شك يقوى فيه احدى التقيضين لقوة المعنى في حيز القولين . وأصله الحساب ، لأن المعنى فيه داخل فيما يحسب به ويعمل عليه . والاحتساب قبول الحساب والاعتداد به وفي المضارع لغتان ، فتميم تفتح السين وأهل الحجاز يكسرونها . والسبق تقدم الشيء على طالب اللحق به : سبق يسبق سبقا وتسابقا تسابقاً ، وسابته مسابقة واستبقوا استباقاً وسبقه تسبيحاً إذا أعطاه سبق . والسابق والمصلي في صفة الفرس . والاعجاز ايجار ما يعجز عنه : أعجزه إعجازاً وعجزه تعجيزاً وعاجزه معاجزة واستعجز استعجازاً . وقال ابو عبيدة : معنى « لا يعجزون » لا يفوتون . وقال الحسن : معنى لا يعجزون الله لا يفوتونه حتى لا يشفقنهم يوم القيامة . وقال الجبائي : معناه لا يعجزونك حتى يظفرك الله بهم . وقال الزجاج : المعنى لا يحسبن من أفلت من هذه الحرب قد سبق الى الحياة . وقال الزجاج : يجوز أن تكون (لا) صلة على ضعف فيه . والمعنى لا يحسبن الذين كفروا انهم يعجزون . اي يفوتون .

قوله تعالى :

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ
عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا
تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦١) آية.

امر الله تعالى المؤمنين ان يعدوا ما قدروا عليه من السلاح وآلة الحرب والخيال وغير ذلك . والاعداد اتخاذ الشيء لغيره مما يحتاج اليه في امره ولو اتخذه له في

نفسه محبة له لم يكن اعداداً وهو مما يعد فيما يحتاج اليه من غيره والاستطاعة معني تنطاع بها الجوارح للفعل مع انتفاء المنع، تقول: استطاع استطاعة، وطاوع مطاوعة واطاع طاعة، وتطوع تطوعاً، وانطاع انطباعاً. وقوله تعالى « من قوة » اي مما تقوون به على عدوه. وقيل: معناه من الرمي، ذكره الفراء. ورواه عن النبي ﷺ عقبه بن عامر، على ما ذكره الطبري. وقال عكرمة: اراد به الحصون.

وقوله تعالى: « ومن رباط الخيل » فالرباط شد ايسر من العقد: ربطه يربطه ربطاً ورباطاً وارتبطه ارتباطاً وربطه مرابطة.

وقوله « ترهبون به عدو الله وعدوكم » فالهاء في (به) راجعة الى الرباط وذكره لأنه على لفظ الواحد وان كان في معنى الجمع، لانه كالجراب والقرباب والذراع. والارهاب ازعاج النفس بالخوف تقول: ارهبه ارهاباً ورهبه ترهيباً ورهب رهبه وترهب ترهيباً واسترهبه استرهاباً، وقال طفيل:

ويل ام حي دفعتم في نحورهم بني كلاب غداة الرعب والرهب (١)

والعدو المراد بالمكارة لتعديتها الى صاحبها والعدو ضد الولي .

وقوله « وآخريين من دونهم » لا تعلمونهم تقديره وترهبون آخريين، فهو نصب بـ (ترهبون) ويجوز ان يكون نصباً بقونه: (وأعدوا لهم) وللآخريين من دونهم. وقيل في المعنيين بذلك خمسة اقوال: احدها - قال مجاهد: هم بنو قريظة وقال السدي: هم اهل فارس. وقال الحسن وابن زيد: هم المنافقون. الرابع - الجن، وهو اختيار الطبري، قال: لأن الاعداد للاعداء دخل فيه جميع المتظاهرين بالعداوة فلم يبق الا من لا يشاهد. الخامس - قال الجبائي: كل من لا تعرفون عداوته داخل فيه. ومعنى « لا تعلمونهم » لا تعرفونهم فلذلك لم يكن معه المفعول الثاني.

وقوله: « الله يعلمهم » معناه يعرفهم كما قال الشاعر:

فان الله يعلمني ووهباً وإنا سوف نلقاه كلانا (١)
 وقوله تعالى : « وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم واتتم لا تظلمون »
 يعني ما من شيء تنفقونه في الجهاد إلا والله يوفيكم ثوابه على ذلك بآتم الجزاء
 ولا تبخسون ، فمعنى الآية الأمر باعداد السلاح والكراع لآخافة اعداء الله بما
 يبذلأ صدورهم من الاستعداد لقتالهم مع تضمن اخلاف ما انفق في سبيل الله بأحوج
 ما يكون صاحبه اليه بما تربح فيه تجارته .

قوله تعالى :

وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
 الْعَلِيمُ (٦٢) آية .

قرأ أبو بكر عن عاصم «السلم» بكسر السين . الباقون بفتحها وفي ذلك ثلاث لغات:
 الفتح والكسر مع سكون اللام، وفتح السين واللام معاً . ومعناها المسالمة ولذلك أنث
 قال رجل من اليمن جاهلي :

أنا بل انني سلم لاهلك فاقبلي سلمى (٢)

قال أبو الحسن : السلم فيها الكسر والفتح لغتان . وقال غيره : السلم بفتح السين
 واللام على ثلاثة أوجه . تقول : أخذت الأسير سلماً أي على الاستسلام . والسلم السلف
 على السلامة . والسلام شجر واحد سلمة ، تقول له بالسلامة .

وقوله : « وإن جنحوا للسلم » معناه ان مالوا الى المسالمة ، تقول : جنح يجنح
 جنوحاً وجنحت السفينة إذا مالت الى الوقوف ، ومنه جناح الطائر لانه يميل به في

(١) قائله النمر بن ثولب العكلي . الاقتضاب : ٣٠٣ ، والمفصل للزمخشري : ٨٨

وتفسير الطبري ١٤ / ٣٩ .

(٢) مجاز القرآن ١ / ٢٥٠ والتاج واللسان (سلم) .

احد شقيه . ولا جناح عليه في كذا اي لاميل الى ماثم ، قال ابو زيد : جنح يجنح جنوحاً إذا اعطى بيده او عدل الى ما يحب القوم ، وجنح العدو والخيل ، وجنحت الابل إذا اخضت في السير . وليس في الآية ما يدل على ان الكفار إذا ما لو الى الهدنة وجب اجابتهم اليها على كل حال ، لأن الأحوال تختلف في ذلك ، فتارة تقتضي الاجابة ، وتارة لا تقتضي ، وذلك إذا وتروا المسلمين بأمر يقتضي الغلظة مع حصول العدة والقوة .

فان قيل : اذا جازت الهدنة مع الكفار فهلا جاز المكافة في أمر الامامة حتى يجوز تسليمها الى من لا يستحقها ؟ قلنا : تسليم الامامة الى من لا يستحقها فساد في الدين كفساد تسليم النبوة الى مثله . وقوله « وتوكل على الله » اي فوض امرك اليه تعالى وثق بأنه لا يدبره الا على ما تقتضيه الحكمة .

واختلفوا هل في الآية نسخ ؟ فقال الحسن وقتادة وابن زيد : نسخها قوله : « اقتلوا المشركين » (١) وقال قوم : ليست منسوخة ، لانها في الموارد لاهل الكتاب والاخرى في عباد الاوثان ، والصحيح أنها ليست منسوخة ، لأن قوله : « اقتلوا المشركين » نزلت في سنة تسع وبعث بها رسول الله الى مكة ثم صالح اهل نجران بعد ذلك على الفتي حلة : ألف في صفر وألف في رجب . وقوله « إنه هو السميع العليم » معناه انه يسمع دعاء من يدعوهم بما تقتضي المصلحة من اجابته وحسن تدبيره

قوله تعالى

وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ
بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ

جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَا يَكُنْ اللَّهُ أَلْفَ بَيْنِهِمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ (٦٣) آيتان في الكوفي والمدني ، وآية في البصري .

هذا خطاب للنبي ﷺ يقول له : « ان يريدوا » يعني الكفار . وقيل هم بنو قريظة ، ومعناه ان قصدوا بالصلح خديعتك . والخديعة اظهار المحبوب في الامر للاستجابة له مع ابطان خلافه : خدع خدعاً وخديعة واخترعه اختداعاً وتخادع له تخادعاً . وانخدع انخداعاً . وقوله « فان حسبك الله » معناه ، فان الله كافيك يقال : اعطاني ما احسبني اي كفاني . واصله الحساب ، وانما اعطاه بحساب ما يكفيه . وقوله « هو الذي ايدك بنصره وبالْمُؤْمِنِينَ » فالتأييد التمكين من الفعل على اتم ما يصح فيه ، تقول : ايدته تأييداً وتأييداً تأيداً . والأيد القوة . والمعنى ان الله قواه بالنصر من عنده ، بِالْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَنْصُرُونَهُ عَلَىٰ اَعْدَائِهِ . وقوله « وألف بين قلوبهم » والتأليف الجمع على تشاكل ، فلما جمعت قلوبهم على تشاكل فيما تحبه وتنازع اليه كانت قدالفت ، ولذلك قيل : هذه الكلمة تأتلف مع هذه ، ولا تأتلف . والمراد بِالْمُؤْمِنِينَ الانصار وبتأليف قلوبهم ما كان بين الأوس والخزرج من العداوة والقتال ، هذا قول ابي جعفر عليه السلام والسدي وبشر بن ثابت الانصاري وابن اسحاق . وقال مجاهد : هو في كل متحابين في الله . وانما كان الجمع على المحبة تأليفاً بين القلوب ، لانه مأخوذ من الالفة وهي الاجتماع على الموافقة في المحبة ، ولا يجوز في الجمع على البغضاء ان يسمى بذلك . وقوله « لو انفقت ما في الارض جميعاً » فالانفاق اخراج الشيء عن الملك . والمعنى « لو انفقت ما في الارض جميعاً » لتجمعهم على الالفة ما تم لك ذلك ، ولكن الله الف بينهم بلطف من الطافه وحسن تدبيره ، وبالاسلام الذي هداهم الله اليه . ونصب « جميعاً » على الحال . وقوله « انه عزيز حكيم » معناه قادر لا يمتنع عليه شيء يريد فعله « حكيم عليم » لا يفعل الا ما تقتضيه الحكمة فعلى ذلك جمع قلوبهم على الالفة .

قوله تعالى !

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ۖ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) آية ٠

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ يقول له : يكفيك ان يكون ناصرك على اعدائك الله تعالى ، والذين اتبعوك من المؤمنين من المهاجرين والانصار ، وانما كرر قوله « حسبك » مع انه قد ذكر فيما قبل ، لأن المعنى هناك إن أرادوا اخذ دألك كفأك الله امرهم . وهاهنا معناه عام في كل ما يحتاج فيه الى كفاية الله إياه . وقوله « ومن اتبعك » يحتمل اعرابه وجهين :

احدهما - ان يكون نصباً . والمعنى ويكفي من اتبعك على التأويل ، لأن الكاف في موضع خفض بالاضافة لكنه مفعول به في المعنى ، فعطف على المعنى ، وليس ذلك بكثير . واجاز الفراء الرفع لقوله « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين » ومثله قوله « انا منجوك واهلك » (١) وقال الشاعر :

إذا كانت الهجاء وانشقت العصا فحسبك والضحاك سيف مهند (٢)
وهو معنى قول الشعبي وابن زيد . وقال الحسن : هو عطف على اسم الله ، فيكون رفعاً . والكسائي ، والقراء ، والزجاج أجازوا الوجهين وحمل عليهما معاً ابو علي الجبائي . والاتباع موافقة الداعي فيما يدعوا اليه من اجـل دعائه . والمؤمنون يوافقون النبي ﷺ في كل ما دعا اليه . وقال الواقدي : نزلت هذه الآية في بني قريظة وبني النضير لما قالوا له : نحن نسلم وتتبعك .

قوله تعالى !

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ۖ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ۖ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ

(١) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٣٣ .

(٢) القرطبي ٤٢/٨ ومعاني القرآن ٤١٧/١ وتفسير القاسمي ٣٠٣/٨

عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا
أَلْفًا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) آية .

وهذا ايضاً خطاب للنبي ﷺ يأمره الله بأن يحرض المؤمنين على قتال
المشركين .

والتحريض والحث نظائر ، وهو الدعاء الأکید بتحريك النفس على أمر من
الامور . وضده التقتير . والمعنى حثهم على القتال . والتحريض الحث على الشيء الذي
يعلم معه انه حارص إن خالف وتأخر . والحارص هو الذي قارب الهلاك . ومنه قوله :
« حتى تكون حرضا » اي حتى تذوب غما على ذلك وتقارب الهلاك « او تكون
من الهالكين » (١) وحارص فلان على أمره إذا واطب عليه . والتحريض ترغيب في
الفعال بما يبعث على المبادرة اليه مع الصبر عليه . والقتال محاولة الصد والمنع بما فيه
تعرض للقتل . والمجاهدة ان يقصد الى قتل المشركين بقتاله ، ومن يدفع عن نفسه
فليس كذلك . والصبر هو حبس النفس عما تنازع اليه من صد ما ينبغي أن يكون عليه
وضده الجزع ، وقال الشاعر :

فان تصبرا فالصبر خير مغبة وان تجزعا فالامر ماتريان (٢)

والغلبة الظفر بالبغية في المحاربة قتلا او اسرا او هزيمة . وقد يقال في الظفر
بالبغية في المنازعة بالغلبة . ومعنى « لا يفقهون » ها هنا انهم على جهالة ، خلاف من
يقاتل على بصيرة ، وهو يربح به ثواب الاخرة . وقال قوم : معناه لا يعلمون ما لهم من
استحقاق الثواب بالقتال . وقوله « ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين »
وان كان بلفظ الخير ، فالمراد به الأمر ، ويدل على ذلك قوله « الآن خفف الله عنكم »
لأن التخفيف لا يكون الا بعد المشقة .

قوله تعالى :

أَلَا نَحْفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ
مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ
بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) آية .

قرأ أهل الكوفة « إن يكن ٠٠٠ مئة . وإن يكن ٠٠٠ الف » بالياء فيهما وافقهم أهل البصرة في الأولى . وقرأ أهل الكوفة الألكسائي « ضعفاً » بفتح الضاد الباقيون بضمها ، ولكنهم سكنوا العين إلا إيسا جعفر ، فإنه فتحها ومد وهمز على وزن « فعلاء » على الجمع . من قرأ « أن يكن » بالياء فلان المراد به المذكر بدلالة قوله « يغلبوا » وكذلك ما وصف به المئة بقوله « صابرة » لأنهم رجال : حملاً على المعنى كما حمل على المعنى في قوله « فله عشر أمثالها » (١) فأنت لما كانت في المعنى حسنة . ومن قرأ بالتاء فلان اللفظ لفظ التأنيث . ومن قرأ الأول بالتاء والثاني بالياء فلان القراءة بالتاء في الأولى أشد مشاكلة لقوله « مئة صابرة » وليس كذلك في الأخرى ، لأنه أخبر عنهم بقوله « يغلبوا » . وقال سيبويه يقال : ضعف ضعفاً فهو ضعيف . قال وقالوا الفجر كما قالوا الضعف ، فعل ذلك انهما لغتان .

هذه الآية نسخت حكم ما تقدمها ، لأن في الأولى كان وجوب ثبات الواحد للعشرة والعشرة للمئة ، فلما علم الله تعالى أن ذلك يشق عليهم وتغيرت المصلحة في ذلك نقلهم إلى ثبات الواحد للأثنين والمئة للمئتين ، فخفف ذلك عنهم ، وهو قول ابن عباس والحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد والسدي وعطاء والبخاري والجبائي والرماني ، وجميع المفسرين . والتخفيف رفع المشقة بالخفة . والخفة نقيض الثقل والخفة والسهولة بمعنى واحد . والضعف نقصان القوة ، وهو من الضعف لأنه ذهب بعض القوة

وقوله « باذن الله » فالاذن الاطلاق في الفعل ، لأنه يسمع بالاذن ، ومنه الاذان والايذان والاستئذان ، وقوله « الآن » مبني مع الالف واللام لأنه خرج عن التمكن بشبه الحرف ، لأنه ينكر تارة ويعرف أخرى ، فاستبهم استبهم الحروف بأنه للفصل بين الزمانين على انتقال معناه الى الذي يليه من الوقت كما ينتقل امس ، فالامس والغد والان نظائر واحكامها مختلفة لعلل لزمتمها .

وقوله تعالى « والله مع الصابرين » معناه انه معهم بالمعونة لهم . والمعنى ان معونة الله مع الصابرين وحقيقة « مع » ان تكون للمصاحبة للجبهة بالمعونة وذلك لايجوز عليه تعالى . وقيل هذه الآية نزلت بعد الاولى بمددة .

قوله تعالى :

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي
الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ (٦٧) آية .

قرأ اهل البصرة وابن شاهي « ان تكون » بالتاء . الباقون بالياء . وقرأ ابو جعفر « أسارى » ومن الاسارى - بفتح الهمزة منهما وبالف بعد السين - وافقه ابو عمرو في الثاني . الباقون بفتح الهمزة وسكون السين من غير الف فيهما . من قرأ بالتاء فلان لفظ الأسرى لفظ التأنيث ، فجمله على المفظ . ومن قرأ بالياء فلان الفعل متقدم والأسرى المراد به المذكورون . وايضاً فقد وقع الفصل بين الفعل والفاعل وكل واحد من ذلك إذا انفرد به ذكر الفعل معه ، مثل جاء الرجل وحضر القاضي امرأة ، فاذا اجتمعت هذه الأشياء كان التذكير اولى . واختار الأخفش التذكير . وقال ابو علي الفارسي : الأسرى اقيس من الأسارى لأن اسير فعيل بمعنى مفعول ، وما كان كذلك لايجمع بالواو

والنون ، ولا بالالف والتاء . وإنما يجمع على فعلى مثل جريح وجرحى وقميل وقتلى وغفير وعفري ، ولديغ ولدغى ، وكذلك كل من اصيب في بدنه مثل مريض ومرضى واحمق وحمقى وسكران وسكرى . ومن قرأ اسارى شبهه بكسالى وقالوا كسلى شبهوه باسرى . واسارى في جمع اسير ليس على باه ، وقال ابو الحسن : الاسرى مالم يكن موثقاً والاسارى موثوقون . قال : والعرب لا تعرف ذلك بل هما عندهم سواء . وقال الأزهري : الاسارى جمع اسرى فهو جمع الجمع ، والأسر الشد على المحارب بما يصير به في قبضة الآخذ له . واصله الشد ، يقال : قتب مأسور اي مشدود وكانوا يشدون الاسير بالفداء .

والمعنى : ما كان لنبي ان يحبس كافراً للفداء والمن حتى يثخن في الأرض ، والاثخان في الأرض تغليظ الحال بكثرة القتل . وقال مجاهد : الاثخان القتل . والثخن والغلظ والكتافة نظائر . وقوله « يريدون عرض الدنيا » يعني تريدون الفداء والعرض متاع الدنيا وسماه عرضاً لقلته لبعثه لانه بمعنى العرض في اللغة . وقوله « والله يريد الآخرة » معناه والله يريد عمل الآخرة من الطاعات التي تؤدي الى الثواب وإرادة الله لنا خير من إرادتنا لانفسنا .

وقوله « والله عزيز حكيم » معناه يريد عمل الآخرة ، فانه يعزكم ويرشدكم الى اصلاحكم ، لانه عزيز حكيم ، فلا تخافوا قهراً مع إعزازه اياكم . وهذه الآية نزلت في اسارى بدر قبل ان يكثرا الاسلام ، فلما كثر المسلمون قال الله تعالى « فاما منا بعد وإنا فداء » (١) وهو قول ابن عباس وقتادة . وقال فادوهم بأربعة آلاف ، وفي الآية دليل على بطلان مذهب المجبرة لانه تعالى فصل إرادة نفسه من إرادتهم ، ولو كان يريد ما ارادوه لم يصح هذا الفعل من التفصيل فان قيل : كيف يكون القتل فيهم كان اصلح وقد اسلم منهم جماعة ، وهن عـلم الله من حاله انه يؤمن يجب تبييته ؟ قلنا : في ذلك خلاف ، فمن قال :

لا يجب ذلك لايلزمه السؤال. ومن قال : ذلك واجب قال : ان الله اراد ان يأمرهم بأخذ الفداء وإنما عاتبهم على ذلك لانهم تآدروا اليه قبل ان يؤمروا به .

قوله تعالى :

لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) آية .

قيل في معنى قوله « لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما اخذتم » قولان : قال الحسن لولا ما كتبه الله في اللوح المحفوظ من انه لا يعذبهم على ذلك . وقال غيره : لولا ما كتب الله فيه انه يغفر لأهل بدر ما تقدم وما تأخر .

الثاني - قال مجاهد : يعني ما ذكره من قوله « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (١) فكأنه قال : لا اعذب إلا بعد المظاهرة في البيان وتكرير الحججة به . وقال قوم « لولا ما كتبه الله » من ان الفدية ستحل لهم فيما بعد ، ذهب اليه سعيد ابن جبير . ومعنى الآية « لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما اخذتم » من فداء الاسرى والغنيمة عذاب عظيم ، لانهم اخذوه قبل ان يؤذن لهم . وقد كان سبق ان الله سيحلله لهم في قول ابن عباس والحسن ، وقال الجبائي : والمعنى « لولا كتاب من الله سبق » وهو القرآن الذي آمنتم به واستحققتم لذلك غفران الصغائر لمسكم فيما اخذتم به من الفداء عذاب عظيم . ولا يجوز ان يكون المراد به الا الصغائر لانهم قبل الغفران لم يكونوا فاسقاً اجمعاً . قال الجبائي : وقد كان من النبي ﷺ في هذا معصية اجمعاً من غير تعيين ماهي ، واطن انها في ترك قتل الاسرى . وهذا الذي ذكره غير صحيح ، لانه لا إجماع في ذلك بل عذنا لا يجوز على النبي ﷺ فعل شيء من القبائح صغيراً كان او كبيراً . بل في ذلك من التنفير عنه على ما بيناه

في غير موضع . واكثر المفسرين على ان النبي ﷺ لم يقع منه خلاف لأمر الله . وقد روي ان النبي ﷺ كره اخذ الفداء حتى راي سعد بن معاذ كراهية ذلك في وجهه ، فقال يارسول الله هذا اول حرب لقينا فيه المشركين اردت ان يشخن فيهم القتل حتى لا يعود احد بعد هذا الى خلافك وقتالك ، فقال رسول الله : قد كرهت ما كرهت ، ولكن رايت ما صنع القوم ، فالعصية في ذلك كانت من قوم من الصحابة الذين مالوا الى الدنيا واخذ الفداء . وقد قال البلخي ايضاً إن اجلاء الصحابة براء من ذلك . وروي عن النبي ﷺ انه قال إن الغنائم احلت لي ولم تحل لنبي قبلي .

ومعنى « لولا » امتناع الثاني لوقوع الأول كقولك : لولا زيد بالمسكان الذي هو به لايتنك ، فامتنع الايتان لمسكان زيد . والسبق يكون تقدماً في الزمان والمسكان والرتبة بأن يكون له وإن لم يكن فيها . والمس مماسة يقع معها إدراك ، وهو كاللمس في الحقيقة . والعظيم ما يصغر فيه قدر غيره ، ويكون ذلك بعظم الجثة تارة وبعظم الشأن أخرى . والعظيم هو المستحق للصفة بأن قدر غيره صغير عنده . وقال أبو جعفر ﷺ كان الفداء يوم بدر كل رجل من المشركين بأربعين أوقية من فضة والاقوية أبعون مثقالاً إلا العباس فان فداءه كان مئة اوقية وكان أخذمنه حين أسر اثنين وعشرين اوقية ذهباً ، فقال النبي ﷺ ذاك غنيمة ففاد نفسك وابني اخيك عقيل ونوفل بن الحارث ، فقال: ليس معي ، فقال : اين الذهب الذي سلمته الى ام الفضل وقلت : ان حدث بي حدث ، فهو لك وللفضل وعبد الله وميثم ، فقال من اخبرك بهذا ؟ قال : الله ، قال : اشهد انك رسول الله ، والله ما اطلع على هذا احد إلا الله تعالى .

قوله تعالى :

فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ۞ (٦٩) آية .

أباح الله تعالى للمؤمنين بهذه الآية أن يأكلوا مما غنموه من اموال المشركين بالقهر من دار الحرب . ولفظه وإن كان لفظ الامر . فالمراد به الاباحة ورفع الحظر . والغنيمة ما أخذ من دار الحرب بالقهر . والفىء ما رجع الى المسلمين ، وانتقل اليهم من المشركين . والاكل تناول الطعام بالضم مع المضغ والبلع ، فمتى فعل الصائم هذا فقد أكل في الحقيقة . والفرق بين الحلال والمباح ان الحلال من حل العقد في التحريم والمباح من التوسعة في الفعل وان اجتمعما في الحل والطيب المستند ، وشبه الحلال به فسمي طيباً . واللذة نيل المشتهى . قال الزجاج : الفاء في قوله « فكلوا » على تقدير قد أحللت لكم الفداء فكلوه .

وقوله « واتقوا الله » معناه اتقوا معاصيه فان الله غفور رحيم لمن اطاعه وترك معاصيه .

قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يَعْلَمَ
 اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ
 وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ (٧٠) آية

قرأ ابو عمرو وحده من السبعة وابو جعفر « الاسارى » الباقون « الاسرى »
 وابو عمرو جمع المذهبين في الاول والثاني . وحمله الباقون على النظير في المعنى .
 وقد فسرنا فيما مضى الاسير من اخذ من دار الحرب من أهلها ، ولو اخذ
 مسلم لكان قد فك اسره . خاطب الله بهذه الآية نبيه ﷺ وامره ان يقول لمن
 حصل في يده من الاسرى يعني من حصل في وثاقه وسماه في يده لانه بمنزلة ما

قبض على يده بالاستيلاء عليه ولذلك يقال في الملك المتنازع فيه لمن اليد ؟ وقوله « ان يعلم الله في قلوبكم خيراً » يعني اسلاماً . وقيل معناه إن يعلم منكم خيراً في المستقبل بأن يفعلوه فيعلمه الله موجوداً ، لان ما لم يفعل لا يعلمه موجوداً والخير النفع العظيم ، وهو هاهنا البصيرة في دين الله وحسن النية في امر الله . وقوله « يؤتكم خيراً » يعني يعطيكم خيراً « مما اخذ منكم » من الفداء . وقال الحسن اطلقهم بالفداء ، ولولم يسلموا لم يتركهم .

وقوله « ويغفر لكم » يعني زيادة مما يؤتيمهم يغفر لهم معاصيهم ويستمرها عليهم لانه غفور رحيم . وروي عن العباس انه قال : كان معي عشرون اوقية فأخذت مني فاعطاني مكانها عشرين عبداً ووعدني بالمغفرة . وقال العباس في نزلت وفي اصحابي هذه الاية ، وهو قول ابن عباس والضحاك وقتادة وغيرهم :

قوله تعالى :

وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١) آية .

معنى الاية ان هؤلاء الاسارى ان علم الله في قلوبهم خيراً اخلف عليهم خيراً مما اخذ منهم . وان عزموا على الخيانة ، ونقض العهد وفعلوا خلاف ماوقع عليه العقد من تأدية فرض الله ، فقد خانوا الله من قبل هذا . والمعنى فقد خانوا اولياء الله ، لأن الله لا يمكن ان يخان ، لأنه عالم بالأشياء كلها لا يخفى عليه خافية . والخيانة هاعنا نقض عقد الطاعة لله ورسوله التي شهدت بها الدلالة . وقوله « فامكن منهم » المعنى لما خانوا بأن خرجوا الى بدر وقاتلوا مع المشركين ، فقد امكن الله منهم بان غلبوا واسروا . فان خانوا ثانياً فيمكن الله منهم مثل ذلك . والامكان هو القدرة على الشيء مع ارتفاع المانع ، وما لو حرص عليه صاحبه اتم الحرص لم

يصح ان يقع منه لا يكون امكاناً ، فالامكان ينافي المنع والالغاء كما ينافي العجز القدرة .

وقوله « والله عليم حكيم » معناه عالم بما تقولونه وما في نفوسكم وبجميع الاشياء « حكيم » فيما يفعله . والحكيم هو العالم بوجوه الحكمة في الفعل مما يصرف عن خلافها والاصل في الحكمة المنع فهي تمنع الفعل من الخلل والفساد .

قوله تعالى

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالِكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ
يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) آية .

قرأ حمزة « ولايتهم » بكسر الواو . الباقون بفتحها . قال الزجاج : إنما جاز الكسر لأنه يشبه الصناعة كالخياطة والقضارة والحياكة ، وقال الشاعر في الفتح :

دعيهم فهم ألب علي ولاية وحضرهم ان يعلموا ذلك دائب (١)

قال ابو عبيدة : بفتح الواو مصدر المولى تقول : مولى بين الولاية وإذا كسرت فهو من وليت الشيء . قال ابو الحسن : يفتح الواو من الولاية إلا الولاية في السلطان بكسر الواو ، وكسر الواو في الاخرى لغة . وقرأ الأعمش بكسر الواو من الولاية في الدين هنا . قال ابو علي الفارسي : الولاية هاهنا في الدين والفتح أجود . قال ابو الحسن . وهي قراءة الناس . وعن الأعمش أنه كسر الواو ، وهي لغة . وليست

بذلك . قال المبرد عن الاصمعي : ان الأعمش لحن في كسره لذلك . قال ابو علي :
 إذا كان ذلك لغة لا يكون لحناً . قال الفراء : والكسر أحب الي ، لأنها ولاية
 المواريث . وقال الازهري : في النصرة والنسب بفتح الواو . وفي الامارة بكسرها .
 اخبر الله تعالى في هذه الآية عن احوال المؤمنين الذين هاجروا من مكة
 الى المدينة بقوله « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل
 الله » وعن احوال الأنصار بقوله « والذين آووا ونصروا » يعني النبي ﷺ . ثم
 قال « اولئك » يعني المهاجرين والأنصار « بعضهم اولياء بعض » والهجرة فراق
 الوطن الى غيره من البلاد فراراً من المقتنين في الدين ، لأنهم هجروا دار الكفار الى
 دار الاسلام . والجهاد تحمل المشاق في قتال اعداء الدين جاهد جهاداً وجهده الامر
 جهداً واجتهد اجتهاداً ، وجاهد مجاهدة . والايواء ضم الانسان صاحبه اليه بانزاله
 عنده وتقريبه له ، تقول : آواه يؤويه ايواء واوى يأوي اويأ ، وأويت معناه رجعت
 الى المأوى . والولاية عقد النصرة للموافقة في الديانة .

ثم اخبر تعالى عن الذين آمنوا ولم يهاجروا من مكة الى المدينة فقال « والذين
 آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء » وقيل في معناه قولان :
 احدهما - ولاية القرابة نفاها عنهم لأنهم كانوا يتوارثون بالهجرة والنصرة
 دون الرحم - في قول ابن عباس والحسن وقتادة والسدي - وعن ابي جعفر عليه السلام
 انهم كانوا يتوارثون بالمؤاخاة الاولى .

الثاني - انه نفي الولاية التي يكونون بها يداً واحدة في الحل والعقد ، فتقى
 عن هؤلاء ما اثبتته للاولين حتى يهاجروا . ثم قال « وإن استنصروكم » اي طلبوا
 نصركم « في الدين » يعني الذين آمنوا ولم يهاجروا « فعليكم النصر » اي نصرهم
 بسبب الايمان الذي يجب عليكم ان تنصروهم على الكفار « إلا على قوم بينكم
 وبينهم ميثاق » يعني موادعة ومهادنة تقتضيه من جهة ان عقدهم بخلاف عقدهم .

وقيل انه نسخ ذلك بقوله « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض » (١) .
وقوله « والله بما تعملون بصير » يعني عالم بما يعملونه

قوله تعالى :

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعُضْمِ أَوْلِيَاءِ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةً
فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) آية .

اخبّر الله تعالى عن الكافرين أن بعضهم اولياء بعض بمعنى النصرة ، لأنه ينصر بعضهم بعضاً . وقوله « الاتفعلوه » الهاء عائدة الى معنى ما أمروا به في الآية الاولى والثانية ، ومخرجه مخرج الخبر والمراد به الأمر ، وتقديره الاتفعلوا ما امرتم به من التناصر والتعاون والبراءة من الكفار « تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » على المؤمنين الذين لم يهاجروا . فالفتنة هاهنا المحنة بالميل الى الضلال لأنه إذا لم يتوال المؤمن المؤمن على ظاهر حاله من الايمان والفضل، ولم يدعه الى التبيري من الضلال ادى ذلك الى الضلال . والفساد ضد الصلاح وهو الانقلاب الى الضرر القبيح . والصلاح جريان الشيء على استقامة . والولي هو المختص بالعقد على النصرة في وقت الحاجة ، وقد يعقد بالعزم ، وقد يعقد بالحكم . وقيل في معنى قوله « والذين كفروا بعضهم اولياء بعض » قولان : احدهما - في الميراث ، في قول ابن عباس ، وابي مالك . والثاني - قال قتادة وابن اسحق في النصرة .

قوله تعالى

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ
آوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ

كريم (٧٤) آية .

اخبر الله تعالى في هذه الآية ان الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله وهاجروا من ديارهم وأوطانهم، يعني من مكة الى المدينة، وجاهدوا مع ذلك في سبيل الله وقتال اعدائه . والذين آووا من الأنصار ومعناه ضموهم اليهم ونصروا النبي ﷺ بأنهم المؤمنون حقاً ، وقيل في معناه قولان : احدهما انهم المؤمنون الذين حققوا ايمانهم لما يقتضيه من الهجرة والنصرة بخلاف من اقام بدار الشرك . الثاني - قال ابو علي الجبائي : معناه انهم المؤمنون حقاً ، لان الله حقق ايمانهم بالبشارة التي بشرهم بها ، ولو لم يهاجروا ولم ينصروا لم يكن مثل هذا .

واختلفوا في هل تصح الهجرة في هذا الزمان أو لا ؟

فقال قوم : لا تصح لان النبي ﷺ قال : لا هجرة بعد الفتح ولأن الهجرة انتقال من دار الكفر الى دار الاسلام على هجر الاوطان ، وليس يقع مثل هذا في هذا الزمان لاتساع بلاد الاسلام إلا أن يكون نادراً لا يعتد به .

وقال الحسن : بقيت هجرة الاعراب الى الامصار الى يوم القيامة .

والأقوى أن يكون حكم الهجرة باقياً ، لأن من أسلم في دار الحرب ثم هاجر الى دار الاسلام كان مهاجراً، وسمي الجهاد في سبيل الله لأنه طريق الى ثواب الله في دار كرامته .

وقوله « لهم مغفرة ورزق كريم » اخبار منه تعالى أن لهؤلاء المغفرة لذنوبهم والرزق الكريم يعني العظيم الواسع والكريم الذي يصح منه الكرم من غير مانع . والكرم الجود العظيم والشرف قال الشاعر :

تلك المنكارم لأقعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

وقيل الرزق الكريم هنا طعام الجنة لانه لا يستحيل الى أجوافهم نجواً بل يصير كالمسك ريحاً .

قوله تعالى :

وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ
مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥) آية .

أخبر الله تعالى بأن الذين هاجروا بعد هجرة من هاجر، وقيل أراد بمد الفتح
وجاهدوا مع المؤمنين بأن قال « فأولئك منكم » ومعناه حكمهم حكمكم في وجوب
موالاتهم ومواريتهم ونصرتهم . وقوله « وأولو الارحام بعضهم أولى ببعض في
كتاب الله » قيل في معنى « كتاب الله » قولان :

احدهما - في كتاب الله من اللوح المحفوظ ، كما قال « ما أصاب من مصيبة
في الارض ، ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها » (١) .
والثاني - قال الزجاج : يعني في حكم الله .

ومعنى « أولوا » ذووا ، واحده ذو ، ولا واحد له من لفظه .
وفي الآية دلالة على ان من كان قريبا أقرب الى الميت كان أولى
بالميراث سواء كان عصة اولم يكن او له تسمية او لم يكن لان مع كونه اقرب
تبطل التسمية . ومن وافقنا في توريث ذوي الارحام يستثنى العصة ، وذوي السهام .
وهذه الآية نسخت حكم التوارث بالنصرة والهجرة فانهم كانوا لا يورثون
الاعراب من المهاجرين على ما ذكره في الايات الاول . ومن قال : الولاية في الآية
الأولى ولاية النصرة دون الميراث يقول : ليست هذه ناسخة لها بل هما محكمتان .
ودخلت الفاء في قوله : « فأولئك » كما تقول الذي يأتيني فله درهم ، لأن فيه
معنى المجازات وقال مجاهد : في هذه الآيات الثلاث ذكر ما ولاية رسول الله بين

المهاجرين والانصار في الميراث ، ثم نسخ ذلك بآخرها من قوله « وأولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله » وقال عبد الله بن الزبير نزلت في العصابات كان الرجل يعاقد الرجل يقول ترثني وارثك فنزلت « وأولو الارحام » الى آخرها .
 وقال الحسن : والذين آمنوا من بعد يعني بعد فتح مكة . وقوله « منكم » معناه مؤمنون مثلكم ، ولاهجرة بعد فتح مكة ، وقال : الهجرة الى الامصار قائمة الى يوم القيامة . وكان الحسن يمنع ان يتزوج المهاجر الى اعرابية . وروي عن عمر انه قال : لا تنكحوا أهل مكة ، فانهم اعراب .
 وأكثر هذه السورة في قصة بدر . وكانت في صبيحة السابع عشر من شهر رمضان على رأس ثمانية عشر شهراً من الهجرة ، من شهد هذه الواقعة فله الفضل .



٩ - سورة البراءة

وتسمى سورة التوبة

مدينة وهي مئة وتسع وعشرون آية في الكوفي وثلاثون في البصري والمدنيين

قال مجاهد وقتاده وعثمان: هي آخر ما نزلت على النبي ﷺ بالمدينة وروي عن حذيفة انه قال : كيف يسمونها سورة التوبة وهي سورة العذاب؟! وروي عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس سورة التوبة قال : تلك الفاضحة ما زالت تنزل وفيهم ومنهم حتى خشينا الا تدع احداً . قال : وسورة الأنفال نزلت في بدر ، وسورة الحشر في بني النضير .

قوله تعالى :

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) آية.

قيل في علة ترك افتتاح هذه السورة بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) قولان: احدهما - ماروي عن ابي بن كعب أنه ضمت هذه السورة الى الانفال بالمقاربة ، فكاتتا كسورة واحدة لأن الاولى في ذكر اليهود والاخرى في رفع ليهود . وقال عثمان لاشتباه قصتهما ، لان الاولى في ذكر اليهود والاخرى في رفع ليهود . وقال المبرد : لأن « بسم الله الرحمن الرحيم » أمان وبراءة نزلت رفع الامان .

ويحتمل رفع « براءة » وجهين :

احدهما - ان يكون خبراً لمبتدأ محذوف وتقديره هذه الآيات براءة .

والثاني - ان يكون مبتدأ وخبره الظرف في قوله « الى الدين » . والاول اجود لانه يدل على حصول المدرك كما تقول لما تراه حاضرا : حسن والله اي هذا حسن .

ومعنى البراءة انقطاع العصمة برىء براءة وبراءة وبراءة تبرؤا وبرئت من المرض وبرأت أبرأ وأبرؤ وبرأ تبريثا . وروى أهل اللغة برأت أبرؤ برءاً ، ولم يجيء من المهموز (فعلت أفعل) إلا في هذا الحرف الواحد وبريت القلم أبريه برياً بغير همز ، وبراء السير إذا هزله . ويرى له يرى إذا تعرض له ، وبراء إذا عارضه وأبرأت البعير إذا جعلت لانه براه بالالف .

ومعنى الآية برىء الله من المشركين ورسوله « إلا الذين عاهدتم من المشركين » من اعطائتم الامان ، والعهود والوفاء لهم بها إلا إذا نكثوا ، لانهم كانوا ينكثون ما كان بينهم وبين النبي ﷺ ، فأمر الله تعالى النبي ﷺ ان ينبذ ايضاً اليهم عهدهم . وقوله « إلا الذين عاهدتم من المشركين » فالعهد العقد الذي يتقدم به لتوثيق الامر عهد عهداً وعاهد معاهدة وتعاهد الامر تعاهداً وتعهد تعهداً . وقوله : « عاهدتم » انما جاء بلفظ الخطاب ، لأن فيه دلالة على الأمر بالنبذ الى المشركين برفع الامان ولولا ذلك لجاز عاقدنا ، لان معاقدة النبي ﷺ انما هي عن الله عز وجل . ويجوز رفع الامان والبراءة من غير نقض العهد إذا كان مشروطاً الى ان يرفعه الله اليهم .

قوله تعالى :

فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَمُنْذِرٌ الْكَافِرِينَ (٢) آية .

السيح السير في الأرض على مهل تقول : ساح يسيح سيحاً وسياحة وسيوحاً

وسيحاناً وإنساح الماء إنسياجاً وسيحه تسييحاً .

امر الله تعالى في هذه الآية ان يقال لهؤلاء المشركين أن يسبحوا في الأرض أربعة اشهر آمنين وإنما احلهم هذه الاشهر لانها الاشهر الحرم الى آخر المحرم من أول شوال ، في قول ابن عباس والزهري . وقال الفراء : كانت المدة الى آخر المحرم لأنه كان فيهم من كان مدته خمسين ليلة ، وهو من لم يكن له عهد من النبي ﷺ فجعل الله ذلك له . قال : ومعنى الاشهر الحرم المحرم وحده وإنما جمعه لانه متصل بذوي الحجة وذوي القعدة فكأنه قال : فاذا انقضت الثلاثة أشهر . وقال ابو عبد الله ﷺ اول الاربعة الاشهر يوم النحر وآخرها العاشر من شهر ربيع الآخر ، وهو قول محمد بن كعب القرظي ومجاهد ، وقال الحسن : إنما جعل لهم هذه المدة ، لان منهم من كان عهده اكثر من اربعة اشهر فحط اليها . ومنهم من كان اقل فرفع اليها . وقال ابو علي الجبائي : كان يوم النحر لعشرين من ذي القعدة الى عشرين من ربيع الاول ، لان الحج كان تلك السنة في ذلك الوقت ثم صار في السنة الثانية في ذي الحجة وفيها حجة الوداع ، وكان سبب ذلك النسيء الذي كان في الجاهلية .

وقرأ براء على الناس يوم النحر بمكة علي بن ابي طالب ﷺ لأن أبا بكر كان على الموسم في تلك السنة فاتبعه النبي ﷺ بعلي ﷺ ، وقال : لا يبلغ عني الا رجل مني - في قول الحسن وقتادة ومجاهد والجبائي - وروى أصحابنا ان النبي ﷺ كان ولاءه ايضاً الموسم ، وأنه حين أخذ البراءة من أبي بكر رجع أبو بكر فقال : يا رسول الله انزل في قرآن ؟ فقال : لا ، ولكن لا يؤدي إلا أنا او رجل مني . وروى الشعبي عن محرز بن ابي هريرة : قال : قال ابو هريرة : كنت أنا دي مع علي ﷺ حين أذن المشركين فكان اذا اضمحل صوته مما ينادي دعوت مكانه قال فقلت يا ابيه اي شيء كنتم تقولون ؟ قال : كنا نقول لا يجح بعد عامنا هذا

مشارك - قال وما حج بعد عامنا مشرك - ولا يطوف بالبيت عريان ولا يدخل الجنة الا مؤمن ومن كانت بينه وبين رسول الله ﷺ مدة فان اجله الى اربعة اشهر فذا انقضت اربعة اشهر فان الله بريء من المشركين ورسوله . وفتحت مكة سنة ثمان ونزلت براءة سنة تسع وحج رسول الله ﷺ حجة الوداع سنة عشر . وقوله « واعلموا انكم غير معجزي الله » معناه انكم غير فائنين كما يفوت ما يعجز عنه لانكم حيث ما كنتم في سلطان الله ومملكه والاعجاز ايجاز العجز والعجز ضد القدرة عند من أثبتته معنى .

وقوله « وان الله مخزي الكافرين » فالخزاء الادلال بما فيه الفضيحة والعار . والخزي النكال الفاضح .

قوله تعالى :

وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ (٣) فَإِن تُبْتُمْ فهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٤) آية في الكوفي والمدني ، وأيتان في البصري .

الاذان الاعلام في قول ابن زيد والزجاج والجبائي ، تقول : أذنتي فيلان كذا فأذنت اي اعلمني فعلمت . وقال بعضهم : معناه النداء الذي يسمع بالاذن . وقال الفراء والزجاج : انما ارتفع لأنه عطف على قوله « براءة » وقيل معناه عليكم اذان ، لأن فيه معنى الامر . والحج المقصد الى اعمال المناسك على ما امر الله به وقد بينا شرائط الحج واركانه وفرائضه في كتب الفقه ، ولانطول بذكره هاهنا والحج الاكبر قال عطا ، ومجاهد ، وعامر وبشر بن عباد : هو ما فيه الوقوف

بعرفه ، والاصغر العمرة ، وقال مجاهد : الحج الاكبر هو القران ، والحج الاصغر هو الافراد . وقيل في معنى « يوم الحج الاكبر » ثلاثة اقوال :

احدها - ماروي عن النبي ﷺ انه قال : عرفّة ، وهو المروي عن عمر وابن عباس بخلاف فيه وبه قال عطا ومجاهد وابن الزبير وابو حنيفة .

الثاني - في رواية اخرى عن النبي ﷺ وعلي ﷺ وابن عباس وسعيد ابن جبير ، وعبد الله بن ابي اوفى ، وابراهيم ومجاهد انه يوم النحر ، وهو المروي عن ابي عبد الله ﷺ . وسمي بالحج الاكبر لانه حج فيه المشركون والمسلمون ولم يحج بعدها مشرك .

الثالث - قال مجاهد وشعبة : هو جميع ايام الحج .

اعلم الله تعالى في هذه الاية المشركين انه ورسوله بريء من المشركين وانهم ان تبتم ورجعتم الى الايمان وطاعة الرسول « فهو خير لكم » وان اعرضتم وتوليتهم فاعلموا انكم لاتقوتون الله وان الله يبشر الكافرين بعذاب اليم اي شديد مؤلم . قال الحسن الحج الاكبر ثلاثة ايام الحج اجتمعت في تلك الايام الثلاثة اعياد المسلمين واعياد اليهود واعياد النصارى ، فقال رسول الله ﷺ لم يكن فيما خلا ولا يكون الى يوم القيامة .

قوله تعالى

إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا
وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٥) آية اجماعاً .

استثنى الله تعالى من براءته عز وجل ، وبراءة ورسوله ﷺ من المشركين من كان لهم العهد ، في قول الزجاج ، وقال الغزالي : هذا استثناء في موضع نصب ، وهو

قوم من بني كنانة كان قد بقي من اجلهم تسعة اشهر ، فقال الله تعالى « فأتهموا اليهم عهدهم الى مدتهم » لاتحطوهم الى الاربعة اشهر ، وقال مجاهد : عنى بذلك جماعة من خزاعة ومدلج . وقال ابن عباس : توجه ذلك الى كل من كان بينه وبين رسول الله عهد قبل براءة . وينبغي أن يكون ابن عباس اراد بذلك من كان بينه وبينه عقد هدنة او الى قوم من المشركين لم يتعرضوا له صلى الله عليه وسلم بعداوة ولاظاهروا عليه عدوه ، لان النبي صلى الله عليه وسلم صالح اهل هجر واهل البحرين وايلي ودومة الجندل ، وادرج ، واهل معنا ، وهم ناس من اليهود في توجهه الى تبوك اوفي مرجعه منها ، وله عهود الصلح والحرب غير هذه ، ولم ينبذ اليهم بنقض عهد ، ولا حاربهم بعد ان صاروا اهل ذمة الى ان مضى لسبيله . ووفى لهم بذلك من بعده ، فمن حمل ذلك على جميع العهود فقد اخطأ . وقال الحسن : هذا استثناء من قوله تعالى « اقتلوا المشركين » ، « إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام » ثم نقلت الى هاهنا وباقي الناس على خلافه .

وقوله « ثم لم ينقصوكم شيئاً » النقصان حط العدة عن عدة ، والزيادة الحاق العدة بعدة . والمعنى ثم لم ينقصوكم من شروطكم العهد شيئاً ، ولم يظاهروا عليكم أحداً فالظاهرة المعاونة على العدو للظهور عليه فهؤلاء إن لم يعاونوا عليكم أحداً من اعدائكم ولا ينقصوكم شيئاً من حقوقكم في عهدهم فأتهموا اليهم عهدهم الى مدتهم ، وهو أمن من الله تعالى الى ان يبلغوا المدة التي وافقهم عليها . قال قتادة : وهم مشركوا قريش كانوا عاهدوه في الحديبية وبقي من مدتهم اربعة اشهر بعد يوم النحر . والاتمام بلوغ الحد في العدة من غير زيادة ولا نقصان فهنا معناه امضاء الامر على ما تقدم به العهد الى انقضاء اجل العقد . والمدة زمان طويل الفسحة ، واشتقاقه من مدت له في الاجل للمهلة . والمعنى الى انقضاء مدتهم .

وقرأ عطاء « ثم لم ينقصوكم » بالضاد المعجمة وهي شاذة (وأن) بفتح الهمزة ، لان تقديره بأن الله بري عن المشركين ، ولا يجوز أن يكون المراد نبذ العهد الى

مكة ، لأن مكة فتحت سنة ثمان وصارت دار الاسلام ، وبند العهد كان في سنة تسع
فعلم بذلك ان المراد غيرهم .

قوله تعالى :

فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ
وَجَدْتَهُمْ وَوَجَدْتَهُمُ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصِرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ
فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦) آية .

الانسلاخ اخراج الشيء مما لابسه ، وكذلك سلخ الشاة إذا نزع الجلد عنها
وسلخنا شهر كذا نسلخه سلخاً وسلوخاً . وقيل في الأشهر الحرم قولان :
احدهما - رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ثلاثة سرد وواحد فرد
الثاني - الأشهر الأربعة التي جعل لهم ان يسبحوا فيها آمين ، وهي عشرون
من ذي الحجة ، والمحرم ، وصفر ، وشهر ربيع الاول ، وعشر من ربيع الآخر ،
في قول الحسن والسدي وغيرهما .

امر الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين انه اذا انقضت مدة هؤلاء المعاهدين ،
وهي الاربعة اشهر ان يقتلوا المشركين حيث وجدوهم . قال الفراء : سواء كان
في الاشهر الحرم او غيرها وسواء في الحل او في الحرم ، وان يأخذوهم ، ويحصروهم .
والحصر المنع من الخروج عن محيط واحصر الرجل إحصاراً وحاصره العدو
محاصرة وحصاراً ، وحصر في كلامه حصراً وانحصر الشيء انحصاراً . والحصر والحبس
والأسر نظائر . وقوله « واقعدوا لهم كل مرصد » يعني كل موضع يرقب فيه العدو
والمرصد الطريق ومثله المرقب والمربأ ، يقال : رصده يرصده رصداً ، ونصب كل

مرصد على تقدير على كل مرصد - على قول الاخفش - كما قال الشاعر :

نغالي اللحم للاضياف نياً ونرخصه اذا نضع القدور (١)

اي نغالي باللحم. وقال الزجاج هو ظرف كقولك ذهبت مذهباً وقال الشاعر :

إن المنية للفتى بالمرصد (٢)

فجعله بمنزلة المحدود ، والمرصدمبهم ، والطريق محدود ، فهذا فرق ما بينهما

واستدل بهذه الاية على ان تارك الصلاة متعمداً يجب قتله ، لأن الله تعالى

اوجب الامتناع من قتل المشركين بشرطين : احدهما - ان يتوبوا من الشرك .

والثاني - ان يقيموا الصلاة ، فاذا لم يقيموا الصلاة وجب قتلهم .

قوله تعالى :

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ

اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَا آمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٧) آية

قوله « احد » ليست التي تقع في النقي في مثل قولك (ما جاءني احد)

لأن الايجاب لا يصح فيه اعم العام الذي هو هو على الجملة والتفصيل كقولك :

ليسوا مجتمعين ، ولا متفرقين ، ولا يصح مثل ذلك في الايجاب ، ويصح في الاستفهام

لان فيه معنى النقي ، ولولا ذلك لم يصح جوابه بـ « لا » والتقدير وإن استجارك

احد من المشركين فاضر الفاعل ، ولم يجز في الجواب ان يقول : إن

يقوم احد زيد يذهب ، لقوة « إن » إنها للمفعل خاصة ومثله انشد الاخفش :

لاتجزعي إن متقساً اهلكته فاذا هلكت فعند ذلك فاجزعي (٣)

(١) مرتخرج هذا البيت في ١ / ٤٧٠ تعليقة ٣

(٢) تفسير القرطبي ٧٣ / ٨ ومجاز القرآن ٢٥٣ / ٨

(٣) القرطبي ٧٧ / ٨ . نسبه للمنير بن تولب .

فاخبر ، ثم جزم على جواب الجزاء ، لانها شرط وليس كذلك الجواب ،
لانه قد يكون بالناء ولا يجوز اضمار الفعل في شيء من حروف المجازاة إلا في «إن»
لانها ام الباب ، وهي الاصل الذي يلزمه ، قال الشاعر :

فان انت تفعل فللمفاعلية
ن انت المجيرين تلك الغمارا (١)
واما قول الشاعر :

فمتى واغل ينهم يحيو . ويعطف عليه كأس الساقى
فانما هو ضرورة ، لايجوز مثله في الكلام قال الفراء « استجارك » في
موضع جزم ، وانه فرق بين الجازم والمجزوم بـ « احد » وذلك جائز في « ان »
خاصة وقد يفرق بينهما وبين المجزوم بالمنصوب والمرفوع ، فالمنصوب مثل قولك :
إن اخاك ضربت ظلمت ، والمرفوع مثل قوله تعالى « إن امرؤءك ليس له ولد » (٢)
امر الله تعالى نبيه ﷺ انه متى استجارك احد من المشركين الذين امرتك
بقتالهم اي طلب منه الجار في رفع الاذى عن صاحبه . وقيل : المعنى ان استأمنك
احد فأمنه « حتى يسمع كلام الله » والمشرك يصح ان يسمع كلام الله على الحقيقة
لان حكاية كلام الله يطلق عليه الاسم بأنه كلام الله لظهور الامر فيه ، ولا يحتاج
ان يقدر اصل له ، كما يقال : كلام سيويه وغيره . ومن ظن ان الحكاية تفارق
المحكى لاجل هذا الظاهر فقد غلط ، لان المراد ما ذكرناه فيما يقال في العرف انه
كلام الله . وقوله « ثم ابلغه مأمنه » فالابلاغ النصير الى منتهى الحد . والابلاغ
والاداء نظائر . وفي الآية دلالة على بطلان قول من قال : المعارف ضرورية لانها
لو كانت كذلك لما كان لطلب ما هو عالم به معنى . ومعنى قوله « لا يعلمون »
اخبار عن جهلهم في افعالهم ، لانهم لا يعقلون ، وإنما اراد لا ينتفعون بمثله .
ولا يعرفون ما لهم وعليهم من الثواب والعقاب .

(١) معاني القرآن ٤٢٢/١ . نسبه للكعبية .

(٢) سورة النساء آية ١٧٥

قوله تعالى :

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ
عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ
إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٨) آية .

قال الفراء : هذا على التعجب كما تقول : كيف تستبقي مثلك ؟! اي لا
يبغي ان يستبقي ، وفي قراءة عبد الله : كيف يكون لهم عهد عند الله ، ولازمة ، فادخل
الكلام « لا » مع الواو ، ولان معنى الاول جحد . وقال غيره : في الكلام حذف
لان الكلام خرج مخرج الانكار عليهم . وتقديره كيف يكون للمشركين عهد
عند الله وعند رسوله مع اضرار الغدر في عهدهم ، فجاء الانكار ان يكون لهم عهد
مع ما ينبذ من العهد على ذلك ، وذلك يقتضي اضرار الغدر فيما وقع من العهد .
ثم استثنى من ذلك « الذين عاهدتم عند المسجد الحرام » فكان ذلك ايجاباً فيهم
لان ما قبله في معنى النفي ، والتقدير ليس للمشركين عهد الا الذين . وموضع
« الذين » يحتمل الجر والنصب . وحكى الكسائي : اين كنت لتنجو مني اي
ما كنت .

و « المسجد » الموضع المهيأ لصلاة الجماعة ، والمراد هاهنا مسجد مكة خاصة
واصله موضع السجود كالمجلس موضع الجلوس و « الحرام » المحظور بعض احواله
فالخمر حرام لحظر شربها وسائر انواع التصرف فيها . والام حرام بحظر نكاحها
والمسجد الحرام لحظر صيده وسفك الدم فيه وابتذاله ما يبتذل به غيره . وقوله
« فما استقاموا لكم » معناه ما استمروا لكم على العهد . والاستقامة الاستمرار على
جهة الصواب . ومتى كان الاستمرار على وجه الخطأ لا يسمى استقامة . ومعنى
« فاستقيموا لهم » استمروا لهم على العهد مثلهم والمراد بالذين عاهدوا عند المسجد

الحرام ، قيل فيهم ثلاثة أقول : قال مجاهد: هم خزاعة. وقال ابن اسحاق: هم قوم من بني كنانة . وقال ابن عباس : هم قریش .

وقوله « ان الله يحب المتقين » اخبار منه تعالى انه يحب من يتقي معاصيه ويعمل بطاعاته وانه يريد ثوابه ومنافعه . وفي الآية دليل على ان تمكين الحربي من المقام في دار الاسلام بعد قضاء حاجته ليس بجائز .

قوله تعالى:

كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً
يَرْضَوْنَكُمْ بَأْفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ أَفْوَاهُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٩) آية.

تقدير الآية كيف لهم عهد وكيف لا تقتلونهم وحذف ، لان قوله في الآية لاولى « كيف يكون للمشركين عهد » دل على ذلك ومثله قول الشاعر :

وخبرت مناني أنما الموت في القرى فكيف وهاتبا هضبة وقلب (١)
ويروى وهذي اي كيف مات وليس في قرية . وقال الخطيئة في حذف الفعل بعد كيف :

فكيف ولم أعلمهم خذلوكم على معظم ولا اديمكم قدوا (٢)
أي كيف تلومونني على مدح قوم وتذمونهم . والمعنى كيف لهم يعني لهؤلاء المشركين عهد، وهم إن يظهروا عليكم بمعنى يعلموا عليكم بالغلبة ، لان الظهور هو العلو بالغلبة . واصله خروج الشيء الى حيث يصح ان يدرك « لا يرقبوا فيكم » معناه لا يراعون فيكم ، والرقوب هو العمل في الامر على ما تقدم به العهد . والمراقبة

(١) قائله كعب بن سعد الغنوي . الأصمعيات ٩٩ وتفسير الطبري ١٤/١٤٥

وأما القالي ٢ / ١٥١ ومعاني القرآن ١ / ٢٢٤

(٢) معاني القرآن ١ / ٢٢٤

والمراعاة نظائر في اللغة . وقوله : « إلا ولا ذمة » قيل في معنى الثل ستة اقوال : اولها - قال مجاهد وابن زيد : إن معناه العهد . والثاني - في رواية اخرى عن مجاهد أنه اسم الله . ومنه قول أبي بكر لما سمع كلام مسيلمة : لم يخرج هذا من إل ، فأين يذهب بكم . الثالث - قال ابن عباس : هو القرابة . الرابع - قال الحسن : هو الجوار . الخامس - قال قتادة : هو الحلف . السادس - قال ابو عبيدة : هو التميز . والاصل في جميع ذلك العهد وهو مأخوذ من الأليل وهو البريق ، يقال : أل يؤل إذا لمع والألة الحربة للمعاناها ، وأذن مؤللة مشبهة بالحربة في تحديدها وقال الزجاج : اصله التحديد قال الشاعر :

وجدناهم كاذباً إلهم وذو الال والعهد لا يكذب (١)

أي ذو العهد ، وقال ابن مقبل :

أفسد الناس خلوف خلفوا . قطعوا الال واعراق الرحم (٢)

يعنى القرابة ، وقال حسان :

لعمرك إن إلك في قریش كال السقب من رأل النعام (٣)

وقوله « يرضونكم بأفواههم » معناه يقولون قولاً يرضيكم بذلك في الظاهر وتأبى قلوبهم أن يذعنوا لكم بتصديق ما يدونه لئسكم . ثم اخبر تعالى عن حالهم بأن أكثرهم فاسقون . وقال ابن الاخشاد : اراد بذلك انهم متمردون في شركهم لأن الفاسق هو الخارج من الشيء من قولهم فسقت الرطبة . وإنما كان أكثرهم بهذه الصفة ولم يكن جميعهم وإن كانوا كلهم فاسقين لأن المراد به رؤساءهم :

(٢،١) تفسير الطبري ١٤ / ١٤٨ ، ١٤٩ ،

(٣) دونه انه : ٤٠٧ هـ السان (ال . ا .) تفسير الطبري ١٤ / ١٤٩

قوله تعالى:

أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠) آية .

قيل في من نزلت هذه الآية بسببه قولان :

قال مجاهد : نزلت في ابي سفيان لما جمعهم على طعامة فاطم حلفاءه وترك حلفاء النبي ﷺ . وقال ابو علي الجبائي : نزلت في قوم من اليهود دخلوا في العهد فيما دلت عليه هذه النصفة . ومعنى « اشتروا بآيات الله » استبدلوا بحجج الله وبيناته العظيمة الشأن « ثمناً قليلاً » اي عرضاً قليلاً . واصل الاشتراء استبدال ما كان من المتاع بالثمن ، ونقيضه البيع ، وهو العقد على تسليم المتاع بالثمن . والثمن ما كان من العين والورق - في الأصل - ثم قيل لما اخذوه بدل آيات الله ثمن ، لأنه بمنزلته في أنه يستبدل به . وقوله « فصدوا عن سبيله » اي صدوا عن الاسلام ، ومعنى هذه الفاء كمعنى جواب الجزاء ، لان اشتراءهم هذا اداهم الى الصد عن سبيل الله . والصد هو المنع . ثم اخبر تعالى عنهم انهم بئس ما كانوا يعملونه من هذا الاستبدال .

قوله تعالى :

لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَاذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١١) آية .

قد بينا ان المراقبة هي المراعاة لما تقدم من العهد الذي يلزم الديانة ، لئلا يقع اخلال بشيء منه . والثل العهد . والذمة عقد الجوار ، وهما متقاربان . وفصل بينهما بأن الذمة عقد قوم يذم نقضه . والثل الذي هو العهد عقد يدعو الى الوفاء والبيان الذي فيه ، لأنه يلوح المعنى الذي يدعو الى الوفاء إذا ضل كل واحد

منهما يقتضي هذا . وانما اعيد ذكر « لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة » لانه في صفة « الذين اشتروا بآيات الله ثمنا » والاول في صفة جميع الناقضين للعهد . وقال في الثاني « فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فآخوانكم في الدين » ، فلذلك كرر بوصفين مختلفين . وقال الجبائي : لأنه في صفة اليهود خاصة ، والأول في صفة الناقضين عامة ، وإنما ذموا بترك المراقبة ، لأن مع تركها الغالبان يقع إخلال بما تقدم من العقد ، فلزمت المراقبة لهذه العلة . وترك المراقبة في عهد المؤمن أعظم منها في ترك عهد غيره لكثرة الزواجر عن الغدر بالمؤمن ، لأنه ليس من شأنه الغدر .

أخبر الله تعالى عن هؤلاء المشركين انهم لا يراعون في المؤمن عقد العهد ولا ذمة الجوار ، وانهم مع ذلك معتمدون . والاعتماد الخروج من الحق واصله المتجاوزة ، ومنه التعدي وهو تجاوز الحد ومعاداة القوم مجاوزة الحد في البغضة وكذلك العداوة . والاستعداد طلب معاملة العدو في الايقاع به ، والعدو مجاوزة حد السعي . والغرض بالآية حث المسلمين على قتالهم ، وأن لا يبقوا عليهم كما انهم لو ظهروا على المسلمين لم يبقوا عليهم .

قوله تعالى :

فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَآخَوْا نُكْمُ فِي
الَّذِينَ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٢) آية .

شرط الله لهؤلاء المشركين بأنهم إن تابوا ورجعوا عما هم عليه من الشرك الى طاعة الله ، والاعتراف بوحدانيته ، والاقرار بالنبى ﷺ ، وأقاموا الصلاة المفروضة على ما شرعها الله وءعطوا الزكاة الواجبة عليهم ، فانهم يكونون اخوان المؤمنين في الدين ، والايمان . وتقديره فهم اخوانكم . والتوبة هي الندم على القبيح لقبحه مع العزم على ترك العود الى مثله في القبح ، وفي الناس من قال الى مثله في صفته

فمن قال ذلك قال توبة المجبوب من الزنا هي الندم على الزنا مع العزم على ترك المعاودة الى مثله على ما يصح ويجوز من الامكان ، وهو انه لو رد الله عز وجل عضوه مازنى ، فاما من نسي الذنب فان توبته صحيحة لا يؤاخذ بالذنب ، لانه مكلف قد ادى جميع ما عليه في الحال ، فقد تخلص بذلك من العقاب . فان قيل لم شرط مع التوبة من الشرك وحصول الايمان ايتاء الزكاة ؟ مع انه ليس كل مسلم عليه الزكاة ! قلنا : انما يجب عليه بشرط الامكان فاذا اقر بحكم الزكاة مع التعذر عليه دخل في حكم الصفة التي يجب بها .

وقوله « ونفصل الايات » معناه نيينها ونميزها بخاصة لكل واحد منها بما يتميز به من غيرها حتى يظهر مدلولها على اتم ما يكون من الظهور فيها « لقوم يعلمون » ذلك ويشبونه دون الجاهل الذين لا يعقلون عن الله .

قوله تعالى :

وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ
فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَأَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٣) آية .

قرأ أهل الكوفة وابن عامر « أئمة » بهمزتين ، إلا هشاماً عن ابن عامر فانه فصل بين الهمزتين بالف . الباقيون بهمزة واحدة وياء بعدها . وفصل بينهما بالف ابو جعفر والمرى عن المسيبي والسوسنجردى عن يزيد بن اسماعيل . وقرأ ابن عامر والحسن « لا إيمان لهم » بكسر الألف . الباقيون بفتحها . والكسر يحتمل وجهين : احدهما - انهم ارتدوا ، ولا إسلام لهم ، ذكره الزجاج . قال : ويجوز « لا إيمان لهم » على المصدر ، وتقديره لاتأمنوهم بعد نكثهم العهد . والآخر - لانهم كفروا « لا إيمان لهم » ويحتمل أن يكون المراد أنهم آمنوا إيماناً لا يفون به فلا إيمان لهم . ومن فتح الهمزة فلقوله : « وان نكثوا ايمانهم » ولقوله

« عهدهم » وأثبت لهم الايمان . فان قيل كيف نفى فقال « إنهم لأيمان لهم » وقد اثبتتها في الأول من الآية بقوله « وان نكثوا أيمانهم » ؟!

قلنا : اليمين التي اثبتتها هي ما حلفوا بها وعقدوا عليها ، ولم يفوا ، وانما المراد به انهم لأيمان لهم يفون بها ، ويتمسكون بموجبها . وقال ابو علي النحوي « أئمة » على وزن « افعله » جمع إمام نحو مثال وامثلة فصار أئمة ، واجتمع همزتان الف أفعله ، والهمزة التي هي فاء الفعل ، والتي هي فاء الفعل ساكنة فتقل اليها حركة التي بعدها ليتمكن النطق بها . فمن خففها اتى بالهمزتين الأولى مفتوحة والثانية مكسورة . ومن كره ذلك قلب الثانية ياء ولم يجعلها بين بين ، لأن همزة بين بين في تقدير التحقيق وذلك مكروه عندهم . وقال الرماني : انما جاز اجتماع الهمزتين في كلمة ، لئلا يجتمع على الكلمة تغيير الادغام والانتقال مع خفة التحقيق لأجل ما بعده من السكون ، وهو مذهب ابن ابي اسحاق من البصريين . والباقون لا يجيزونه ، ذكره الزجاج ، قال : لانه يلزم عليه ان يقرأ « أم » بهمزتين وذلك باطل بالاتفاق . وعلى هذا القول هذا أم بهمزتين ، قال : وانما قلبت الهمزة في أئمة على حركتها دون حركة ما قبلها ، لان الحركة إنما نقلها الى الهمزة لبيان زنة الكلمة ، فلو ذهبت تقلبها على ما قبلها لكان مناقضاً للغرض فيها واذا بنيت من الامامة هذا افعل من هذا قلت هذا أوم من هذا - في قول المازني - لأن اصله كان أم فلم يمكنه ان يبدل منها الفاء لاجتماع الساكنين ، فجعلها واواً كما قالوا في جمع آدم أوادم . قال الزجاج : وهو القياس وهذا ايم من هذا في قول الأخفش ، قال : لانها صارت الياء في أئمة بدلا لازماً .

وقوله « وان نكثوا ايمانهم » فالنكث نقض العهد الذي جعل لتوثيق الامر وذلك بالخلاف لما تقدم من العزم . و « الأيمان » جمع يمين ، وهو القسم والقسم هو قول عقد بالمعنى لتأكيد ، وتغليظ الأمر فيه نحو والله ليكونن وتالله ما كان ، فيجوز أن يكون من اعطى صفقة بمينه ، ويجوز أن يكون من يمين

النيسير في فعله . وقوله « وطعنوا في دينكم » فالطعن هو الاعتماد بالعيب . واصله الطعن بالرمح ، ونحوه في الشيء لنقض بنيته .

وقوله « فقاتلوا أئمة الكفر » امر من الله تعالى بقتال أئمة الكفر ، وهم رؤساء الضلال والكفار ، والامام هو المتقدم الاتباع ، فأئمة الكفر رؤساء الكفر والامام في الخير مهتد هاد ، وفي الشر ضال مضل ، كما قال تعالى « وجعلناهم ائمة يدعون الى النار » (١) والمعني بأئمة الكفر رؤساء قريش ، في قول ابن عباس ومجاهد . وقال قتادة : هم ابو جهل بن هشام ، وأميه بن خلف وعتبة بن ربيعة وابو سفيان بن حرب ، وسهيل بن عمرو ، وهم الذين هموا باخراجه ، وكان حذيفة يقول : لم يأت أهل هذه الآية .

وروي عن ابي جعفر عليه السلام انها نزلت في اهل الجمل . وروي ذلك عن علي عليه السلام وعمار ، وغيرهما . ويقول حذيفة قال يزيد بن وهب : قوله « انهم لايمان لهم » معناه لا تأمنوهم . ومن كسر معناه ، لانهم كفروا لايمان لهم . وقوله : « لعلمهم ينتهون » معناه لكي ينتهوا .

وفي الاية دلالة على ان الذمي إذا اظهر الطعن في الاسلام فانه يجب قتله ، لان عهده معقود على أن لا يطعن في الاسلام ، فاذا طعن فقد نكث عهده .

قوله تعالى :

أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ
وَهُمْ بَدُّوا كُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَأَلَلَهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ (١٤) آية .

قوله « ألا » كلمة موضوعة للتخصيص على الفعل ، وأصلها « لا » دخلت عليها

الف الاستفهام ، فصارت تحضيضاً كما انها إذا دخلت على « ليس » صارت تقريراً و « ألا » موافقة للتحضيض بالاستقبال و « أليس » إنما هي للمحال ، فهي موافقة للمحال بهذا المعنى . وإذا قال : « ألا تقاتلون » كان معناه التحضيض على قتالهم وإذا قال : « الا قاتلتم » كان ذلك تأنيباً ، لأن ما يلزم اذا ترك ذم على تركه ويحض على فعله قبل وقته . حض الله تعالى المؤمنين على قتال الكفار الذين « نكثوا ايمانهم وهموا باخراج الرسول » من مكة اي قصده . والله مقارنة الفعل بالعزم من غير اتباع له ، وقد ذموا بهذا الهم ففيه دليل على العزم وقد يستعمل الهم على مقارنة العزم .

وقوله « وهم بدؤكم اول مرة » فالبدوء فعل مالم يتكرر والمره الفعله من المر ، والمره والكره والدفعه نظائر . ومعنى « بدؤكم اول مرة » بدؤوا حلفاء النبي ﷺ بالقتال من خزاعة ، في قول الزجاج ، وقال ابن اسحاق والجبائي : بدؤوا بنقض العهد . وقال الطبري : بدؤهم بخروجهم الى بدر ، لقتالهم .

وقوله « اتخشونهم » معناه اتخافونهم . ثم قال : « والله احق ان تخشوه » اي تخافوه « ان كنتم مؤمنين » وفي ذلك غاية الفصاحة لانه جمع بين التفرع والتشجيع . والمعنى اتخشون ان ينالكم من قتالهم مكروه ، فالله احق ان تخشوا عقابه في ارتكاب معاصيه إن كنتم مصدقين بعقابه وثوابه .

قوله تعالى

قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ
وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٥) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ
اللَّهُ عَلَيَّ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٦) آيتان .

هذا امر من الله تعالى للمؤمنين بأن يقاتلوا هؤلاء الناقضين للعهد البادئين

بقتال حلفاء النبي ﷺ من خزاعة، فانهم اذا قاتلوهم يعذب الله الكفار بأيديهم يعني بأيدي المؤمنين الذين يقاتلونهم ، وينصر كم ايها المؤمنون ينصر كم الله «عليهم ويشف» بذلك «صدور قوم مؤمنين» وفي ذلك دليل على انه اشتد غضب جماعة المؤمنين لله ، فوعدهم الله النصر ، في قول قتادة والزجاج . وفيها دلالة على نبوة النبي ﷺ لأنه وعده النصر فكان الأمر على ما قال . وقوله « ويذهب غيظ قلوبهم » قيل المراد بهم خزاعة الذين قاتلوهم ، في قول السدي وغيره ، لأنهم كانوا حلفاء النبي ﷺ . والتعذيب اي قاع العذاب لصاحبه والعذاب الم يستمر به ، قال عبيد ابن الأبرص :

والمرء ما عاش في تكذيب طول الحياة له تعذيب

ومعنى « يعذبهم الله بأيديكم » اي انكم اذا تناولتموهم بالسلاح من السيوف والنبل والرماح انزل الله بهم العذاب . وقال ابو علي : ذلك مجاز والمعنى انه لما كان ذلك بأمر الله اضافه الى نفسه ، وهو احسن من الاول .

وقوله « ويخزهم » معناه يذلهم والاخزاء الادلال بما فيه النصيحة على صاحبه خزي خزيًا واخزاء الله إخزاء . ويجوز في « ويخزهم » ثلاثة أوجه من الاعراب : الجزم باللفظ وعليه القراء ، والنصب على الظرف ، والرفع على الاستئناف ولم يقرأ بهما .

وقوله « ويشف صدور قوم مؤمنين » فالشفاء سلامة النفس بما يزيل عنها الأذى ، فكلما وافق النفس وأزال عنها الهم فهو شفاء وقيل « ويشف صدور قوم مؤمنين » يعني خزاعة ، لأنهم تقضوا العهد بقتالهم - في قول مجاهد والسدي - والصدور جمع الصدر وهو الموضع الاجل الذي يصدر عنه الأمر ، ومنه الايراد والاصدار .

وقوله « ويذهب غيظ قلوبهم » معناه يبطل غيظهم ويعدمه . والاذهاب جعل الشيء يذهب والذهاب الانتقال عن الشيء ، والمجيء الانتقال الى الشيء ، والغيظ نقص الطبع بانزعاج النفس . تقول : غاظه يغيطه غيظاً وَاغْتَاظَ اغْتِياظاً وَاغْيَاظَهُ مَغْيَاظَةً .

وقوله « ويتوب الله على من يشاء » معناه يقبل الله توبة من يشاء من عباده .
 ووجه اتصال قوله « ويتوب الله على من يشاء » بما قبله من وجهين :
 احدهما - بشارتهم بأن يتوب من فيهم من يتوب ويرجع عن الكفر الى الايمان .
 والاخر - انه ليس في قتالهم اقتطاع لأحد منهم عن التوبة .
 ورفع « ويتوب » بخروجه عن موجب القتال فاستأنفه .
 وقوله « والله عليم حكيم » معناه عليم بتوبتهم إذا تابوا حكيم في أمرهم
 بقتالهم إذا نكثوا قبل أن يتوبوا ويرجعوا ، لأن أفعاله كلها صواب وحكمة .
 قوله تعالى :

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ
 يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا
 تَعْمَلُونَ (١٧) آية .

قوله « ام حسبتم » من الاستفهام الذي يتوسط الكلام فيجعل به (أم) ليفرق بينه
 وبين الاستفهام المبتدأ الذي لم يتصل بكلام ولو كان المراد الابتداء لكان اما بالالف
 أو ب (هل) كقوله « هل اتى على الانسان » (١) والمعنى ظننتم أن تتركوا . والظن
 والحسبان نظائر ، والحسبان قوة المعنى في النفس من غير قطع ، وهو مشتق من الحساب
 لدخوله فيما يحتسب به « ان تتركوا » معنى الترك هو ضد ينا في الفعل المبتدأ في
 محل القدرة عليه . ويستعمل بمعنى (ألا يفعل) كقوله « وتركهم في ظلمات لا
 يبصرون » (٢) وقوله « ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » إذا قيل : لما يفعل ،
 فهو نفي للفعل مع تقريب لوقوعه . وإذا قيل : لم يفعل ، فهو نفي بعد اطماع في

وقوعه . والمعنى ولما يجاهدوا ويمتنعوا ان يتخذوا وليجة ويعلم الله ذلك منكم فبجاء مجيء نفي العلم لنفي المعلوم ، لأنه متى كان علم الله انه كائن . وكان ابلغ وأوجز ، لأنه اتى على طريقة نفي صفات الله تعالى .

وقوله « ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجه » تقديره ولما يعلم الله الذين آمنوا لم يتخذوا من دون الله ولا رسوله وليجه، فالوليجة الدخيلة في القوم من غيرهم تقول : ولج يلج ولوجاً وأولج إيلجاً وتولج تولجاً بمعنى الدخول . والوليجة والدخيلة والبطانة نظائر . وكل شيء دخل في شيء وليس منه فهو وليجة ، قال طرفة :

فان القواني يتلجن موالجاً تضايق عنها ان تولجها الا بر (١)
وقال آخر :

متخذاً من ضעות تولجا متخذاً فيها اياداً دولجا (٢)

يعني الكأس . وقال الفراء : نهوا ان يتخذوا بطانة يفشون اليهم اسرارهم . وقال الجبائي : اتخاذا الوليجة من دون الله ودون رسوله هو النفاق . نهوا أن يكونوا منافقين ، وهو قول الحسن ، فانه قال : الوليجة هي الكفر والنفاق . وفي الآية دلالة على انه لا يجوز ان يتخذ من الفساق وليجة ، لان في ذلك تأليفاً بالفسق يجري مجرى الدعاء اليه مع ان الواجب معاراة الفساق والبراءة منهم ، ومع ذلك فهو غير مأمون على الأسرار والاطلاع عليها . قال الزجاج : كانت براءة تسمى الحافرة ، لانها حفرت عن قلوب المنافقين ، لأن لما فرض القتال تميز المؤمنون من المنافقين ومن يوالي المؤمنين ممن يوالي اعداءهم .

قوله تعالى :

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ

(١ ، ٢) مجاز القرآن ١ / ٢٥٤ واللسان (ولج)

بِالْكَفْرِ أَوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٨) آية .

قرأ ابن كثير وابو عمرو « مسجد الله » على التوحيد . الباقر على الجمع ، فمن قرأ على التوحيد ، قال الحسن اراد به المسجد الحرام وبه قال الجبائي . ويحتمل ان يكون اراد المساجد كلها ، لأن لفظ الجنس يدل على القليل والكثير . ومن قرأ على الجمع يحتمل ان يكون اراد جميع المساجد . ويحتمل ان يكون اراد المسجد الحرام . وإنما جمع لأن كل موضع منه مسجد يسجد عليه . والقراءتان متناسبتان . والاصل في المسجد هو موضع السجود وفي العرف يعبر به عن البيت المطهراً لصلاة الجماعة فيه .

أخبر الله تعالى انه ليس لمشرك ان يعمر مسجد الله . والعمارة ان يجدر منه ما استمر من الأبنية ، ومنه قولهم : اعتمر اذا زار ، لأنه يجدر بالزيارة ما استمر من الحال . وقوله « شاهدين على أنفسهم بالكفر » نصب على الحال ، فالشهادة خبر عن علم مشاهد بأن يشاهد المعنى او يظهر ظهور ما يشاهد كظهور المعنى في شهادة أن لا إله إلا الله . والمعنى بذلك أحد شيئين :

احدهما - ان فيما يخبرون به دليلاً على كفرهم ، لا أنهم يقولون نحن كفار ، ولكن كما يقال للرجل ان كلامك ليس شهد انك ظالم - هذا قول الحسن . والثاني - قال السدي : ان النصراني إذا سئل ما انت ؟ قال نصراني واليهودي يقول انا يهودي وعابد الوثن يقول مشرك فذلك شهادتهم على أنفسهم بالكفر . وقال الكلبي : معناه شاهدين على النبي بالكفر ، وهو من انفسهم . وقوله « أولئك حبطت اعمالهم وفي النار هم خالدون » اخبار منه تعالى ان اعمال هؤلاء الذين شهدوا على انفسهم بالكفر باطلقة بمنزلة ما لم يعمل ، لأنهم اوقعوها على وجه لا يستحق بها الثواب ، وانهم مع ذلك مخلدون في نار جهنم معذبون بأنواع العذاب .

قوله تعالى :

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ
الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ
الْمُهْتَدِينَ (١٩) آية

اخبر الله تعالى في هذه الآية انه ينبغي الا « يعمر مساجد الله » إلا « من آمن بالله » و اقر بوحدا نيته واعترف باليوم الآخر يعني يوم القيامة ثم اقام بعد ذلك « الصلاة » بحدودها . وأعطى « الزكاة » الواجبة - ان وجبت عليه - مستحقها ولم يخف سوى الله احداً من المخلوقين ، فاذا فعلوا ذلك فانهم « يكونون من المهتدين » الى الجنة ونيل ثوابها ، لأن عسى من الله واجبة ليست على طريق الشك ، وهو قول ابن عباس والحسن . وقال قوم : انما قال عسى ليكونوا على طريق الحذر ، مما يجبط اعمالهم ، ويدخل في مكارمة المساجد عمارتها بالصلاة فيها ، والذكر لله . والعبادة له . لأن تجديد احوال الطاعة لله من أوكد الاسباب التي تكون بها عامرة ، كما ان اهمالها من اوكد الاسباب في اخرابها ، وذكر قوله « وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله » بعد ذكر قوله « من آمن بالله واليوم الآخر » يدل على ان الايمان لا يقع على افعال الجوارح ، لانه لو كان الايمان متناولا لذلك اجمع لما جاز عطف ما دخل فيه عليه . ومن حمل ذلك على ان المراد به التفصيل وزيادة البيان فيما يشتمل على الايمان تارك للظاهر . والخشية انزعاج النفس لتوقع ما لا يؤمن من الضرر تقول : خشي يخشى خشية فهو خاش ، ومثله خاف يخاف خوفاً ومخافة ، فهو خائف . والخاشي نقيض الآمن . والاهتداء المذكور في الآية هو التمسك بطاعة الله التي تؤدي الى الجنة وفاعلها يسمى مهتدياً .

قوله تعالى :

أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٠) آية .

خاطب الله تعالى بهذه الآية قوماً جعلوا القيام بسقي الحجيج وعمارة المسجد الحرام من الكفار مع مقامهم على الكفر مساوياً أو افضل من ايمان من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ، فأخبر تعالى انهما لا يستويان عند الله في الفضل لان الذي آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله افضل ممن يسقي الحجيج ولم يفعل ذلك . وفي الآية حذف احد امرين : احدهما - ان يكون تقديره كمايمان من آمن بالله وأقام الاسم مقام المصدر ، لأن اصل السقاية مصدر كما قال الشاعر :

لعمرك ما الفتيان ان تمت اللحي ولكنما الفتيان كل فتى ندى (١)

اي فتيان نبات . والسقاية آلة تتخذ لسقي الماء . وقيل كانوا يسقون الحجيج الماء والشراب . وبيت البئر سقاية ايضاً قال الرمانى المشبه لايجوز ان يكون مجاهداً في سبيل الله لانه لايعرف الله فيتبع امره في ذلك والمجاهد اذا عرف الله صح ان يكون مطيعاً بالجهد لا اتباعه امر الله فيه . وروى عن ابي جعفر وابي عبد الله عليهما السلام ان الاية نزلت في امير المؤمنين عليه السلام والعباس . وروى الطبري باسناده عن ابن عباس انها نزلت في العباس حين قال يوم بدر: إن سبقتمونا الى الاسلام والهجرة لم تسبقونا الى سقاية الحاج وسدنة البيت ، فأنزل الله الاية . وروى الطبري باسناده عن الحسن انها نزلت في علي والعباس وعثمان وشيبة . وقال الشعبي : نزلت في علي والعباس ، وبه قال ابن وهب والسدي .

(١) تفسير الطبري ١٤ / ١٧٢ ومعاني القرآن ١ / ٤٢٧

وقوله « والله لا يهدي القوم الظالمين » اخبار منه تعالى انه لا يهدي احداً ممن ظلم نفسه وكفر بآيات الله ، وجدد وحدانيته الى الجنة كما انه يهدي اليها من كان عارفاً بذلك فاعلا لطاعته مجتنباً لمعصيته .

واختلفوا في سبب نزول الاية فقال قوم : سأل المشركون اليهود فقالوا : نحن سقاة الحجيج وعمار المسجد الحرام أفنحن أفضل ام محمد واصحابه ؟ فقالت اليهود لهم : انتم افضل ، عناداً للنبي ﷺ والمؤمنين . وقال آخرون : تفاخر المسلمون الذين جاهدوا والذين لم يجاهدوا . فنزلت الآيه ، ذكره الزجاج .

قوله تعالى :

الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢١) آية .

موضع « الذين » رفع بالابتداء وخبره اعظم درجة . اخبر الله تعالى ان الذين آمنوا يعني صدقوا بالله واعترفوا بوحدانيته ، وأقروا بنبوة نبيه ، وهاجروا عن اوطانهم التي هي دار الكفر الى دار الاسلام ، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وانفسهم اعظم درجة عند الله . ومعناه يتضاعف فضلهم عند الله مع شرف الجنس . ولو قال اعلى درجة افاد شرف الجنس فقط .

وقوله « اولئك هم الفائزون » اخبار منه تعالى ان من وصفه هم الذين يظفرون بالبغيه ويدركون الطلبة ، لان الفوز هو الظفر بالبغيه وهو الفلاح والنجاح نظائر . وقيل : إنه يلحق بمثل منزلة المجاهدين من لم يجاهد بأن يجاهد في طلب العلم الديني فيتعلمه ويعلم غيره ويدعو اليه والى الله . وربما كانت هذه المنزلة فوق تلك فان قيل كيف قال « اعظم درجة » من الكفار بالساقية والسدانة ؟ قلنا : على ما روينا عن ابي جعفر وابي عبد الله ﷺ وابن عباس وغيرهم لا يتوجه السؤال عن

ذلك لان المفاضلة جرت بينهم ، لان لجميعهم الفضل عند الله ومن لا يقول ذلك يجب بجوابين : احدهما - انه على تقدير ان لهم بذلك منزلة كما قال تعالى « اصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً » (١) هذا قول الحسن وأبي علي . والثاني - قال الزجاج المعنى اعظم من غيرهم درجة . و (الذي) يجوز وصفها ولا يجوز وصف « من » اذا كانت بمعنى الذي ، لأن « من » تكون تارة معرفة موصولة فلذلك افترقا . وقيل معنى « الفائزي » انهم الظافرون بثواب الله الذي استحقوه على طاعتهم .

قوله تعالى :

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا
نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢٢) آية .

في الآية اخبار من الله تعالى بالبشارة واعلام للذين آمنوا وهاجروا برحمة من جهته تعالى ، والبشرى والبشارة الدلالة على ما يظهر به السرور في بشرة الوجه تقول بشرته أبشره بشرى وابشر ابشاراً واستبشر استبشاراً وتبشر تبشيراً وبشره تبشيراً فاما بشره مباشرة ، فبمعنى لاقاه ببشر ورضوان . وهو معنى يستحق بالاحسان ، يدعو الى الحمد على ما كان ، ويضاد سخط الغضبان ، تقول : رضي رضاً ورضواناً وأرضاه إرضاء وترضاه ترضياً وارتضاه ارتضاء واسترضاه استرضاء وتراضوه تراضياً .

وقوله « وجنات » يعني البساتين التي يجنحها الشجر ، وأما الرياض فهي الموطأة للخضرة التي قد ينبت فيها نبات الزهر ومنه الرياضة لانها توطئة لتقريب العمل .

وقوله « لهم فيها نعيم مقيم » فالنعيم لين العيش اللذيذ ، وهو مشتق من النعمة

وهي اللين ، وأما النعمة بكسر النون ، فهي منقمة يستحق بها الشكر لانها كنعم العيش والمقيم الدائم بخلاف الراحل فكأنه قال : المقيم ابدأ .

قوله تعالى :

خَالِدِينَ فِيهَا أبدأ إِزَّ اللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٣) آية .

« خالدین » نصب على الحال من الهاء والميم في قوله : « لهم » والخلود في العرف الدوام في الشيء كالخلود في الجنة مأخوذ من قولهم : خلد هذا الكتاب في الديوان على تقدير الدوام من غير انقطاع . والابد الزمان المستقبل من غير آخر كما أن (قط) للماضي تقول : مارأيت قط ، ولأراه ابدأ وجمع الابد آباد وأبود تقول لأفعل ذلك ابدأ ، وتأبد المنزل اذا اقفر وأتى عليه الابد ، والوايد الوحوش سميت بذلك لطول أعمارها وبقيائها . وقيل : لم يموت وحش حتف أنفه وانما يموت بآفة ، وجاء فلان بأبدة اي بداهية وأتبن آبد تسكن القفر متأبدة .

وقوله « ان الله عنده أجر عظيم » اخبار منه تعالى ان عنده الجزاء أي في مقدره الجزاء الذي يستحق بالاعمال تقول : أجره يأجره أجزاً وآجره إجارة واستأجره استأجاراً ومنه الاجير .

وقوله « عظيم » يعني كبير متضاعف لا تبلغه نعمة غيره من الخلق ، والابد قطعة من الدهر متتابعة في اللغة قال الحر بن البغيث :

أهاج عليك الشوق اطلال ذممة بناصفة البردين أوجانب الهجل

اتى ابد من دون حدثان عهدعا وجرت عليها كل نافحة شمل (١)

ومن الدليل على أن الايد قطعة من الدهر أنه ورد مجموعاً في كلامهم . قالت

صفية بنت عبد المطلب تخاطب ولدعا الزبير :

وخالجت آباد الدهور عليكم وأسماء لم تشعر بذلك أي

فلو كان زبير مشركاً لعذرته ولكن زبيراً يزعم الناس مسلم
ويقال : تأبذ الربيع إذا مر عليه قطعة من الدهر وليس يعنون انه مر عليه
أبداً لا غاية له قال مزاحم العقيلي :
أتعرف بالغرين داراً تأبذت من الحي واستمقت عليها العواصف
فأما الخلود ، فليس في كلام العرب ما يدل على انه بقاء لا غاية له وإنما
يخبرون به عن البقاء الى مدة كما قال المخبل السعدي :
الارماداً هامداً رفعت عنده الرياح خوالد سحم (١)
اراد دفع الرياح عن النوى الى هذا الوقت هذه الأثافي التي بقيت الى هذا الوقت.
قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ
إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاُولَئِكَ
هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٤) آية.

روي عن ابي جعفر وابي عبد الله عليهما السلام ان هذه الآية نزلت في حاطب بن
باتعة حيث كتب الى قريش بخبر النبي صلى الله عليه وآله حين أراد فتح مكة .
هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين ينهاهم فيه عن اتخاذ آبائهم وإخوانهم
أولياء متى استحبوا الكفر . وآثروه على الإيمان . و «الاتخاذ» هو
الافتعال من اخذ الشيء . والاتخاذ اعداد الشيء لأمر من الامور .
واتخاذهم اولياء : هو ان يعتقدوا موالاتهم ووجوب نصرتهم فيما ينوبهم ، وليس
ذلك بمانع من صلتهم . والاحسان اليهم ، لأنه تعالى حث على ذلك ، فقال : « وان
جاهداك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا

معروفاً (١) . والاب والوالد نظائر . والاخ الشقيق في النسب من قبل الأب والام ، وكل من رجع مع آخر الى واحد في النسب من والد ووالدة ، فهو أخ . والأولياء جمع ولي وهو من كان مختصاً بإيلاء التصرف في وقت الحاجة . وقال الحسن : من تولى المشرك ، فهو مشرك . وهذا إذا كان راضياً بشركه ، ويكون سبيله سبيل من يتولى الفاسق أن يكون فاسقاً .

وقوله « إن استجبوا الكفر على الايمان » معناه إن طلبوا محبة الكفر على الايمان . وقد يكون استجب بمعنى أحب كما ان استجاب بمعنى اجاب . ثم اخبر تعالى ان من استجب الكفار على المؤمنين فانهم أيضاً ظالمون نفوسهم والباخسون حظها من الثواب ، لأنهم وضعوا المواالات في غير موضعها .

قوله تعالى

قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنََهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٥) آية .

قرأ أبو بكر عن عاصم و « عشيرتكم » على الجمع . الباؤون على التوحيد . من جمع فلان كل واحد من المخاطبين له عشيرة . فاذا جمع قال وعشيرتكم . ومن افرد قال العشيرة تقع على الجمع . وقال ابو الحسن : العرب لا تجمع العشيرة عشيرات . وإنما تقول عشائر .

أمر الله تعالى بهذه الآية نبيه ﷺ أن يخاطب هؤلاء الذين تخلفوا عن الهجرة الى دار الاسلام . وأقاموا بدار الكفر ، وقال الجبائي : هو خطاب للمؤمنين أجمع وتحذير لهم من ترك الجهاد وحث لهم عليه ، فأمره أن يقول لهم « إن كان أبواؤكم » الذين ولدوكم « وأبناؤكم » الذين ولدتموهم ، وهم الأولاد الذكور « وأزواجكم » جمع زوجة وهي المرأة التي عقد عليها نكاح صحيح ، لأن ملك اليمين والمعقود عليها عقد شبهة لاتسمى زوجة « وعشيرتكم » وهي الجماعة التي ترجع الى عقد كعقد العشرة . ومنه المعاشرة ، وهي الاجتماع على عقد يوم . ومنه العشار النوق التي أتى على حملها عشرة أشهر « وأموال اجمع مال » اقترفتوها أي اقتطعتوها واكتسبتوها ، ومثله الاحتراف . والاقتراف اقتطاع الشيء عن مكانه الى غيره « وتجارة تخشون كسارها » يعني ما اشترىتموه طلباً للربح تخافون خسرانها ووقوفها « ومساكن » جمع مسكن وهي المواضع التي تسكنونها وترضونها « أحب اليكم من الله ورسوله » يعني أثر في نفسوكم وأقرب الى قلوبكم . والمحبة إرادة خاصة للشيء فمن أحب الجهاد فقد أراد فعله ومن أحب الله أراد شكره وعبادته . ومن أحب النبي أراد إجلاله وإعظامه . والذي اقتضى نزول هذه الآية محبتهم التي منعتهم الهجرة . وقوله « فتربصوا » اي فتمتبتوا . والتربص التثبت في الشيء حتى يجيء وقته . والتربص والتنظر والتوقف نظائر في اللغة . وتقويضه التعجل بالامر . وقال مجاهد قوله « حتى يأتي الله بأمره » من عقوبة عاجلة أو آجلة . وقوله « والله لا يهدي القوم الفاسقين » معناه إنه لا يهديهم الى الثواب والجنة لأنه تعالى قد هداهم الى الايمان فقال « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » (١).

قوله تعالى

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ

كَثُرَتْكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَّبَتْ ثُمَّ وَابَتْ مُدْبِرِينَ (٢٦) آية .

أقسم الله تعالى في هذه الآية - لأن لام « لقد » لام القسم - بأنه نصر المؤمنين في مواطن كثيرة : ومواطن في موضع جر بـ « في » وانما نصب ، لأنه لا ينصرف لأنه جمع لانظير له في الآحاد ، فلا ينصرف . وجر كثيرة على المواضع وأنثه على اللفظ . ومواطن جمع موطن . ومعنى النصر الغلبة على العدو . والمعونة قد تكون في حمل الثقل ، وتكون في شراء متاع وتكون في قضاء حاجة ، ولا يكون النصر إلا المعونة على العدو خاصة . والموطن هو الموضع الذي يقيم فيه صاحبه وإنما قد أقاموا في هذه المواطن للقتال . ومعنى كثيرة روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنها كانت ثمانين موطناً ، والكثيرة عدة زائدة على غيرها فهي كثيرة بالإضافة إلى ما دونها قليلة بالإضافة إلى ما فوقها .

وقوله « ويوم حنين » ، وحنين اسم واد بين مكة والطائف في قول قتادة . وقال عروة : هو واد إلى جانب ذي المجاز ، فلذلك صرف ، ويجوز ترك صرفه على أنه اسم للبقعة قال الشاعر :

نصروا نبيهم وشدوا أزره بحنين يوم تواكل الأبطال (١)

وقوله « إذ أعجبتكم كثرتمكم » فالعجاب السرور بما يتعجب منه ، والعجب السرور بالنفس على الفخر بما يتعجب منه . وقال قتادة : إنه كان سبب انهزام المسلمين يوم حنين أن بعضهم قال حين رأى كثرة المسلمين يوم حنين لانهم كانوا اثني عشر ألفاً ، فقال : لن تغلب اليوم عن قلة . فانهمزوا بعد ساعة . وقيل : إنهم كانوا عشرة آلاف . وقال بعضهم : ثمانية آلاف والأول أشهر . ولما انهزموا لم يبق مع النبي صلى الله عليه وآله الا تسعة نفر من بني هاشم وأيمن ابن أم أيمن . والعباس بن عبد

(١) قائله حسان ديوانه ٣٣٤ ومعاني القرآن ١/٢٩٩ واللسان (حنن)

المطلب . و ابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعلي بن ابي طالب عليهما السلام في آخرين ، فأخذ النبي صلى الله عليه وآله كفاً من الحصباء فرماهم به ، وقال شامت الوجوه فانهزم المشركون .

وقوله « فلم تغن عنكم شيئاً » معناه لم تغن كثرتم شيئاً . والاعزاء اعطاء ما يرفع الحاجة . ولذلك قيل في الدعاء أغناك الله « فلم تغن عنكم شيئاً » معناه لم تعظلكم ما يرفع حاجتكم .

وقوله « وضائق عليكم الارض بما رحبت » معناه ليس فيها موضع يصلح لكم لقراركم عن عدوكم . والضيق مقدار ناقص عن مقدار ، والرحب السعة في المكان وقد يكون في الرزق . والسعة في النفقة .

وقوله « ثم وليتم مدبرين » فالادبار الذهاب الى جهة الخلف والاقبال الى جهة القدام . والمعنى وليتم عن عدوكم منهزمين . وتقديره وليتموهم الادبار . وكانت غزوة حنين عقيب الفتح في شهر رمضان أء في شوال سنة ثمان . فان قيل كيف قال انه نصرهم في مواطن كثيرة ؟ والمؤمنون منصورون في جميع الأحوال ؟

قلنا عنه جوابان : أحدهما - ان ذلك اخبار بأنه نصرهم دفعات كثيرة ولا يدل على انه لم ينصرهم في موضع آخر ، والثاني - لأنهم لما انهزموا لم يكونوا منصورين وكان ذلك منهم خطأ وإن وقع مكفراً .

قوله تعالى :

ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ
وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ
الْكَافِرِينَ (٢٧) آية .

أخبر الله تعالى أنه حين انهزم المسلمون وبقي النبي ﷺ في نفر من قومه أنه أنزل السكينة ، وهي الرحمة التي تسكن إليها النفس ويزول معها الخوف حتى رجعوا اليهم وقاتلوهم وهزمهم الله تعالى بأن أنزل النصر وأنزل السكينة . وقيل السكينة هي الطمأنينة والامنة . وقال الحسن : هي الوقار قال الشاعر :

لله قبر غالها ماذا يجن لقد اجن سكينه ووقارا (١)

وقوله « وأنزل جنوداً لم تروها » والجنود هي الجموع التي تصلح للحروب . والمراد بها هنا الملائكة ، جند واجناد وجنود ، فأنزل الله الملائكة مداداً للمؤمنين وقال الجبائي : إنما نزلت الملائكة يوم حنين من جهة الخاطر الذي يشجع قلوبهم ويجبن عنهم اعداءهم ، ولم تقاتل إلا يوم بدر خاصة .

وقوله « وعذب الذين كفروا » معناه - ها هنا - القتل والأسر وسلب الاموال مع الازلال والصغار . ثم قال « وذلك » يعني ذلك العذاب « جزاء الكافرين » من جحد نعم الله وانكر وحدانيته ، وجحد نبوة نبيه مع ما أعده لهم من عذاب النار .

قوله تعالى :

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨) آية

معنى (ثم) ها هنا العطف على الفعل الاول ، وقد ذكرت (ثم) في ثلاثة مواضع متقاربة : فالاول - عطف على ما قبلها . والثانية - عطف على « وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكنته » والثالثة - عطف على (أنزل ٠٠٠ ثم يتوب) وانما حسن عطف المستقبل على الماضي لانه مشاكلة فان الاول تذكير بنعمه والثاني وعد بنعمه . والتوبة هي الندم على ماضى من القبيح ، والعزم على أن لا يعود الى مثله إما في

الجنس او في القبح على الخلاف فيه ، فشرط الندم بالعزم ، لأن الندم إنما هو على الماضي والعزم على ما يستقبل ، فلو لم يجتمع عالم تكن توبة . ومعنى « ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء » انه يقبل التوبة من بعد هزيمة من انهزم . ويجوز أن يكون المراد بعد كفر من كفر يقبل توبة من يتوب ويرجع الى طاعة الله والاسلام ويندم على ما فعل من القبيح «على من يشاء» وإنما علقه بالمشيئة ، لأن قبول التوبة واسقاط العقاب عندها تفضل - عندنا - ولو كان ذلك واجباً لما جاز تعلق ذلك بالمشيئة كما لم يعلق الثواب على الطاعة والعوض على الألم في موضع بالمشيئة . ومن خالف في ذلك قال : إنما علقها بالمشيئة ، لأن منهم من لطف يؤمن عنده فالله تعالى يشاء أن يلطف له مع صرف العمل في ترك التوبة الى الله .

وقوله « والله غفور رحيم » معناه اندستار المذنب لا يفضح احداً على معاصيه بل يسترها عليه إذا تاب منها ، وهو رحيم بعباده .

قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ
الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ
فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٩) آية.

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين يخبرهم فيه أن المشركين انجاس ويأمرهم ان يمتنعوا المشركين من أن يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا أي الذي أشار اليه ، وهي سنة تسع من الهجرة النبي نبذ فيها براءة المشركين . وكانت بعده حجة الوداع - وهو قول قتادة وغيره من المفسرين - والمراد بالمسجد الحرام الحرم كله - في قول عطاء وغيره - وكل شيء مستفذر في اللغة يسمى نجساً ، فإذا استعمل مفرد قيل : نجس - بفتح النون والجيم معاً - ويقع على الذكر والانثى سواء . وظاهر

الآية يقتضي أن الكفار أنجاس ، ولا يجوز مع ذلك أن يمكنوا من دخول شيء من المساجد ، لأن شرهم أجزى مجرى القذر الذي يجب تجنبه ، وعلى هذا من باشر يد كافر ، وجب عليه ان يغسل يده إذا كانت يده او يد المشرك رطبة . وإن كانت ايديهما يابستين مسحها بالمحائط . وقال الحسن : من صافح مشركاً فليتوضأ ، ولم يفصل . واختلفوا في هل يجوز دخولهم المسجد الحرام بعد تلك السنة أم لا ؟ .

فروي عن جابر ابن عبد الله ، وقتادة أنه لا يدخله احد إلا أن يكون عبداً او أحداً من اهل الذمة . وقال عمر بن عبد العزيز : لا يجوز لهم دخول المسجد الحرام ، ولا يدخل احد من اليهود والنصارى شيئاً من المساجد بحال . وهذا هو الذي نذهب اليه . وقال الطبري وقتادة : سموا انجاساً ، لأنهم لا يغتسلون من جنابة . وقوله « فان خفتهم عيلة » فالعيلة الفقر ، تقول : عال يعيل إذا افتقر قال الشاعر :

وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيل (١)

وكانوا خافوا انقطاع المتاجر بمنع المشركين ، فقال الله تعالى « وإن خفتهم عيلة » يعني فقراً بانقطاعهم ، فالله يغنيكم من فضله إن شاء - في قول قتادة ومجاهد - وإنما علقه بالمشيئة لأحد أمرين : أحدهما - لان منهم من لا يبلغ هذا المعنى الموعود به ، لأنه يجوز ان يموت قبله - في قول ابي علي - والثاني - لتقطع الآمال الى الله تعالى ، كما قال « لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمين » (٢) . وقوله « إن الله عليم حكيم » معناه عالم بمصالحكم حكيم في منع المشركين من دخول المسجد الحرام .

قوله تعالى :

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ

(١) مر هذا البيت في ٣ / ١٠٩ وهو في مجاز القرآن ١ / ٢٥٥

(٢) سورة ٤٨ الفتح آية ٢٧ .

مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٠) آية .

قوله تعالى « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » امر من الله تعالى لنبيه وللمؤمنين بأن يقاتلوا الذين لا يعترفون بتوحيد الله ، ولا يقرون باليوم الآخر والبعث والنشور . وذلك يدل على صحة مسدعنا في اليهود والنصارى وأمثالهم انه لا يجوز أن يكونوا عارفين بالله وإن أقرروا بذلك بلسانهم . وإنما يجوز أن يكونوا معتقدين لذلك اعتقاداً ليس بعلم . والاية صريحة بأن هؤلاء الذين هم أهل الكتاب الذين تؤخذ منهم الجزية لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر وإنما يجب قتالهم « حتى يعطوا الجزية عن يد » . ومن قال : إنهم يجوز أن يكونوا عارفين بالله تعالى ، قال : الاية خرجت مخرج الذم لهم ، لأنهم بمنزلة من لا يقرب في عظم الجرم ، كما أنهم بمنزلة المشركين في عبادة الله بالكفر . وقال الجبائي : لأنهم يضيفون اليه ما لا يليق به فكأنهم لا يعرفونه . وإنما جمعت هذه الأوصاف لهم ولم يذكرها بالكفار من أهل الكتاب للتجريض على قتالهم بما هم عليه من صفات الذم التي توجب البراءة منهم والعداوة لهم .

وقوله « ولا يدينون دين الحق » يدل على ان دين اليهودية والنصرانية غير دين الحق ، وذلك يقوي انهم غير عارفين بالله ، لأنهم لو كانوا عارفين كانوا في ذلك محققين . فأما اعتمادهم لشرعية التوراة فانما وصف بأنه غير حق لأمريين : احدهما — انها نسخت فالعمل بها بعد النسخ باطل غير حق . الثاني — ان التوراة التي هي معهم مغيرة مبدلة لقوله « يجرفون الكلام عن مواضعه » (١) ويقلبونه عن معانيه .

وقوله « ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله » معناه انهم لا يعترفون بالاسلام

الذي هو الدين الحق ، ولا يسلمون لأمر الله الذي بعث به نبيه محمد ﷺ في تحريم حرامه وتحليل حلاله . والدين في الاصل الطاعة قال زهير :

لئن حملت بجو في بني اسد في دين عمرو وحالت بيننا فذاك (١)

وقوله « حتى يعطوا الجزية عن يد » فالجزية عطية عمومة جزاء على الكفر بالله على ما وضع رسول الله ﷺ على أهل الذمة - وهو على وزن جاسة ، وقعدة - لنوع من الجزاء . وإنما قيل « عن يد » ليفارق حال الغصب على اقرار أحد . وقال ابو علي : معناه يعطوننا من ايديهم يجيئون بها بتقوسهم لا ينوب عنهم فيها غيرهم إذا قدروا عليه . فيكون أذل لهم . وقال قوم : معناه عن نقد كما يقال : باع يداً بيد . وقال آخرون : معناه عن يد لكم عليهم ونعمة تسدونها اليهم بقبول الجزية منهم . وقال الحسين بن علي المغربي : معناه عن قهر . وهو قول الزجاج .

وقوله « وهم صاغرون » فالصغار الذل والنكال الذي يصغر قدر صاحبه ، يصغر صغاراً ، فهو صاغر . وقيل : الصغار اعطاء الجزية قائماً ، والآخذ جالس ذهب اليه عكرمة . والجزية لا تؤخذ عندنا إلا من اليهود والنصارى والمجوس . وأما غيرهم من الكفار على اختلاف مذاهبهم من عباد الاصنام والأوثان والصابئة وغيرهم فلا يقبل منهم غير الاسلام أو السبي . وإنما كان كذلك لما علم الله تعالى من المصلحة في اقرار هؤلاء على كفرهم ومنع ذلك في غيرهم ، لأن هؤلاء على كفرهم يقرون بالسننم بالتوحيد وبعض الأنبياء . وان لم يكونوا على الحقيقة عارفين . واولئك يجحدون ذلك كله ، فلذلك فرق بينهما .

فان قيل : اعطاء الجزية منهم لا يخلوا أن يكون طاعة او معصية ، فان كان معصية فكيف أمر الله بها ؟ وإن كان طاعة وجب أن يكونوا مطيعين لله .

قلنا : إعطاؤهم ليس بمعصية . وأما كونها طاعة لله فليس كذلك ، لأنهم إنما يعطونها دفعاً للقتل عن انفسهم لاطاعة لله ، فان الكافر لا يقع منه طاعة عندنا

(١) ديوانه ١٨٣ ومجاز القرآن ٢٨٦١ وتفسير الطبري ١٤ ١٩٨

بحال ، لأنه لو فعل طاعة الله لاستحق الثواب والاحباط باطل ، فكان يجب ان يكون مستحقاً للثواب وذلك خلاف الاجماع .

قوله تعالى :

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ
ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣١) آية .

قرأ « عزيز » بالتنوين عاصم والكسائي وعبد الوارث عن ابي عمرو . الباقون
بترك التنوين . وقرأ عاصم وحده « يضاعؤون » بالهمزة . الباقون بغير همزة .
من ترك التنوين في « عزيز » قيل في وجه ذلك ثلاثة أقوال : أحدها -
انه اعجمي معرفة لا ينصرف . والثاني - لأن ابن هاهنا صفة بين علمين والخبر محذوف
والتقدير معبودنا أو نبينا عزيز ابن الله . الثالث - انه حذف التنوين لالتقاء الساكنين
تشبيهاً بحرف اللين ، كما قال الشاعر :

فالفيمته غير مستعتب ولا ذاكر الله إلا قليلا (١)

هذا الوجه قول الفراء : وعند سيبويه هو ضرورة في الشعر قال أبو علي :
من نونه جعله مبتدأ وجعل ابناً خبره ، ولا بد مع ذلك من التنوين في حال السعة
والاختيار ، لأن ابا عمرو وغيره يصرف عجمياً كان او عربياً .
ومن حذف التنوين يحتمل وجهين : أحدهما - أنه جعل الموصوف والصفة
بمنزلة اسم واحد ، كما يقال : لارجل ظريف . وحذف التنوين ولم يحرك لالتقاء
الساكنين ، كما يحرك يازيد العاقل ، لأن الساكنين كأنهما التقيا في تضاعيف
كلمة واحدة ، فحذف الأول منهما ولم يحرك لكثرة الاستعمال . والوجه الآخر -

أن يجعل مبتدأ والآخر الخبر مثل من نون وحذف التنوين لالتقاء الساكنين ، وعلى هذا قراءة من قرأ « قل هو الله احد الله » فحذف التنوين لالتقاء الساكنين .
فان قيل كيف أخبر الله عن اليهود بانهم يقولون عزيز ابن الله واليهود تنكر هذا؟! قلنا: إنما أخبر الله بذلك عنهم ، لأن منهم من كان يذهب اليه ، والدليل على ذلك ان اليهود في وقت ما انزل الله القرآن سمعت هذه الآية فلم تنكرها . وهو كقولك: الخوارج تقول بتعذيب الاطفال ، وإنما يقول بذلك الازارقة منهم خاصة . قال ابن عباس : القائل لذلك جماعة جاءوا الى النبي ﷺ ، فقالوا له ذلك ، وهم سلام ابن مشكم ، ونعمان بن اوفى ، وشاس بن قيس ، ومالك بن الصيف ، فانزل الله فيهم الآية .

وقوله « ذلك قولهم بأفواههم » معنا انه لا يرجع الى معنى صحيح : فهو لا يجاوز افواههم ، لأن المعنى الصحيح ما رجع الى ضرورة العقل او حجته او برهانه او دليل سمعي . وقوله « يظاهون قول الذين كفروا من قبل » معناه يشابهون . ومنه قولهم امرأه ضهياء التي لا تحيض ، ولا يخرج ثدياها اي اشبهت الرجال . وقال أبو علي الفارسي : ليست يظاهون من قولهم امرأه ضهياء ، لأن هذه الهمزة زائدة غير اصلية لأنه ليس في الكلام شيء على وزن (فعياء) ويشبه ان يكون ذلك لغة ، كما قالوا ارجأت وأرجيت . واختار الزجاج أن تكون الهمزة أصلية ، كما جاء كثير من الاشياء على وزن لا يطرد نحو (كنهيل) وهو الشجر العظام ، وكذلك (قرنفل) لا نظير له . ووزنه (فعنل) .

وقال ابن عباس « الذين كفروا » اراد به عبدة الاوثان ، وقال الفراء : يشابهونهم في عبادة الالهات والعزى ومناة الثالثة الاخرى . وقال قوم في قولهم : الملائكة بنات الله . وقال الزجاج : شابهوهم في تقليدهم اسلافهم في هذا القول .
وقوله « قاتلهم الله » قيل في معناه ثلاثة اقوال : احدها - قال ابن عباس معناه لعنهم الله . الثاني - معناه قتلهم الله كقولهم عافاه الله من سوء . الثالث -

كالمقاتل لغيره في عداوة الله .

وقوله « انى يؤفكون » معناه كيف يصرفون عن الحق الى الافك الذي هو الكذب ، ورجل مأفوك عن الخير وارض مأفوكه صرف عنها المطر قال الشاعر :

أنى الم بك الخيال تطيف

قوله تعالى :

اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ نَسَبَحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣٢) آية .

اخبر الله تعالى عن هؤلاء اليهود والنصارى الذين حكى حكايتهم انهم اتخذوا احبارهم ، وهو جمع حبر ، وهو العالم الذي صناعته تحبير المعاني بحسن البيان وقيل حبر وحبر - بفتح الباء وكسرها - حكاية الفراء . والرهبان جمع راهب وهو الخاشي الذي يظهر عليه للناس الخشية . وقد كثر استعماله في متنسكي النصارى وروي عنه عليه السلام أن معنى اتخاذهم ارباباً أنهم قبلوا منهم التحريم والتحليل بخلاف ما أمر الله تعالى ، وهو المروي عن ابي جعفر وابي عبد الله عليهما السلام ، فسمى الله ذلك اتخاذهم إياهم ارباباً من حيث كان التحريم والتحليل لايسوغ إلا الله تعالى . وهو قول أكثر المفسرين .

وقوله « والمسيح ابن مريم » عطف على الارباب أي واتخذوا عيسى رباً . وقوله « وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً » معناه ان الله تعالى لم يأمر هؤلاء اليهود والنصارى وغيرهم إلا بعبادة الله وحده لا شريك له . ثم أخبر فقال « لا إله إلا هو سبحانه » يعني تنزيهاً عما يشركون . ومعنى سبحانه براءة الله من سوء كما قال الشاعر :

أقول لما جاءني فخره سبحان من علقة الفاخر (١)
والآية تدل على أن المشرك مع الله في التحليل والتحرير على مخالفة امر الله
كالمشرك في عبادة الله، لأن استحلال ما حرم الله كفر بالاجماع . وكل كافر مشرك
ولا يلزم على ذلك أن يكون من قبل من الشيطان باغوائه فارتكب المعاصي أن يكون
كافر أعلى ما استدل به بعض الخوارج ، لأنه إذا قبل من الشيطان ما يعتقد انه معصية
ولا يقصد بذلك طاعة الشيطان ولا تعظيمه يكون فاسقاً ، ولا يكون كافراً . وليس
كذلك من ذكره الله تعالى في الآية ، لأنهم كانوا يقبلون تحريم علماءهم واحبارهم
ويقصدون بذلك تعظيمهم . ولا يلزم على ذلك قبول المعاصي من العالم ، لأن العامي
يعتد بالرجوع الى العالم فيقبل منه ما أدى اجتهاده اليه وعلمه ، فاذا قصد العالم وافتاه
بغير ما علمه فهو المخطيء دون المستفتي . وليس كذلك هؤلاء ، لأنهم ما كانوا
تعبدوا بالرجوع الى الاحبار والقبول منهم لأنهم لو كانوا تعبدوا بذلك لما ذمهم الله
على ذلك .

قوله تعالى :

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ
يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٣) آية .

اخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار من اليهود والنصارى انهم « يريدون ان
يطفئوا نور الله بافواههم » والاطفاء اذهاب نور النار . ثم استعمل في اذهاب كل
نور . و « نور الله » القرآن والاسلام ، في قول المفسرين : السدي والحسن . وقال
الجبائي : نور الله : الدلالة والبرهان ، لأنه يهتدى بها كما يهتدى بالأنوار .
وواحد الأفواه فم في الاستعمال ، وأصله فوه فحذفت الهاء وأبدلت من الواو

ميم ، لأنه حرف صحيح من مخرج الواو مشا كل لها . ولما سمي الله تعالى الحجج والبراهين نورا سمي معارضتهم له اطفاء . وأضاف ذلك الى الافواه ، لأن الاطفاء يكون بالافواه ، وهو النفخ ، وهذا من عجيب البيان مع ما فيه من تصغير شأنهم وتضعيف كيدهم ، لأن النفخ يؤثر في الأنوار الضعيفة دون الاقباس العظيمة ذكره الحسين بن علي المغربي . وقوله « ويأبى الله الا ان يتم نوره » الالباء الامتناع مما طلب من المعنى . قال الشاعر :

وإن أرادوا ظلمنا أبينا

أي منعاهم من الظلم ، وليس الالباء من الكراهة في شيء على ما يقول المجبرة لأنهم يقولون : فلان يأبى الضيم ، فيمدحونه ، ولامدحة في كراهة الضيم لتساوي الضعيف والقوي في ذلك . وإنما المدح في المنع خاصة ، ولذلك مدح عورة بن الورد بأنه أبى للضيم بمعنى أنه ممتنع منه ، وقوله (وإن أرادوا ظلمنا أبينا) يدل على ذلك لأنه لامدحة في ان يكرهوا ظلم من يظلمهم . وإنما المدحة في منع من أراد ظلمهم . والمنع في الآية يمنع الله إلا إتمام نوره . وإن كره الكافرون . ولا يجوز على قياس « ويأبى الله إلا أن يتم نوره » أن تقول : ضربت إلا أخاك ، لأن في الالباء معنى النفي ، فكأنه قال : لا يمكنهم الله إلا أن يتم نوره . وإذا لم يكن في اللفظ مستثنى منه لم تدخل « إلا » في الايجاب ، وتدخل في النفي على تقدير الحذف قال الشاعر :

وهل لي أم غيرها ان تراكمتها أبى الله إلا أن اكون لها ابنا (١)

والتقدير في الآية ويأبى الله كل شيء الا اتمام نوره . في قول الزجاج ، وأنكر أن يكون في الآية معنى الجحد .

قوله تعالى

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَىٰ
الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٤) آية .

اخبر الله تعالى انه « هو الذي ارسل رسوله ﷺ وحمله الرسالة التي يؤديها الى امته » بالهدى « يعني بالحجج والبيينات والبيان لما يؤديهم العمل به الى ابواب الجنة . و « دين الحق » هو الاسلام وما تضمنه من الشرائع ، لأنه الذي يستحق عليه الجزاء بالثواب . وكل دين سواه باطل لأنه يستحق به العقاب . ومن شأن الرسول أن يكون أفضل من جميع أمته من حيث يجب عليهم طاعته وامثال ما يأمرهم به بما هو مصلحة لهم ، ولأنه رئيس لهم في الدين ؛ ويقبح تقديم المفضول على الفاضل فيما كان أفضل فيه .

وقوله « ليظهره على الدين كله » معناه ليعلي دين الاسلام على جميع الاديان بالحكم والغلبة والتقرير لهم . وقال البلخي : ظهوره على جميع الاديان بالحكم ، لأن جميع الاديان نزل المسلمون منهم وغزوا فيهم وأخذوا سبيهم وجزيتهم . وفي الآية دلالة على صدق نبوته ﷺ لأنها تضمنت الوعد بظهور الاسلام على جميع الاديان ، وقد صح ظهوره عليها . وقال ابو جعفر عليه السلام ان ذلك يكون عند خروج القائم عليه السلام . وقال ابن عباس : إن الهاء في « ليظهره » عائدة الى الرسول ﷺ أي ليعلمه الله الاديان كلها حتى لا يخفى عليه شيء منها .

قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ
لِيَآكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ

يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ (٣٥) آية ٠

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين يعلمهم أن كثيراً من احبار اليهود وعلمائهم ورؤسائهم ، وكثيراً من رهبان النصارى لياً كلون أموال الناس بالباطل من حيث كانوا يأخذون الرشافي الاحكام - في قول اسحاق والجبائي - وأكل المال بالباطل تملكه من الجهات التي يحرم منها اخذه . وقيل في معنى « لياً كلون اموال الناس بالباطل » وجهان : احدهما - انهم يتملكون . فوضع يأ كلون موضعه لأن الاكل غرضهم . والثاني - يأ كلون اموال الناس من الطعام ، فكأنهم يأ كلون الاموال ، لانها من الماء كقول ، كما قال الشاعر :

ذر الآكلين الماء لوماً فما أرى ينالون خيراً بعد أكلهم الماء (١)

اي ثمن الماء . وقوله « ويصدون عن سبيل الله » معناه يمنعون غيرهم من اتباع الاسلام الذي هو سبيل الله التي دعاهم الى سلو كها . والغرض بذلك التحذير من اتباعهم والتبوين على المسلمين مخالفتهم .

وقوله « والذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها في سبيل الله » معناه الذين يخبئون أموالهم من غير ان يخرجوا زكاتها . لانهم لو اخرجوا زكاتها وكنزوا ما بقي لهم يكونوا مملوئين بلاخلاف . وهو قول ابن عباس : وجابر ، وابن عمر ، والحسن والسدي ، والجبائي . قال : وهو اجماع . واصل الكنز كبس الشيء بعضه على بعض . ومنه قولهم كنز التمر والطعام قال الهذلي :

لا درّ دري إن أطعمت نازلکم قرف الحتي وعندي البر مكنوز (٢)

(١) اللسان (أكل) وروايته (من) بدل (ذر) و (ظلماً) بدل (لوماً) .

(٢) مقاييس اللغة ١٣٦/٢ واللسان « كنز » .

الحتي - ويق المقل . وقوله « ولا ينفقونها في سبيل الله » إنما لم يقل ولا ينفقونها لأحد أمرين : أحدهما - ان تكون الكناية عائدة الى مدلول عليه وتقديره ولا ينفقون الكنوز أو الأموال . والآخر - ان يكون اكتفى بأحدهما عن الآخر للايجاز ومثله « وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها » (١) وقال حسان :
 إن شرح الشباب والشعر الاسـ - - - - -
 - - - - - دور ما لم يعاص كان جنونا (٢)
 وقال الآخر :

نحن بما عندنا واذت بما عندك راض والرأي مختلف (٣)
 وكان يجب ان يقول راضيان . ومعنى البيت نحن بما عندنا راضون وأنت بما عندك راض وحذف الخبر من الاول لدلالة الثاني عليه كما حذف المفعول في الثاني لدلالة الاول عليه في قوله « والذاكرين الله كثيراً أو الذاكرات » (٤) والتقدير والذاكرات الله . ومثل ذلك الآية . وتقديرها والذين يكثرزون الذهب ولا ينفقونه في سبيل الله ويكثرزون الفضة ولا ينفقونها في سبيل الله . وموضع « والذين يكثرزون » يحتمل وجهين من الاعراب : أحدهما - ان يكون نصباً بالعطف على اسم (إن) وتقديره : يأكلون والذين يكثرزون الذهب : والثاني - ان يكون رفعاً على الاستئناف . وقال ابن عمر كل ما اخرجت زكاته فليس بكنز ، وبه قال عكرمة . وقال الجبائي وغيره : « الذين يكثرزون » نزلت في مانعي الزكاة من أهل الصلاة . وقال قوم : نزلت في المشركين ، والأولى أن تحمل الآية على العموم في الفريقين .
 وقوله « فبشرهم بعذاب اليم » قيل في معناه قولان :

أحدهما - ان اصل البشرى مما يظهر في بشرة الوجه من فرح او غم ، إلا

(١) سورة ٦٢ الجمعة آية ١١

(٢) تفسير القرطبي ١٢٨/ ٨ ومجاز القرآن ٢٥٨/ ١

(٣) تفسير القرطبي ١٢٨/ ٨ ومعاني القرآن ٤٣٤/ ١ ، ٤٤٥ .

(٤) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٣٥ .

انه كثر استعماله في الفرح كما قال الجعدي .

وأراني طرباً في إثرهم طرب الوالد أو كما يختل (١)

لأن أصل الطرب ما يستخف من سرور أو حزن .

والثاني - انه رضع الوعيد بالعذاب الاليم موضع البشرى بالنعيم . وروي عن علي عليه السلام انه قال : كلما زاد على أربعة آلاف ، فهو كنز . أدبت زكاته أو لم تؤد ، ومادونها فهو نفقة . وقال أبو ذر : من ترك بيضاء أو صفراء كوي بها - مثل رسول الله صلى الله عليه وآله عند نزول هذه الآية أي مال يتخذ ، فقال : لساناً ذا كراً وقلباً شاكراً وزوجة تعين احدكم على دينه .

قوله تعالى :

يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ
وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ
تَكْنُزُونَ (٣٦) آية ٠

قوله « يوم يحمى » متعلق بقوله « فبشرهم بعذاب اليم » في يوم يحمى عليها . ومعناه انه يدخل الذهب والفضة الى النار فيوقد عليها يعني على الكنوز التي كنزوا فالهاء في قوله « عليها » عائدة على الكنوز أو الفضة . والاحماء جعل الشيء حاراً في الاحساس ، وهو فوق الاسخان ، وضده التبريد تقول : حمى حمأً واحمأه إذا امتنع من حر النار .

وقوله « فتكوى » فالكي إصاق الشيء الحار بالعضو من البدن . ومنه قولهم اخرا الداء الكي اغلظ أمره كقطع العضو إذا عظم فسادته تقول : كواد يكويه كيماً

(١) مقاييس اللغة ٤٤٥/٣ واللسان (خا) .

واكتوى اکتواء . وقوله « جباههم » جمع جببة وهي صفحة اعلى الوجه فوق الحاجبين . وجبته بالمكروه يجبته جبهاً إذا استقبله به « وجنوبهم » جمع جنب والجنب والضلع والأبطل نظائر « وظهورهم » جمع ظهر ، وهو الصفحة العليا من خلف ، المقابلة للبطن يقال : كتب في ظهر الدرج وبطنه إذا كتب في جانبه . والمعنى ان الله يحمي هذه الكنوز بالنار ليكوي بها جباه من كنزها ولم يخرج حق الله منها وجنوبهم وظهورهم ، فيكون ذلك اشد لعذابهم وأعظم لخزيهم .

وقوله « هذا ما كنزتم » اي يقال لهم : هذا ما ذخرتموه لانفسكم « فذوقوا ما كنتم تكتزون » ومعناه فاطعموا جزاء ما كنتم تدخرونه من منع الزكوات والحقوق الواجبة في أموالكم .

قوله تعالى :

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا
تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ
كَافَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٧) آية .

قرأ ابو جعفر « اثنا عشر » و « أحد عشر » و « تسعة عشر » بسكون الشين فيمن إلا أن
النهرواني روى عنه حذف الألف التي قبل العين .

لما ذكر الله تعالى وعيد الظالم لنفسه بكنز المال من غير اخراج الزكاة وغيرها
من الحقوق التي لله منه اقتضى ذلك ان يذكر النهي عن مثل حاله ، وهو الظلم في
الاشهر الحرم التي تؤدي الى مثل حاله او شر منها في سوء المنقلب ، فأخبر تعالى
« ان عدة الشهور » في السنة على ما تعبد الله المسلمين بأن يجعلوه لسننتهم دون ما يعتبره
مخالفوا الاسلام « اثنا عشر شهراً » وانما قسمت السنة اثني عشر شهراً لتوافق أمر

الاهلة مع نزول الشمس في اثني عشر برحاً تجري على حساب متفق ، كما قال :
« الشمس والقمر بحسبان » (١) والشهر مأخوذ من شهرة أمره لحاجة الناس
اليه في معاملاتهم ومحل ديونهم وحجهم وصومهم ، وغير ذلك من مصالحهم
المتعلقة بالشريعة .

وقوله « في كتاب الله » معناه فيما كتبه الله في اللوح المحفوظ وفي الكتب
المنزلة على أنبيائه .

وقوله « يوم خلق السماوات والارض » متصل بـ « عند الله » والعامل فيها
الاستقرار . ثم بين أمر هذه الاثني عشر شهراً « منها أربعة حرم » وهي ذو القعدة ،
وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب : ثلاثة سرد وواحد فرد كما يعتقد العرب .
ومعنى « حرم » انه يعظم انتهاك المحارم فيها اكثر مما يعظم في غيرها ، وكانت
العرب تعظمها حتى ان الرجل لو لقي قاتل أبيه لم يهجه لحرمة . وانما جعل الله
تعالى بعض الشهور اعظم حرمة من بعض لما علم في ذلك من المصلحة في الكف عن
الظلم فيها ، فعظم منزلتها ، وانه ربما أدى ذلك الى ترك الظلم اصلاً لانطفاء النائرة
تلك المدة وانكسار الحمية ، فان الأشياء تجر الى اشكالها .

وقوله « ذلك الدين القيم » معناه التدين بذلك هو الدين المستقيم .

وقوله « فلا تظلموا فيهن أنفسكم » نهي منه تعالى لخلقه عن أن يظلموا انفسهم
لأن من فعل قبيحاً يستحق عليه العقاب ، فقد ظلم نفسه بذلك بإدخال الضرر عليها
وقال ابو مسلم : معناه لا تدعوا قتال عدوكم في هذه الأشهر بأجمعكم ، ولا تمتنعوا
من أحد الا من دخل تحت الجزية والصغار ، وكان من أهلها بدلالة قوله « وقاتلوا
المشركين كافة » وكافئة مشتقة من كفة الشيء وهي طرفه وانما أخذ من أن
الشيء إذا انتهى الى ذلك كف عن الزيادة ، ولا يشئ كافة ولا يجمع .

وقوله « وقاتلوا المشركين كافة » امر منه تعالى بقتال المشركين أجمع : امر

الله تعالى المؤمنين بأن يقاتلوهم كما أن المشركين يقاتلونهم كذلك، والضمير في قوله « فيهن » يحتمل أن يكون عائداً على الشهور كلها على ما قال ابن عباس ، ويحتمل أن يعود على الأربعة الحرم على ما قال قتادة لعظم أمرها. واختار الفراء رجوعه الى الأشهر الحرم . قال لانه لو رجع الى الاثني عشر لقال فيها . والصحيح ان الجميع جائز وانما خص الأربعة اشهر بذلك في قول قتادة لتعظيم الظلم لا أن الظلم يجوز فعله على حال من الأحوال .

وقوله « ذلك الدين القيم » معناه ذلك الحساب الصحيح هو الدين القيم لا ما كانت عليه العرب من النسب . وقيل : معناه ذلك التدين هو الدين القيم . وقوله « كافة » نصب على المصدر ، ولا يدخل عليها الالف واللام ، لأنه من المصادر التي لاتنصرف لوقوعه موقع معاً وجمعاً بمعنى المصدر الذي هو في موضع الحال المذكورة ، فهو في لزوم النكرة نظير أجمعين في لزوم المعرفة .

وقوله « واعلموا ان الله مع المتقين » طعاصيهم وما يؤدي الى عقابه ويكون معهم بالنصرة والولاية دون الاجتماع في مكان او محل ، لأن الله لا يجوز عليه ذلك لانه من امارات الحدث .

قوله تعالى :

إِنَّمَا النَّسَبُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ
عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّؤُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ
اللَّهُ زَيْنَ لَّهُمْ سُوءِ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٨) آية

قرأ أبو جعفر وابن فرج عن البزي « انما النسب » من غيرهمز قلب الهمزة ياء وادغم الياء الاولى فيها فلذلك شدد . الباكون « النسب » ممدود مهموز على وزن فعيل . وروي عن ابن مجاهد وابن مسعود عن عبيد بن عقيل عن شبل عن ابن كثير

« النسب » على وزن النسع . وقرأ اهل الكوفة إلا أبا بكر « يضل » بضم الياء وفتح الصاد . وقرأ يعقوب بضم الياء وكسر الصاد . الباقون بفتح الياء وكسر الصاد . قال ابو علي : وجه قراءة ابن كثير اذا قرأت على وزن النسع ان (النسبيء) التأخير . قال ابو زيد : نسأت الابل في ظمئها يوماً او يومين او اكثر من ذلك ، والمصدر « النسبيء » ويقال : الابل نسأتها على الحوض وأنا أنسأها نسناً إذا اخترتها عنه . قال : وماروي عن ابن كثير من قراءته بالياء فذلك على ابدال الياء من الهمزة ، ولأعلمها لغة في التأخير ، كما ان ارجيت لغة في ارجأت وماروي فيه من التشديد فعلى تخفيف الهمز ، لأن النسبيء بتشديد الياء على وزن فعل بالتخفيف قياسي . وسيبويه لايجز نحو هذا القلب الذي في النسبيء الا في ضرورة الشعر . وابن زيد يراه ويروي كثيراً عن العرب . ومن قرأ بالمد والهمز فلا تة اكثر هذا في المعنى . قال أبو زيد : أنسأته الدين إنساء إذا أخترته واسم ذلك النسبيء والنسأ . وكان النسبيء في الشهور تأخير حرمة شهر الى شهر ليست له تلك الحرمة فيحرمون بهذا التأخير ما أحل الله ويحلون ما حرم الله . والنسبيء مصدر كالنذير والنكير وعذير الحي . ولايجوز أن يكون (فعلاً) بمعنى مفعول لأنه حمل على ذلك كأن معناه انما المؤخر زيادة في الكفر . والمؤخر الشهر وليس الشهر نفسه بزيادة في الكفر ، وانما الزيادة في الكفر تأخير حرمة الشهر الى شهر آخر ليست له تلك الحرمة . وقال ابو عبيدة فيما روى عن الثوري من قوله : انما النسبيء زيادة في الكفر قال : كانوا قد وكلوا قوماً من بني كنانة يقال لهم : بنوا فقيم وكانوا يؤخرون المحرم وذلك نساء الشهور لا يفعلون ذلك الا في ذي الحجة اذا اجتمعت العرب للموسم ، فينادي مناد أن افعلوا ذلك لحاجة او لحرب ، وليس كل سنة يفعلون ذلك ، فان ارادوا ان يحلوا المحرم نادوا هذا صفر وان المحرم الاكبر صفر ، وربما جعلوا صفر محرماً مع ذي القعدة حتى يذهب الناس الى منازلهم إذا نادى المنادي بذلك ، وكانوا يسمون المحرم صفرأ ويقدمون صفرأ سنة ويؤخرونه .

وقال الفراء : والذي يتقدم به رجل من بني كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة وكان رئيس الموسم ، فيقول : أنا الذي لا أعاب ولا أجاب ولا يرد لي قضاء فيقولون : نعم صدقت انسئنا شهراً أو آخر عنا حرمة المحرم واجملها في صفر وأحل المحرم فيفعل ذلك . وانما دعاهم الى ذلك توالي ثلاثة اشهر حرم لا يغيرون فيها وكان معاشهم في الغارة . والذي كان ينسأها حين جاء الاسلام هو جنادة بن عوف بن ابي امية وكان في بني معد إن قبل بنو كنانة قال الشاعر :

ألسنا الباسئين على معد^١ شهر الحبل نجملها حراما (١)

وقال ابن عباس كانوا يجعلون المحرم صفرأ وقال ابو علي : كانوا يؤخرون الحج في كل سنة شهراً وكان الذين ينسئون بنو سليم ، وغطفان ، وهوازن ، ووافق حج المشركين في السنة التي حج فيها ابو بكر في ذي القعدة ، فلما حج النبي ﷺ في العام المقبل وافق ذلك في ذي الحجة فلذلك قال : ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والارض وقال مجاهد : فكان النسيء المنهي عنه في الآخرة الأشهر الحرم عما رتبها الله ، وكانوا في الجاهلية يعملون ذلك وكان الحج يقع في غير وقته واعتقاد حرمة الشهر في غير أوانه ، فبين تعالى أن ذلك زيادة في الكفر .

قال ابو علي : من قرأ « يضل » بفتح الياء وكسر الضاد قال الذين كفروا لا يخلو أن يكونوا مضلين لغيرهم أو ضالين هم في انفسهم فاذا كان كذلك لم يكن في حسن اسناد الضلال في قوله « يضل » اشكال ، ألا ترى أن المضل لغيره ضال بفعله اضلال غيره كما ان الضال في نفسه الذي لم يضل غيره لا يمتنع اسناد الضلال اليه ومن ضم الياء وكسر الضاد فمعناه ان كبراءهم واتباعهم يضلونهم بأمرهم اياهم بحملهم على هذا التأخير في الشهور . وروي في التفسير ان رجلا من كنانة يقال له ابو ثمامة كان يقول للناس في منصرفهم من الحج إن آلهتكم قد اقسمت

لنحر من . . . وربما قال لنحلن هذا الشهر يعني المحرم فيجلونه ويحرمون صفراً وان حرموه احلوا صفراً وكانوا يسمونهما الصفرين فهذا اضلال من هذا المنادي . ومن قرأ بضم الباء وفتح الضاد - وقيل انها قراءة ابن مسعود - يقوي ذلك قوله « زين لهم سوء اعمالهم » اي زين ذلك لهم حاملوهم عليه وداعوه - م اليد . وعلى هذه القراءة يكون « الذين كفروا » في موضع رفع بانهم فاعلون والمفعول به محذوف وتقديره يضل منسوا الشهور الذين كفروا تابعيهم والآنخذين لهم بذلك . ومعنى قوله « ليواطئوا » فالواطأة موافقة امر التوطئة والمعنى ليواطئوا العدة في الاربعة اشهر .

وقوله « زين لهم سوء اعمالهم » قال الحسن وأبو علي المزين لهم انفسهم والشيطان . وقيل : زين بالشهوة وليجتنبوا المشتبهى فذكر ذلك للتحذير والاعتراف به . والتزيين يكون بمعنى الفعل له ويكون بمعنى تقبل الطبع . وإنما سمي انساؤهم زيادة في الكفر من حيث أنهم اعتقدوا أن ذلك صحيح وصواب فلذلك كان كفراً فلا حجة في ذلك ان تكون افعال الجوارح كفراً .
وقوله « والله لا يهدي القوم الكافرين » معناه انه لا يهديهم الى طريق الجنة اذ كانوا كفاراً مستحقين لعذاب الابد .

قوله تعالى :

يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ أَتَأْقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ
فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٩) آية .

هذا خطاب من الله تعالى لجماعة من المؤمنين وعتاب وتوبيخ لهم بأنهم إذا قيل لهم على لسان رسوله « انفروا في سبيل الله » ومعناه اخرجوا في سبيل الله يعني الجهاد

وسماه سبيل الله ، لأن القيام به موصل الى معنى الجنة ورضا الله تعالى والنقر الخروج الى الشيء لامر هيج عليه وضده الهدوء تقول : نفر الى الشجر ينقر نقر أو نقريراً ولا يقال النفور إلا في المكروه كنفور الدابة عما تخاف ، وقوله « اثاقلتم الى الأرض » اصله ثناقلتم وادغمت التاء في الناء لمناسبتها لها وادخلت الف الوصل ليمكن الابتداء بها ومثله اذار كما قال الشاعر :

تولى الضجيع إذا ما استافها خصرأً عذب المذاق إذا ما اتابع القبل (١)

والتناقل تعاطي اظهار ثقل النفس ومثله التباطيء وضده التسرع . ومعنى « اثاقلتم الى الأرض » قيل فيه قولان :

أحدهما - الى المقام بارضكم ووطنكم .

الثاني - لما اخرج من الارض من الثمر والزرع . قال الحسن ومجاهد : دعوا الى الخروج الى غزوة تبوك بعد فتح مكة وغزوة الطائف ، وكان ايام ادراك الثمرة ومحبة العمود في الظل فعاتبهم الله على ذلك . والآية مخصوصة بقوم من المؤمنين دون جميعهم ، لأن من المعلوم ان جميعهم لم يكن بهذه الصفة من التناقل في الجهاد ، وهو قول الجبائي وغيره . فقال الله تعالى لهم على جبة التوبيخ ، والتعنيف ارضيتم بالحياة الدنيا على الآخرة ، آثرتم الحياة الدنيا الفانية على الحياة الآخرة الباقية . وهو استفهام ، والمراد به الإنكار . والرضا هو الارادة غير انها لا توصف بذلك إلا اذا تعلقت بما مضى من الفعل والارادة توصف بما لم يوجد بعد قال تعالى مخبراً « فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل » اي ليس الانتفاع بما يظهر للحواس الاقليل ومنه قولهم : تمتع بالرياض والمناظر الحسان . ويقال للاشياء التي لها أثمان : متاع تشبيهاً بالانتفاع به .

(١) معاني القرآن ٤٣٨/١ والطبري ٢٥٢/١٤ (استاف) الشيء قرب منه

وشمه ، و (القبل) - بضم القاف - جمع قبلة .

قوله تعالى :

إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ
وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠) آية .

هذا تحذير من الله تعالى لهؤلاء الذين استبطأهم ووصفهم بالتناقل عن سبيل
الله بقوله « إلا تنفروا » أي إن لم تخرجوا إلى سبيل الله التي دعيتم إليها من الجهاد
« يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم » يقومون بنصرة نبيه ولا يتناقلون فيه .
والاستبدال جعل أحد الشيعيين بدل الآخر مع الطلب له والتعذيب بطول وقت
العذاب ، لانه من الاستمرار وقد يكون عقاباً وغير عقاب .

وقوله « ولا تضروه شيئاً » قيل فيمن يرجع إليه قولان : احدهما - انه
يعود على اسم الله في قول الحسن . قال : لأنه غني بنفسه عن جميع الاشياء
والآخر - قال الزجاج : إنها تعود الى النبي ﷺ لأن الله عصمه من جميع الناس
وقوله « والله على كل شيء قدير » معناه قادر على الاستبدال بكم وعلى غيره من
الاشياء . وفيه مبالغة .

قوله تعالى :

إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا
أَثْمِينَ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا
فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ
الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ (٤١) آية .

قرأ يعقوب وحده «و كلمة الله هي العليا» بالنصب على تقدير وجعل كلمة الله هي العليا ومن رفع استأنف ، وهو أبلغ لأنه يفيد أن كلمة الله العليا على كل حال. وهـ- هذا ايضاً زجر آخر وتهديد لمن خاطبه في الآية الاولى بانهم إن لم ينصروا النبي ﷺ ولم يقاتلوا معه ولم يجاهدوا عدوه « فقد نصره الله » أي قد فعل الله به النصر حين اخرجه الكفار من مكة «ثاني اثنين» . وهو نصب على الحال اي هو ومعه آخر ، وهو ابو بكر في وقت كونهما في الغار من حيث « قال لصاحبه » يعني ابا بكر « لاتحزن » اي لاتخف . ولاتجزع « ان الله معنا » أي ينصرا . والنصرة على ضربين : احدهما - يكون نعمة على من ينصره . والاخر - لا يكون كذلك ، فنصرة المؤمنين تكون إحساناً من الناصر الى نفسه لأن ذلك طاعة لله ولم تكن نعمة على النبي ﷺ . والثاني - من ينصر غيره لينفعه بما تدعو اليه الحكمة كان ذلك نعمة عليه مثل نصره الله لنبيه ﷺ .

ومعنى « ثاني اثنين » أحد اثنين يقولون هذا ثاني اثنين، وثالث ثلاثة، ورابع أربعة ، وخامس خمسة ، لأنه مشتق من المضاف اليه . وقد يقولون خامس اربعة أي خمس الاربعة بمصيره فيهم بعد أن لم يكن .

والغار ثقب عظيم في الجبل . قيل : وهو جبل بمكة يقال له ثور، في قول قتادة . وقال مجاهد : مكث النبي ﷺ في الغار مع ابي بكر ثلاثاً . وقال الحسن : أنبت الله على باب الغار ثمامة ، وهي شجيرة صغيرة . وقال غيره : البهم العنكبوت فنسجت على باب الغار . وأصل الغار الدخول الى عمق الخباء . ومنه قوله « إن أصبح مأواكم غوراً » (١) وغارت عينه تغور غوراً اذا دخلت في رأسه . ومنه أغار على القوم إذا أخرجهم من أخبيتهم بهجومه عليهم .

وقوله « فأنزل الله سكينته عليه » قيل فيمن تعود الهاء اليه قولان : احدهما - قال الزجاج : إنها تعود الى النبي ﷺ . والثاني - قال الجبائي : تعود على أبي بكر

لأنه كان الغائف واحتاج الى الأمن لأن من وعد بالنصر فهو ساكن القلب. والاول أصح ، لأن جميع الكنايات قبل هذا وبعده راجعة الى النبي ﷺ ألا ترى أن قوله « إنا تنصروه » الهاء راجعة الى النبي ﷺ . وبلا خلاف ، وقوله « فقد نصره الله » فالهاء أيضاً راجعة الى النبي ﷺ وقوله « اذ اخرجته » يعني النبي ﷺ « اذ يقول لصاحبه » يعني صاحب النبي ﷺ ثم قال « فأنزل الله سكينته عليه » وقال بعده « وأيده بجنود » يعني النبي ﷺ فلا يليق أن يتخلل ذلك كله كناية عن غيره . وتأيد الله إياه بالجنود ما كان من تقوية الملائكة لقلبه بالبشارة بالنصر من ربه ومن القاء اليأس في قلوب المشركين حتى انصرفوا خائين .

وقوله « وجعل كلمة الذين كفروا السفلى » أي جعلها نازلة دنية وأراد بذلك أن يسفل وعيدهم النبي ﷺ وتخويفهم إياه فأبطل وعيدهم ونصر رسول الله والمؤمنين عليهم فعبّر عن ذلك بأنه جعل كلمتهم كذلك ، لانه خلق كلمتهم كما قال « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً » (١) .

وقيل : إن كلمة الذين كفروا الشرك ، وكلمة الله التوحيد ، وهي قول : لا اله الا الله . وقيل : كلمتهم هو ما تغامزوا عليه من قتله . و « كلمة الله » ما وعد به من النصر والنجاة . ثم أخبر ان « كلمة الله هي العليا » لترتفة اي هي المنصورة بغير جعل جاعل ، لأنها لا يجوز أن تدعو الى خلاف الحكمة . وقوله « والله عزيز » معناه قادر لا يقهر « حكيم » واضع الاشياء مواضعها ليس فيها وجه من وجوه القبح .

وليس في الاية ما يدل على تفضيل أبي بكر ، لأن قوله « ثاني اثنين » مجرد الاخبار أن النبي ﷺ خرج ومعه غيره ، وكذلك قوله « اذ هما في الغار » خبر عن كونهما فيه ، وقوله « اذ يقول لصاحبه » لامدح فيه أيضاً ، لأن تسمية الصاحب لاتقيد فضيلة الأثرى أن الله تعالى قال في صفة المؤمن والكافر « قال له صاحبه وهو

يحاوره أ كفرت بالذي خلقك « (١) وقد يسمون البهيمة بأنها صاحب الانسان كقول الشاعر (وصاحبي بازل شمول) وقد يقول الرجل المسلم لغيره : ارسل اليك صاحبي اليهودي ، ولا يدل ذلك على الفضل ، وقوله « لاتحزن » إن لم يكن ذم أفليس بمدح بل هو نهي محض عن الخوف ، وقوله « إن الله معنا » قيل إن المراد به النبي ﷺ ، ولو أريد به أبو بكر معلم يكن فيه فضيلة ، لأنه يحتمل أن يكون ذلك على وجه التهديد ، كما يقول القائل لغيره إذا رآه يفعل القبيح لاتفعل إن الله معنا يريد أنه متطلع علينا ، عالم بحالنا . والسكينة قد بينا أنها نزلت على النبي ﷺ بما بيناه من ان التأييد بجنود الملائكة كان يختص بالنبي ﷺ فأين موضع الفضيلة للرجل لولا العناد ، ولم نذكر هذا للطعن على ابي بكر بل بينا أن الاستدلال بالآية على الفضل غير صحيح .

قوله تعالى :

إِنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) آية .

هذا امر من الله تعالى للمؤمنين أن ينفروا الى جهاد المشركين خفافاً وثقالاً وقيل في معنى « خفافاً وثقالاً » ثمانية أقوال : احدها - قال الحسن ومج - اهد والضحاك والجبائي : إن معناه شاباناً وشيوخاً . وثانيها - قال صالح : معناه أغنياء وفقراء . وثالثها - قال ابن عباس وقتادة : نشاطاً وغيير نشاط . ورابعها - قال ابو عمرو : ركباناً ومشاة . وخامسها - قال ابن زيد : ذا صنعة وغير ذي صنعة . وسادسها - قال الحكم : مشاغيل وغير مشاغيل . وسابعها - قال الفراء : ذو العيال ، والميسرة : هم الثقال ، وذو العسرة وقلة العيال هم الخفاف . وثامنها - ان يحمل

على عمومه فيدخل فيه جميع ذلك ، وهو الأولى والأليق بالظاهر ، وهو اختيار الطبري ، والرماني ويكون ذلك على حال نخفة التغير وثقله لأن هذا الذي ذكر يجري مجرى التمثيل لما يعمل هذا العمل به .

وقوله « وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم » أمر من الله لهم بأن يجاهدوا في قتال أعدائهم بأموالهم وأنفسهم . والجهاد بالمال واجب كالجهاد بالأنفس ، وهو الاتفاق في سبيل الله ، وظاهر الآية يدل على وجوب ذلك بحسب الامكان . فمن لم يطق الجهاد إلا بالمال فعليه ذلك يعين به من ليس له مال .

وظاهر الآية يقتضي وجوب مجاهدة البغاة كما يجب مجاهدة الكفار ، لأنه جهاد في سبيل الله ، ولقوله « فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله » (١) فأوجب قتال البغاة الى حين يرجعوا الى الحق . وقوله « ذلكم خير لكم » إشارة الى الجهاد وتقديره ذلك الجهاد خير لكم . وإنما قال « خير لكم » وان لم يكن في ترك الجهاد خير؛ لأحد أمرين : احدهما - خير من تركه الى المباح . والثاني - ان فيه الخير لكم لاني تركه ، فلا يكون خير بمعنى أفعل من كذا .

وقوله « إن كنتم تعلمون » معناه إن كنتم تعلمون الخير في الجملة فاعلموا أن هذا خير . وقال أبو علي : معناه « ان كنتم تعلمون » صدق الله فيما وعد به من الثواب الدائم .

وقال أبو الضحى : أول ما نزل من سورة براءة « انفروا » .

وقال مجاهد : أول ما نزل قوله « لقد نصركم الله » .

وقال ابن عباس : نسخ هذه الآية قوله « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » (٢) .

وقال جعفر بن قيس : هذا ليس بمنسوخ ، لأن المنسوخ ما لا يجوز فعله .

وهذا ليس بصحيح ، لأنه يجوز أن يكون وجوبه زال الى الذنب او الاباحة .

قوله تعالى :

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ
عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ
يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٣) آية.

هذه الآية في قوم تخلفوا عن النبي ﷺ ولم يخرجوا معه الى غزوة تبوك .
وحسن الكناية عنهم وإن لم يجر لهم ذكر لكونهم داخلين في جملة الذين أمروا
بالخروج مع النبي ﷺ الى الجهاد وأن ينقروا معه . والمعنى لو كان المدعو اليه
عرضاً قريباً من الغنيمة وما يطمع فيه من المال « وسفراً قاصداً » معناه سفراً سهلاً
باقتضاه من غير طول في آخره . وسمي العدل قصداً ، لأنه مما ينبغي أن يقصد
« لاتبعوك » يعني خرجوا معك وبأذروا الى اتباعك « ولكن بعدت عليهم الشقة »
اي بعدت عليهم المسافة . لأنهم دعوا الى الخروج الى تبوك ناحية الشام ، فالشقة
القطعة من الأرض التي يشق ركبها على صاحبها بعدها . ويحتمل أن يكون من
الشق ويحتمل ان يكون من المشقة . والشقة السفر والمشاقة . وقريش يضمون الشين ،
وقيس يكسرونها . وقريش يضمون العين من (بعدت) .

وقوله « وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم » اخبار منه تعالى ان
هؤلاء الذين ذكرهم يحلفون ويتسمون على وجه الاعتذار اليك ويقولون فيما
بعد « لو استطعنا لخرجنا معكم » اي لو قدرنا وتمكنا من الخروج لخرجنا معكم
ثم اخبر تعالى انهم « يهلكون أنفسهم » بذلك واخبر تعالى انه يعلم انهم يكذبون
في هذا الخبر الذي أقسموا عليه . وفي الآية دلالة على أن الاستطاعة قبل الفعل
لانهم لا يخلون من احد امرين : إما أن يكونوا مستطيعين من الخروج وقادرين
عليه ولم يخرجوا اولم يكونوا قادرين عليه وإنما حلفوا أنهم لو قدروا في المستقبل

لخرجوا ، فإن كان الاول فقد ثبت ان القدرة قبل الفعل ، وإن كان المراد الثاني فقد أكذبهم الله في ذلك وبين انه لو فعل لهم الاستطاعة لما خرجوا ، وفي ذلك أيضاً تقدم القدرة على المقدور وليس لهم أن يحملوا الاستطاعة على آلة السفر وعدة الجهاد ، لأن ذلك ترك الظاهر من غير ضرورة فان حقيقة الاستطاعة القدرة وإنما يشبه غيرها بها على ضرب من المجاز ، على انه إذا كان عدم الآلة والعدة يعذر صاحبه في التأخر فمن ليس فيه قدرة اولى بأن يكون معذوراً وفي الآية دلالة على النبوة لأنه اخبر انهم سيحلفون في المستقبل على ذلك بالله لو اسئطنا لخرجنا معكم فجاءوا فيما بعد وحلفوا على ما اخبر به .

قوله تعالى :

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لَمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يُتَّبِنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا
وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٤) آية.

هذا خطاب فيه بعض العتاب للنبي ﷺ في إذنه من استأذنه في التأخر فأذن له ، فأخبر الله بأنه كان الأولى ان لا تأذن لهم وتلزمهم الخروج معك حتى اذا لم يخرجوا ظهر نفاقهم ؛ لأنه متى أذن لهم ثم تأخروا لم يعلم بالتفارق كان تأخرهم أم بغيره . وكان الذين استأذنوه منافقين . وحقيقة العفو الصّح عن الذنب ، ومثله الغفران ، وهو ترك المؤاخذة على الاجرام . وقد كان يجوز ان يعفو الله عن جميع المعاصي كقراً كان او غيره ، غير أنه أخبر أنه لا يعفو عن عقاب الكفر ، لاجماع الامة على ذلك ، وماعداه من القبوق باق على ما كان عليه من الجواز .

وانما قال « عفا الله عنك » على غير لفظ المتكلم لأنه أفخم من الكناية لأن هذا الاسم من اسماء التعظيم كما أن قولك إن رأي الامير افخم من قولك إنني رأيت . وقال ابو علي الجبائي : في الآية دلالة على ان النبي ﷺ كان وقع منه ذنب

في هذا الاذن . قال : لأنه لا يجوز أن يقال لم فعلت ما جعلت لك فعله؟ كما لا يجوز أن يقول لم فعلت ما أمرتك بفعله . وهذا الذي ذكره غير صحيح ، لأن قوله «عفا الله عنك» إنما هي كلمة عتاب له ﷺ لم فعل ما كان الأولى به أن لا يفعله، لأنه وإن كان له فعله من حيث لم يكن محظوراً فإن الأولى ان لا يفعله ، كما يقول القائل لغيره إذا رآه يعاتب أخاً له: لم عاتبته وكلمته بما يشق عليه؟ وإن كان له معاتبته وكلامه بما يثقل عليه . وكيف يكون ذلك معصية وقد قال الله في موضع آخر : « فان استاذنوك لبعض شأنهم فاذن لمن شئت منهم » وإنما اراد الله أنه كان ينبغي أن ينتظر تأكيد الوحي فيه . ومن قال هذا ناسخ لذلك فعله اللالة .

وقوله «لم أذن» فالاذن رفع التبعة ، عاتب الله تعالى نبيه ﷺ لم أذن لقوم من المتأخرين عن الخروج معه الى تبوك وإن كان له اذنهم لكن كان الأولى ان لا يأذن « حتى يتبين لك » حتى يظهر لك « الذين صدقوا » في قولهم لو استطعنا لخرجنا معكم ؛ لأنه كان فيهم من اعتدل بالمرض والعجز وعدم الحمولة « وتعلم الكاذبين » منهم في هذا القول .

قوله تعالى

لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٥) آية .

أخبر الله تعالى نبيه بعلامة المنافقين والكاذبين بأن بين أنه لا يستأذن احد النبي ﷺ في التأخر عنه والخروج معه الى جهاد أعدائه ولا يسأله الاذن في التأخر القوم الذين يؤمنون بالله ويصدقون به ويقرون بوحدانيته ويعترفون باليوم الآخر . والاستئذان طلب الاذن من الاذن . ومعنى قوله « أن يجاهدوا » فيه حذف وتقديره لأن لا يجاهدوا بحذف (لا) لأن ذمهم قد دل عليه - هذا قول امي علي

الجبائي - وقال الحسن : تقديره كراهية أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم . وقال الزجاج : هو في موضع نصب ، لأن تقديره في أن يجاهدوا ، فلما حذف حرف الجر انتصب ، وعند سيبويه وغيره هو في موضع الجر .

وقوله « والله عليم بالمتقين » اخبار منه تعالى بأنه يعلم من ينقي معصية الله ويخاف عقابه ، ومن لا يتقيه . قال ابن عباس هذا تعبير للمنافقين حين استأذنوه في القعود عن الجهاد وعذر للمؤمنين ، فقال : لم يذهبوا حتى يستأذنوه . والمعنى انه لم يخرجهم من صفة المتقين إلا انه علم أنهم ليسوا منهم .

فان قيل أي الجهادين أفضل : أجهاد السيف أم جهاد العلم ؟

قيل : هذا بحسب الحاجة اليه والمصلحة فيه ، وكذلك الجهاد بالمال والجهاد بالنفس . وإنما يقع التفاضل مع استواء الأحوال الا بمقدار الخصلة الزائدة من خصال الفضل . وأجاز الرماني الجهاد مع الفساق إذا عاونوا على حق في قتال الكفار لأنهم يطيعون في ذلك الفعل كما هم مطيعون في الصلاة والصيام وغير ذلك من شريعة الاسلام . والظاهر من مذهب أصحابنا أنه لا يجوز ذلك إلا ما كان على وجه الدفع عن النفس وعن بيضة الاسلام .

قوله تعالى :

إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَأَرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَفِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٦) آية .

أخبر الله تعالى في هذه الآية بأنه إنما يستأذن النبي ﷺ في التأخر عن الجهاد والقعود عن القتال معه القوم « الذين لا يؤمنون بالله » اي لا يصدقون بالله ولا يعترفون به « واليوم الآخر » يعني بالبعث والنشور « وارتابت قلوبهم » يعني اضطربت وشكت . والارتباب هو الاضطراب في الاعتقاد بالتقدم مرة والتأخر اخرى . والريبة

شك معه تهمة: رابني ريباً وزيبة وارتاب ارتياباً ، واستراب استرابة .
 وقوله « فهم في ريبهم يترددون » معناه فهم في شكهم يذهبون ويرجعون
 والتردد هو التصرف بالذهاب والرجوع مرات متقاربة ، مثل المتحير ، رده رداً
 وردده ترديداً ، وتردد تردداً وارتناد ارتداداً ، وراده مرادة ، وتراد القوم
 ترداداً ، واسترده استرداداً . وقوله « في ريبهم يترددون » يدل على بطلان قول
 من يقول : إن المعارف ضرورية ، لأنه تعالى أخبر أنهم في شكهم يترددون ، صفة الشاك
 المتحير في دينه الذي ليس على بصيرة من أمره . وقيل في معنى اليوم الاخر قولان :
 احدهما - انه آخر يوم من أيام الدنيا والمؤذن بالكرة الأخيرة .
 الثاني - وهو الاقوى - انه يوم الجزاء والحساب وهو يوم القيامة وهو الاظهر
 من مفهوم هذه اللفظة .

قوله تعالى :

وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ
 أَنْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٧) آية .

اخبر الله تعالى ان هؤلاء المنافقين لو ارادوا الخروج مع النبي ﷺ نصرته
 له ورغبة في جهاد الكفار كما أراد المؤمنون ذلك لأعدوا للخروج عدة، وهو ما يتبها
 لهم معها الخروج ، ولكن لم يكن لهم في ذلك نية وكان عزمهم على أن النبي ﷺ
 ان لم يأذن لهم في الاقامة فخرجوا ، أفسدوا عليك و ضربوا بين أصحابك ، وأفسدوا
 قلوبهم ، فكره الله خروجهم على هذا الوجه ، لان ذلك كفر ومعصية . والله لا يكره
 الخروج الذي أمرهم به ، وهو أن يخرجوا لنصرة نبيه وقتال عدوه والجهاد في
 سبيله كما خرج المؤمنون كذلك ، فثبطهم الله عن الخروج الذي عزموا عليه ولم
 يشبطهم عن الخروج الذي أمرهم به ، لأن الاول كفر . والثاني طاعة .

وقوله « وقيل اقعدوا مع القاعدين » يحتمل شيئين : أحدهما - أن يكون

القائلون لهم ذلك أصحابهم الذين نهوهم عن الخروج مع النبي نصرته له ورغبة في الجهاد . والثاني - ان يكون ذلك من قول النبي ﷺ لهم على وجه التهديد لاعلى وجه الاذن ، ويجوز أن يكون إذنه لهم في القعود الذي عاتبه الله عليه . وأنه كان الأول أن لا يأذن لهم فيه ، ولا يجوز أن يكون ذلك من قول الله ، لأنه لو كان كذلك لكان مباحاً لهم التأخر . اللهم إلا أن يكون ذلك على وجه التهديد ، فيجوز أن يكون ذلك من قول الله . والعدة والاهبة والآلة نظائر . والانبعاث الانطلاق بسرعة في الأمر ، ولذلك يقال : فلان لا ينبعث في الحاجة أي ليس له نفاذ فيها . والتثبوت التوقف عن الامر بالتهديد فيه ومثله التعقيل . وقوله « مع القاءدين » يعني مع النساء والصبيان والمرضى والزمنى ، ومن ليس به حراك . قال ابن اسحاق : كان الذين استأذنوه اشرافاً ورؤساء كعبدالله بن أبي بن ابي سلول والحد بن قيس . وزاد مجاهد رفاعة بن التابوت وأوس بن قبطي .

قوله تعالى :

لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَوْا
 خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
 بِالظَّالِمِينَ (٤٨) آية .

بين الله تعالى في هذه الآية الوجوه في كراهية انبعاثهم ووجه الحكمة في تثبيطهم عن ذلك وهو ما علم من ان في خروجهم مفسدة للمؤمنين ، لأنه قال « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً » قال الفراء : لو قال ما زادكم يريد خروجهم لكان جائزاً ، وهذا من سعة العربية . والخبال الفساد ، والخبال الموت ، والخبال الاضطراب في الرأي بتزيين أمر لقوم وتقبيلحه لآخرين ليختلفوا وتفرق كلمتهم . وقوله « ولا وضعوا خلالكم يبغيونكم الفتنه » والايضاع الاسراع في السير بطرح العلق

قال الشاعر :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب (١)
وقال آخر :

يا ليتني فيها جذع أخب فيها وأضع (٢)

وربما قالوا للراكب : وضع بغير الف ، ومنه وضعت الناقصة تضع وضماً ، وأوضعها إضعافاً . ومعنى الإيضاع هاهنا إسراعهم في الدخول بينهم للمتضرب بنقل الكلام على وجه التخويف . قال الحسن : معناه مشوا بينكم بالنميمة ، لافساد ذات بينكم . وقوله « وفيكم سماعون لهم » قيل في معناه قولان :

احدهما - قال قتادة وابن اسحاق : فيكم القابلون منهم عند سماع قولهم ، وقوله « إلا خبالاً » استثناء منقطع وتقديره ما زادكم قوة ولكن طلبوا لكم الخبال ويحتمل أن يكون المعنى إنهم على خبال في الرأي فيعقده حتى يصير خبالاً فعلى هذا يكون الاستثناء متصلاً .

الثاني - قال مجاهد وابن زيد : لهم عيون منهم يتقلون أخباركم إلى المشركين . وقوله « يبغونكم الفتنة » معناه يطلبون لكم المحنة باختلاف الكلمة والفرقة . قال الحسن : يبغونكم أن تكونوا مشركين . وأصل الفتنة إخراج خبث الذهب بالنار ، تقول : بغيتك كذا بمعنى بغيت لك ومثله جلبتك وجلبت لك « خلالكم » أي بينكم مشتق من التخلل ، وهي الفرج تكون بين القوم في الصفوف وغيرها ، ومنه قول النبي ﷺ تراصوا في الصفوف لا يتخللکم اولاد الخذف . وقوله : « والله عليهم بالظالمين » معناه - هاهنا - عالم بمن يستأذن

(١) مر تخريجه في ١ / ٣٧٢

(٢) قائله دريد بن الصمة قاله يوم حنين : اللسان (وضع) وسيرة ابن هشام

النبي ﷺ في التأخر شكاً في الاسلام ونفاقاً ، وعالمياً بمن سمع حديث المؤمن وينقله الى المنافقين فان هؤلاء ظالمون انفسهم وباخسون لها حظها من الثواب .

قوله تعالى :

لَقَدْ آتَبَعُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٩) آية .

اقسم الله تعالى أن هؤلاء المنافقين « ابتغوا » أي طلبوا إفسار ذات بينكم وافتراق كلمتكم في يوم أحد حتى انصرف عبدالله بن أبي بأصحابه وخذل النبي ﷺ وكان هو وجماعة من المنافقين يبعون للاسلام الغوائل قبل هذا ، فسلم الله المؤمنين من فتنهم وصرفها عنهم . وقوله « وقلبوا لك الامور » فالتعليب هو تصريف الشيء بجعل أسفله أعلاه مرة بعد أخرى ، فهؤلاء صرفوا القول في المعنى للحيلة والمكيدة وقوله « حتى جاء الحق » أي حتى اتى الحق « وظهر أمر الله وهم كارهون » أي في حال كراهتهم لذلك ، فهي جملة في موضع الحال . والظهور خروج الشيء الى حيث يقع عليه الادراك وقد يظهر المعنى للنفس إذا حصل العلم به .

قوله تعالى

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أُنْذِنَ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٠) آية .

قال ابن عباس ومجاهد وابن زيد: نزلت هذه الآية في ألد بن قيس. وذلك ان النبي ﷺ لما دعا الناس الى الخروج الى غزوة تبوك لقتال الروم جاءه ألد بن قيس ، فقال : يا رسول الله إني رجل مستهتر بالنساء فلا تفتني ببنات الأصفر ، قال الفراء : سمي الروم أصفر ، لأن حبشياً غلب على ناحية الروم ، وكان له بنات

قد أخذن من بياض الروم وسواد الحبشة فكان صفراً لعمراً ، فنزلت هذه الآية فيه .
وقال الحسن وقتادة وأبو عبيدة وأبو علي والزجاج : معني ولا تقمني ولا تؤثمني
بالعصيان في المخالفة التي توجب الفرقة ، فتضمنت الآية ان من جملة المنافقين
من استأذن النبي ﷺ في الأخر عن الخروج ، والاذن رفع التبعة في الفعل ، وهو
والاباحة بمعني ، وقال له « لا تقمني » اي لا تؤثمني بأن تكلفني المشقة في ذلك
فأعم بالعصيان أو لا تقمني ببنات أصغر على ما حكيمناه ، فقال الله تعالى « ألا في
الفتنة سقطوا » أي وقعوا في الكفر والمعصية بهذا القول وبهذا الفعل . والسقوط الوقوع
الى جهة السفلى ووقوع الفعل حدوثه وسقوطه أيضاً . وقوله « وإن جهنم لمحيطة
بالكافرين » اخبار منه تعالى أن جهنم مطيقة بما فيها من جميع جهاتها بالكافرين .
والاحاطة والاطافة والاحداق نظائر في اللغة . ولا يدل ذلك على انها لا تحيط بغير
الكفار من الفساق الا ترى أنها تحيط بالزانية والمتولين للعقاب ، فلا تعلق
للخوارج بذلك .

قوله تعالى :

إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا
أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرُحُونَ (٥١) آية .

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين الذين ذكروهم متى
نال النبي ﷺ والمؤمنين حسنة أي نعمة من الله تعالى وظفر باعدائهم وغنمة ينالونها
سأهم ذلك وأحزنهم ، وإن تصيبهم مصيبة أي آفة في النفس أو الأهل أو المال
- وأصلها الصوب - وهو الجري الى الشيء ، يقال : صاب يصوب صوباً ، ومنه
صوب الاناء إذا ميله للجري ، والصواب اصابة الحق « يقولوا » يعني هؤلاء المنافقين
« قد أخذنا أمرنا من قبل » ومعناه قد حذرنا واحترزنا ، في قول مجاهد وغيره ، ومعناه ،

أخذنا أمرنا من مواضع الهلكة فسلمنا مما وقعوا فيه « ويتولوا » أي يعرضوا « وهم فرحون » يعني فرحين بتأخرهم وسلامتهم مما نال المؤمنين من المصيبة . والاصابة وقوع الشيء بما قصد به .

قوله تعالى :

قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ (٥٢) آية .

أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء المنافقين الذين يفرحون بمصيبات المؤمنين وسلامتهم منها « لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » وقيل في معناه قولان : أحدهما - أن كل ما يصيبنا من خير أو شر فهو ما كتبه الله في اللوح المحفوظ من أمرنا ، وليس على ما تظنون وتوهمون من إهمالنا من غير أن نرجع في أمرنا إلى تدبير ربنا ، هذا قول الحسن . الثاني - قال الجبائي والزجاج : يحتمل أن يكون معناه لن يصيبنا في عاقبة أمرنا إلا ما كتب الله لنا في القرآن من النصر الذي وعدنا . وقال البلخي : يجوز أن يكون (كتب) بمعنى علم ويجوز أن يكون بمعنى حكم ، والأولان أقوى . فان قيل : ما الفائدة في كتب ما يكون من أفعال العباد قبل كونها ؟ قلنا في ذلك مصلحة للملائكة ما يقابلون به فيجدونه متفقاً في الصحة ، مع أن تصور كثرته أهول في النفس وأملاً للصدر .

وقوله : « هو مولانا » يحتمل معنيين : أحدهما - أنه مالكننا ونحن عبده .

والثاني - فان الله يتولى حياطتنا ودفع الضر عنا .

وقوله « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » أمر منه تعالى للمؤمنين أن يتوكلوا عليه تعالى دون غيره . والتوكل تفويض الأمر إلى الله والرضا بتدبيره والثقة بحسن اختياره . كما قال « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » (١) وحرف الجر الذي في

معنى الظرف متعلق بالامر في قوله « فليتوكل » وتقديره فليتوكل على الله المؤمنون وانما جاز تقديمه لانه لا يلبس ، ولا يجوز تقديمه على حرف الجزاء لأنه يلبس بالجزاء في الجواب .

قوله تعالى:

قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ
بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بَأْ يَدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا
مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٣) آية .

روى ابن فليح والبيزي إلا النقاش « هل تر بصون » بتشديد التاء ، وجهه أنه أراد تتر بصون فادغم احد التاءين في الاخرى .

امر الله تعالى نبيه ﷺ ان يقول لهؤلاء المنافقين «هل تر بصون بنا» والتر بص التمسك بما ينتظر به مجيء حينه ولذلك قيل تر بص بالطعام إذا تمسك به الى حين زيادة سعره ، وقوله « إلا احدى الحسينين » واحدى الشئين واحدة منهما ، واحد العشر واحد منها ، واحدى النساء معناه واحدة منهن . والحسينان عظيمان في الحسن من النعم ومعانيهما ها هنا إما الغلبة بنصر الله عز وجل والشهادة المؤدية الى الجنة ، في قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة وغيرهم . و(هل) حرف من حروف الاستفهام والمراد هاهنا التقرير والتر بص بالتر بص المؤدي صاحبه الى كل ما يكرهه من خيبته وفوز خصمه . وقوله « ونحن نتر بص بكم » أي قل لهؤلاء : ونحن ايضاً نتوقع بكم ان يوقع بكم عذاباً « من عنده » يهلككم به « او بأيدينا » بأن ينصرنا عليكم فيقتلكم بأيدينا . وقوله « فتر بصوا » صورته صورة الأمر والمراد به التهديد كما قال : « اعملوا ما شئتم » (١) « واستغفروا من استغفرت » (٢) وانما قلنا ذلك لأن

(١) سورة ٤١ حم السجدة آية ٤٠

(٢) سورة ١٧ الاسرى آية ٦٤

تر بص المنافقين بالمؤمنين تمسك بما يؤدي الى الهلاك وذلك قبيح لا يريد الله ولا يأمر به . وقال الفراء : العرب تدغم لام هل وبل في التاء خاصة وهو كثير في كلامهم .

قوله تعالى :

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) آية .

أمر الله تعالى نبيه ﷺ ان يقول لهؤلاء المنافقين « انفقوا » وصورته صورة الامر وفيه ضرب من التهديد وهو مثل قوله « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (١) وانما هو بيان عن توسعة التمكين من الطاعة والمعصية ، وقال قوم : معناه الخبر الذي تدخل (إن) فيه للجزاء كما قال كثير :

اسيئي بنا او احسنى لاملومة لدينا ولا مقلية ان ثقلت (٢)

كأنه قال : إن أحسنت أو أسأت لم تلامي ، وإنما حسن ان يأتي بصيغة الأمر على معنى الخبر بتوسعة التمكين لأنه بمنزلة الأمر في طلب فعل ما يتمكن الذي قد عرفه المخاطب ، كأنه قيل اعمل بحسب ما يوجبه الحق فيما مكنت من الامرين . ووجه آخر أن كل واحد من الضربين كالمأمور به في انه لا يعود وبال العائد الاعلى المأمور . وقوله « طوعاً » فالطوع الانتقياد بارادة لمن عمل عليها . والكره فعل الشيء بكرهه عليها . وقوله « لن يتقبل منكم » معناه لا يجب لكم به الثواب على ذلك مثل تقبل الهدية ووجوب المكافاة وتقبل التوبة وايجاب الثواب عليها ، ومثله في كل طاعة ،

وقوله « إنكم كنتم قوماً فاسقين » اخبار مند تعالى وخطاب لهؤلاء المنافقين بأنهم كانوا فاسقين متمردين عن طاعة الله ، فلذلك لم يقبل تقفاتهم وإنما كانوا ينفقون

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٢٩ . (٢) معاني القرآن ١ : ٤٤١ وقد مر في ١ ٢٢٧

أموالهم في سبيل الله المرياء ودفعا عن انفسهم .

قوله تعالى :

وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ
وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا
وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٥) آية .

قرأ اهل الكوفة الاعاصم « ان يقبل » بالياء . الباكون بالتاء . وجه قراءة
من قرأ بالياء ان التانيث ليس بحقيقي فجاز أن يذكر كقوله « فمن جاءه موعظة » (١)
ومن قرأ بالتاء فعلى ظاهر التانيث .

والمنع أمر يضاد الفعل وينافيه . والمعنى هاهنا أن هؤلاء المنافقين منعوا
انفسهم ان يفعل بهم قبول نفقاتهم ، كما يقول القائل : منعته بري وعطائي .
وقوله « ان تقبل » في موضع نصب ، وتقديره وما منعهم من أن تقبل وحذف
(من) . وقوله « إلا أنهم كفروا بالله ورسوله » انهم في موضع رفع والعامل في
اعراب انهم يحتمل احد امرين : احدهما - ما منعهم من ذلك إلا كفرهم .
والثاني - أن يكون تقديره ما منعهم الله منه إلا لأنهم كفروا بالله . وعندنا ان
الكافر لا يقع منه الانفاق على وجه يكون طاعة ، لأنه لو أوقعها على ذلك الوجه
لاستحق الثواب . والاحباط باطل ، فكان يؤدي الى ان يكون مستحقاً للثواب .
وذلك خلاف الاجماع . وعند من خالفنا من المعتزلة وغيرهم يصح ذلك ، غير انه ينجب
بكفره فأما الصلاة فلا يصح أن تقع منهم على وجه تكون طاعة بلا خلاف ،
لأن الصلاة طريقها الشرع فمن لا يعترف بالشرع لا يصح أن يوقعها طاعة ، وليس
كذلك الانفاق ، لأن العقل دال على حسنه غير انهم وإن علموا ذلك لا يقع منهم

كذلك على ما بيناه .

وقوله « ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى » اي يقومون اليها على وجه الكسل وذلك ذم لهم بانهم يصلون الصلاة على غير الوجه الذي امروا به ، من التفاق الذي يبعث على الكسل عنها دون الايمان الذي يبعث على النشاط لها .

وقوله « ولا يتقون إلا وهم كارهون » اخبار منه تعالى بأنهم لا يتقون ما يتقونه لكونه طاعة بل يتقونه كارهين لذلك وذلك يقوي ما قلناه .

قوله تعالى

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٦) آية .

هذا نهي للنبي ﷺ والم-راد به المؤمنون والمعنى : لا يروق ناظركم ايها المؤمنون ظاهر حسنها يعني اموال المنافقين والكفار واولادهم تستحسنونه بالطبع البشري . وانما قلنا ذلك . لأن النبي ﷺ مع زهده لا يجوز ان يعجب بها اعجاب مشتبه لها . وقوله « إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا » وقيل في معنى ذلك وجوه : احدها - قال ابن عباس وقتادة والفراء : ان فيد التقسيم والتأخير والتقدير فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم في الحياة الدنيا انما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة، فيكون الظرف على هذا متعلقاً بأموالهم وأولادهم ، ومثله قوله تعالى « فאלقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون » (١) وتقديره فאלقه اليهم فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم الثاني - قال ابن زيد : معناه انما يريد الله ليعذبهم بحفظها والمصائب فيها مع حرمان النفقة بها . والثالث - قال الجبائي : تقديره انما

يريد الله ليعذبهم في الحياة الدنيا عند تمكن المؤمنين من اخذها وغنمها فيتحسرون عليها ويكون ذلك جزاء على كفرهم نعم الله تعالى بها . والرابع - قال البلخي والزجاج : ان معناه فلا تعجبك اموالهم ، فانها وبال عليهم ، لأن الله يعذبهم بها اي بما يكلفهم من انفاقها في الوجوه التي امرهم بها فتزهد انفسهم لشدة ذلك عليهم لانفاقهم ، وهم مع هذا كله كفرون وعاقبتهم النار فيكون قوله « وهم كفرون » اخباراً عن سوء احوالهم وقلة نفع المال والولد لهم ولا يكون عطفاً على ماضى . والخامس - أن يكون المعنى أن مفارقتها وتركها والخروج عنها بالموت صعب عليهم شديد ، لأنهم يفارقون النعم ولا يدرون الى ماذا يصيرون بعد الموت فيكون حينئذ عذاباً عليهم . بمعنى ان مفارقتها غم وعذاب . ومعنى « وتزهد انفسهم » اي تهلك وتذهب بالموت يقال : زهد بضاعة فلان اي ذهبت اجمع . السادس - قال الحسن : اخبر الله تعالى عن عاقبتهم انهم يموتون على التقاق . وقال : ليعذبهم بزكاتها وانفاقها في سبيل الله ، وهو قول البلخي ايضاً والزجاج مع اعتقادهم ان ذلك ليس بقربة ، فيكون ذلك عذاباً أليماً .

واللام في قوله « ليعذبهم » يحتمل ان يكون بمعنى (أن) والتقدير إنما يريد الله أن يعذبهم . والزهد الخروج بصعوبة . وأصله الهلاك ، ومنه قوله « قل جاء الحق وزهدق الباطل » (١) وكل هالك زاهد ، زهدق يزهدق زهوقاً . والزاهدق من الدواب السمين الشديد السمن ، لأنه هالك يثقل بدنه في السير والكر والفر . وزهدق فلان بين ايدي القوم إذا زهدق سابقاً لهم حتى يهلك منهم . والاعجاب السرور بما يعجب منه تقول : اعجبني حديثه اي سرني بطرف حديثه .

وليس في الآية ما يدل على ان الله تعالى اراد الكفر على ما يقوله المجبرة ، لأن قوله « وهم كفرون » في موضع الحال كقولك اريد ان تذمه وهو كافر واريد ان تضربه وهو عاص وأنت لاتريد كفره ولا عصيانه بل تريد ذمه في حال

كفره وعصيانه ، وتقدير الآية إنما يريد الله عذابهم وازهاق انفسهم اي اهلا كها في حال كونهم كافرين ، كما يقول القائل للطبيب : اختلف الي كل يوم وأنا مريض ، وهو لا يريد المرض ، ويقول لعلامه : اختلف الي وأنا محبوس ، ولا يريد حبس نفسه .

قوله تعالى

وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَاهُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ
يَفْرُقُونَ (٥٧) آية ٠

اخبّر الله تعالى عن هؤلاء المنافقين انهم يقسمون بالله انهم لمنكم يعني من المؤمنين وعلى دينهم الذي يدينون به. ثم قال الله تعالى مكذباً لهم « وما هم منكم » اي ليسوا مؤمنين مثلكم ولا مطيعين لله في اتباع دينه كما انتم كذلك ، ولكنهم قوم يفرقون اخبار منه تعالى ان هؤلاء المنافقين يفرقون من اظهار الكفر لئلا يقتلوا والفرق انزعاج النفس بتوقع الضرر . وأصله من مفارقة الامن الى حال الانزعاج.

قوله تعالى :

لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ
يَجْمَحُونَ (٥٨) آية ٠

قرأ يعقوب « أو مدخلا » بفتح الميم وتخفيف الدال وسكونها . وقرأ شاذ « مدخلا » بضم الميم وسكون الدال.

اخبّر الله تعالى عن هؤلاء المنافقين انهم لو وجدوا ملجأً . ومعناه لو ادر كوا مطلوبهم ، يقال : وجدت الضالة وجداناً ووجدت على الرجل وجداً وهوجدة . والملجأ الموضع الذي يتحصن فيه ومثله المعقل والموئل ، والمعتم والمختصر . وقال

ابن عباس : معناه هاهنا حرزا . وقال مجاهد : أي حصناً ، ومثله يستعمل في الناصر والمقاعد . وقوله « أو مغارات » أي لو وجدوا مغارات ، وهي جمع مغارة وهي المدخل الساتر من دخل فيه . وقال ابن عباس : معناه المغارات والغيران والغار الثقب الواسع في الجبل ، ومنه غارت العين من الماء إذا غابت في الأرض ، وغارت عينه إذا دخلت في رأسه . والمدخل المسلك الذي يتدسس بالدخول فيه وهو مفتعل من الدخول كالماتلج من الولوج . وأصله متدخل . وقال ابن عباس وأبو جعفر عليهما السلام والقراء : المدخل الاسراب في الأرض . وقوله « لولوا إليه وهم يجمعون » فالجماح مضي الماء مسرعاً على وجهه لا يرده شيء عنه . وقال الزجاج : فرس جموح ، وهو الذي إذا حمل لم يرده اللجام . وقيل : هو المشي بين المشيين قال مهلهل :

لقد جمحت جماحاً في رمائمهم حتى رأيت ذوي أجسامهم جمدوا
وقال الزجاج : معنى (مدخلاً) أي لو وجدوا قوماً يدخلون في جملتهم أو قوماً يدخلونهم في جملتهم يعتصمون بهم لفعلوا .
قوله تعالى :

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ (٥٩) آية .

قرأ يعقوب « يلمزك » بضم الميم . الباكون بكسرها ، وهما الغتان ، وهذه الآية فيها اخبار أن من جملة المنافقين الذين ذكروهم من يلمزك يا محمد عليه السلام في الصدقات أي يعيبك . في قول الحسن . واللمز العيب على وجه المساترة ، والهمز العيب - بكسر العين ونهمزها - في قول الزجاج - تقول : لمزه . يلمزه ويلمزه - بالكسر والضم - وهي صفتهم قال الشاعر :

إذا لقيتكم تبدي لي مكالسة وان تغيبت كمت الهازل للهمزة (١)
وقال رؤبة :

قاربت بين عنقي وجمزي في ظل عصري باطلي ولمزي (٢)

وقال ابو عبيدة : يازمك معناه يعيبك . وقال قتادة : معناه يطعن عليك .
والهمز الغيبة . ومنه قوله « هماز مشاء بنميم » (٣) . وقيل لاعرابي : أتهمز الغارة؟
قال : الهر يهجزها ، فأوقع الهمز على الاكل ، والهمز كاللمز ، ومنه قوله « أيجب
احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتاً » (٤) والصدقات جمع صدقة وهي العطية للمفقر
على وجه البر والصلة . والصدقة الواجبة في الأموال حرام على رسول الله وأهل بيته
كأنهم جعلوا في تقدير الأغنياء ، فأما البر على وجه التطوع فهو مباح لهم .
وقوله « فان أعطوا منها رضوا » يعني من الصدقات رضوا بذلك وحمدوك عليه
وان لم يعطوا منها إذا هم يسخطون » يعني إذا لم يعطوا ما طلبوه من الصدقات
سخطوا وغضبوا . والصدقة محرمة على من كان غنياً .

واختلفوا في حد الغني ، فقال قوم : هو من ملك نصاباً من المال . وقال آخرون :
هو من كانت له مادة تكفيه ، ملك النصاب أو لم يملك ، والذي كان يلتمز النبي ﷺ
في الصدقات بلتعة بن حاطب ، وكان يقول : إنما يعطي محمد الصدقات من يشاء فربما
أعطاه النبي ﷺ فيرضى وربما منعه فسخط . فتكلم فيه ، فنزلت الآية فيه .
قوله تعالى :

وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا

(١) قائله زياد الاعجم مجاز القرآن ١ / ٢٦٣ واللسان هـ همز ، ومقاييس

اللغة ٦ / ٦٦ وتفسير الطبري ١٤ / ٣٠١ وفيه اختلاف كثير في الرواية .

(٢) ديوانه : ٦٤ وتفسير الطبري ١٤ / ٣٠٠ .

(٣) سورة ٦٨ القلم آية ١١ (٤) سورة ٤٩ الحجرات آية ١٢

اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٦٠) آية.

اخبر الله تعالى في هذه الآية ان هؤلاء المنافقين الذين طلبوا منك الصدقات وعابوك بها لو رضوا بما اعطاهم الله ورسوله « وقالوا » مع ذلك « حسبنا الله » اي كفانا الله وانه سيعطينا الله من فضله وانعامه ويعطينا رسوله مثل ذلك وقالوا « انا الى الله راغبون » والجواب محذوف والتقدير لكان خيراً لهم وأعود عليهم وحذف الجواب في مثل هذا ابلغ لأنه لتأكيد الخبر به استغني عن ذكره .
قوله تعالى :

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِيهِمْ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦١) آية .

اخبر الله تعالى في هذه الآية انه ليست الصدقات التي هي زكاة الاموال إلا للفقراء والمسكين ومن ذكرهم في الآية .
واختلفوا في الفرق بين الفقير والمسكين ، فقال ابن عباس والحسن وجابر وابن زيد والزهري ومجاهد : الفقير المتعفف الذي لا يسأل ، والمسكين الذي يسأل ، ذهبوا الى أنه مشتق من المسكنة بالمسألة . وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أن قال (ليس المسكين الذي تردّه الاكلة والاكتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنى فيغنيه ولا يسأل الناس إلحافاً) . وقال قتادة : الفقير ذو الزمانة من اهل الحاجة . والمسكين من كان صحيحاً محتاجاً . وقال قوم : هما بمعنى واحد إلا انه ذكر بالصفتين لتأكيد امره قال الشاعر :

انا الفقير الذي كانت حلوبته وفق العيال فلم يترك له سبد (١)

(١) اللسان (وفق) . الحلوبة : الناقصة التي تجلب (وفق العيال) على قدر =

ويسمى المحتاج فقيراً تشبيهاً بأن الحاجة كأنها قد كسرت فقار ظهره يقال: فقر الرجل فقراً وأفقره الله أفقاراً وافتقر افتقاراً ، وتفاقر تفاقراً . وسمي المسكين بذلك تشبيهاً بأن الحاجة كأنها سكنته عن حال أهل السعة والثروة . قال الله تعالى « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر » (١) فمن قال : المسكين أحسن حالاً احتج بهذه الآية . ومن قال بما سواه قال : السفينة كانت مشتركة بين جماعة لكل واحد منهم الشيء اليسير .

وقوله « والعاملين عليها » يعني سعاة الزكاة وجباةها ، وهو قول الزهري وابن زيد وغيرهم . وقوله « والمؤلفة قلوبهم » معناه أقوام أشراف كانوا في زمن النبي ﷺ فكان يتألفهم على الإسلام ويستعين بهم على قتال غيرهم ويعطيهم سهماً من الزكاة . وهل هو ثابت في جميع الأحوال أم في وقت دون وقت ؟ فقال الحسن والشعبي : إن هذا كان خاصاً على عهد رسول الله ﷺ . وروى جابر عن أبي جعفر محمد بن علي ﷺ ذلك . واختار الجبائي أنه ثابت في كل عصر إلا أن من شرطه أن يكون هناك امام عدل يتألفهم على ذلك .

وقوله « وفي الرقاب » يعني المكاتبين واجاز أصحابنا أن يشتريه به عبد مؤمن إذا كان في شدة ويعتق من مال الزكاة ، ويكون ولاؤه لأرباب الزكاة ، وهو قول ابن عباس وجعفر بن مبشر .

وقوله « والغارمين » قال مجاهد وقناة والزهري وجميع المفسرين ، وهو قول أبي جعفر ﷺ أنهم الذين ركبتهم الديون في غير معصية ولا إسراف فتقضى عنهم ديونهم ، و« في سبيل الله » يعني الجهاد بلا خلاف ، ويدخل فيه عند أصحابنا جميع مصالح المسلمين ، وهو قول ابن عمر وعطاء . وبه قال البلخي ، فإنه قال : تبني به المساجد والقناطر وغير ذلك ، وهو قول جعفر بن مبشر . و« ابن السبيل » وهو المسافر

= حاجتهم و (السبد) كناية عن القليل وأصله الوبر وهو الشعر الضعيف .

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٨٠ .

المنقطع به فإنه يعطى من الزكاة وان كان غنياً في بلده من غير ان يكون ديناً عليه ، وهو قول مجاهد وقتادة قال الشاعر :

انا ابن الحرب ربمتني وليدأ الى ان شمت واكتهلت لداتي (١)

وقال بعضهم : جعل الله الزكاة لامرين : احدهما - سدّ خلة . والآخر - تقوية ومعوثة لعز الاسلام . واستدل بذلك على ان المؤلفة قلوبهم في كل زمان . واختلفوا في مقدار ما يعطى الجابي للصدقة ، فقال مجاهد والضحاك : يعطى الثمن بلا زيادة . وقال عبد الله بن عمر بن العاص والحسن وابن زيد : هو على قدر عمالته ، وهو المروي في اخبارنا . وقال ابن عباس وحذيفة وعمر بن الخطاب وعطاء وابراهيم وسعيد بن جبير ، وهو قول ابي جعفر وابي عبدالله عليهما السلام ان لقاسم الزكاة ان يضعها في اي الاصناف شاء . وكان بعض المتأخرين لا يضعها الا في سبعة اصناف لأن المؤلفة قد انقرضوا . وان قسمها الانسان عن نفسه ، ففي ستة لأنه بطل سهم العامل ، وزعم انه لا يجزي في كل صنف أقل من ثلاثة . وعندنا ان سهم المؤلفة والسعاة وسهم الجهاد قد سقط اليوم ، ويقسم في الخمسة الباقية كما يشاء رب المال وان وضعها في فرقة منهم جاز .

وقوله « فريضة من الله » نصب على المصدر اي فرض ذلك فريضة وكان يجوز الرفع على الابتداء ولم يقرأ به ، ومعناه ان ما فرضه الله وقدره واجب عليكم . وقوله « والله عليم حكيم » معناه عالم بمصالحكم حكيم فيما يوجبه عليكم من اخراج الصدقات وغير ذلك .

قوله تعالى :

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ

يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٢) آية.

قرأ نافع « أذن خير » بالتخفيف الباقيون بالثقل . وكلهم أضاف ، ورفع « ورحمة » إلا أبا عمرو فإنه جر (ورحمة) وكان يجوز النصب على (ورحمة) يفعل ذلك ، ولم يقرأ به أحد ، قال أبو علي : تخفيف « أذن » من أذن قياس مطرد نحو طنب وطنب ، وعنق وعنق وظفر وظفر لأن ذلك تخفيف و تثقيل لا تغاقيهما في الوزن وفي جمع التكسير تقول : آذان وأطناب وأعناق وأظفار ، فأما الأذن في الآية فإنه يجوز ان يطلق على الجملة وان كان عبارة عن جارحة فيها ، كما قال الخليل في الناب من الأبل سميت به لمكان الناب البازل ، فسميت الجملة كلها به . ويجوز أن يكون (فعلا) من اذن ياذن اذا استمع . ومعناه انه كثير الاستماع مثل شلل وأنف وشحح ، قال ابو زيد : رجل اذن ويقن اذا كان يصدق بكل ما يسمع فكما ان (يقن) صفة كبطل كذلك (اذن) كشلل ، ويقولون : اذن يأذن اذا استمع ، ومنه قوله « وأذنت لربها » (١) اي استمعت ، وقوله « ائذن لي » (٢) اي استمع . وفي الحديث (ما اذن الله لشيء كأذنه لنبي يتغنى بالقرآن) قال الشاعر .

في سماع يأذن الشيخ له وحديث مثل ماذي مشار (٣)

والمعنى - في الاضافة - مستمع خير لكم وصلاح ومصغ اليه ، لا مستمع شر وفساد . ومن رفع (رحمة) فالمعنى فيه أذن خير ورحمة اي مستمع خير ورحمة فجعله للرحمة لكثرة هذا المعنى فيه ، كما قال « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (٤) ويجوز ان يقدر حذف المضاف من المصدر . وأما من جر فعطفه على (خير) كأنه قال اذن خير ورحمة ، وتقديره مستمع خير ورحمة . وجاز هذا كما جاز مستمع

(١) سورة ٨٤ الانشاق آية ٢ (٢) سورة ٩ التوبة آية ٥٠

(٣) اللسان (اذن) نسبة الى (عدي) والمماذي المشار : العسل المصفي

(٤) سورة ٢١ الانبياء آية ١٠٧ .

خير ، لأن الرحمة من الخير وإنما خص تشريعاً ، كما قال « اقرأ باسم ربك الذي خلق » ثم قال « خلق الانسان من علق » (١) وان كان قوله تعالى « خلق » عم الانسان وغيره . والبعد بين الجار وما عطف عليه لا يمنع من العطف ألا ترى ان من قرأ « وقيله يارب » انما جعله عطفاً على « وعنده علم الساعة » (٢) وعلم قيله . وروي ان الاعمش قرأ قل « اذن خير ورحمة » وهي قراءة ابن مسعود .

اخبر الله تعالى في هذه الآية ان من جملة هؤلاء - المنافقين الذين وصفهم وذكرهم - من يؤذي النبي ﷺ والأذى هو ضرر ربما تنفر منه النفس في عاجل الامر وازهم يقولون هو اذن يعنون النبي ﷺ . ومعنى (اذن) انه يصغي الى كل احد فيقبل ما يقوله - في قول ابن عباس وقتادة ومجاهد والضحاك - وقيل اصله من اذن اذا استمع على ما بيناه قال عدي بن زيد :

ايها القلب تعلق ببدن ان همي في سماع واذن (٣)

وقيل السبب في ذلك : ان قوماً من المنافقين تكلموا بما ارادوه ، وقالوا ان بلغه اعتذرنا اليه ، فانه اذن يسمع ما يقال له ، فقال الله تعالى « قل » يا محمد « اذن خير لكم » لا اذن شر ، وليس بمعنى أفعل . وانما معناه اذن صلاح ولو رفع خيراً لكان معناه أصلح ، وهي قراءة الحسن والاعشى والبرجمي . وانما قال بعد ذلك « يؤمن بالله » لأن معناه انه لا يمانه بالله يعمل بالحق فيما يسمع من غيره . وقيل يصغي الى الوحي من قبل الله .

وقوله « ويؤمن للمؤمنين » قال ابن عباس : معناه ويصدق المؤمنين . وقيل دخلت اللام كما دخلت في قوله « درف لكم » (٤) وتقديره ردفكم ، واللام مقحمة ومثله « لربهم يرهبون » (٥) ومعناه يرهبون ربهم . واللام مقحمة .

(١) سورة العلق ٢ . (٢) سورة ٤٣ الرخرف آية ٨٨ ، ٨٥ .

(٣) اللسان (اذن) وامالي المرتضى ٣٣ / ١ وتفسير الطبري ٣٢٥ / ١٤ .

(٤) سورة ٢٧ النمل آية ٧٢ . (٥) سورة ٧ الاعراف آية ١٥٣ .

وقال قوم : دخلت اللام للمفرق بين إيمان التصديق وإيمان الامان .
 وقوله « ورحمة للذين آمنوا منكم » يعني ان النبي ﷺ رحمة للمؤمنين
 منكم وانما خص المؤمنين بالذكر وان كان رحمة للكفار أيضاً من حيث انتفع
 المؤمنون به دون غيرهم من الكفار . ثم قال « والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب
 اليم » اي مؤلم موجه جزاء لهم على اذاهم للنبي ﷺ .
 وقال ابن اسحاق : نزلت هذه الآية في نبتل بن الحارث كان يقول : إني
 لأنال من محمد ماشئت ، ثم آتته اعتذر اليه وأحلف له فيقبل ، فجاء جبرائيل الى
 رسول الله ﷺ فقال : انه يجلس اليك رجل ادلم ثائر شعر الرأس اسفع الخدين
 احمر العينين كأنهما قد ران من صفر كبده اغلظ من كبده الجمل ينقل حديثك الى
 المنافقين فاحذره ، وكان ذلك صفة نبتل بن الحارث من منافقي الانصار ، فقال
 رسول الله ﷺ من اختار أن ينظر الى الشيطان فليتنظر الى نبتل بن الحارث ، ذكره
 ابن اسحاق .

قوله تعالى :

يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٣) آية .

اخبر الله تعالى أن هؤلاء المنافقين يقسمون بالله أنهم على دينكم وأن الذي
 بلغكم عنهم باطل « ليرضوكم » ومعناه يريدون بذلك رضاكم لتحمدوهم عليه . ثم
 قال تعالى « والله ورسوله أحق أن يرضوه » أي الله ورسوله أولى بأن يطلبوا مرضاتهما
 « ان كانوا مؤمنين » مصدقين بالله مقرين بنبوة نبيه ، والفرق بين الاحق والأصلح ان
 الأحق قد يكون موضعه غير الفعل كقولك : زيد أحق بالمال ، والأصلح لا يقع
 هذا الموقع لأنه من صفات الفعل وتقول : الله أحق أن يطاع ولا تقول اصلح ،
 وقيل في رد ضمير الواحد في قوله « والله ورسوله أحق أن يرضوه » قولان :

أحدهما - أنه لما كان رضى رسول الله رضى الله ترك ذكره ، لأنه دال عليه
 والتقدير والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه كما قال الشاعر :
 نحن بما عندنا وانت بما عندك راض والرأي مختلف (١)
 والثاني - أنه لا يذكر على طريق المجمل مع غيره تعظيماً له بافراد الذكر
 المعظم بما لا يجوز إلا له ، ولذلك قال النبي ﷺ لمن سمعه يقول : من أطاع الله
 ورسوله هدى (ومن يعصه فقد غوى) وإنما أراد ما قلناه .

قوله تعالى :

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ
 خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٤) آية .

يقول الله تعالى على وجه التهديد والتقريع والتوبيخ لهؤلاء المنافقين « ألم يعلموا »
 أي أو ما علموا « انه من يحادد الله » أي يتجاوز حدود الله التي أمر المكلفين ان
 لا يتجاوزوها ، فالمحاددة مجاوزة الحد بالمشاقة ومثله المباعدة . والمعنى مصيرهم في
 حد غير حد أولياء الله . فالمخالفة والمحاددة والمجانبة والمعاداة نظائر في اللغة .
 وإنما قال : لمن لا يعلم « ألم يعلموا » لأحد أمرين : أحدهما - على وجه
 الاستبطاء لهم والتخاف عن علمه . والآخر - انه يجب ان تعلموا الآن هذه
 الاخبار . وقال الجبائي : معناه ألم يخبرهم النبي ﷺ بذلك .

وقوله « فان له نار جهنم خالداً فيها » يحتمل أن يكون على التكرير ، لأن
 الأولى للمتأكيد مع طول الكلام ، وتقديره فله نار جهنم أو فان له نار جهنم .
 قال الزجاج : ولو قرئ (فان) بكسر الهمزة على وجه الاستئناف كان جائزاً ،
 غير أنه لم يقرأ به احد . وقوله « ذلك الخزي العظيم » معناه ذلك الذي ذكرناه

من أن له نار جهنم هو الخزي يعني الهوان بما يستحى من مثله . تقول : خزي خزيًا إذا انقمع للهوان فأخزاه إخزاء وخزيًا .

قوله تعالى :

يَحْذِرُ الْمُنَافِقُونَ أَنَّ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٥) آية .

قيل في معنى يحذر المنافقون قولان :

احدهما - قال الحسن ومجاهد واختاره الجبائي : ان معناه الخبر عنهم بأنهم كانوا يحذرون ان تنزل فيهم آية يفترضون بها لأنهم كانوا شاكين ، حتى قال بعضهم : لو ددت ان اضرب كل واحد منكم مئة ولا ينزل فيكم قرآن ، ذكره ابو جعفر وقال : نزلت في رجل يقال له مخشى بن الحمير الاشجعي .

الثاني - قال الزجاج : انه تهديد ومعناه ليحذروا ، وحسن ذلك لأن موضوع الكلام على التهديد . والحذر اعداد ما يتقى الضرر ، ومثله الخوف والفرع تقول : حذرت حذراً وتحذرت تحذراً وحاذره محاذرة وحذاراً وحذره تحذيراً . والمنافق الذي يظهر من الايمان خلاف ما يبطنه من الكفر واشتق ذلك من نفاقه اليربوع لأنه يخفي باباً ويظهر باباً ليكون إذا أتى من احدهما خرج من الآخر .

وقوله « تنبئهم بما في قلوبهم » أي تخبرهم ، غير أن (تنبئهم) يتعدى الى ثلاثه مفاعيل بمنزلة أعلمت . وقوله « قل استهزؤا » أمر للنبي ﷺ أن يقول لهؤلاء المنافقين (استهزؤا) اي اطلبوا الهزء ، والهزء إظهار شيء وابطان خلافه المنهزى به ، وهو بصورة الأمر والمراد به التهديد . وقوله « ان الله مخرج ما تحذرون » إخبار من الله تعالى أن الذي تخافون من ظهوره فان الله يظهره بأن يبين لنبيه ﷺ باطن حالهم ونفاقهم .

قوله تعالى :

وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ
وَأَيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤْنَ (٦٦) آية .

خاطب الله تعالى نبيه ﷺ فأقسم ، لأن السلام لام القسم بأنك يا محمد ﷺ إن سألت هؤلاء المنافقين عما تكلموا به « ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب » قال الحسن وقتادة : هؤلاء قالوا في غزاة تبوك : أيرجو هذا الرجل ان يفتح قصور الشام وحصونها - هيئات هيئات - فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوه ، فلما سألهم النبي عن ذلك على وجه التأنيب لهم والتقبيح لفعالهم : لم طعنتم في الدين بالباطل والزور ؟ فأجابوا بما لا عذر فيه بل هو وبال عليهم : بأننا كنا نخوض ونلعب . والخوض دخول القدم فيما كان مائعاً من الماء أو الطين هذا في الأصل ثم كثر حتى صار في كل دخول منه أذى وتلويث . واللعب فعل ما فيه سقوط المنزلة لتحصيل اللذة من غير مراعاة الحكمة كفعل الصبي ، وقالوا : ملاعب الأسنة اي انه لشجاعته يقدم على الاسنة كفعل الصبي الذي لا يفكر في عاقبة امره . فقال الله تعالى لنبيه ﷺ : « قل لهم « أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن » قال ابو علي : ذكر الاستهزاء هاهنا مجاز ، لانه جعل الهزاء بالمؤمنين وبآيات الله هزءاً بالله . والهزء ايهام امر على خلاف ما هو به استصغاراً لصاحبه .

قوله تعالى :

لَا تَعْتَدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ
مِنْكُمْ يُعَذِّبُ طَائِفَةٌ يَا نَهُم كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٧) آية .

قرأ عاصم « ان نعف » بنون مفتوحة وضم الفاء « نعذب » بالنون وكسر

الذال « طائفة » بالنصب . الباقيون بضم الياء في (يعفُ تُعذِبُ طائفةٌ) بضم التاء ورفع طائفة . من قرأ بالنون فلقوله « ثم عفونا عنكم » (١) . ومن قرأ بالتاء فالمعنى ذلك بعينه . وأما « تعذب » فمن قرأ بالتاء ، فالان الفعل في اللفظ مسند الى مؤنث .

قوله تعالى : « لا تعتذروا » بصورته صورة النبي والمراد به التهديد . والمراد ان الله تعالى امر نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء المنافقين الذين يحلفون بأنهم ما قالوه إلا لعباً وخوضاً على وجه التهزيء بآيات الله « لا تعتذروا » بالمعازير الكاذبة فانكم بما فعلتموه « قد كفرتم » بعد أن كنتم مظهرين الايمان الذي يحكم لمن اظهره بأنه مؤمن ، ولا يجوز ان يكونوا مؤمنين على الحقيقة مستحقين للثواب ثم يرتدون ، لما قلناه في غير موضع : ان المؤمن لا يجوز عندنا أن يكفر لأنه كان يؤدي الى اجتماع استحقاق الثواب الدائم والعقاب الدائم ، لبطلان التعاطف . والاجماع يمنع من ذلك الاعتذار اظهار ما يقضي العذر ، والعذر ما يستلزم الذم عن الجنابة .

وقوله « إن نعت عن طائفة منكم نعت طائفة » اخبار منه تعالى أنه ان عذبا عن قوم منهم إذا تابوا يعذب طائفة أخرى لم يتوبوا . والعفو رفع الذمعة عما وقع من المصيبة وترك العقوبة عليها . ومثله الصبح والغفران . وقوله « بانهم كانوا مجرمين » معناه انه انما يعذب الطائفة التي يعذبها لكونها مجرمة مذنبه مرتكبة لما يستحق به العقاب . والاجرام الانقطاع عن الحق الى الباطل ، واسمه المرم تقول : جرم المرم يجرمه جرماً وجرماً إذا صرماً . والجرم مصرم الحق بالباطل وتجرومت السنة اذا تصرمت قال لبيد :

دمن تجرّم بعد عهد انيسبا حجاج خلون حلالها وجرأه (٢)

قال الزجاج والفراء : نزلت الآية في ثلاثة نفر فبريء إثنان ونجاشي واحد

(٢) اللسان «جرم»

(١) سورة ٢ البقرة آية ٥٢ .

قال ابن اسحاق : كان الذي عفا عنه مخشي بن حصين الأشجعي حليف بني سلمة لأنه انكر منهم بعض ماسمع فجعلت طائفة للواحد ويراد بها نفس طائفة . وأما في اللغة فيقال للجماعة طائفة ، لأنهم يطيفون بالشيء . وقوله تعالى « وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » (١) يجوز أن يراد به واحد على ما فسرناه .

قوله تعالى :

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيهِمْ إِنَّ
الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٨) آية .

أخبر الله تعالى بأن المنافقين الذين يظهرون الايمان ويسرون الكفر بعضهم من بعض . والمعنى إن بعضهم يضاف الى بعض بالاجتماع على النفاق ، كما يقول القائل لغيره : أنت مني وأنا منك والمعنى إن أمرنا واحد لا يتصل . وقيل : بعضهم من بعض فيما يلحقهم من مقت الله وعذابه أي منازلهم متساوية في ذلك . ثم أخبر أن هؤلاء المنافقين يأمرون غيرهم بالمنكر الذي نهى الله عنه وتوعد عليه من الكفر بالله ونبيه ووجد آياته « وينهون عن المعروف » يعني الأفعال الحسنة التي أمر الله بها وحث عليها ، وانهم يقبضون أيديهم أي يمسكون أموالهم عن انفاقها في طاعة الله ومرضاته وهو قول قتادة . وقال الحسن ومجاهد : أراد إمساكها عن الانفاق في سبيل الله . وقال الجبائي : أراد به إمساك الأيدي عن الجهاد في سبيله الله .

وقوله « نسوا الله فنسيهم » معناه تركوا أمر الله يعني صار بمنزلة المنسي بالسهو عنه فجازاهم الله بأن صيرهم بمنزلة المنسي من ثوابه ورحمته ، وذكر ذلك لازدواج الكلام . وقال قتادة : أي نسوا من الخير ولم ينسوا من الشر . ثم أخبر

تعالى فقال « إن المنافقين » الذين يجادعون المؤمنين باظهار الايمان مع ابطانهم الكفر « هم الفاسقون » الخارجون عن الايمان بالله ورسوله وعن طاعاته .

قوله تعالى:

وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٩) آية .

اخبر الله تعالى بأنه « وعد المنافقين والمنافقات » الذين يظهرن الاسلام ويطنون الكفر « نار جهنم » يعاقبون فيها أبد الآبدين وكذلك الكفار الذين يتولونهم ، وهم على ظاهر الكفر ، فلذلك أفردهم بالذكر ليعلم أن الفريقين معاً يتناولهم الوعيد . وتقول : وعده بالشر وعيداً ووعدته بالخير وعداً وأوعدهت إيعاداً وتوعدهت توعداً في الشر لا بالخير ، ووعدته مواعدة ، وتواعدوا تواعداً . وقوله « هي حسبهم » يعني نار جهنم والعقاب فيها كافيهم ، ولعنه الله يعني أبعدهم الله من جنته وخيره « ولهم » مع ذلك « عذاب مقيم » ومعناه دائم لا يزول وقيل معنى « هي حسبهم » أي هي كفاية ذنوبهم ، ووفاء لجزاء عملهم . واللعن الابعاد من الرحمة عقاباً على المعصية ، ولذلك لا يقال لعن البهيمة كما لا يدعوا لها بالعفو .

قوله تعالى:

كَأ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَائِقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَائِقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَائِقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَمَا أَذَى خَاضُوا وَأَلَيْكَ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَلَيْكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٧٠) آية .

الكاف في قوله « كالذين » في موضع نصب ، والتقدير احذروا أن يحل بكم من العذاب والعقوبة كالذين . ويحتمل أن يكون المراد وعدكم الله على الكفر كما وعد الذين من قبلكم ، فشبّه المنافقين في عدولهم عن أمر الله للاستمتاع بلذات الدنيا بمن قبلكم مع أن عاقبة امر الفريقين يؤل الى العقاب مع أن الأولين كانوا أشد من هؤلاء قوة في ابدانهم وأطول اعماراً واكثر اموالاً وأشد تمكيناً فلم يقدرُوا ان يدفعوا عن نفوسهم ما حل بهم من عقاب الله .

وقوله « فاستمتعوا بخلاقهم » فالاستمتاع هو طلب المتعة وهي فعل ما فيه اللذة من المآكل والمشرب والمناكح . ومعناه انهم تمتعوا بنصيبهم من الخير العاجل وباعوا بذلك الخير الآجل فهلكوا بشر استبدال ، كما تمتعتم ايها المنافقون بخلاقكم اي بنصيبكم والخلاق النصيب سواء كان عاجلاً او آجلاً .

وقوله « وخضتم كالذي خاضوا » خطاب للمنافقين بأن قيل لهم خضتم في الباطل والكذب على الله كالذين تابعوهم على ذلك من المنافقين وغيرهم من الكفار « حبطت اعمالهم » لأنهم كانوا أو قعوها على خلاف ما أمرهم الله به فلم يستحقوا عليها ثواباً بل استحقوا عليها العقاب ، فلذلك كانوا خاسرين أنفسهم ومهلكين لها بفعل المعاصي المؤدي الى الهلاك . وروي عن ابن عباس انه قال في هذه الآية : ما أشبه الليلة بالبارحة كذلك من قبلكم هؤلاء بنوا اسرائيل لشبهنا بهم لا أعلم إلا انه قال (والذي نفسي بيده لتتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم حجر ضب لدخلتموه) ومثله روي عن ابي هريرة عن النبي ﷺ وعن ابي سعيد الخدري مثله .

قوله تعالى :

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ *
وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمُ رُسُلُهُمْ

بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧١)

آية في الكوفي والبصري وآيتان في المدنيين آخر الأولى « وثمرود »

قوله « ألم » صورته صورة الاستفهام ، والمراد به التقرير والتحذير . وإنما حسن في الاستفهام أن يخرج الى معنى التقرير لأن الاحتجاج بما يلزمهم الاقرار به فقال الله تعالى مخاطباً لنبيه : ألم يأت هؤلاء المنافقين الذين وصفهم خبر من كان قبلهم من قوم نوح وعاد وثمرود وقوم ابراهيم وأصحاب مدين ، على وجه الاحتجاج عليهم فيتعطوا ، لأن الامم الماضية والقرون السالفة إذا كان الله تعالى إنما أهلكتها ودمرها لتكذيبها رسلها كان ذلك واجباً في كل أمة يساؤونهم في هذه العلة ، فأقل احوالهم ألا يأمنوا أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك . قال الرماني : والحكمة تقتضي إذا تساوى جماعة في استحقاق العقاب ان لايجوز العفوعن بعضهم دون بعض مع تساويهم في الاحوال . وانما يجوز العدول من قوم الى قوم في الواحد من الحاجة وهذا يتم على قول من يقول بالأصلح ، ومن لايقول بذلك يقول : هو متفضل بذلك وله ان يتفضل على من يشاء ولايلزم ان يفعل ذلك بكل مكلف .

وقوله « والمؤتفكات » قال الحسن وقتادة : هي ثلاث قرىات لقوم لوط ولذلك جمعها بالالف والتاء . وقال في موضع آخر « والمؤتفكة أهوى » (١) فجاء به على طريق الجنس . قال الزجاج : معناه اتفتكت بأهلها انقلبت . وعدين ابن ابراهيم اسم له . وقوله « اتتهم رسلهم بالبينات » معناه جاءت هؤلاء المذكورين الرسل من عند الله معها حجج ودلالات على صدقها فكذبوا بها فأهلكهم الله ، وحذف لدلالة الكلام عليه . ثم قال « فما كان الله ليظلمهم » اي لم يكن الله ظالماً لهم بهذا الاهلاك « ولكن كانوا انفسهم يظلمون » بأن فعلوا من الكفر والمعاصي ما استحقوا به الهلاك .

وقيل : ان الله تعالى اهلك قوم نوح بالغرق . واهلك عاداً بالريح الصرصر العاتية . وأهلك ثمود بالرجفة والصاعقة . وأهلك قوم ابراهيم بالتشتميت وسلب الملك والنعمة . وأهلك اصحاب مدين بعذاب يوم الظلة . وأهلك قوم لوط بانقلاب الارض ، كل ذلك عدل منه على من ظلم نفسه وعصى الله واستحق عقابه .

قوله تعالى .

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧٢) آية .

لما ذكر الله تعالى المنافقين ووصفهم بأن بعضهم من بعض بالاتفاق والتعاضد اقتضى ان يذكر المؤمنين . ويصفهم بصد أوصافهم ، فقال تعالى « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض » أي يلزم كل واحد منهم نصره صاحبه وان يواليه وقال الرماني : العقل يدل على وجوب موالاتة المؤمنين بعضهم بعضاً ، لأنها تجري مجرى استحقاق الحمد على طاعة الله والذم على معصيته . ولا يجوز ان يرد الشرع بخلاف ذلك . وإذا قلنا : المؤمن وولي الله معناه أنه ينصر اولياء الله وينصر دينه، والله وليه بمعنى أولى بتدبيره وتصريفه وفرض طاعته عليه . ثم قال « يأمرون بالمعروف » يعني المؤمنين يأمرون بما اوجب الله فعله أو رغب فيه عقلاً أو شرعاً وهو المعروف « وينهون عن المنكر » وهو ما نهى الله تعالى عنه وزهد فيه إما عقلاً أو شرعاً ويضيفون الى ذلك إقامة الصلاة اي إتيانها بكمالها والمداومة عليها ويخرجون زكاة اموالهم حسب ما أوجبها الله عليهم ، ويضعونها حيث امر الله بوضعها فيه ويطيعون

الله ورسوله اي يمثلون امرهما ويتبعون ارادتها ورضاهما .
ثم قال « اولئك سيرحمهم الله » يعني المؤمنين الذين وصفهم ان ستالهم في
القيامة رحمته . ثم اخبر عن نفسه فقال « ان الله عزيز حكيم » فالعزيز معناه قادر
لا يغلبه احد من الكفار والمنافقين ، حكيم في عقاب المنافقين واثابة المؤمنين . وغير
ذلك من الافعال . وإنكار المنكر يجب بلا خلاف سمعاً وعليه الاجماع وكذلك
الأمر بالمعروف واجب ، فأما العقل فلا يدل على وجوبها أصلاً . لأنه لو أوجب
ذلك لوجب ان يمنع الله من المنكر ، لكن يجب على المكلف اظهار كراهة المنكر
الذي يقوم مقام النهي عنه . وفي الآية دلالة على ان الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر من فروض الايمان لأن الله تعالى جعل ذلك من صفات المؤمنين ، ولم يخص
قوماً دون قوم .

قوله تعالى :

وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ
مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٣) آية ٠

اخبر الله تعالى بأنه كما وعد المنافقين بنار جهنم والخلود فيها كذلك « وعد
الله المؤمنين » المعترفين بوحدانيته وصدق رسوله وكذلك « المؤمنات جنات » يعني
بساتين يجننها الشجر « تجري من تحتها الأنهار » وتقديره تجري من تحت اشجارها
الأنهار . وقيل : أنهار الجنة أخاريد في الأرض ، فلذلك قال « من تحتها » وانهم فيها
خالدون اي دائمون « ومسكن طيبة » معناه وعسدهم مسكن طيبة . والمسكن
الموضع الذي يسكن . وروى الحسن انها قصور من اللؤلؤ والياقوت الاحمر والزرجد
الاحضر مبنية بهذه الجواهر . وقوله « في جنات عدن » فالعدن الإقامة والخلود ،

ومنه المعدن قال الأعشى :

وان يستضافوا الى حكمه يضافوا الى راجح قد عدن (١)

وروي أنها جنة لا يسكنها إلا النبيون والشهداء والصالحون .

وقوله « ورضوان من الله اكبر » قال الرماني : الرضوان معنى يدعو الى الحمد بالاجابة يستحق مثله بالطاعة فيما تقتضيه الحكمة . وانما رفع (رضوان) لأنه استأنفه للتعظيم كما يقول القائل : اعطينك ووصلتك ثم يقول . وحسن رأي فيك ورضاي عنك خير من جميع ذلك . وقوله « ذلك هو الفوز العظيم » معناه هذا النعيم الذي وصفه هو النجاح العظيم الذي لاشيء فوقه ولا اعظم منه .

قوله تعالى

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ
وَمَا أُولَئِهِمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٤) آية .

امر الله تعالى في هذه الآية نبيه ﷺ أن يجاهد الكفار والمنافقين . والجهاد هو ممارسة الأمر الشاق والجهاد يجب باليد واللسان والقلب ، فمن امكنه الجميع وجب عليه جميعه . ومن لم يقدر باليد فباللسان فان لم يقدر فبالقلب . واختلفوا في كيفية جهاد الكفار والمنافقين . فقال ابن عباس : جهاد الكفار بالسيف وجهاد المنافقين باللسان والوعظ والتخويف ، وهو قول الجبائي . وقال الحسن وقتادة : جهاد الكفار بالسيف وجهاد المنافقين باقامة الحدود عليهم . وكانوا اكثر من يصيب الحدود . وقال ابن مسعود : هو بالانواع الثلاثة حسب الامكان فان لم يقدر فليكفر في وجوههم وهو الاعم .

(١) ديوانه : ١٦ وروايته (هادن قدرزن) بدل « راجح قد عدن »

وتفسير الطبري ١٤ / ٣٥٠ ، والمسار « وزن » ومجاز القرآن ١ / ٢٦٤

ووري في قراءة اهل البيت عليهم السلام « جاهد الكفار بالمنافقين » .
 وقوله « واغلظ عليهم » امر منه تعالى لئيبه ان يقوي قلبه على احلال الالم
 بهم واسماهم الكلام العليظ الشديد ولا يرق عليهم . ثم قال « وماؤاهم جهنم » اي
 منزلهم جهنم ومقامهم . والمأوى منزل مقام . لامنزل ارتحال . ومثله المشوى
 والمسكن . وقوله « وبئس المصير » اخبار منه تعالى ان مرجع هؤلاء ومآلهم بئس
 المرجع والمآل .

قوله تعالى :

يخلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد
 إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغنىهم الله ورسوله
 من فضله فإن يتوبوا بك خيراً لهم وإن يتولوا يعدبهم الله
 عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي
 ولا نصير (٧٥) آية .

اختلفوا فيمن نزلت فيه هذه الآية ، فقال عروة وابن اسحاق ومجاهد :
 إنها نزلت في الخلاس بن سويد بن الصامت بأند قال : فان كان ما جاء به محمد حقاً
 لمن شئ من الحمير ، ثم حالف بالله أنه ما قال . وقال قتادة : نزلت في عبد الله بن
 ابي بن سلول حين قال « لئن رجعتنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل » (١)
 وقال الحسن : كان ذلك في جماعة من المنافقين . وقال الواقدي والزجاج : نزلت
 في اهل العقبة فانهم ائتمروا أن يقتلوا رسول الله في عقبة في الطريق عند مرجعهم
 من تبوك . وأرادوا ان يقطعوا اتساع راحلته ، واطلعه الله على ذلك . وكان ذلك

من معجزاته ﷺ لأنه لا يمكن معرفة مثل ذلك إلا بوحي من الله تعالى ، فسار رسول الله في العقبة وحده وأمر الناس كلهم بسلوك بطن الوادي وكانوا اثني عشر رجلاً أو خمسة عشر رجلاً على الخلاف فيه . وعرفهم واحداً واحداً عمار بن ياسر وحذيفة ، وكان احدهما يقود ناقرة رسول الله والآخر يسوقها ، والحديث مشروح في كتاب الواقدي . وقال ابو جعفر عليه السلام كانوا ثمانية من قريش واربعة من العرب وقوله « وهموا بما لم ينالوا » قيل فيه ثلاثة اقوال :

احدها - قال مجاهد : هم المنافقون بما لم يبلغوه من التنفير برسول الله .
الثاني - قال قتادة : هموا بما ذكر في قوله « ليخرجن الأعز منها الأذل » فلم يبلغوا ذلك .

والثالث - عن مجاهد أنهم هموا بقتل من أنكروا عليهم ذلك . وقال بعضهم : كان المنافقون قالوا : لو رجعنا وضعنا التاج على رأس عبد الله ابن ابي ، فلما اوقفوا على ذلك حلفوا بأنهم ما قالوا ذلك ولا هموا به ، فاخبر الله تعالى عن حالهم انهم يحلفون بالله ما قالوا ، ثم اقسم تعالى بانهم قالوا ذلك ، لأن لام لقد لام القسم وانهم قالوا كلمة الكفر ، وهي كل كلمة فيها جحد لنعم الله او بلغت منزلتها في العظم ، وكانوا يطعنون في الاسلام والنبوة ، وأخبر انهم هموا بما لم يبلغوه . واللهم مقاربة الفعل بتغليب في النفس تقول : هم بالشيء يهيم همأ ، ومنه قوله « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى » (١) وليس الهم من العزم في شيء إلا ان يبلغ نهاية العزم في النفس . والنيل لحوق الأمر . ومنه قوله (نال السيف ونال ما اشتبهى او قدر او تمنى) فهؤلاء قدروا في انفسهم من كيد الاسلام ما لم يبلغوه .

وقوله « وما تقموا إلا ان اغناهم الله ورسوله من فضله » يعني ما فتح الله عليهم من الفتوح وأخذ الغنائم واستغنوا بعد أن كانوا محتاجين وقيل في معناه قولان : احدهما - انهم عملوا بصد الواجب فجعلوا موضع شكر الغنى أن تقموا

قال الشاعر :

ما نقموا من بني أمية إلا أنهم يحلمون ان غضبوا (١)
والآخر - انهم بطروا النعمة بالغنى فنقموا بطراً واشراً فهم لا يفلحون بهذه
الحال ولا بعدها . والفضل الزيادة في الخير على مقدار ما . والتفضل هو الزيادة من
الخير الذي كان للمقار عليه ان يفعله وأن لا يفعله .

ثم قال تعالى « فان يتوبوا » هؤلاء المنافقون ويرجعوا الى الحق « يك خيراً
لهم » في دينهم ودنياهم ، فانهم ينالون بذلك رضى الله ورسوله والجنة « وإن يتولوا »
اي يعرضوا عن الرجوع الى الحق وسلوك الطريق الصحيح « يعذبهم الله عذاباً أليماً »
اي مؤلماً « في الدنيا » بما ينالهم من الحسرة والغم وسوء الذكر وانواع المصائب
وفي « الآخرة » بعذاب النار « وما لهم في الارض » اي ليس لهم في الارض « من دلي »
اي محب « ولا نصير » يعني من ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله . وقيل : إن خلاصاً
تاب بعد ذلك ، وقال : استمنى الله تعالى لي التوبة فقبل الله توبته .

قوله تعالى :

وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنِ آتَيْنَاهُم مِّنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ
وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٦) آية ٠

اخبر الله تعالى أن من جملة المنافقين الذين تقدم ذكرهم « من عاهد الله
لئن آتانا من فضله لنصدقن » أي منه « ولنكونن من الصالحين » بانقاد في طاعة الله
وصلة الرحم والمواساة وأن يعمل الاعمال الصالحة التي يكون بها صالحاً .
وقيل : نزلت الآية في بلنعة بن حاطب كان محتاجاً فذدر لئن استغنى ليصدقن
فأصاب اثني عشر الف درهم ، فلم يتصدق ، ولم يكن من الصالحين . هكذا قال

الواقدي . وقال ابن اسحاق : هما بلنعة ومقنب بن قشير . وقيل : سبب ذلك أنه قتل مولى له فأخذ دينه اثني عشر ألف درهم : أعطاه النبي ﷺ .

فإن قيل : كيف يصح أن يعاهد الله من لا يعرفه ؟

قلنا : إذا وصفه بأخص صفاته جاز منه أن يصرف عبده اليه وإن جاز أن يكون غير عارف . وقال الجبائي : كانوا عارفين ، وإنما كفروا بالنبي ﷺ . والمعاهدة هي أن يقول عليّ عهد الله لأفعلن كذا ، فإنه يكون قد عقد على نفسه وجوب ما ذكره ، لأن الله تعالى حكم بذلك وقدر وجوبه عليه في الشرع .

والآية دالة على وجوب الوفاء بالعهد . واللام الأولى من قوله « لئن آتانا من فضله » والثانية من قوله « لنصدقن » جميعهما لام القسم غير أن الأولى وقعت موقع الجواب ، والتقدير علينا عهد الله لنصدقن إن آتانا من فضله . ولا يجوز أن تكون اللام الأولى لام الابتداء ، لأن لام الابتداء لا تدخل إلا على الاسم المبتدأ ، لأنها تقطع ما قبلها أن يعمل فيما بعدها إلا في باب (إن) فإنها زحلت إلى الخبر لئلا يجتمع تأكيديان ، ويجوز أن يقول : إن رزقني الله ما لا صلحت بفعل الصلاة والصوم لأن ذلك واجب عليه آتاه ما لأولم يؤته .

قوله تعالى :

فَلَمَّا آتَيْتُم مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلْتُمْ بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ (٧٧) آية

أخبر الله تعالى عن هؤلاء المنافقين الذين عاهدوا الله . وقالوا متى آتانا الله من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين أنه آتاهم ما اقترحوه ورزقهم ما تمنوه من الأموال ، وانهم لما آتاهم ذلك شحت نفوسهم عن الوفاء بالعهد .

ومعنى (لما) معنى (إذا) إلا أن (لما) الغالب عليها الجزاء ، وهي إسم ، لأنها تقع في جواب (متى) على تقدير الوقت كقولك : متى كان هذا ، فيقول السامع : لما كان ذلك . و (لما) و (لو) لا يكونان إلا لما مضى بخلاف (إن)

و (إذا) فانهما لما يستقبل الا أن (لو) على تقدير نفى وجوب الثاني لانتفاء الأول
و (لما) يدل على وقوع الثاني لوقوع الاول .

والبخل منع المائل لشدة الاعطاء، ثم صار في اسماء الذي منع الواجب، لأن
من منع الزكاة فهو بخيل . قال الرماني : ولا يجوز أن يكون البخل منع الواجب
بمشقة الاعطاء قال زهير :

ان البخيل ملوم حيث كان ولـ يكن الجواد على علانه هرم (١)

قال : لأنه يلزم على ذلك ان يكون الجود هو بذل الواجب من غير مشقة .
وإنما قال زهير ما قاله لأن البخل صفة نقص . قال الرماني : ومن منع ما لا يضره
بذله ولا ينفعه منعه مما تدعو اليه الحكمة فهو بخيل ، لأنه لا يقع المنع على هذه
الصفة إلا لشدة في النفس ، وإن لم يرجع الى ضرر؛ إذ الشدة من غير ضرر معقولة
كما يصفون الجوزة بأنها لثيمة لأجل الشدة . وقال عبد الله بن عمر والحسن ومحمد
ابن كعب القرظي : يعرف المنافق بثلاث خصال : إذا حدث كذب، وإذا وعد خلف
وإذا ائتمن خان . وخالفهم عطاء ابن ابي رباح في ذلك وقال : إن النبي ﷺ إنما
قال ذلك في قوم من المنافقين . وروي ان الحسن رجع الى قول عطاء . وقوله
« وتولوا » اي أعرضوا عما عاهدوا الله عليه . وقوله « وهم معرضون » اخبار منه
بأنهم معرضون عن الحق بالكلية .

قوله تعالى

فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ
مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٨) آية .

بين الله تعالى أنه أعقب هؤلاء المنافقين ومعناه أورثهم وأداهم الى نفاق في

قلوبهم بخلمهم بما آتاهم الله من فضله مع الاعراض عن أمر الله ، وهو قول الحسن وقال مجاهد : معناه أعقبهم ذلك بحرمان التوبة كما حرم ابليس ، وجعل ذلك إمارة ودلالة على أنهم لا يتوبون أبداً لأحد شئئين : من قال : اعقبهم بخلمهم رد الضمير اليه . والمعنى يلقون جزاء بخلمهم . ومن ذهب الى ان الله أعقبهم رد الضمير الى اسم الله .

وقوله « بما أخلفوا الله ما وعده » فالاخلاف نقض ما تقدم به العقد من وعد أو عزم وأصله الخلاف ، لأنه فعل خلاف ما تقدم به العقد . والوعد متى كان بأمر واجب أو ندب أو أمر حسن قبح الاخلاف ، وان كان الوعد وعداً بقبيح كان إخلافه حسناً . وقوله « وبما كانوا يكذبون » يقوي قول من قال : إن الضمير عائد الى الله لأنه بين انه انما فعل ذلك جزاء على اخلافهم وعده وجزاء على ما كانوا يكذبون في اخبارهم عليه .

قوله تعالى :

الْمَ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٩) آية .

الالف في قوله « ألم يعلموا » الف استفهام والمراد به الانكار . يقول الله تعالى لنبيه ﷺ « ألم يعلموا » هؤلاء المنافقون « أن الله يعلم سرهم » يعني ما يخفون في أنفسهم وما يتناجون بينهم ، والمعنى انه يجب عليهم أن يعلموا ذلك . تقول : اسره إساراً ، واستسر استساراً ، وسارمسارة وسراراً ، وتسار إساراً ، والاسرار اخفاء المعنى في النفس والنجوى رفع الحديث باظهار المعنى لمن يسلم عنده من اخراجه الى عدو فيه لأنه من النجاة تقول : ناجاه مناجاة ، وتناجوا تناجياً فكأن هؤلاء المنافقون يسرون في أنفسهم الكفر ويتناجون به بينهم . وقيل : السر والنجوى

واحد مكرر باختلاف اللفظين كما يقول القائل : آمرك بالوفاء وأنهاك عن الغدر والمعنى واحد مكرر باختلاف اللفظين . وقوله «ان الله علام الغيوب» معناه يعلم كل ما غاب عن العباد مما غاب عن احساسهم او ادراكهم من موجود أو معدوم من كل وجه يصح ان يعلم منه ، لأنها صفة مبالغة واقتضى ذكر العلم - هاهنا - حال المنافقين في كفرهم سرّاً وإظهارهم الايمان جهراً ، فقتيل لهم ان الطجازي لكم يعلم سركم ونجواكم ، كما قال : ذو الرمة في معنى واحد بلفظين مختلفين :

لمياء في شفتيها حوة لعس وفي اللثات وفي انيابها شنب
فاللعس حوة وكبرر لا اختلاف اللفظين ، ويمكن ان يكون لما ذكر الحوة خشبي
ان يتوهم السامع سواداً قبيحاً فبين انه لعس لأنه يستحسن ذلك .

قوله تعالى :

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ
وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٨٠) آية .

قيل : نزلت هذه الآية في عليّة بن زيد الحارثي وزيد بن اسلم العجلاني فجاء عليّة بصاع من تمر فنثره في الصدقة ، وقال : يا رسول الله عملت في النخل بصاعين فصاعاً تركتم لأهلي وصاعاً اقرضته ربي ، وجاء زيد بن أسلم بصدقة فقال : معتب ابن قشير وعبد الله بن نبيك إنما أراد الرياء . وقال قتادة وغيره من المفسرين : إن هذه الآية نزلت في حجاب بن عثمان ، لأنه أتى النبي ﷺ بصاع من تمر وقال : يا رسول الله إنني عملت في النخل بصاعين من تمر فتركت للعيال صاعاً واحديت لله صاعاً . وجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف دينار وهي شطر ماله للصدقة ، فقال المنافقون : إن عبد الرحمن لعظيم الرياء ، وقالوا في الآخر : إن

الله لغني عما أتى به ، فأُنزل الله تعالى الآية فقال « الذين يلمنون المطوعين » أي ينسبونهم إلى المنص في النفس يقولون : لمزه يلمن لمن إذا انتقد وعابه والمطوعين على وزن (المتفعلين) وتقديره المطوعين . فأدغمت التاء في الطاء ، ومعناه المتفعلين من طاعة الله بما ليس بواجب عليهم ، لأن الخير قد يكون واجباً وقد يكون ندباً وقد يكون مباحاً ولا يستحق المدح الا على الواجب والندب دون المباح ، وقوله « والسذين لا يجدون الاجهدهم » والجهد هو الحمل على النفس بما يشق تقول : جهده يجهده جهداً وجهداً - بالضم والفتح - كالوجد والوجد والضعف والضعف . وقال الشعبي : الجهد في العمل والجهد في القوت . وقوله « فيسخرون منهم » يعني المنافقين يهزؤون بالمطوعين « سخر الله منهم » اي يجازيهم على سخريتهم بأنواع العذاب « ولهم عذاب اليم » اي مؤلم موحع . ولما كان ضرر سخريتهم عائداً عليهم جاز ان يقال « سخر الله منهم » لانه يفعل السخرية .

قوله تعالى :

إِسْتَعْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨١) آية .

قوله « استغفر لهم » صيغته صيغة الامر والمراد به المبالغة في الأياس من المغفرة انه لو طلبها طلبه المأمور بها أو تركها ترك المنهي عنها لكان ذلك سواء في ان الله لا يفعلها ، كما قال في موضع آخر « سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم » (١) . والاستغفار طلب المغفرة من الله تعالى بالدعاء بها والمغفرة ستر المعصية برفع العقوبة عليها . وتعليق الاستغفار بالسبعين مرة ، والمراد

به المبالغة لا العدد المخصوص، ويجري ذلك مجرى قول القائل : لو قلت ألف مرة ما قبلت ، والمراد بذلك إنني لا أقبل منك ، وكذلك الآية المراد بها نفي الغفران جملة . وما روي عن النبي ﷺ أنه قال (والله لأزيدن على السبعين) خبر واحد لا يلتفت إليه ؛ ولأن في ذلك ان النبي ﷺ استغفر المكفار وذلك لا يجوز بالاجماع . وقد روي أنه قال (لو علمت اني لوزدت على السبعين مرة لغفر لعلت) .

وكان سبب نزول هذه الآية ان النبي ﷺ كان اذا مات ميت صلى عليه واستغفر له، ولم يكن بمنزلة المنافقين بعد ، فأعلمه الله تعالى ان في جملة من تصلي عليهم من هو منافق وإن استغفاره له لا ينفع قل ذلك ام كثر ، ثم نبى الله نبيه أن يصلي على أحد منهم وأن يستغفر له حين عرفه اياهم بقوله « ولا تصل على أحد منهم مات ابداً ولا تقم على قبره » (١) الآية . وقوله « ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله » اشارة منه تعالى الى ان ارتفاع الغفران انما كان لأنهم كفروا بالله وجحدوا نعمه، وكفروا برسوله فجحدوا نبوته « والله لا يهدي القوم الفاسقين » فمعناه انه لا يهديهم الى طريق الجنة والثواب . فأما الهداية الى الايمان بالاقرار بالتوحيد لله والاعتراف بنبوة النبي ﷺ فقد هدى الله اليه كل مكلف متمكن من النظر والاستدلال ؛ بأن نصب له على ذلك الدلالة وأوضحها له .

قوله تعالى :

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨٢) آية .

اخبر الله تعالى بأن جماعة من المنافقين الذين خلفهم النبي ﷺ ولم يخرجهم

معه الى تبوك لما استأذنه في التأخر فأذن لهم ، فرحوا بعودهم خلاف رسول الله .
والمخلف المتروك خلف من مضى ، ومثله المؤخر عن مضى تقول : خلف تخليفاً
وتخلف تخلفاً . والفرح ضد الغم ، والغم ضيق الصدر بفوت المشتهى ، وعند البصريين
من المعتزلة هو اعتقاد وصول الضرر اليه في المستقبل او دفع الضرر المظنون والمعلوم
عنه . ومعنى خلاف رسول الله قال أبو عبيدة : بعد رسول الله وأنشد :

عقب الربيع خلافهم فكأنما بسط الشواطئ بينهم حصيراً (١)

وقال غيره : معناه المصدر من قولك خالف خـلاًفاً وهو نصب على المصدر .
وقوله « وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله » اخبار منه
تعالى ان هؤلاء المخلفين فرحوا بالتأخر وكرهوا إنفاق أموالهم والجهاد بنفوسهم
في سبيل الله ، فالجهاد بالمـال هو تحمل لمشقة الانفاق في وجوه البر ، والجهاد
بالنفس هو تعريضها لما يشق عليها اتباعاً لأمر الله . وقوله « لاتنفروا في الحر »
معناه انهم قالوا لنظرائهم ومن يقبل منهم : لاتخرجوا في الوقت الحار ، فقال الله
تعالى لنبيه ﷺ قل لهم « نار جهنم اشد حرّاً لو كانوا يفتقون » لأنهم توقّوا
بالتعود عن الخروج حرّ الشمس ، فخالفوا بذلك أمر الله وأمر رسوله ، واستحقوا
حرّ نار جهنم ، وكفى بهذا الاختيار جهلاً ممن اختاره . وقوله « لو كانوا يفتقون »
معناه لو كانوا يفتقون وعظ الله وتحذيره وتزهيده في معاصيه .

قوله تعالى :

فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ (٨٣) آية .

(١) قاله الحارث بن خالد المخزومي . الاغانى ٣/٣٣٣ وروايته (الرداذ)

بدل (الربيع) واللسان (عقب) ، (خلف) .

قوله « فليضحكوا » صيغته صيغة الامر والمراد به التهديد ، وإنما قلنا : إنه بصورة الأمر ، لأن اللام ساكنة ولو كانت لام الاضافة لكانت مكسورة لأنها تؤذن بعملها للجزاء المناسب لها ، فلذلك ألزمت الحركة . والمراد بالاية الاخبار عن حال هؤلاء المنافقين وأنها في وجه الضحك كحال المأمور منه فيما يؤل اليه من خير أو شر على صاحبه ، فلذلك دخله معنى التهدير ، والضحك حال تفتح وانبساط يظهر في وجه الانسان عن تعجب مع فرح ، والضحك هو الانسان خاصة . والبكاء حال يظهر عن غم في الوجه مع جري الدموع على الخد ، وهو ضد الضحك تقول : بكأ بكاءً ، وأبكاه الله ابكاءً ، وبكاه تبكية وتباكى تباكياً واستبكى استبكاءً ومعنى الآية أن يقال لهؤلاء المنافقين : فاضحكوا بقليل تمتعكم في الدنيا فانكم ستبكون كثيراً يوم القيامة إذا حصلتم في العقاب الدائم « جزاء بما كانوا يكسبون » نصب (جزاء) على المصدر أي تجزون على معاصيكم ، ذلك جزاء على أفعالكم التي اكتسبتموها .

قوله تعالى :

فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذِنُواكَ لِمَخْرُوجٍ
فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ
بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَائِفِينَ (٨٤) آية .

قال الله تعالى لنبيه ﷺ « فان رجعتك الله » يعني ان رذك الله « الى طائفة منهم يعني جماعة . فالرجوع هو تصير الشيء الى المكان الذي كان فيه ، تقول : رجعته رجماً كقولك رددته رداً ، وقد يكون التصير الى الحال التي كان عليها كرجوع الماء الى حال البرودة والطائفة الجماعة النبي من شأنها أن تطوف ولهذا لا يقال في جماعة الحجارة طائفة ، وقد يسمى الواحد بأنه طائفة بمعنى نفس طائفة

والأول اظهر . وقوله « فاستأذنوك للخروج » اي طلبوا منك الاذن في الخروج في غزوة أخرى ، والاذن رفع التبعة في الفعل وأصله أن يكون بقول يسمع بالاذن . والخروج الانتقال عن محيط ، فقال الله لنبيه ﷺ قل لهم حينئذ « لن تخرجوا معي أبداً » اي لا يقع منكم الخروج أبداً ، فالابد الزمان المستقبل من غير انتهاء الى حد ، ونظيره للماضي (قط) إلا انه مبني كما بني أمس لتضمنه حروف التعريف واعرِب (الابد) كما اعرِب (غد) لأن المستقبل أحق بالتنكير .

وقوله « ولن تقاتلوا معي عدواً » اخبار بأنهم لا يفعلون ذلك ابداً ولا يختارونه . وقوله « إنكم رضيتم بالعودة أول مرة فاعدوا مع الخالفين » معناه اخبار منه تعالى انهم رضوا بالعودة أول مرة فينبغي ان يعدوا مع الخالفين . وقيل في معناه ثلاثة اقوال : احدها - قال الحسن وقتادة : هم النساء والصبيان . وقال ابن عباس : هم من تأخر من المنافقين . وقال الجبائي : هم كل من تأخر لمرض او نقص وقيل : معناه مع اهل الفساد مشتقاً من قولهم : خلف خلواً اي تغير الى الفساد . وقيل : الخالف كل من تأخر عن الشاخص .

قوله تعالى :

وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۗ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٥) آية .

هذا نهي من الله تعالى لنبيه ﷺ عن أن يصلي على أحد من المنافقين او يقوم على قبره ومعناه أن يتولى دفنه او ينزل في قبر كما يقال : قام فلان بامر فلان . وقال ابن عباس وابن عمر وقتادة وجابر : صلى رسول الله ﷺ على عبد الله ابن أبي بن سلول والبسه قميصه قبل أن ينهي عن الصلاة على المنافقين . وقال أنس : أراد أن يصلي عليه فأخذ جبرائيل بثوبه . وقال له « لا تصل على احد

منهم مات أبدأ ولا تقم على قبره .»

والصلاة على الأموات فرض على الكفايات إذا قام به قوم سقط عن الباقي .
واقبل من يسقط به الفرض واحد . وهي دعاء ليس فيها قراءة ولا تسبيح ، وفيه خلاف .
وفيها خمس تكبيرات عندنا ، وعند الفقهاء أربع تكبيرات ، فالتكبير الأولى يشهد
بعدها الشهادتين ، ويكبر بالثانية ، ويصلي بعدها على النبي ﷺ ويكبر الثالثة
ويدعو للمؤمنين والمؤمنات ، ويكبر الرابعة ويدعو للميت إن كان مؤمناً وعليه
إن كان منافقاً ، ويكبر الخامسة ويقف يومي الى يمينه حتى ترفع الجنازة ، وليس
فيها تسليم . وسمعت أبا الطيب الطبري وكان امام أصحاب الشافعي يقول : الخلاف
بيننا وبينكم في عبارة ، لأن عندكم ينصرف بالخاصة . وعندنا بالتسليم ، فجعلتم
مكان التسليم التكبير . وذلك خلاف في عبارة .

وقوله « مات » موضع (مات) جر لأنه صفة لـ (أحد) لان تقديره على
احد ميت منهم و « أبدأ » منصوب متصل ، و (أحد) هذه هي التي تكون في النفي دون
الايجاب لأنه يصح النهي عن الصلاة عليهم مجتمعين ومتفرقين ، كما يصح في النفي
ولا يمكن في الايجاب لأنه كنفى الضدين في حال واحدة ، فانه لا يصح اثباتها في
حال أصلاً . والقبر حفرة يدفن فيها الميت ، تقول : قبرته اقبره قبراً فأنا قابرٌ وهو
مقبور وأقبرت فلاناً اقباراً اذا جعلته بقبره .

وقوله « إنهم كفروا بالله ورسوله » والمعنى انما نهيتك عن الصلاة عليهم
لأنهم كفروا بالله ورسوله ، فهي للمتعليل ، وانما كسرت لتحقيق الاخبار بأنهم على
الصفة التي ذكرها وأنهم « ماتوا وهم فاسقون » اي خارجون عن طاعة الله
الى معصيته .

قوله تعالى :

وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ

فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٦) آية

قد مضى تفسير مثل هذه الآية فلا وجه لاعادته (١) وبيينا أنه خطاب للنبي ﷺ والمراد به الامة ، ينهاهم الله أن يعجبوا بما أعطى الله الكفار من الأموال والأولاد في الدنيا حتى يدعوهم ذلك الى الصلاة عليهم ، ولا ينبغي ان يغتروا بذلك فانما يريد الله ان يعذبهم بها في الدنيا ، لأنهم لا ينفقونها في طاعة الله ولا يخرجون حق الله منها . ويجوز أن يعذبهم بها في الدنيا بما يلحقهم فيها من المصائب والغموم وبما يأخذها المسلمون على وجه الغنيمة وبما يشق عليهم من إخراجها في الزكاة والاتفاق في سبيل الله مع اعتقادهم بطلان الاسلام وتشدد ذلك عليهم ويكون عذاباً لهم، وان نفوسهم تزهق اي تهلك بالموت « وهم كافرون » أي في حال كفرهم ، فلذلك عذبهم الله في الآخرة . والاعجاب هو ايجاد السرور بما يتعجب منه من عظيم الاحسان، تقول : اعجبني امره اعجاباً اذا سررت بموضع التعجب منه. والزهق خروج النفس بمشقة شديدة ومنه قوله « فاذا هو زاهق » (٢) أي هالك .

وقيل : في وجه حسن تكرار هذه الآية دفعتين قولان :

احدهما - قال ابو علي : يجوز أن تكون الآيتان في فريقين من المنافقين كما يقول القائل : لا يعجبك حال زيد ولا يعجبك حال عمرو .

الثاني - أن يكون الغرض البيان عن قوة هذا المعنى فيما ينبغي ان يحذر منه مع أنه للتذكير في موطنين بعد احدهما عن الآخر ، فيجب العناية به ، وليس ذلك بقبيح ، لأن الواحد منا يحسن به أن يقوم في مقام بعد مقام ، ويكرر الوعظ والزجر والتخويف ولا يكون ذلك قبيحاً .

(١) في تفسير آية ٥٦ من هذه السورة

(٢) سورة ٢١ الأنبياء آية ١٨

قوله تعالى

وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ
أُولُوا الطُّولِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٧) آية ٠

بين الله تعالى في هذه الآية أنه إذا أنزل سورة من القرآن على النبي ﷺ « أن آمنوا » ومعناه بأن آمنوا فحذفت الباء وجعل « أن آمنوا » في موضع نصب والتقدير بالايامن على وجه الأمر ولايجوز الحذف مع صريح المصدر ، وإنما جاز مع (أن) للزوم الصلته والحمل على التأويل في اللفظ كما حمل على المعنى . وهذا خطاب للامؤمنين وأمر لهم بأن يدوموا على الايمان ويتمسكوا به في مستقبل الأوقات ويدخل فيه المنافق ويتناوله الأمر بأن يستأنف الايمان ويترك النفاق ثم يجاهدوا بعد ذلك بنفوسهم وأموالهم لأنه لاينفعهم الجهاد مع النفاق .

وقوله « استأذنتك أولوا الطول » معناه أن ذري الغنى من المنافقين إذا أنزلت السورة يأمرهم فيها بالايامن والجهاد يستأذنون النبي ﷺ في القعود والتأخر عنه ، مع اعتقادهم بطلان الاسلام فيشد ذلك عليهم ويكون عذاباً لهم - وهو قول الحسن وابن عباس - فانهما قالا : إنما لحق هؤلاء الذم لأنهم أقوى على الجهاد . وقوله « وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين » اخبار منه تعالى أن هؤلاء المنافقين من ذري الغنى يقولون للنبي ﷺ : اتر كنا نكن مع القاعدين من الصبيان والزمنى والمرضى الذين لايقدرن على الخروج . قال الرماني : والسورة جملة من القرآن تشمل على آيات قد احاطت بها كما يحيط سور القصر بما فيه ، وسور الهر بقيته من الماء . والجهاد بالقتال دفعاً عن النفس معلوم حسنه عقلاً لأنه مر كوز في العقل وجوب التحرز من المضار ، وليس في العقل ما يدل على انه يجب على الانسان ان يمنع غيره من الظلم وإنما يعلم ذلك سمعاً .

قوله تعالى :

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٨) آية ٠

اخبر الله تعالى بأن هؤلاء الذين قالوا « ذرنا نكن مع القاعددين » من المنافقين رضوا لنفوسهم أن يكونوا مع الخوالم وهم النساء والصبيان والمرضى والمقعدون . قال الزجاج : الخوالم النساء لتخلفهن عن الجهاد ، ويجوز أن يكون جمع خالفة في الرجال ، والخالف والخالفة الذي هو غير نجيب ، ولم يأت في (فاعل) (فواعل) ستة إلا حرفين قولهم : فارس وفوارس . وهالك وهوالك . وقوله « وطبع على قلوبهم » قيل في معناه قولان :

احدهما - انه تعالى يجعل نكته سوداء في قلب المنافق والكافر لتكون علامة للملائكة يعرفون بها أنه ممن لا يفلح أبداً .

الثاني - أن يكون المراد بذلك الذم لها بأنها كالمطبوع عليها فلا يدخلها صبر ولا ينتفي عنها شر ، لأن حال الذم لها يقتضي صفات الذم ، كما أن حال المدح يقتضي صفات المدح ، كما قال جرير في قصيدة أولها :

أصبحوا أم فؤادك غير صاح عشية هم صحبك بالزواح

أستم خير من ركب المطايا واندى العالمين بطون راح (١)

ولاتحمل الاعلى المدح دون الاستفهام . والطبع في اللغة هو الختم تقول : طبعه وختمه بمعنى واحد .

قوله تعالى :

لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ

(١) مر تخريجه في ١/ ١٣٢ ، ٤٠٠ وقد مر في ٢/ ٣٢٧

وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٩) آية.

لما أخبر الله تعالى عن حال المتأخرين عن النبي ﷺ والقاعدين عن الجهاد معه وأنهم منافقون قد طبع على قلوبهم فهم لا يفقهون . أخبر عن الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين المطيعين لله ورسوله بأنهم يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم بالاموال التي ينفقونها في مرضاة الله وخدمة الجهاد ويقاتلون الكفار بتقوسهم . ثم أخبر عما أعد لهم من الجزاء على أفعالهم تلك وانقيادهم لله ورسوله ، فقال « أولئك » يعني النبي والذين معه « لهم الخيرات » في الجنة ونعيمها وخيراتها ، وانهم المفلحون ايضاً الفائزون بكرامة الله . والخيرات هي المنافع التي تسكن النفس اليها وترتاح بها من النساء الحسان وغيره من نعيم الجنان واحده خيرة - هذا قول ابي عبيدة - وقال رجل من بني عدي :

ولقد طعنت مجامع الربلات ربلات همد خيرة الملكات (١)
والفلاح النجاح بالوصول الى البغية من نجاح الحاجة وهو قضاؤها .

قوله تعالى :

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩٠) آية .

بين الله تعالى انه « أعد » لهؤلاء المؤمنين والرسول « جنات » يعني بساتين « تجري من تحتها » ومعناه من تحت اشجارها « الانهار » . والاعداد جعل الشيء مهيناً لغيره تقول : أعدت إعداراً واستعدت له استعداداً وهو من العدد ؛ لأنه قد أعدت الله جميع ما يحتاج الى تقديمه له من الامور ومثله الاتخاذ . والوجه في اعداد ذلك قبل مجيء وقت الجزاء أن تصوره لذلك ادعى الى الطاعة وآكد في الحرص علىها

(١) مجاز القرآن ١/ ٢٦٧ واللسان (خير) الربلة لحمة الفخذ

ويحتمل أن يكون المراد أنه سيجعل لهم جنات تجري من تحتها الأنهار غير أنه ترك للظاهر . وقوله « ذلك الفوز العظيم » اشارة الى ما أعده لهم واخبار منه بأنه الفوز العظيم . والفوز النجاة من الهلكة الى حال النعمة ، وسميت المهلكة مفازة تفاقولا بالنجاة وإنما وصفه بالعظيم لأنه حاصل على جهة الدوام .

قوله تعالى :

وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ
الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ (٩١) آية .

قرأ يعقوب وقتيبة (المعذرون) بسكون العين وتخفيف الـذال . الباقر
بفتح العين وتشديد الـذال ، وجه قراءة من قرأ بالتخفيف أنه اراد جاءوا بعـذر .
ومن قرأ بالتشديد احتمل أمرين : احدهما - انه اراد المعذرون ، كان لهم عذر
أولم يكن ، وإنما أدغم التاء في الـذال لقرب مخرجهما مثل قوله « يذكرون
ويذكرون » وغير ذلك ، وأصله يتذكرون . الثاني - انه أراد المقصرون ، والمعذر
المقصر ، والمعذر المبالغ الذي له عذر . وأما المعذر فانه يقال لمن له عذر و لمن
لا عذر له قال لبيد :

الى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر (١)
معناه جاء بعذر . وقال الزجاج : يجوز أن يكون المعذرون الذين يعتذرون
فيوهمون أن لهم عذراً ولاعذر لهم . وروي عن ابن عباس انه قرأ بالتخفيف ، وقال :
لعن الله المعذرين أراد من يعتذر بغير عـذر ، وبالتخفيف من بلغ أقصى العذر .

(١) ديوانه القصيدة : ٢١ ، وخزانة الأدب ٢ / ٢١٧ وتفسير الطبري ١١٩/١

وأصل التعذير التقصير مع طلب إقامة العذر ، عذر في الامر تعذيراً اذا لم يبالغ فيه . والفرق بين الاعتذار والتعذير ، أن الاعتذار قد يكون بعذر من غير تصحيح الأمر ، والتعذير تقصير يطلب معه إقامة العذر فيه . واختلفوا في معنى « وجاء المعذرون » على قولين : قال قتادة واختاره الجبائي : انه من عذر في الأمر تعذيراً إذا قصر . وقال مجاهد : جاء أهل العذر جملة على معنى المعتذرين . وقال الحسن : اعتذروا بالكذب . وقال قوم : إنما جاء بنو عفار ، خفاف بن ايماء بن رخصة وقومه . ومعنى الآية أن قوماً من الأعراب جاءوا الى النبي ﷺ يظهرون أنهم مؤمنون ولم يكن لهم في الايمان والجهاد نية فيعرضون نفوسهم عليه وغرضهم أن يأذن النبي ﷺ لهم في التخلف ، فجعلوا عرضهم أنفسهم عليه عذراً في التخلف عن الجهاد . وقوله « وقعد الذين كذبوا الله ورسوله » يعني المنافقين ، لأنهم الذين كذبوا الله ورسوله فيما كانوا يظهرون من الايمان ، فقال الله « سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم » اي ينالهم عذاب مؤلم موجه في الآخرة .

قوله تعالى :

لَيْسَ عَلَى الضَّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٢) آية .

عذر الله تعالى في هذه الآية من ذكره ووصفه ، فقال « ليس على الضعفاء » وهو جمع ضعيف ، وهو الذي قوته ناقصة بالزمانة وغيرها « ولا على المرضى » وهو جمع مريض وهم الاعلاء « ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون » يعني من ليس معه نفقة الخروج وآلة السفر « حرج » يعني ضيق وجناح . وأصل الضيق الذي يتعذر معه الامر . وقوله « اذا نصحوا لله ورسوله » شرط تعالى في رفع الجناح والاسم عن

المذكورين ان ينصحوا الله ورسوله بأن يخلصوا العمل من الغش، يقال : نصح في عمله نصحاً ، وناصح نفسه مناصحة؛ ومنه التوبة النصوح . ثم قال « ما على المحسنين من سبيل » أي ليس على من فعل الحسن الجميل طريق . والاحسان هو ايصال النفع الى الغير لينتفع به مع تعريه من وجوه القبح . ويصح أن يحسن الانسان الى نفسه ويحمل على ذلك ، وهو إذا فعل الأفعال الجميلة التي يستحق بها المدح والثواب . وقوله « والله غفور رحيم » معناه سائر على ذوي الاعذار بقبول العذر منهم «رحيم» بهم لا يلزمهم فوق طاقتهم . وقال قتادة : نزلت هذه الآية في عابد بن عمرو المزني وغيره . وقال ابن عباس : نزلت في عبد الله بن معقل المزني ، فانه وجماعة معه جاءوا الى رسول الله ﷺ فقالوا له : احملنا فقال رسول الله ﷺ لأجد ما احملكم عليه .

قوله تعالى

وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٣) آية .

هذه الآية عطف على الاولى والتقدير ليس على الذين جاءوك - وسألوك حملهم حيث لم يكن لهم حملان ، فقلت لهم يا محمد « لا أجد ما أحملكم عليه » اي ليس لي حملان فحيث « تولوا وأعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ » يكون « حزنًا أن لا يجدوا ما ينفقون » في هذا الطريق ويتابعونك - حرج وأثم ولا ضيق وإنما حذف لدلالة الكلام عليه . والحمل إعطاء المر كوب من فرس أو بعير أو غير ذلك تقول حملة يحمله حملا إذا أعطاه ما يحمل عليه . وحمل على ظهره حملا ، وحمله الأمر تحميلا وتحمل حملا ، واحتمله احتمالا ، وتحامل تحاملا . واللام في قوله « لتحملهم »

لام الغرض ، والمعنى جاؤك وأرادوا منك حملهم وتقول : وجدت في المسال و جداً
وجدة ، ووجدت الضالة وجداناً ووجدت عليه - من الموجودة - رجداً . والفيض
الجرى عن امتلاء من حزن قلوبهم ، والحزن ألم في القلب لفوت أمر مأخوذ من حزن
الأرض وهي الغليظة المسلك.

وقال مجاهد : نزلت هذه الآية في نفر من مزينة ، وقال محمد بن كعب القرطبي
وابن اسحاق : نزلت في سبعة نفر من قبائل شتى . وقال الحسن : نزلت في ابي
موسى واصحابه . وقال الواقدي : البكاؤن سبعة من فقراء الأنصار ، فلما بكوا حمل
عثمان منهم رجلين ، والعباس بن عبد المطلب رجلين ، ويامين بن كعب بن نسيب
النصري من بني النضير ثلاثة ، ومن جملة البكائين عبد الله بن معقل . وقال الواقدي :
كان الناس بتبوك ثلاثين ألفاً ، وعشرة آلاف فارس .

قوله تعالى .

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن
يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٤) آية.

بين الله تعالى في هذه الآية ان السبيل والطريق بالعقاب والخرج انما هو
للذين يطلبون الاذن من رسول الله في المقام ، وهم مع ذلك اغنياء يتمكنون من
الجهاد في سبيل الله ، الراضين بكونهم مع الخوالف من النساء والصبيان ومن لاجراك
به . ثم قال : وطبع الله على قلوبهم بمعنى وسم قلوبهم بسمه تعرفها المسألة
فيميزون بينهم وبين غيرهم من المؤمنين ، ويحتمل أن يكون المراد انه بمنزلة
المطبوع في أن لا يدخلها الايمان كما لو طبعوا على الكفر . ومثله قوله « صم بكم
عمي » ومعناه لترك تلفظهم بالحق وعدولهم عن سماع الحق وانصرافهم عن النظر الى
الصحيح كأنهم صم بكم عمي ، وهم لا يعلمون ذلك ، ولا يدرون الى ما يصير أمرهم من

عقاب الابد ، ولا يعرفون ما يلزمهم من احكام الشرع ما يعرفه المؤمنون . وقال البلخي : معناه لانهم للخلاف والمعصية كأنهم لا يعلمون ، والتقدير ان حكم هؤلاء المذكورين بهذه الاوصاف بخلاف من قد تحصن من العقاب بالايمان ، لأنهم قد فتحوا على انفسهم ابواب العذاب .

قوله تعالى :

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ
تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ
وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٥) آية .

اخبر الله تعالى ان هؤلاء القوم الذين تأخروا عن الخروج مع النبي ﷺ من غير عذر كان يبيحهم ذلك اذا عاد النبي ﷺ والمؤمنون إنهم كانوا يجيئون اليهم ويعتذرون اليهم عن تأخرهم بالأباطيل والكذب ، فقال الله تعالى لنبيه : قل يا محمد لهم « لا تعتذروا » فلسنا نصدقكم على ما تقولون ، فان الله تعالى قد اخبرنا من اخباركم واعلمنا من امركم ما قد علمنا به كذبكم « وسيرى الله عملكم ورسوله » أي سيعلم الله فيما بعد عملكم هل تتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه ؟ ويحتمل أن يكون المراد أنه يحل في الظهور محل ما يرى « ثم تردون » اي ترجعون الى من يعلم الغيب والشهادة يعني السر والعلانية الذي لا يخفى عليه بواطن أموركم « فينبئكم بما كنتم تعملون » أي فيخبركم باعمالكم كلها حسنها وقبيحها فيجازيكم عليها أجمع .

والاعتذار اظهار ما يقتضي العذر ويمكن ان يكون صحيحاً ويمكن ان يكون فاسداً كاعتذار هؤلاء المنافقين . والفرق بين الاعتذار والتوبة ان التوبة اقلع عن

سيئة قد وقعت ، والاعتذار اظهار ما يقتضي انها لم تقع ، ولذلك يجوز ان يتوب الى الله ولايجوز ان يعتذر اليه . والاعتذار الذي له قبول هو ما كان صاحبه محقاً ، فأما الاعتذار بالباطل فهو أسوء لحال صاحبه قال الشاعر :

إذا اعتذر الجاني مح العذر ذنبه و كل امرئ لا يقبل العذر مذنب (١)

قوله تعالى

سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ
فَاعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءَ بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ (٩٦) آية .

أخبر الله تعالى عن هؤلاء الذين يعتذرون بالباطل الى النبي والمؤمنين في تأخرهم عن الخروج معهم أنهم سيقسمون أيضا على ذلك للمؤمنين « اذا انقلبتم اليهم » يعني اذا رجعتم اليهم « لتعرضوا عنهم » اي لتصفحوا عنهم ولا توبخوهم ولا تعنفوهم . ثم أمر الله تعالى المؤمنين والنبي ﷺ أن يعرضوا عنهم اعراض المقت وبين « انهم رجس » اي هم كالنتن في قبحة وهم انجاس ويقال : رجس نجس على الاتباع ، وان « مأواهم » يعني مصيرهم ومآلهم ومستقرهم « جهنم جزاء » اي مكافاة على ما كانوا يكسبونه من المعاصي . والجزاء مقابلة العمل بما يقتضيه من خير او شر . قال احمد بن يحيى ثعلب : اللام في قوله « لتعرضوا عنهم » ليست لام غرض وانما معناه لاعراضكم ، وانما علق - هاهنا - بذلك لئلا يتوهم أنه اذا رضي المؤمنون فقد رضي الله عنهم أيضاً فذكر ذلك ليزول هذا الالباس لأن المنافقين لم يحلفوا لهم لكي يعرضوا ، ولكنهم حلفوا تبرئاً من النفاق و لاعراض المسلمين عنهم وأنشد:

سموت ولم تكن أهلا لتسمو ولكن المضيع قد يصاب

أراد ما كنت أهلاً للمسو

قوله تعالى :

يَخْلَفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنِ اللَّهُ
لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٧) آية .

بين الله تعالى أن هؤلاء المنافقين يقسمون بالله طلباً لمرضاةكم عنهم « فان ترضوا » ايها المؤمنون « عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » الخارجين من طاعته الى معصيته ، والمعنى انه لا يتفهم رضاكم مع سخط الله عليهم وارتفاع رضاه عنهم : رضي المؤمنون عنهم او لم يرضوا ، وانما علقها هنا بذلك لثلاث يتوهم أنه اذا رضي المؤمنون فقد رضي الله عنهم أيضاً ، فذكر ذلك ليزول هذا الالباس ولأن المراد بذلك انه اذا كان الله لا يرضى عنهم فينبغي لكم ايضاً أن لا ترضوا عنهم .

قوله تعالى :

أَلَا عَرَابٌ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا نَزَلَ
اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٨) آية .

أخبر الله تعالى في هذه الآية أن الاعراب الجفاة الذين لا يعرفون الله ورسوله حق معرفتهما أشد كُفْرًا وَنِفَاقًا وجحوداً لنعم الله ، وأعظم نفاقاً من غيرهم . وقيل : انها نزلت في اعراب كانوا حول المدينة من اسد وغطفان ، فكفرهم اشد ، لأنهم أقصى وأجفى من أهل المدن ، ولأنهم أبعد عن سماع التنزيل ومخالطة أهل العلم والفضل ، ويقال : رجل عربي إذا كان من العرب وإن سكن البلاد ، وإعرابي اذا كان ساكناً في البادية . وروي أن زيد بن صوحان كانت يده اليسرى قد قطعت يوم اليمامة وكان قاعداً يوماً يروي الحديث والى جانبه إعرابي ، فقال له : ان حديثك

يعجبني وان يدك تربييني فقال زيد : إنها الشمال، فقال : والله ما أدري اليمين يقطعون أو الشمال ، فقال زيد : صدق الله ، وقرأ « الأعراب أشد كفرًا » الآية .
 وقوله « وأجدر » معناه أخلق وأولى وأقرب الى « أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله » من الشرائع والأحكام . وموضع (أن) نصب لأن تقديره أجدر بأن ، فحذف الباء فانصب ، وتقديره أجدر بترك العلم غير أن الباء لاتحذف مع المصدر الصريح ، وإنما تحذف مع (أن) للزوم العلم بها وحملها على التأويل .
 و(أجدر) مأخوذ من جدر الحائط . وقوله « والله عليم حكيم » معناه عالم بأحوالهم وبواطنهم حكيم فيما يحكمم به عليهم من الكفر وغير ذلك من أفعاله .

قوله تعالى :

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبُّصُ بِكُمْ
 الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٩) آية .

قرأ ابن كثير وابو عمرو « دائرة السوء » بضم السين . الباقون بفتح السين من فتح أراد المصدر ، وإنما أضاف الدائرة الى السوء تأكيداً كما يقال : عيني رأسه وشمس النهار ، تقول : سؤته أسوء سوءاً ومساءة ومسائمة ، وقوله « ما كان أبوك امرأ سوء » (١) لا يجوز فيد غير فتح السين ، وكذلك في قوله « ووطنتم ظن السوء » (٢) لأن الضم بمعنى الاسم ، وتقديره عليهم دائرة العذاب والبلاء .
 أخبر الله تعالى ان من جملة هؤلاء المنافقين من الأعراب من يتخذ ما ينفقه في الجهاد وغيره من طرق الخير « مغرمًا » اي غرمًا من قولهم : غرمته غرمًا وغرامة . والغرم لزوم نائبة في المال من غير جنائية ، ومنه قرله « من مغرم مثقلون » (٣)

(١) سورة ١٩ مريم آية ٢٨ . (٢) سورة ٤٨ الفتح آية ١٢

(٣) سورة ٥٢ الطور آية ٤٠ وسورة ٦٨ القلم آية ٤٦ .

وأصل المغرم لزوم الأمر ، ومنه قوله « إن عذابها كان غراما » (١) أي لازما ، وحبّ غرام أي لازم ، والغريم كل واحد من المتدينين ، وغرّمته كذا الزمته إياه في ماله . وقوله « ويطربص بكم الدوائر » فالتربص التمسك بالشيء لعاقبة ومنه التربص بالطعام لزيادة السعر ، فهؤلاء يتربصون بالمؤمنين لعاقبة من الدوائر . والدائرة جمعها دوائر وهي العواقب المذمومة . وقال الفراء والزجاج : كانوا يتربصون بهم الموت والقتل ، وإنما خص رفع النعمة بالدوائر دون رفع النعمة ، لأن النعمة أغلب واعم لأن كل واحد لا يخلو من نعم الله وليس كذلك النعمة ، لأنها خاصة . والنعمة عامة . وقد قيل : دارت لهم الدنيا بخلاف دارت عليهم . ثم قال تعالى « عليهم دائرة السوء » يعني على هؤلاء المنافقين دائرة العذاب والبلاء - في قراءة من قرأ بالضم - وقوله « والله سميع عليم » معناه - ها هنا - انه يسمع ما يقوله هؤلاء المنافقون ويعلم بواطن أمورهم ، ولا يخفى عليه شيء من حالهم وحال غيرهم .

قوله تعالى

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ
قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ
اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٠) آية .

قرأ ورش واسماعيل « قربة » بضم الراء ، اتبع الضمة التي قبلها . وقال ابو علي : لا يجوز ان يكون اتباعاً لما قبله لأن ذلك إنما يجوز في الوقف آخر الكلم وإنما الضمة فيها الأصل ، وإنما خففت في قولهم : رسل وطنب ، فقالوا : رسل وطنب فاذا جمع فلا يجوز فيه غير ضم الراء ، لأن الحركة الأصلية لا بد من ردها في الجمع .

لما ذكر الله تعالى ان من جملة الأعراب من يتخذ انفاقه في سبيل الله مغرمًا ذكر ان من جملتهم ايضاً « من يؤمن بالله » اي يصدق به وباليوم الآخر يعني يوم القيامة، وانه يتخذ ما ينفقه في سبيل الله قربات عند الله . قال الزجاج : يجوز في (قربات) ثلاثة اوجه - ضم الراء وإسكانها وفتحها - وما قرئ إلا بالضم ، والقربة هي طلب الثواب والكرامة من الله تعالى بحسن الطاعة ، وهي تدني من رحمة الله والتقدير انه يتخذ نفقته وصلوات الرسول اي دعاءه له قربة الى الله . وقال ابن عباس والحسن : معنى وصلوات الرسول استغفاره لهم ، وقال قتادة : معناه دعاؤه بالخير والبركة قال الاعشى :

تقول بنتي وقد قرّبت مرتجلاً ياربّ جنب ابني الاوصاب والوجعا
عليك مثل الذي صليت فاعتمضي نوماً فان لجنب المرء مضجعاً (١)

ثم قال « ألا إنها » يعني صلوات الرسول « قربة لهم -م » اي تقربهم الى ثواب الله . ويحتمل ان يكون المراد ان نفقتهم قربة الى الله . وقوله « سيدخلهم الله في رحمته » وعده منه لهم بان يرحمهم ويدخلهم فيها ، وفيه مبالغة ، فان الرحمة وسعتهم وغمرتهم ، ولو قال فيهم رحمة الله لأفاد انهم اتسعوا للرحمة من الله تعالى وقوله « إن الله غفور رحيم » معناه إنه يستر كثيراً على العصاة ذنوبهم ولا يفضحهم بها لرحمته بخلقه « وغفور رحيم » جميعاً من الفاظ المبالغة فيما وصف به نفسه من المغفرة والرحمة .

قوله تعالى :

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ
اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ

جَنَاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠١) آية .

قرأ ابن كثير وحده « جنات تجري من تحتها » باثبات (من) وكذلك هو في مصاحف أهل مكة . الباقيون بحذف (من) و نصبوا تحتها على الظرف . وقرأ يعقوب « والأنصار والذين » بضم الراء . الباقيون بجرها . من رفع عطف على قوله « والسابقون الأولون » ورفع على الابتداء والخبر قوله « رضي الله عنهم » . ومن جرّ عطفه على « المهاجرين » كأنه قال : من المهاجرين ومن الأنصار . ومن اثبت (من) فلائن في القرآن مواضع لا تحصى « جنات تجري من تحتها » ومن أسقطها تبع مصحف غير أهل مكة . والمعنى واحد .

أخبر الله تعالى أن الذين سبقوا أولاً إلى الإيمان بالله ورسوله والاقرار بهما من الذين هاجروا من مكة إلى المدينة وإلى الحبشة ، ومن الأنصار الذين سبقوا لإلا غيرهم إلى الإسلام من نظرائهم من أهل المدينة ، والذين تبعوا هؤلاء بأفعال الخير والدخول في الإسلام بعدهم وسلوكهم منهاجهم . وقال القراء : يدخل في ذلك من يجيء بعدهم إلى يوم القيامة . وقال الزجاج : مثله .

ثم أخبر أن الله رضي عنهم ورضي أفعالهم ورضوا هم أيضاً عن الله لما أجزل لهم من الثواب على طاعتهم وإيمانهم به وبنييه . والسبق كون الشيء قبل غيره . ومنه قيل في الخيل السابق ، والمصلي هو الذي يجيء في أثر السابق يتبع صلاه . وإنما كان السابق إلى الخير أفضل لأنه راع إليه بسبقه - والثاني تابع - فهو امام فيه وكذلك من سبق إلى الشر كان أسوأ حالاً لهذه العلة . والاتباع طلب الثاني لحال الأول أن يكون على مثلها على ما يصح ويجوز ، ومثل ذلك الإقتداء . والاحسان هو النفع الواصل إلى الغير مع تعريه من وجوه القبح . فأما قولهم أحسن فمن فعله فقد يكون بفعل النفع وبفعل الضرر ، لأنه تعالى إذا فعل في الآخرة العقاب يقال

إنه أحسن لكن لا يقال : أحسن اليه . وقوله « واعدلهم جنات تجري تحتها الأنهار » اخبار منه تعالى انه مع رضاه عنهم ورضاهم عنه أعد لهم الجنات يعني البساتين التي تجري تحت اشجارها الأنهار ، وقيل : ان انهارها اخاريد في الأرض فلذلك قال : تحتها « خالد بن خديجة فيها ابدأ » اي يبقون فيها بقاء الله لا يفنون ، منعمين . وقوله « ذلك الفوز العظيم » معناه إن ذلك النعيم الذي ذكره هو الفلاح العظيم الذي تصغر في جنبه كل نعمة .

واختلفوا فيمن نزلت فيه هذه الآية ، فقال ابو موسى وسعيد بن المسيب وابن سيرين وقتادة : نزلت فيمن صلى القبليتين ، وقال الشعبي : نزلت فيمن بايع بيعة الرضوان وهي بيعة الحديبية ، وقال : من اسلم بعد ذلك وهاجر فليس من المهاجرين الأولين . وقال ابو علي الجبائي : نزلت في الذين أسلموا قبل الهجرة . وروي أن عمر قرأ « والأنصار » بالرفع « الذين اتبعوهم » باسقاط الواو ، فقال أبي : والذين اتبعوهم بأمر المؤمنين فرجعوا الى قوله .

قوله تعالى :

وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمَنْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ
مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا يَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنَعْدُهُمْ مَرَّتَيْنِ
ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠٢) آية .

معنى قوله « وممن حولكم » من جملة من حولكم يعني حول مدينتكم وحول الشيء المحيط به ، وهو مأخوذ من حال يحول إذا دار بالانقلاب . ومنه المجازة لأنها تدور في المحول . وقوله « من الأعراب » والأعراب هم الذين يسكنون البادية إذا كانوا مطبوعين على العربية وليس واحد منهم عرباً ، لأن العرب قد يكونوا حاضرة والأعراب بادية . وقوله « منافقون » معناه من يظهر الايمان ويبطن الكفر « ومن

أهل المدينة» أيضاً منافقون ، وإنما حذف لدلالة الأول عليه « مردوا على النفاق» يقال : مرد على الشيء يمرده مروداً فهو مرد ومروداً فهو مرد ومريد إذاءتا وطغى وأعيا خبئاً، ومنه (شيطان مرد ، ومريد) . وقال ابن زيد : معناه أقلموا عليه لم يتوبوا كما تاب غيرهم . وقال ابن اسحاق : معناه لجوا فيه وأبوا غيره . وقال الفراء : معناه مرنوا عليه وتجرعوا عليه . وقال الزجاج : فيه تقديم وتأخير والتقدير وهم من حولكم من الأعراب منافقون مردوا على النفاق ومن أهل المدينة أيضاً مثل ذلك . وأصل المرود الملاسة . ومنه قوله « صرح ممرد من قوارير » (١) أي مملس ومنه الأمر الذي لا شعر على وجهه ، والمرودة والمرداء الرملة التي لا تنبت شيئاً، والتمراد بيت صغير يتخذ للحمام مملس بالطين ، والمرداء الصخرة الملساء « لاتعلمهم » معناه لاتعرفهم ياخذ « نحن نعلمهم » أي نعرفهم .

وقوله : « سنعذبهم مرتين » قيل في معناه أقوال :

أحدها - قال الحسن وقتادة والجبائي : يعني في الدنيا وفي القبر . وقال ابن عباس : نعذبهم في الدنيا بالفضيحة لأن النبي ﷺ ذكر رجالاً منهم وأخرجهم من المسجد يوم الجمعة في خطبته قال : أخرجوا فانكم منافقون ، والآخرى في القبر . وقال مجاهد : يعني في الدنيا بالقتل والسبي والجوع . وفي رواية أخرى عن ابن عباس : أن إحداهما إقامة الحدود عليهم ، والآخرى عذاب القبر . وقال الحسن : إحداهما أخذ الزكاة منهم ؛ والآخرى عذاب القبر . وقال ابن اسحاق : إحداهما غيظهم من أهل الإسلام ، والآخرى عذاب القبر . وكل ذلك محتمل غير أننا نعلم أن المرتين معاً قبل أن يردوا إلى عذاب النار يوم القيامة . وقوله « ثم يردون إلى عذاب عظيم » معناه ثم يرجعون يوم القيامة إلى عذاب عظيم مؤبد في النار . وروى أن الآية نزلت في عبيدة بن حصين وأصحابه .

(١) سورة ٢٧ النمل آية ٤٤ .

قوله تعالى :

وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا
عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٣) آية .

روي عن ابن عباس أنه قال : نزلت هذه الآية في عشرة أنفس تخلفوا عن غزوة تبوك فيهم أبو لبابة ، فربط سبعة منهم أنفسهم الى سواري المسجد الى أن قبلت توبتهم . وقيل : كانوا سبعة منهم ابو لبابة . وقال ابو جعفر عليه السلام : نزلت في ابي لبابة ، ولم يذكر غيره ، وكان سبب نزولها فيه ما جرى منه في غزوة بني قريظة وبه قال مجاهد . وقال الزهري : نزلت في أبي لبابة خاصة حين تأخر عن تبوك . واكثر المفسرين ذكروا أن أبا لبابة كان من جملة المتأخرين عن تبوك . وروي عن ابن عباس أنها نزلت في قوم من الأعراب . وقيل : نزلت في خمسة عشر نفساً ممن تأخر عن تبوك .

هذه الآية عطف على قوله « ومن أهل المدينة » أي ومنهم « آخرون اعترفوا بذنوبهم » أي أقروا بهامع معرفتهم بها فان الاعتراف هو الاقرار بالشيء عن معرفة ، والاقرار مشتق من قر الشيء إذا ثبت . والاعتراف من المعرفة . وقوله « خلطوا عملاً صالحاً و آخر سيئاً » معناه انهم يفعلون افعالاً جميلة ، ويفعلون افعالاً سيئة قبيحة . فيجتمعان ، وذلك يدل على بطلان القول بالاحباط . لأنه لو كان صحيحاً لكان أحدهما إذا طرأ على الآخر أحببته . فلا يجتمعان ، فكيف يكون خلطاً . وقوله « عسى الله ان يتوب عليهم » قال الحسن وكثير من المفسرين : إن (عسى) من الله واجبة . وقال قوم : انما قال (عسى) حتى يكونوا على طمع واشفاق فيكون ذلك أبعس من الاتكال على العفو واهمال التوبة . والتقدير في قوله « خلطوا عملاً صالحاً و آخر سيئاً » اي بآخر سيء ومثله قولك : خلطت الماء واللبن

اي بالبن . وقد يستعمل ذلك في الجمع من غير امتزاج كقولهم : خلطت الدراهم والدنانير . وقال قوم : هو يجري مجرى قولهم : استوى الماء والخشبة اي مع الخشبة . وقال اهل اللغة : خلط في الخير ، مخففاً وخلط في الشر مشدداً . وقوله « ان الله غفور رحيم » تعليق لقبول التوبة من العصاة لأنه غفور رحيم .

قوله تعالى :

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ
إِنْ صَلَاتُكَ سَكَنَ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٤) آية .

قرأ اهل الكوفة الا ابا بكر « إن صلاتك » على التوحيد ونصب التاء . الباقون على الجمع وكسر التاء ، لأنه جمع السلامة . فمن قرأ على التوحيد فلا أنه مصدر يقع على القليل والكثير ، فلا يحتاج الى جمعه . ومثله « لصوت الحمير » (١) ومما ورد في القرآن بلفظ التوحيد والمراد به الجمع قوله « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء » (٢) وقوله « أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » (٣) ومن جمع فلاختلاف الصلاة ، كما ان قوله « ان انكر الأصوات » (٤) جمع لاختلاف ضروبه والصلاة في اللغة الدعاء قال الأعشى في الخمر :

وقابلها الريح في دنها وصلّى على دنها وارتسم (٥)

ومعنى « صلّ عليهم » ادع لهم ، فان دعائك سكن لهم بمعنى تسكن اليه

(١) سورة ٣١ لقمان آية ١٩ (٢) سورة ٨ الانفال آية ٣٥

(٣) سورة ٤ النساء آية ٧٦ وسورة ٢٢ الحج آية ٧٨ وسورة ٢٤ النور آية ٥٦

وسورة ٥٨ المجادلة آية ١٣ وسورة ٧٣ المزمل آية ٢٠

(٤) سورة ٣١ لقمان آية ١٩

(٥) ديوانه : ٢٩ القصيدة ٤ وقد سلف في ١/٥٦ ، ١٩٣

نفوسهم وتطيب به ، ولفظ التوحيد - ها هنا - أحسن لأن المراد دعاء النبي ﷺ لهم لا أداء الصلوات ، والجمع على ضروب دعائه . وقولهم : صلى الله على رسول الله وعلى ملائكته ، ولا يقال : إنه دعاء لهم من الله كما لا يقال في نحو (ويل للمكذبين) أنه دعاء عليهم ، لكن المعنى أن هؤلاء ممن يستحق عندكم أن يقال فيهم هذا اللغو من الكلام . ومثله قوله « بل عجبنا ويسخرون » (١) فيمن ضم التاء هذا منذهب سيئويه ، وذكر الغراء وغيره أن هؤلاء الذين تابوا وأفلحوا قالوا للرسول : خذ من أموالنا ما تريد ، فقال رسول الله : لأفعل حتى يؤذن لي فيه ، فأنزل الله « خذ من أموالهم صدقة » فأخذ منهم بعضاً وترك الباقي وروي ذلك عن ابن عباس وزيد بن اسلم وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك ، وهي في أبي لبابة وجد بن قيس وأوس وحذام . وقوله « خذ من أموالهم صدقة » أمر من الله تعالى أن يأخذ من المالكين لئساب الزكاة : الوزق إذا بلغ مئنين ، والذهب إذا بلغ عشرين مثقالاً ، والابل إذا بلغت خمساً ، والبقر إذا بلغت ثلاثين ، والغنم إذا بلغت أربعين . والغلات إذا بلغت خمسة أوسق .

وقوله « خذ من أموالهم » يدل على أن الأخذ من اختلاف الأموال ، لأنه جمعه . ولو قال : خذ من مالهم أفاد وجوب الأخذ من جنس واحد متفق . و(من) دخلت للتبويض ، فكأنه قال : خذ بعض مختلف الأموال . وظاهر الآية لا يدل على أنه يجب أن يأخذ من كل صنف لأنه لو أخذ من صنف واحد لكان قد أخذ بعض الأموال وإنما يعلم ذلك بدليل آخر . والصدقة عطية ماله قيمة للفقير والحاجة . والبر عطية لاجتلاب المودة . ومثله الصلة .

وقوله « تطهرهم وتزكئهم بها » إنما ارتفع (تطهرهم) لاحد امرين : احدهما - ان تكون صفة للصدقة وتكون التاء للتأنيث ، وقوله « بها » تبين له والتقدير صدقة مطهرة .

والثاني - أن تكون التاء خطاباً للنبي ﷺ والتقدير فانك تطهرهم بها، وهو صفة للمصدقة ايضاً الا انه اجتمأ بذكر (بها) في الثاني عن الاول . وقيل : انه يجوز ان يكون على الاستئناف ، وحمله على الاتصال أولى ، ولا يجوز ان يكون جواباً للامر لانه لو كان كذلك لكان مجزوماً . وقوله « وتزكئهم » تقديره وأنت تزكئهم على الاستئناف . وقيل في هذه الصدقة قولان : قال الحسن : انها هي كفارة الذنوب التي أصابوها ، وقال أبو علي : هي الزكاة الواجبة . وأصل التطهير إزالة النجس ، والمراد - ها هنا - إزالة النجس : الذنوب بما يكفرها من الطاعة . وقوله « وصل عليهم » أمر من الله تعالى للنبي أن يدعو لمن يأخذ منه الصدقة . وقال الجبائي : يجب ذلك على كل ساع يجمع الزكوات ان يدعوا لصاحبها بالخير والبركة ، كما فعل رسول الله ﷺ . وقوله « والله سميع عليم » معناه انه تعالى يسمع دعائك لهم بنياتهم في الصدقة التي يخرجونها .

قوله تعالى :

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ
الْصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٥) آية .

الالف في قوله « ألم يعلموا » الف استفهام والمراد بها التنبيه على ما يجب ان يعلم المخاطب اذا رجع الى نفسه وفكر فيما نبه عليه علم وجوباً . وإنما وجب ان يعلم ان الله يقبل التوبة ، لانه اذا علم ذلك كان ذلك داعياً له الى فعل التوبة والتمسك بها والمسارة اليها ، وما هذه صورته وجب عليه ان يعلمه ليتخلص به من العقاب ويحصل له الثواب . وسبب ذلك انهم لما سألوا النبي ﷺ ان يأخذ من مالهم ما يكون كفارة لذنوبهم فامتنع النبي من ذلك وقال : حتى يؤذن لي فيه فبين الله تعالى انه ليس الى النبي قبول توبتكم وان ذلك الى الله تعالى دونه ، فانه

الذي يقبل التوبة ويقبل الصدقات . وفعل التوبة يستحق به الثواب لانها طاعة . فأما اسقاط عقاب المعاصي المتقدمة عندها فالعقل لا يوجب ذلك . وانما علم ذلك سمعاً لان السمع قطع العذر بأن الله يسقط العقاب عند التوبة الصحيحة . وقد بينا في غير موضع فيما تقدم ان التوبة التي يسقط العقاب عندها قطعاً هي الندم على القبيح والعزم على ان لا يعود الى مثله في القبح ، لان الامة مجمعة على سقوط العقاب عند هذه التوبة وفيما خالف هذه التوبة خلاف .

وقوله « ويأخذ الصدقات » معناه انه يأخذها يتضمن الجزاء عليها كما تؤخذ الهدية كذلك . وقال ابو علي الجبائي : جعل الله أخذ النبي ﷺ والمؤمنين المصدقة أخذاً من الله على وجه التشبيد والمجاز ، من حيث كان بأمره . وقد روي عن النبي ﷺ ان الصدقة قد تقع في يد الله قبل ان تصل الى يد السائل : والمراد بذلك انها تنزل هذا التنزيل ترغيباً للعباد في فعلها ، وذلك يرجع الى تضمن الجزاء عليها .

وقوله « وان الله هو التواب الرحيم » عطف على قوله « السم يعلموا » ولذلك فتح (أن) لانها مفعول به . والتواب في صفة الله معناه انه يقبل التوبة كثيراً وفي صفة العبد يفيد انه يفعل التوبة كثيراً وقيل في معنى « وتاب الله عليكم » (١) صفح عنكم ولم يكونوا اذنبوا فيتوبوا ليتوب الله عليهم وكذلك قوله « علم الله انكم كنتم تخانون انفسكم فتاب عليكم » (٢) بمعنى صفح لانهم لم يتوبوا

قوله تعالى

وَقُلِ اَعْمَلُوا فَيَسِيرَ اِلَيْكُمْ اَعْمَالُكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ
وَسَتُرَدُّونَ اِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ (١٠٦) آية .

هذا امر من الله تعالى لنبيه ﷺ أن يقول للمكلفين «اعملوا» ما أمركم الله به من الطاعة واجتنبوا معاصي فان الله «سرى عملكم ورسوله واطؤمنون» وفي ذلك ضرب من التهديد، كما قال مجاهد، والمراد بالرؤية هنا العلم الذي هو المعرفة ولذلك عداه الى مفعول واحد، ولو كان بمعنى العلم الذي ليس بمعرفة لتمدى الى مفعولين، وليس لأحد أن يقول: ان اعمال العباد من الحركات يصح رؤيتها لمكان هذه الآية، لأنه لو كان المراد بها العلم لعداه الى الجملة وذلك أن العلم الذي يتعدى الى مفعولين ما كان بمعنى الظن، وذلك لا يجوز على الله وإنما يجوز عليه ما كان بمعنى المعرفة. وروى في الخبر أن أعمال العباد تعرض على النبي ﷺ في كل اثنين وخميس فيعلمها. وكذلك تعرض على الأمة ﷺ فيعرفونها، وهم المعنيون بقوله «والمؤمنون»، وإنما قال «فسرى الله» على وجه الاستقبال، وهو عالم بالأشياء قبل وجودها. لأن المراد بذلك انه سيعلمها موجودة بعد أن علمها معدومة وكونه عالماً بأنها ستوجد من كونه عالماً بوجودها إذا وجدت لا يجدد حاله بذلك. وقوله «وستردون الى عالم الغيب والشهادة» معناه سترجعون الى الله الذي بعلم السر والعلانية «فينبئكم» اي يخبركم «بما كنتم تعملون» ويجازيكم عليه.

قوله تعالى :

وَأَخْرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٧) آية .

قرأ أهل المدينة عن أبي بكر «مرجون» بغير همزة . الباقون بالهمزة . والوجه فيهما أنهما لغتان ويقال : أرجأت وأرجيت بمعنى واحد . وهذه الآية عطف على قوله «ومن أهل المدينة مردوا على النفاق وآخرون اعترفوا بذنوبهم وآخرون مرجون لأمر الله» والارجاء تأخير الامر

الى وقت، يقال : أرجأت الأمر إرجاء وأرجيته بالهمزة وترك الهمزة لغتان .
وقوله « اما يعذبهم وإما يتوب عليهم » فلفظة (إِما) لوقوع أحمد الشيبين
والله اعلم بما يصير اليه امرهم إلا ان هذا للعبار ، خوطبوا بما يعلمون . والمعنى
وليكن امرهم عندكم على هذا اي على الخوف والرجاء . والآية تدل على صحة
قولنا في جواز العفو عن العصاة ، لأنه تعالى بين ان قوماً من هؤلاء العصاة أمرهم
مرجأ الى الله : ان شاء عذبهم وان شاء قبل توبتهم فعفا عنهم . فلو كان سقوط العقاب
عند التوبة واجباً ، لما جاز تعليق ذلك بالمشيئة على وجه التخيير ، لأنهم ان تابوا
وجب قبول توبتهم عند الخصم واسقاط العقاب عنهم ، وان أصروا ولم يتوبوا فلا
يعفي عنهم ، فلا معنى للتخيير - على قولهم - وانما يصح ذلك على ما نقوله : من أن
مع حصول التوبة تحسن المؤاخذة فان عفا بفضله وان عاقب فبعده . وقوله
« وإما يتوب عليهم » معناه وإما يقبل توبتهم . وقوله « والله عليم حكيم » معناه
عالم بما يؤل اليه حالهم « حكيم » فيما يفعله بهم . والفرق بين الآخر والآخِر
أن الآخِر يفيد أنه بعد الأول ، والآخِر مقابل لأحد في تفصيل ذكر اثنين احدهما
كذا والآخِر كذا .

وقال مجاهد وقتادة : الآية نزلت في هلال بن امية الرافعي وفزارة بن ربيعي
وكعب بن مالك من الاوس والخزرج ، وكان كعب بن مالك رجل صدق غير مطعون
عليه ، وانما تخلف توائماً عن الاستعداد حتى فاته المسير وانصرف رسول الله ولم
يعتذر اليه بالكذب . وقال : والله مالي من عذر ، فقال ﷺ : صدقت فقم حتى
يقضي الله فيك . وجاء الرجلان الآخران فقالا مثل ذلك وصدقاً ، فنهى رسول
الله ﷺ عن كلامهم بعد ما عذر المنافقين وجميع المتخلفين ، وكانوا نيفاً وثمانين
رجلاً فاقام هؤلاء الثلاثة على ذلك خمسين ليلة حتى هجرهم ولدانهم ونساؤهم
طاعة لرسول الله ﷺ بأمره . وبى كعب خيمة على سلع يكون فيها وحده . وقال
في ذلك :

أبعد دور بني القين الكرام وما شادوا علي بنيت البيت من سعف
ثم نزلت التوبة عليهم في الليل فأصبح المسلمون يبتدرونهم يبشرونهم ، قال
كعب : فجئت الى رسول الله في المسجد وكان إذا سر يستبشر كأن وجهه فلقه قمر
فقال لي ووجهه يمرق من السرور : ابشر بخير يوم طلع عليك شرفه منذ ولدتك
أملك قال كعب ، فقلت له : أمن عند الله او من عندك يا رسول الله ؟ قال فقال : من
عند الله . وتصديق كعب بثلاث ماله شكر الله علي توبته .

قوله تعالى :

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ
الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ
إِنْ أُرِدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٨) آية .

قرأ ابن عامر وأهل المدينة « الذين اتخذوا » باسقاط الواو . الباقون
بإثبات الواو . فمن أثبت الواو ، عطف على ما تقدم من الآيات وتقديره : ومنهم
الذين اتخذوا مسجداً ضاراً ومن حذفها ابتدأ الكلام وحذف الخبر لطول الكلام
قال الزهري، ويزيد بن زهران ،وعبدالله بن أبي بكر . وعاصم بن عمر بن قتادة :
نزلت هذه الآية في اثني عشر رجلاً من المنافقين ، قال الفراء : كانوا من بني عمرو
ابن عوف من الأنصار . وقال غيره : كانوا من بني غنم ابن عوف من الأنصار
الذين بنوا مسجد الضرار . وقيل انهم كانوا خمسة عشر رجلاً منهم عبد الله بن نفيل
- في قول الواقدي - وقال ابن اسحاق : هو نفيل بن الحارث ولم يذكر عبد الله
وهذا المختلف في اسمه هو الذي كان ينقل حديث النبي الى المنافقين فأعلم الله نبيه
ذلك . وأخبر الله عنهم انهم بنوا المسجد الذي بنوه ضاراً اي مضارة . ونصب علي
أنه مفعول له أي بنوه للمضارة . والضرار هو طلب الضرِّ ومحاولته كما أن الشقاق

محاولة ما يشق ، تقول : ضاره مضارة وضراراً . والآية تدل على ان الفعل يقع بالارادة على وجه القبح دون الحسن ، أو الحسن دون القبح ، لأنهم لو بنوا المسجد للصلاة فيه لكان حسناً ، لكن لما قصدوا المضارة كان ذلك قبيحاً ومعصية .

وقوله « وتفريقاً بين المؤمنين » أي بنوه للمضارة والكفر والتفريق بين المؤمنين . وانما يكون تفريقاً بين المؤمنين بأن يتحزبوا ، فحزب يصلي فيه وحزب يصلي في غيره لتختلف الكلمة وتبطل الالفة . واتخذوه ايضاً ليكفروا فيه بالطعن على النبي ﷺ والاسلام والمسلمين . وقوله « وارصاراً لمن حارب الله ورسوله » معناه اتخذوه له ليكون متى أزد الاجتماع معهم حضره وأنس به . وهو رجل يقل له ابو عامر الراهب لحق بقيصر فتنصر وبعث اليهم سآتيكم بجند فأخرج به محمداً واصحابه . فبنوه يترقبونه ، وهو الذي حزب الأحزاب وحارب مع المشركين ، فلما فتحت مكة هرب الى الطائف ، فلما اسلم اهل الطائف لحق بالشام وخرج الى الروم وتنصر ، وابنه عبد الله قتل يوم احد - وهو غسيل الملائكة - ذهب اليه اكثر المفسرين كابن عباس ومجاهد وقتادة . وأصل الارصار الارتقاب تقول : رصده يرصده رصداً وأرصد له وراصده مراصدة وتراصد تراصداً وارصدته إرتصاراً

وقوله « وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى » معناه إن هؤلاء يحلفون على أنهم ما أرادوا ببناء هذا المسجد إلا الحسنى يعني إلا الفعلة الحسنى ، فقال الله تعالى تكذيباً لهم « والله يشهد انهم لكاذبون » وكفى بمن يشهد الله بكذبه خزيماً ووجه رسول الله ﷺ قبل قدومه من تبوك عاصم بن عون العجلاني ومالك بن الدخشم وكان مالك من بني عوف ، فقال لهما (انطلقا الى هذا المسجد الظالم اهلها فاعدهما ثم حرّقا) فخرجا يشتدان سريعين على أقدامهما ففعلا ما أمرهما به فثبت قوم من جملتهم زيد بن حارثة بن عامر حتى احترقت البتة .

قوله تعالى :

لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ
أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَّهَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْمُطَهَّرِينَ (١٠٩) آية .

نبي الله نبيه - وعنى معه جميع المؤمنين - أن يقوموا في المسجد الذي بني
ضاراً « أبداً » أو يصلوا فيه ، وأقسم أن المسجد الذي « أسس على التقوى من
أول يوم أحق أن تقوم فيه » وقيل في المسجد الذي أسس على التقوى قولان :
أحدهما - قال ابن عباس والحسن وعطية : إنه مسجد قباء .

وقال ابن عمر وابن المسيب : هو مسجد المدينة . وقال عمر بن شبة :
المسجد الذي أسس على التقوى مسجد رسول الله ﷺ والذي أسس على تقوى
رضوان مسجد قباء كذلك فصل بينهما . ورواه عن أشياخه . والتقوى خاصة من
الطاعة يحترز بها من العقوبة ، والمتمقي صفة مدح لا تطلق الا على مستحق الثواب .
رواه (تقوى) ابدلت من الياء ، لأنه من تقيت وانما ابدلت للفرق بين الاسم والصفة
في الابنية ، ومثله شروى من شريت ، فأما الصفة فنحو خزيماً . ولو قيل : كيف
يبني (فعلى) من قصيت ؟ قلت : قصوى في الاسم وقصيا في الصفة . وقوله « من أول
يوم » معناه اول الأيام اذا ميزت يوماً يوماً . لأن الفعل بمعنى العنيف اليه . ومثله
اعطيت كل رجل في السدار اي كل الرجال إذا ميزوا رجالاً رجالاً . والفرق بين
من اول يوم ، ومنذ اول يوم ، ان (منذ) اذا كانت حرفاً ، فهي الوقت الخاص
كقولك : منذ اليوم ومنذ الشهر ومنذ السنة ، وليس كذلك (من) وإذا كانت اسماً
وقع على ما بعدها على تقدير كلامين و (من) على النهاية لأنها تقيض (الى)
قال زهير

لمن السديار بقنة الحجر أقوين من حجج ومن شهر (١)
 وقوله « أحق أن تقوم فيه » مع أن القيام في الآخر قبيح منهي عنه ، وإنما
 قال ذلك على وجه المظاهرة بالحجة بأنه لو كان من الحق الذي يجوز لكان هذا
 أحق . ويجوز على هذا أن تقول : عمل الواجب أصلح من تركه . وقيل : المراد به
 القيام فيه حق ظاهراً وباطناً إذ كانت الصلاة في المساجد على ظاهرها حق .
 وقوله « فيه رجال » الأول ظرف للقيام . والثاني ظرف لـكون الرجال
 وقوله « يحبون ان يتطهروا » قال الحسن : معناه يريدون أن ينظفروا من الذنوب
 وقيل : يتطهرون بالماء من الغائط والبول ، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي
 عبد الله عليهما السلام ثم قال « والله يحب المطهرين » أي يريد منافع المطهرين من
 الذنوب وكذلك المطهرين من النجاسة بالماء . وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لأهل
 قباء (ماذا تفعلون في طهركم فإن الله أحسن عليكم الثناء) قالوا : نغسل أثر الغائط
 فقال (أنزل الله فيكم والله يحب المطهرين) . وقيل : إن سبب نزول هذه الآية
 أن أهل مسجد ضرار جاءوا إليه ، فقالوا يا رسول الله بنينا مسجداً للضعيف في وقت
 المطر نسألك أن تصلي فيه و كان متوجهاً إلى تبوك فوعدهم أن يفعل إذا عاد فنهاه
 الله عن ذلك . وقوله « والذين اتخذوا مسجداً » مبتدأ وخبره في قوله « لا تقم فيه
 أبداً » كما تقول : والذي يدعوك إلى الشيء فلا تسمع دعاءه . والتقدير في الآية
 لا تقم في مسجدهم أبداً ، واسقط ذلك اختصاراً .

قوله تعالى :

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ
 أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانهَارَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ

لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١١٠) آية .

قرأ نافع وابن عباس « أسس بنيانه » بضم الهمزة وكسر السين ورفع النون من بنيانه في الموضعين جميعاً . الباقون بفتح الهمزة ونصب النون من بنيانه . وقرأ ابن عامر الا الداخوني عن هشام وحمزة وخلف وأبوا بكر الا الاعشى والبرجمي « جرف » بسكون الراء . الباقون بضمها . وقرأ أبو عمرو والكسائي والداخوني عن ابي ذكوان وهبة الله عن حفص من طريق النهرواني والدوري عن سليم من طريق ابن فرج وابو بكر الا الأعشى والبرجمي « هار » بالامالة . وافقهم على الوقف علي بن مسلم وابن غالب ومحمد في الوقف من طريق السوسي من طريق ابن جيش . قال ابو علي الفارسي : البنيان مصدر ، وهو جمع كشعير وشعيرة لأنهم قالوا في الواحد بنيانة قال أوس :

كبنيانة القرية^١ موضع رحلها وآثار نسعيها من الدف أبلق

وجاء بناء المصادر على هذا المثل في غير هذا الحرف نحو الغفران وليس بنيان جمع بناء ، لأن فعلاناً اذا كان جمعاً نحو كئبان وقضبان لم تلحقه تاء التأنيث ، وقد يكون ذلك في المصادر ، نحو : أكل وأكله وضرب وضربة من ذلك . وقال ابو زيد يقال : بنيت أبني بنيّاً وبناء وبنية وجمعها البنى وأنشد :

بني السماء فسواها بمبنيتها ولم تمد باطناب ولا عمد

فالبناء والبنية مصدران ومن ثم قول به الفراش في قوله « الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء » (١) فالبناء لما كان رفعا للمبني قول به الفراش الذي هو خلاف البناء . ومن ثم وقع على ما كان فيه ارتفاع في نصبته وان لم يكن مبنياً فأما من فتح الهمزة وبنى الفعل للفاعل ، فلأنه الباني والمؤسس فأسند الفعل اليه وبناه له كما اضاف البنيان اليه في قوله « بنيانه » فكما ان المصدر مضاف الى الفاعل

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٢ .

كذلك يكون الفعل مبنياً له. ومن بنى الفعل للمفعول لم يعد ان يكون في المعنى كالاول ، لأنه إذا أسس بنيانه فتولى ذلك غيره بأمره كان كبنائه هو له . والاول أقوى لما قلناه . وقال ابو علي (الجرف) - بضم العين - هو الأصل ، والاسكان تخفيف ومثله الشغل والشغل . ومثله الطنب والطنب . والعنق والعنق . ويجوز في جميعه التثقيل والتخفيف . وكلاهما حسن وقال ابو عبيدة « على شفا جرف هار » مثل ، قال : لأن ما يبني على التقوى فهو أثبت أساساً من بناء يبني على شفا جرف ويجوز ان تكون المعادلة وقعت بين البنائين ، ويجوز أن تكون بين البناعين . فإذا عادت بين البنائين كان المعنى المؤسس بنيانه متقناً خير ام المؤسس بنيانه غير متقن لأن قوله « على شفا جرف » يدل على أن بانيه غير متق لله . ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف كأنه قال : أبناء من أسس بنيانه على تقوى خير أم بناء من أسس بنيانه على شفا جرف . والبنيان مصدر يراد به المبنى ، كما أن الخلق يراد به المخلوق إذا أردت ذلك ، وضرب الامير اذا اردت به المضروب . وكذلك نسج اليمن يراد به المنسوج ، فانما قلنا ذلك لأنه لا يجوز أن يراد به الحدث ، لأنه إنما يؤسس المبنى الذي هو عين . يبين ذلك قوله « على شفا جرف » والحدث لا يكون على شفا جرف . والجار في قوله « على تقوى » وفي قوله « على شفا جرف » في موضع نصب ، والتقدير افمن اسس بنيانه متقياً خير ام من اسس بنيانه معاقباً على بنيانه ، وفاعل (انهار) البنيان ، وتقديره انهار البنيان بالباني في نار جهنم . لأنه معصية وفعل لما كرهه الله من الضرار والكفر والتفريق بين المؤمنين . ومن أمثال « هار » فقد أحسن لما في البراء من التكرير فكانك لفظت براءين مكسورتين وبحسب كثرة الكسرات تحسن الامالة . ومن لم يمل فيلأن كثيراً من العرب لا يميلون هذه الألفات . وترك الامالة هو الأصل . وأما ألف « هار » فمقلبة عن الواو ، لأنهم قالوا : تهوّر البناء إذا تساقط وتداعى ، والانهار والانهدال متقاربان في المعنى . والالف في قوله « أفمن » الف استفهام يراد بها - ها هنا - الانكار

ومعنى « خير » في الآية أفضل ، وليس فيه إشتراك ، يقولون : هذا خير ، وهذا شر ، ولا يراد به (أفعل من) قال الشاعر :

والخير والشر مقرونان في قرن فالخير متبع والشر محذور
 أما قوله : وافعل الخير معناه افعلوا الأفضل . و (الشفا جرف) الشيء
 وشفيره وجرفه نهايته في المساحة ويثنى شفوان ، والجرف جرف الوادي وهو جانبه
 الذي ينحفر بالماء أصله فيبقى واحياً ، وهو من الجرف والاجتراف ، وهو اقتلاع
 الشيء من أصله . ومعنى (انهار) انصدع بالتهدم هار الجرف يهور هوراً فهو هائر
 وتهور تهوراً وانهار انهياراً ، ويقال ايضاً : هار يهار ، وأصل هار هائر إلا انه
 قلب كما قال الشاعر :

لاث بد الأشاء والعبري (١)

اي لاث بمعنى دائر ، ومثله شك في السلاح وشائك . والأشاء النخل ، والعبري
 السدر الذي على ساقى الأنهار ، ومعنى لاث أي طيف به .

شبه الله تعالى بنيان هؤلاء المنافقين مسجد الضرار ببناء يبني على شفير جهنم
 فانهار ذلك البناء بأهله في نار جهنم ، ووقع فيه . وروي عن جابر بن عبد الله انه
 قال : رأيت المسجد الذي بني ضراراً يخرج منه الدخان ، وهو قول ابن جريح .

قوله تعالى :

لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ
 قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١١) آية.

قرأ ابن عامر وحمزة وحفص وابو جعفر ويعقوب « تقطع » بفتح التاء الباقون
 بضمها . وقرأ يعقوب وحده « الى ان » على أنه حرف جر .

(١) اللسان (عبر) (لوث) (لثي) والتاج (عبر) ومجاز القرآن ٢٦٩/١

وقوله « لايزال » من اخوات (كان) ترفع الاسم وتنصب الخبر وانما عمل في الاسم والخبر ، لأنه إنما يتعلق في معنى الجملة ، فيدل على انه يدوم إذ المعنى فيه أن يكون الشيء على الصفة أبداً . قال ابو علي : البنيان مصدر واقع على المبني وتقديره لايزال بناء المبني الذي بنوه ريبة أي شكاً في قلوبهم فيما كان من إظهار اسلامهم وثباتاً على النفاق الى أن تقطع قلوبهم بالموت والبلى لا يخلص لهم إيمان ولا ينزعون عن النفاق الى ان تقطع قلوبهم بالموت والبلى . ومن قرأ « الى ان تقطع » فانه يريد حتى تبلى وتقطع بالبلى أي لا تثلج قلوبهم بالايمان ابداً ولا ينزعون عن الخطيئة في بناء المسجد ولا يتوبون . ومن ضم الباء اضاف الفعل الى المقطع المبلي المقلوب بالموت ، ومن فتحها اسند الفعل الى القلوب لما كانت هي البالية ، كما قالوا : مات زيد ومرض عمرو ، ووقع الحائط وفي قراءة ابي (حتى الممات) .

ومعنى قوله « الذي بنوا » مع قوله « بنينا لهم » انما هو ليعلم ان البناء ماض دون المستقبل اذ قد تجوز الاضافة على جهة الاستقبال كقولك للغير : أقبل على عملك . وقيل في معنى الريبة في الآية ثلاثة اقوال : احدها - ان هذا البنيان الذي بنوه لايزال شكاً في قلوبهم . وقيل معناه حزازة في قلوبهم ، وقيل حسرة في قلوبهم يترددون فيها . وقوله « الا ان تقطع قلوبهم » موضع « ان تقطع » نصب والتقدير الا على تقطع قلوبهم غير ان حرف الاضافة يحذف مع (ان) ولا يحذف مسع المصدر . ومعنى (إلا) ها هنا (حتى) لأنه استثناء من الزمان المستقبل ، والاستثناء منه ممتد إليه فاجتمعت مع (حتى) في هذا الموضع على هذا المعنى . قال الزجاج : يحتمل ان يكون المراد الا ان يتوبوا توبة تمقطع بها قلوبهم ندماً واسفاً على تفریطهم . وقوله « والله عليم حكيم » اي عالم ببنيتهم في بناء مسجد الضار « حكيم » في امره بنقضه والمنع من الصلاة فيه .

قوله تعالى :

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ
الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا
فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ
فَأَسْتَبْشِرُوا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم (١١٢) آية

قرأ حمزة والكسائي « فيقتلون ويقتلون » على مفعول وفاعل . الباقون على فاعل ومفعول . من قدم الفعل المسند الى الفاعل ، فلا نهم يقتلون اولاً في سبيل الله ويقتلون ، ولا يقتلون اذا قتلوا . ومن قدم الفعل المسند الى المفعول جاز أن يكون اراد ذلك المعنى ايضاً لأن المعطوف بالواو يجوز أن يراد به التقديم وان لم يقدر ذلك كأن المعنى يقتل بعضهم ويقتل من بقي منهم بعد قتل من قتل منهم ، كما أن قوله « فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله » (١) ومعناه ما وهن من بقي منهم لقتل من قتل من المؤمنين . وحقيقة الاثراء لانجز على الله تعالى ، لأن المشتري انما يشتري ما لا يملك ، والله تعالى مالك الأشياء كلها . وانما هو كقوله « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً » (٢) في أنه اجري بحسن المعاملة والتلفظ في الدعاء الى الطاعة مجرى ما لا يملكه المعامل فيه ، ولما كان الله تعالى رغب في الجهاد وقاتل الأعداء وضمن على ذلك الثواب عبر عن ذلك بالاشتراء . فجعل الثواب ثمناً والطاعات مثمناً على ضرب من المجاز ، و كما أن في مقابلة الطاعة الثواب فكذلك في مقابلة الألم العوض غير أن الثواب مقترن بالاجلال والاكرام ، والعوض خال منهما ، والمثاب محسن مستحق على احسانه المدح وليس كذلك المعروض .

(٢) - سورة ٢ البقرة آية ٢٤٥

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٤٦

أخبر الله تعالى أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بما ضمن لهم على بذلها من الثواب في قوله « بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله » اعداء الله واعداء نبيه فيقتلون اعداء الله ويقتلهم اعداء الله فيصبرون على ذلك . ومن قدم المفعول اراد يقتل بعضهم ، فيقتل الباقيون اعداء الله .

وقوله « وعداً عليه حقاً » نصب (وعداً) على المصدر بما دل عليه اشترى اذ يدل على أنه وعد، ومثله « صنع الله الذي أتقن كل شيء » (١) و« فطرة الله التي فطر الناس عليها » (٢) والوعد خبر بما يفعله المخبر من الخير بغيره . والوعد خبر بما يفعله المخبر من الشر بغيره . وقوله « حقاً » معناه يتبين الوعد بالحق الواجب من الوعد بما لم يكن واجباً . فالوعد بالثواب دل على وجوبه من وجهين : احدهما - من حيث انه جزاء على الطاعة . والثاني - أنه إنجاز الوعد . وقوله « في التوراة والانجيل والقرآن » معناه إن هذا الوعد للمجاهدين المذكور في هذه الكتب . قال الزجاج : وذلك يدل على أن الجهاد كان واجباً على أهل كل ملة . وقوله « ومن اوفى بعهده من الله! » معناه لا أحد أحق بالوفاء بالعهود من الله « فاستبشروا » ايها المؤمنون « ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » يعني ذلك الشراء والبيع هو الفلاح العظيم الذي لا يقارنه شيء .

قوله تعالى :

التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ
الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ
اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٣) آية

قيل في ارتفاع قوله « التائبون » ثلاثة اقوال : احدها - انه ارتفع بالمدح

والتقدير هم التائبون . الثاني - بالابتداء وخبره محذوف بعد قوله : « والحافظون لحدود الله » لهم الجنة . الثالث - على أن يكون بدلًا من الضمير في « يقاتلون » أي إنما يقاتل في سبيل الله من هذه صفته . وقيل هو كقوله « لكن الرسول والذين آمنوا معه (١) ٠٠٠ التائبون » وقرأ أبي كل ذلك بالنصب على أنه صفة للمؤمنين .

وصف الله تعالى المؤمنين الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأنهم التائبون ومعناه الراجعون الى طاعة الله المنقطعون اليه والنادمون على ما فعلوه من قبيح « العابدون » اي يعبدون الله وحده لاشريك له « الحامدون » يعني الشاكرون لنعم الله عليهم على وجه الاخلاص له . وقال الحسن : هم الذين يحمدون الله على كل حال في سراء كانوا اوضراء، وبه قال قتادة . « السائحون » قيل معناه الصائمون وقال المؤرج : السائحون الصائمون بلغة هذيل . وزوي عن النبي ﷺ انه قال (سياحة امتي الصوم) وهو قول ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد . وقال الحسن : هم الذين يصومون ما افترض الله عليهم . وقال غيره : هم الذين يصومون دائماً وكذلك قال في قوله « الراكعون الساجدون » انهم الذين يؤدون ما افترض الله عليهم من الصلاة والركوع والسجود . وأصل السبح الاستمرار بالذهاب في الأرض كما يسبح الماء فالصائم مستمر على الطاعة في ترك المشنبي من الماء كل والمشارب والمنكح .

وقوله « الراكعون الساجدون » معناه الذين يقيمون الصلاة التي فيها الركوع والسجود « الامرون بالمعروف والناهون عن المنكر » معناه الذين يأمرون بما امر الله به من الواجبات والمندوبات وينهون عما نهى الله عنه وزهد فيه من القبائح . وانما عطف الناهون بالواو دون غيره من الصفات لأنه لا يكاد يذكر على الافراد بل يقال : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فجاءت الصفة مصاحبة للاولى ، فأما

قوله « والحافظون » فلأنه جاء وهو أقرب الى المعطوف ، ومعنى « الحافظون لحدود الله » انهم يحفظون ما أمر الله به ونهى عنه فلا يتجاوزونه الى غيره . وقوله : « وبشر المؤمنين » امر للنبي ﷺ ان يبشر المؤمنين المصدقين بالله المعترفين بنبوته بالثواب الجزيل والمنزلة الرفيعة وخاصة إذا جمعوا هذه الأوصاف على كمالها وتماعها دون غيرهم .

قوله تعالى :

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٤) آية .

أخبر الله تعالى أنه لم يكن « للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا » ومعناه أن يطلبوا المغفرة « للمشركين » الذين يعبدون مع الله إلهاً آخر والذين لا يوحدهونه ولا يقرون بالاهيته « وان كان » الذي يطلب لهم المغفرة أقرب الناس اليهم بعد أن يعلموا أنهم كفار مستحقون للمخلود في النار . والقريبى معناه القرب في النسب بالرجوع الى أب أو أم باضافة قريبة . ومعنى قوله « ولو كانوا أولي قربي » أي القرابة وإن دعت الى الحنو والرققة ، فانه لا يلتفت الى دعائها في الخصلة التي نهى الله عنها .

قوله تعالى :

وَمَا كَانَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا أَيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٥) آية .

لما ذكر الله تعالى أنه ليس للنبي والذين آمنوا أن يطلبوا المغفرة للمشركين

بين الوجه في استغفار ابراهيم لابيه مع أنه كان كافراً سواء كان أباه الذي ولده
او جده لأمه أو عمه على ما يقوله أصحابنا . وهو أن قال : وجه حسن ذلك أنه كان
تقدم ذلك موعدة ، فلاجلها وجب عليه الوفاء به .

وقيل في معنى الموعدة التي كانت عليه في حسن الاستغفار قولان :

احدهما - ان الموعدة كانت من ابي إبراهيم لابراهيم أنه يؤمن إن استغفر
له فاستغفر له لذلك وطلب له الغفران بشرط أن يؤمن « فلما تبين له » بعد ذلك
« أنه عدو لله تبرأ منه » .

والثاني - أن الوعد كان من ابراهيم بالاستغفار مادام يطمع في الايمان
كما قال « إلا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء » (١)
فاستغفر له على ما يصح ويجوز من شرائط الحكمة « فلما تبين له انه عدو لله » وآيس
من ايمانه « تبرأ منه » . والذي عندي وهو الأقوى أن أباه أظهر له الايمان وصار
اليه ، وكان وعده أن يستغفر له إن آمن فلما أظهر الايمان استغفر له ، فأعلمه
الله ان ما ظهر منه بخلاف ما يبطنه « فتبرأ منه » ويقوي ذلك قوله « واغفر لأبي إنه
كان من الضالين » (٢) اي فيما مضى ، ويجوز أن يكون أظهر الكفر بعد ذلك
فلما تبين ذلك تبرأ منه . فأما من قال : إن الوعد كان من ابراهيم فالسؤال باق
لأن لقائل أن يقول ولم وعد كافراً أن يستغفر له ؟ فان قلنا : وعده بأن يستغفر
له إن آمن كان الرجوع الى الجواب الآخر .

والعداوة هي الابعاد من النصرة الى اعداد العقوبة والولاية التقريب من
النصرة من غير فاصلة بالحياة والكرامة .

وقوله « إن ابراهيم لأواه حليم » قيل في معنى « أواه » ثمانية اقوال :
فقال ابن عباس في معنى (اواه) تواب . وقال ابن مسعود : معناه دعاء . وقال
الحسن وقتادة : معناه رحيم . وقال مجاهد : معناه موقن . وقال كعب : معناه اذا

(٢) سورة ٢٦ الشعراء آية ٨٦

(١) سورة ٦٠ الممتحنة آية ٤

ذكر النار قال أوه . وقال الضحاك : معناه المؤمن الموقن بالخشية الرحيم . وقال آخرون : معناه فقيه . وقال ابو عبيدة : معناه المتوجع المتضرع الى الله خوفاً وإشفاقاً . وأصل الأواه من التأوه وهو التوجع والتجزن تقول ، تأوه تأوهاً وأوه تأويهاً ، قال المطقب العبدى :

إذا ما قمت أرحلها بلبل تأوه آهة الرجل الحزين (١)
والعرب تقول : أوه من كذا بكسر الواو وتسكين الهاء قال الشاعر :
فأوه لذكرها إذا ما ذكرتها ومن بعد أرض دونها وسما (٢)
والعامية تقول : أوه يقال أيضاً أوه بكسور الواو وكسر الهاء وينشد البيت المتقدم ذكره كذلك ، وقال الجعدي :

صروح مروح يتبع الوزق بعدما يعرس شكوى آهة وتنمرا (٣)
وقال الراجز :

فأوه الداعي وضواء أكلبه (٤)

ولو جاء منه (فعل يفعل) لكان آه يؤوه أوهاً على وزن (قال يقول قولاً) والحليم هو الممهمل على وجه حسن . والحلم الامهال على ما تقتضيه الحكمة . وهي صفة مدح . والله حلیم عن العصاة بأمهاله لهم مع قدرته على تعجيل عقوبتهم . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : إنما تبين عداوته لما مات على كفره . وقال ابو علي الجبائي : لما آيس من فلاحه عند تصميمه على بعد الوعد في الايمان بالله الذي

(١) ديوانه : ٢٩ ومجاز القرآن ١ / ٢٧٠ واللسان (أوه) وتفسير الطبري

١٤ / ٥٣٥ يصف ناقته بأنها تحن الى الديار .

(٢) اللسان (أوه) والطبري ١٤ / ٥٣٥

(٣) ديوانه : ٣٣ ، ٥٢ وجمرة أشعار العرب : ١٤٦ والطبري ١٤ / ٥٢٤

ويروى (خوف) و (ظروح) و (طروح) بدل (صروح) .

(٤) تفسير الطبري ١٤ / ٥٣٥

كان وعد باظهاره في وقت بعينه .

قوله تعالى :

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ
مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٦) آية .

قال مجاهد : وجد اتصال هذه الآية بما قبلها هو أنه لما حرم الله تعالى على المؤمنين الاستغفار للمشركين بين أنه لم يكن الله لياً خذكم به إلا بعد ان يدلکم على تحريمه وأنه يجب عليكم أن تتقوه .

وقوله « ليضل قوماً » معناه - ها هنا - لم يكن الله ليحكم بضلال من عدل عن طريق الحق على وجد الذم له إلا بعد أن ينصب له على ذلك الدليل ، والهدى هو الحكم بالاهتداء الى الحق على وجد الحمد له . والبيان والبرهان والحجة والدلالة بمعنى واحد ، وفرق الزماني بين البيان والبرهان ، فقال : البيان إظهار المعنى في نفسه بمثل اظهار نقيضه . والبرهان اظهار صحته بما يستحيل في نقيضه كالبيان عن معنى قدم الاجسام ومعنى حدوثها ، فالبرهان يشهد بصحة حدوثها وفساد قدمها . وقال مجاهد : معناه حتى يبين لهم ما يتقون من ترك الاستغفار للمشركين لأنهم كانوا يستغفرون لهم ، فلما نهوا عنه انتهوا . وقوله « ان الله بكل شيء عليم » معناه انه يعلم جميع المعلومات حتى لا يشذ شيء منها عنه لكونه عالماً لنفسه . وقال الحسن : مات قوم من المسلمين على الاسلام قبل فرض الصلاة والزكاة وغيرهما من فرائض الدين ، فقال المسلمون : يارسول الله اخواننا الذين ماتوا قبل الفرائض ما منزلتهم ؟ فقال الله تعالى « وما كان الله ليضل قوماً » وهم مؤمنون ولم يبين لهم الفرائض .

قوله تعالى

إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٧) آية .

وجه اتصال هذه الاية بما قبلها الحز علي ما تقدم ذكره من جهاد المشركين ملو كهم وغير ملو كهم ، لأنهم عبيد من لملك السماوات والارض يأمر فيهم ما يشاء ويدبرهم علي ما يشاء. فأخبر الله ان « له ملك السماوات والارض » ومعناه انه قادر علي التصرف فيهما وليس لأحد منعه منهما . والملك اتساع اطاقه لمن له السياسة والتدبير . وخزائن الله لاتقنى وملكه لايبيد ولا يبلى ، وكل ذلك يرجع الى مقدراته في جميع اجناس المعاني . وقوله « يحيي ويميت » معناه انه يحيي الجماد ويميت الحيوان . والحياة معنى يوجب كون الحيوان حياً . والحى المختص بصفة لا يستحيل معها كونه عالماً قادراً . والموت عند من اثبته معنى هو ما يضاد الحياة . ومن لا يثبته معنى ، يقول : هو عبارة عن فساد بنية الحياة . وقوله « وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير » فالولي هو المقرب بالنصرة من غير فاصلة . والانسان ولي الله ، لأنه يقربه بالنصرة من غير فاصلة . والله وليه بهذا المعنى ، والنصير والاستنصار طلب النصر والانتصار والانتصاف بالنصرة .

قوله تعالى:

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ (١١٨) آية .

قرأ حمزة وحفص « يزيغ » بالياء . الباقون بالياء . قال أبو علي النحوي:
يجوز أن يكون فاعل (كاد) احد ثلاثة اشياء :

احدها - ان يضم في القصة أو الحديث ويكون (تزيغ) الخبر وجاز ذلك
للمزوم الخبر لها ، فأشبهه العوامل الداخلة على الابتداء للمزوم الخبر لها ، ولا يجوز
ذلك في (عسى) لأن (عسى) يكون فاعله المفرد في الاكثر ولا يلزمه الخبر ، نحو
قوله « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر
لكم » (١) فإذا كان فاعله المفرد في كثير من الأمر لم يحتمل الضمير الذي احتمله
(كاد) كما لم يحتمله سائر الأفعال التي تسند الى فاعلها مما لا يدخل على المبتدأ .
وما يجيء في الشعر من كاد أن يفعل ، وعسى يفعل ، فلا يعتمد به ، لأنه من
ضرورة الشعر .

الثاني - من فاعل (كاد) أن يضمه ذكراً مما تقدم ، ولما كان النبي ﷺ
والمهاجرون والأنصار قبيلًا واحداً وفريقاً جاز أن يضم في (كاد) ما يدل عليه ما
تقدم ذكره من القبيل والحزب والفريق . وقال : منهم من حملة على المعنى كما
قال « من آمن بالله واليوم الآخر » ثم قال « فلا خوف عليهم » (٢) - كذلك
فاعل (كاد) .

والثالث - من فاعل (كاد) أن يكون فاعلها (القلوب) كأنه من بعد ما كاد
قلوب فريق منهم تزيغ وإنما قدم (تزيغ) كما قدم خبر كان في قوله « و كان
حفاً علينا نصر المؤمنين » (٣) وجاز تقديمه وإن كان فيه ضمير من القلوب ولم يكن
ذلك من الاضمار قبل الذكر ، لأن النية به التأخير . ومن قرأ بالياء يجوز ان
يكون جعل في (كاد) ضمير الحديث فإذا اشتغل (كاد) بهذا الضمير ارتفع القلوب

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢١٦

(٢) سورة ٢ البقرة آية ٦٢ ، وسورة ٥ المائدة آية ٧٢

(٣) سورة ٣٠ الروم آية ٤٧ .

بـ (تزيغ) فـذكر وان كان فاعله مؤنثاً لتقدم الفعل . ومن قرأ بالناء جاز أن يكون ذهب الى أن القلوب مرتفعة بـ (كاد) فلا يكون يرفع فعلاً مقدماً فاذا لم يكن مقدماً قبح التذكير لتقدم ذكر الفاعل كما قبح في قول الشاعر :

ولأرض أبقل إبقالها (١)

ولم يصح أبقل أرض . ويجوز أن يكون الفعل المسند على القصة والحديث يؤنث اذا كان في الجملة التي تفسرها مؤنث كقوله « فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا » (٢) ويجوز إلحاق الناء في « كاد » من وجه آخر ، وهو أن يرفع «تزيغ قلوب » بـ « كاد » فتلحقه علامة التأنيث من حيث كان مسنداً الى مؤنث كقوله « قالت الأعراب » (٣) فعلى هذا يكون في « تزيغ » ضمير القلوب . لأن النية في « تزيغ » التأخير .

اقسم الله تعالى في هذه الآية - لأن لام « لقد » لام القسم - بأنه تعالى تاب على النبي والمهاجرين والأَنْصار بمعنى أنه رجع اليهم ، وقبل توبتهم « الذين اتبعوه في ساعة العسرة » يعني في الخروج معه الى تبوك . و « العسرة » صعوبة الأمر وكان ذلك في غزوة تبوك لأنه لحقهم فيها مشقة شديدة من قلة الماء حتى نحرروا الابل وعصروا كروشها ومصوا النوى . وقل زادهم وظهرهم - في قول مجاهد وجابر وقتادة - وروي عن عمر أنه قال : أصابنا عطش شديد فأمطر الله السماء بدعاء النبي ﷺ فعشنا بذلك « من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم » والزبيغ ميل القلب عن الحق ، ومنه قوله « فلما زاعوا أزاغ الله قلوبهم » (٤) ومنه قوله « لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا » (٥) وكان أبو خيثمة عبد الله بن خيثمة تخلد الى ان مضى من مسير رسول الله عشرة أيام ثم دخل يوماً على امرأتين له - في يوم حار - عريشين

- | | |
|----------------------------|-----------------------------|
| (١) مر تخريج في ١/ ١٢٦ | (٢) سورة ٢١ الانبياء آية ٩٧ |
| (٣) سورة ٤٩ الحجرات آية ١٤ | (٤) سورة ٦١ الصف آية ٥ |
| (٥) سورة ٣ آل عمران آية ٨ | |

لهما قدر شتاهما وبردتا الماء وهياتا له الطعام ، فقام على العريشين فقال : سبحان الله رسول الله قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر في الضح والريح والحار والقر يحمل سلاحه على عاتقه وأبو خيثمة في ظلال باردة وطعام مهياً وأمرأتين حسناوين ما هذا بالنصف ، ثم قال . والله لأكلم واحدة منكما كلمة ولا أدخل عريشاً حتى الحق بالنبي ﷺ فأنأخ ناضحه واشتد عليه وتزود وارتحل وأمرأتاه تكلما له ولا يكلمهما ثم سار حتى إذا دنا من تبوك ، قال الناس : هذا راكب على الطريق فقال النبي ﷺ كن ابا خيثمة ، فلما دنا قال الناس : هذا أبو خيثمة يارسول الله فأنأخ راحلته وسلم على رسول الله ﷺ فقال له النبي ﷺ أولى لك . فحدثه الحديث ، فقال له خيراً ، ودعا له ، فهو الذي زاغ قلبه للمقام . ثم ثبته الله . وقيل : إن من شدة ما لحقهم هم كثير منهم بالرجوع فتاب الله عليهم ، وقيل من بعد ما كان شك جماعة منهم في دينه ثم تابوا فتاب الله عليهم . وقوله « ثم تاب عليهم » أي رجع عليهم بقبول توبتهم « إنه بهم رؤوف رحيم » إخبار منه تعالى أنه بهم رؤوف ، فالرأفة أعظم الرحمة ، قال كعب بن مالك الأنصاري :

نطيع نبينا ونطيع رباً هو الرحمن كان بنا رؤوفاً»

وقال آخر :

ترى للمسلمين عليك حقاً كمثل الوالد الرؤوف الرحيم «٢»

قوله تعالى :

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ

(١) مر تخريجه في ١٢/٢ وهو مجاز القرآن ٢٧٠/١

(٢) اللسان «رأف» نسبة الى جرير وروايته « يرى للمسلمين عليه» .وه «كمثل»

بعل « كمثل » ومجاز القرآن ٢٧١ ١

بِمَا رَحِمْتَ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أُنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٩) آية

تقدير الكلام وتاب الله على الثلاثة الذين خلفوا . وقيل نزلت هذه الآية بسبب الثلاثة الذين تخلفوا عن غزاة تبوك ولم يخرجوا مع النبي ﷺ لا عن نفاق، لكن عن توان ، ثم ندموا، فلما ورد النبي ﷺ جاءوا واعتذروا ، فلم يكلمهم النبي ﷺ وتقدم الى المسلمين بأن لا يكلمهم أحد منهم فحجروهم الناس حتى الصبيان وأهاليهم وجاءت نساؤهم الى رسول الله ﷺ تعزلهم ، فقال: لا ولكن لا يقربونكن فضاقت عليهم المدينة ، فخرجوا الى رؤس الجبال ، فكان أهاليهم يجيئون لهم بالطعام ويتركونه لهم ولا يكلمونهم ، فقال بعضهم لبعض : قد هجرنا الناس ولا يكلمنا أحد ، فهلا نتهاجر نحن ايضاً ، فتنفروا ولم يجتمع منهم اثنان ، وثبتوا على ذلك نيفاً وأربعين يوماً . وقيل سنة يضرعون الى الله تعالى ويتوبون اليه ، فقبل الله تعالى حينئذ توبتهم ، وانزل فيهم هذه الآية والثلاثة هم كعب بن مالك وهلال بن أمية وفزارة بن ربيعة ، وكلمهم من الأنصار - في قول ابن عباس ومجاهد وقنادة وجابر - والتخليف تأخير الشيء عن مضي ، فأما تأخير الشيء عنك في المكان ، فليس بتخليف ، وهو من الخلف الذي هو مقابل لجهة الوجه . وقال مجاهد : خلفوا عن قبول التوبة بعد قبول توبة من قبل توبته من المنافقين ، كما قال تعالى فيما مضى « وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم » (١) وقال قنادة « خلفوا » عن غزوة تبوك كما تخلفوا هم . وبه قال الحسن . وفي قراءة اهل البيت عليهم السلام « خالفوا » قالوا لأنهم لو خلفوا لما توجه عليهم العتب .

وقوله « حتى إذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت » فالضيق ضد السعة ومنه ضيق الصدر ، خلاف اتساعه بالهم الذي يحدث فيه فيشغله عن غيره ، وليس كذلك

السرور لأنه لا يشغل عن ادراك الامور. ومعنى « بما رحبت » اي بما اتسعت تقول: رحبت رحباً ، ومنه مرحباً واهلاً اي رحبت بلادك واهلت ، وضيق انفسهم ههنا بمعنى ضيق صدورهم ، بالهم الذي حصل فيها . وقوله « وظنوا ان لاملجأ من الله إلا اليه » معناه وعلّموا انه لا يعصمهم منه موضع إذا اعصموا به والتجؤا اليه كأنه قال : لامعصم من الله إلا به ، لجأ يلجأ لاجاء و ألاجأ الى كذا إلجاء إذا صيره اليه بالمنع من خلافه . والتجأ اليه التجاء وتلاجؤاً وتلاجؤاً . وقوله « ثم تاب عليهم ليتوبوا » قيل في معناه ثلاثة اقوال : احدها - لطف لهم في التوبة ، كما يقال في الدعاء : تاب الله عليه . الثاني - قبل توبتهم ليمسكوا بها في المستقبل . الثالث - قبل توبتهم ليرجعوا الى حال الرضا عنهم . وقال الحسن : جعل لهم التوبة ليتوبوا بها ، والمخرج ليخرجوا به . وقوله « ان الله هو التواب الرحيم » اخبار منه تعالى بأنه يقبل توبة عباده كثيراً ويغفر ذنوبهم إذا رجعوا اليه لرحمته عليهم ورأفته بهم . وكان أبو عمرو يحكي عن عكرمة بن خالد « وعلى الثلاثة الذين خلفوا » بفتح الخاء والتخفيف وكان لا يأخذ بها . فان قيل : ما معنى التوبة عليهم واللائمة لهم وهم قد خلفوا فهل اعدوا ؟

قيل : ليس المعنى انهم امرؤا بالتخلف ارضي منهم به بل كقولك لصاحبك: أين خلفت فلاناً؟ فيقول : بموضع كذا ليس يريد انه امرؤ بالتخلف هناك بل لعله ان يكون نهاه وانما يريد انه تخلف هناك .

قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١٢٠) آية

هذا امر من الله تعالى للمؤمنين المصدقين بالله والمقرين بنبوة نبيه بأن يتقوا معاصي الله ويجتنبوها وأن يكونوا مع الصادقين الذين يصدقون في اخبارهم ولا يكذبون ، قال ابن مسعود : لا يصلح من الكذب جد ولا هزل ، ولا ان يعدد

أحدكم ولده شيئاً ثم لا ينجزه ثم قرأ «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله . . .» الآية وقال : هل ترون في هذه رخصة ؟ وقال نافع والضحاك : أمروا بأن يكونوا مع النبيين والصديقين في الجنة بالعمل الصالح . وقيل : إن المراد بالصادقين هم الذين ذكرهم الله في قوله «رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه» وهم حمزة وجعفر «ومنهم من ينتظر» (١) يعني علياً عليه السلام فأمر الله تعالى بالاعتداء بهم والاعتداء بهديهم ، وهم الذين وصفوا في قوله «ليس البر أن تولو وجوهكم قبل . . .» الآية الى قوله «أولئك الذين صدقوا» (٢) فأمر بالاعتداء بهؤلاء . وقال بعضهم : ان (مع) بمعنى (من) وكأنه أمر بأن يكونوا في جملة الصادقين وفي قراءة ابن مسعود «وكونوا من الصادقين» . وقيل : اراد كونوا مع كعب بن مالك واصحابه الذين صدقوا في اقوالهم ولم يكذبوا في الاعتذار . والصادق هو القائل بالحق العامل به ، لأنها صفة مدح لاتطلق الا على من يستحق المدح على صدقه . فأما من فسق بارتكاب الكبائر فلا يطلق عليه اسم صادق ولذلك مدح الله الصديقين وجعلهم تالين للنبيين في قوله «فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين» (٣) .

قوله تعالى :

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا
عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا
يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَؤُنَ
مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ

(٢) سورة ٢ البقرة آية ١٧٧

(١) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٢٣

(٣) سورة ٤ النساء آية ٦٨

عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢١) آية .

لما قص الله تعالى قصة الذين تأخروا عن النبي ﷺ والخروج معه الى تبوك ثم اعتذارهم عن ذلك وتوبتهم منه وأنه قبل توبة من ندم على ما كان منه لرأفته بهم ورحمته عليهم ، ذكر عقيب ذلك على وجه التوبيخ لهم والازراء على ما كانوا فعلوه فقال : لم يكن لأهل المدينة ولأمن يسكن حول المدينة من الاعراب والبوادي « ان يتخلتوا » بمعنى ان يتأخروا عن رسول الله « ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه » ومعناه ولأن يطلبوا نفع نفوسهم ، لأن الرغبة طلب المنفعة ونقيضها الرهبة . ويقال رغب فيد اذا طلب المنفعة به ورغب عنه طلب المنفعة بتركه ، والترغيب ضد الترهب ومعنى « يرغبوا بأنفسهم عن نفسه » اي يطلبون المنفعة بترفيه انفسهم دون نفسه وهذه فريضة الزمهم الله اياها ؛ لحقه فيما راعاهم من الهدى الذي اهدوا به وخرجوا من ظلمة الكفر الى نور الايمان .

وقوله « ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب » اشارة الى ما الزمهم الله اياه من تحمل هذه المشقة لأنهم لا يصيبهم ظمأ وهو شدة العطش تقول : ظمئ ظمأ ظمأ وهو ظمئ وظمآن وأظمأ الله إظماء . ومنه قيل : أنا ظمآن الى رؤية فلان ومعنى « ولا نصب » اي تعب تقول : نصب ينصب نصباً فهو نصب . ومثله الوصب قال النابغة :

كلميني لهم يا أميمة ناصب دليل اقاويه بطيء الكواكب (١)

وقوله « ولا مخمصة » يعني مجاعة وأصله ضمور البطن للمجاعة ومنه رجل خميص البطن وأمرأة خمصانة . وقوله « في سبيل الله » يعني من قتال أعدائه المشركين . وقوله « ولا يظنون موطناً يغيب الكفاز » اي لا يخطون خطوة إلا كتب لهم اجرها ، والموطنى الأرض ، والغيب انتقاض الطبع بما يرى مما يشق . والغضب

هو ما يدعو الى الانتقام على ماسلف من المعصية مما هي متعلقة به ، وهو مستحق بها ولذلك جاز ان يطلق الغضب على الله ولم يجز اطلاق الغيظ عليه .

وقوله « ولا يبالون من عدو نبلا إلا كتب لهم به عمل صالح » والنيل لحوق الشيء تقول : نلته اناله نبلا اذا نلته بيدك وهو منيل ، وليس من التناول لأن هذا من الواو تقول : نلته بخير انوله نولا ونوالا وانالني خيراً انالة .

والمعنى ان هؤلاء المؤمنين لا يصيبون من المشركين امراً ، من قتل او جراح او مال ، او امر يغمهم ويغيبهم الا ويكتب الله للمؤمنين « به عملاً صالحاً ان الله لا يضيع اجر المحسنين » اخبار منه تعالى انه لا يضيع اجر من فعل الأفعال الحسنة التي يستحق بها المدح وقد يكون فاعل الحسن لا يستحق المدح مثل فاعل المباح . وقال قتادة : حكم هذه الآية مختص بالنبي فانه اذا غزا النبي ﷺ لم يكن لأحد ان يتخلف عنه ، فاما من بعده من الخلفاء فان ذلك جائز ، وقال الاوزاعي وعبد الله بن المبارك والفرابي والسبيعي وأبو جابر وسعيد بن عبد العزيز : ان هذه الآية لأول الأمة وآخرها من المجاهدين في سبيل الله . وقال ابن زيد : هذا حين كان المسلمون قليلين ، فلما كثروا نسخ بقوله « وما كان المؤمنين لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة » وهذا هو الأقوى لأنه لا خلاف ان الجهاد من فروض الكفايات فلو لزم كل احد النفر لصار من فروض الأعيان

قوله تعالى :

وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا
كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢) آية ٠

هذه الآية عطف على ما تقدم ذكره في الآية الاولى من قوله « ولا يقطعون » ولا يقطعون موطئاً يغيظ الكفار ولا يبالون من عدو نبلا ٠٠٠ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة»

اي لا ينطق هؤلاء المؤمنون في سبيل الله وجهاد أعدائه نفقة صغيرة ولا كبيرة يريدون بها اعزاز دين الله ونفع المسلمين والتقرب الى الله بها ، لأن الانفاق متى كان للشهوة أولئك بالجوهر كان ذلك مباحاً . وان كان للرياء والسمعة وللمعاونة على فساد كان معصية . والصغير ما نقص ثوابه عن ثواب ما هو اكبر منه ، والكبير ما زاد ثوابه على ثواب ما هو دونه . وقوله « ولا يقطعون وادياً » معناه ولا يتجاوزون وادياً .

وقوله « إلا كتب لهم » ثواب ذلك لهم « ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » معناه انه يكتب طاعاتهم ليجزيهم عليها أحسن مما فعلوه . وقال الرماني : ذلك يدل على انه يكون حسن أحسن من حسن ، قال : لان لفظة أفعال تقتضي التفاضل فيما شاركه في الحسن . وهذا ليس بشيء لأن المعنى ان الله تعالى يجزيهم أحسن ما كانوا يعملون يعني ماله مدخل في استحقاق المدح والثواب من الواجبات والمندوبات دون المباحات التي لا مدخل لها في ذلك وان كانت حسنة .

قوله تعالى :

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٣) آية .

قوله « فلولا نفر » معناه هالا نفر، وهي المتحضيض إذا دخلت على الفعل، فإذا دخلت على الاسم فهي بمعنى امتناع الشيء لأجل وجود غيره . وقيل في معناه ثلاثة اقوال : احدها - قال الحسن : حث الله تعالى الطائفة النافرة على التفقه لترجع الى المتخلفة فتحذرها وقال قتادة : ان المعنى انه لم يكن لهم ان ينفروا بأجمعهم في السرايا ويتركوها النبي ﷺ بالمدينة وحده ، ولكن تبقى بقية لتتفقه البقية ثم تنذر

النافرة، وبه قال الضحاك وابن عباس ، وقال ابو علي الجبائي : تنفر الطائفة من كل ناحية الى النبي ﷺ لتسمع كلامه وتتفقه عنه ، ثم يبينوا ذلك لقومهم إذا رجعوا اليهم . وقال مجاهد : نزلت الآية في قوم خرجوا الى البادية ليقفهمهم وينالوا منهم خيراً ، فلما عاتب الله من تأخر عن النبي عند خروجه الى تبوك وذم آخرين خافوا ان يكونوا منهم فنقروا بأجمعهم ، فقال الله : هـيلا نفر بعضهم ليفقه عن النبي ﷺ ما يجب عليهم وما لا يجب ويرجعون فيخبرون اصحابهم بذلك ليحذروا . والتفور عن الشيء هو الذهاب عنه لتكره النفس له ، والتفور اليه الذهاب اليه لتكره النفس لغيره . والتفقه تعلم الفقه . والفقه فهم موجبات المعنى المضمنة بها من غير تصريح بالدلالة عليها ، وصار بالعرف مختصاً بمعرفة الحلال والحرام ، وماطريقة الشرع . وقوله « لعلمهم يحذرون » معناه لكي يحذروا ، لأن الشك لا يجوز على الله . والحذر تجنب الشيء لما فيه من المضرة يقال : حذر حذراً وحذرته تحذيراً وحاذره محاذرة وتحذر تحذراً .

واستدل جماعة بهذه الآية على وجوب العمل بخبر الواحد بأن قالوا : حث الله تعالى الطائفة على التفور والتفقه حتى إذا رجعوا الى غيرهم لينذروهم ليحذروا ، فلولا انه يجب عليهم القبول منهم لما وجب عليهم الانذار والتخويف . والطائفة تقع على جماعة لا يقع بخبرهم العلم بل تقع على واحد . لأن المفسرين قالوا في قوله « وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » أنه يكفي أن يحضر واحد . وهذا الذي ذكره ليس بصحيح ، لأن الذي يقتضيه ظاهر الآية وجوب التفور على الطائفة من كل فرقة ، ووجوب التفقه والانذار إذا رجعوا ، ويحتمل ان يكون المراد بالطائفة الجماعة التي يوجب خبرهم العلم ، ولو سلمنا انه يتناول الواحد او جماعة قليلة ، فلم اذا وجب عليهم الانذار وجب على من يسمع القبول؟ والله تعالى إنما اوجب على المنذرين الحذر ، والحذر ليس من القبول في شيء بل الحذريقتضي وجوب البحث عن ذلك حتى يعرف صحته من فساده بالرجوع الى الأدلة ، ألا ترى

ان المنذر إذا ورد على المكلف وخوفه من ترك النظر فإنه يجب عليه النظر ولا يجب عليه القبول منه قبل ان يعلم صحته من فساده ، وكذلك إذا ادعى مدع النبوة وان معه شراً وجب عليه ان ينظر في معجزه ولا يجب عليه القبول منه وتصديقه قبل ان يعلم صحة نبوته . فكذلك لا يمتنع ان يجب على الطائفة الانذار ويجب على المنذرين البحث والتفتيش حتى يعلموا صحة ما قالوه فيعملوا به ، وقد استوفينا الكلام في ذلك في كتاب اصول الفقه لانطول بذكره هاهنا .

وقيل : ان اعراب اسد قدموا على النبي ﷺ المدينة فغلت الأسعار وملئوا الطرق بالعدرة فانزل الله تعالى الآية يقول : فهلا جاء منهم طوائف ثم رجعوا الى قومهم فأخبروهم بما تعلموا . وروى الواقدي ان قوماً من خيار المسلمين خرجوا الى البدو يفقهون قومهم فاحتج المنافقون في تأخرهم عن تبوك بأولئك فنزلت « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » قال : وفيهم نزلت « والذين يحتاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داخضة » (١) يعني ان احتجوا بتأخرهؤلاء في البادية فانهم مستجيبون مؤمنون . فكيف يكون لهم بهم اسوة او حجة في تأخرهم وهم منافقون مدهنون . وقال ابو جعفر عليه السلام كان هذا حين كثر الناس فأمرهم الله ان ينفر منهم طائفة وتقيم طائفة للمتفقه وان يكون الغزو نوباً .

قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ
وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٤) آية .

روى المفضل عن عاصم (غلظة) بفتح الغين . الباقون بكسرهما ، قال ابو الحسن قراءة الناس بالكسر ، وهي العربية ، قال وبه أقرأ ولا أعلم الفتح لغة . وقال غيره :

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ١٦ .

هي لغة . وذكر الزجاج أن فيه ثلاث لغات الفتح والضم والكسر ، والكسر أفتحها والكسر لغة أهل الحجاز والضم لغة تميم .

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار الذين يلونهم يعني الأقرب فالأقرب وذلك يدل على أنه يجب على أهل كل ثغر أن يقاتلوا دفاعاً عن أنفسهم إذا خافوا على بيضة الإسلام إذا لم يكن هناك إمام عادل ، وإنما جاز من الله تعالى أن يأمر بالقتال ليدعواهم إلى الحق ، ولم يجز أن يمنعهم من الكفر ، لأن المنع ينافي التكليف . ومن قاتل الأبعد من الكفار وترك الأقرب فالأقرب فإن كان باذن الإمام كان مصيباً وإن كان بغير أمره كان مخطئاً ، ولو قال : قاتلوا الأقرب فالأقرب لصح لأنه يمكن ذلك . ولو قال : قاتلوا الأبعد فالأبعد لم يصح لأنه لا أحد للأبعد يبدأ منه كما للأقرب . وقوله « وليجدوا فيكم غلظة » معناه وليخشوا منكم بالغلظة ، والغلظة ضد اللين وخلاف الرقة ، وهي الشدة في إحلال النعمة ، ومخرج الكلام على الأمر بالوجود ، وإنما معناه يجدون ذلك ، ويجوز أن يكون المراد وليعلموا منكم الغلظة .

وقوله « واعلموا أن الله مع المتقين » أمر من الله للمؤمنين أن يتيقنوا أن الله مع الذين يتقون معصيته ، بالنصرة لهم ، ومن كان الله ناصره في الحرب لم يغلبه أحد . فأما إذا نصره بالحجة في غير الحرب فإنه يجوز أن يغلب بالحرب لضرب من المحنة وشدة التكليف .

قوله تعالى

وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْسُرُكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ
إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَوَازَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٥) آية

(ما) في قوله : « وإذا ما » يحتمل امرين : أحدهما - أن تكون دخلت لتسليط (إذا)

على الجزاء والثاني - أن تكون صلة مؤكدة، وقوله « فمنهم من يقول » الضمير عائذ على المنافقين في قول الحسن والزجاج، والتقدير فمن المنافقين من يقول بعضهم لبعض على وجه الإنكار « أيكم زادته هذه ايماناً » وقال الجبائي : يقول المنافقون لضعفة المؤمنين على وجه الاستهزاء . فأخبر الله تعالى انه متى نزلت سورة من القرآن قال المنافقون على وجه الاستهزاء والانكار « أيكم زادته هذه ايماناً » ثم قال تعالى « فاما الذين آمنوا فزادتهم ايماناً » المعنى ازدادوا عندها ايماناً . وانما أضافه الى السورة لأن عندها ازدادوا ، فوجه زيادة الايمان انهم يصدقون بأنها من عند الله ويعترفون بذلك ويعتقدونه وذلك زيادة اعتقاد على ما كانوا معتقدين له . وقوله « وهم يستبشرون » جملة في موضع الحال ، وتقديره انهم يزدادون الايمان عندها مستبشرين بذلك فرحين بما لهم في ذلك من السرور والثواب . والزيادة ضم الشيء الى جنسه لأنك لو ضمنت حجراً الى ذهب لم تكن زدت ، ولو ضمنت ذهباً الى ذهب أو حجراً الى حجر لكنت زدته .

قوله تعالى .

وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ
وَمَا تَوَّاهُمْ كَافِرُونَ (١٢٦) آية .

لما بين الله تعالى ان المؤمنين يزدادون الايمان عند نزول السورة بين ان الذين في قلوبهم مرض يعني شك ونفاق من الاسلام يزدادون عند ذلك رجساً الى رجسهم اي نفاقاً وكفرأ الى كفرهم ، لانهم يشكون في هذه السورة كما يشكون في الذي تقدم ، فكان ذلك هو الزيادة . وسمي الشك في الدين مرضاً ، لأنه فساد يحتاج الى علاج كالفساد في البدن الذي يحتاج الى مداواة . ومرض القلب أعزل وعلاجه أعسر ودواؤه أعز واطباؤه أقل . والرجس والنجس واحد ، وسمي الكفر رجساً على وجه الدم ، وأنه يجب تجنبه كما يجب تجنب الانجاس . وانما أضاف الزيادة الى

السورة لأنهم يزدادون عندها ، ومثله كفى بالسلامة داء ، كما قال الشاعر :
 ارى بصري قد را بنى بعدصحة وحسبك داء أن تصح وتسلما (١)
 وقوله « وماتوا وهم كافرون » فيه بيان أن المرض في القلب أداهم الى ان
 ماتوا على شحال ، لأنها تسوق الى النار نعوذ بالله منها ، وانما قال « وماتوا » على
 لفظ الماضي لأنه عطف على قوله « زادتهم رجساً الى رجسهم » والمعنى انهم يموتون
 وهم كافرون .

قوله تعالى :

أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا
 يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ (١٢٧) آية .

قرأ حمزة ويعقوب « أولاترون » بالتاء . الباقرن بالياء .
 قوله « أو لا يرون » تنبيه وتقريع لمن عنى بالخطاب .
 فمن قرأ بالتاء فوجهه أن المؤمنين نبهوا على إعراض المنافقين عن النظر
 والتدبر لما ينبغي أن ينظروا فيه ويتدبروا ، لأنهم يمتحنون بالأمراض والأسباب
 التي لا يؤمن معها الموت ، فلا يرددعون عن كفرهم ولا ينزجرون مما هم عليه من
 النفاق ، فلا يقدمون عليه اذا ماتوا فنبه المسلمين على قلة اعتبارهم واتعاطهم .
 ومن قرأ بالياء وجهه التقريع - بالاعراض عما يجب أن لا يعرضوا عنه من
 التوبة والاقلاع عما هم عليه من النفاق - الى المنافقين دون المسلمين ، لان المسلمين
 قد عرفوا ذلك من امرهم . وكان الاولى أن يلحق التنبيه من يراد تنبيهه وتقريعه
 بتركه ما ينبغي ان يأخذ به . وتحتمل الرؤية في الآية على القراءتين أن تكون
 متعدية الى مفعولين . وأن تكون من رؤية العين أولى فاذا جعلت متعدية الى مفعولين

سَدَّ (أن) مسدَّهما وإن جعلت من رؤية العين كان أولى ، لأنهم مبتلون في الاعراض عند على ترك الاعتبار به ، وهذا أبلغ من المتعدية الي مفعولين ألا ترى أن تارك الاستدلال أعذر ممن يكابر المشاهدات . ولو قرىء بضم الياء وبني الفعل للمفعول به كان (ان) في موضع نصب بأنه مفعول الفعل الذي يتعدى الي مفعول ، وفتحت الواو في قوله « أولا » لأنها واو العطف دخلت عليها الف الاستفهام ، فهو متصل بذكر الملتفتين وم متصل بذكر آخرين ذكرهم بدليل العلامتين الواو والألف .

والفتنة المحنة بالقتل والسبي ونصر الله لنبيه حتى يستعلي على كل من ناواه - في قول الحسن وقتادة - وقال مجاهد : هي بالقحط والجوع . وقال الجبائي : هي بالمرض الذي ينزل بهم . وقيل : تهتك استأرهم بما يظهره الله من سوء نياتهم وخبث سرائرهم . وقال الزجاج : معناها أنهم يختبرون بالدعاء الي الجهاد ، وهو قول الحسن وقتادة . واجاز الرماني أن تفعل التوبة خوفاً من العقاب ، كما يجوز أن تفعل لقبح المعصية . قال : لأن كل واحد من الأمرين يدعو اليه الفعل ، ومن جحد أحد الأمرين كمن جحد الآخر . والذي عليه أكثر أهل العدل أنه لا يجوز أن تفعل التوبة الا لوجه قبح المعصية . ومتى فعلت لخوف العقاب لم تكن مقبولة .

وقوله « ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون » اخبار منه تعالى انه مع ما يمتحنهم في كل سنة دفعة او دفتين فانهم لا يقلعون عن المعاصي ولا يتوبون منها ولا يتفكرون فيها . والتذكر طلب الذكر بالذكرفيه .

قوله تعالى

وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَايَكُمْ
مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنْهَرُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لَّا يَفْقَهُونَ (١٢٨) آية.

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه متى أنزل سورة من القرآن « نظر بعضهم الى بعض » نظراً يومئذ به « هل يراكم من أحد » وإنما يفعلون ذلك ؛ لأنهم منافقون يتحذرون أن يعلم بهم ، فكأنهم يقول بعضهم لبعض : هل يراكم من أحد ثم يقومون فيصرفون . ويحتمل أن يكون انصرفهم عن العمل بشيء مما يستمعون . فقال الله تعالى « صرف الله قلوبهم » يعني عن رحمته عقوبة لهم « بأنهم قوم لا يفقهون » مواظب الله ولا أمره ونهيه . وإنما صرف قلوبهم عن السرور بالفائدة التي تحصل للمؤمنين بسماع الوحي ، فيحرمون ما للمؤمنين من الاستبشار بتلك الحال . والفقه فهم موجب المعنى المضمن به ، وقد صار علماً على علم الفتيا في الشريعة لان المعتمد على المعنى . وكان القوم عقلاء يفقهون الاشياء ؛ وإنما نفى الله عنهم ذلك لانهم لم ينظروا فيه ، ولم يعملوا بموجبه ، فكأنهم لم يفقهوه ، كما قال « صم بكم عي » (١) لما لم ينتفعوا بما سمعوه ورأوه .
قوله تعالى :

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ
عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٩) آية .

أقسم الله تعالى في هذه الآية بأنه قد « جاءكم رسول من أنفسكم » لان لام (لقد) هي اللام التي يتلقى بها القسم . والخطاب متوجه الى جميع الخلق . ومعنى « من انفسكم » أي انكم ترجعون الى نفس واحدة كما قال « قل إنما أنا بشر مثلكم » (٢) ويحتمل ان يكون المراد به من العرب كما انكم كذلك . ويكون - على هذا - الخطاب متوجها الى العرب خاصة ، فأنتم تخبرونه قبل مبعثه . وقيل : إنه لم يبق بطن من العرب إلا وولد النبي ﷺ وإنما ذكر ذلك لانه أقرب الى الالفة ، وأبعد من المحك واللجاج ، واسرع الى فهم الحجة ، فهو

من انفسكم في اشرف نسبة منكم ، ومن انفسكم في القرب منكم ، ومن انفسكم بالاختصاص بكم .

وقوله « عزيز عليه » أي شديد عليه لأنه لا يقدر على ازالته ، والعزيز في صفات الله معناه المنيع القادر الذي لا يتعذر عليه فعل ما يريد . والعزة امتناع الشيء بما يتعذر معه ما يحاول منه ، وهو على ثلاثة أوجه : امتناع الشيء بالقدرة أو بالقلة أو بالصعوبة . وقوله « ما عنتم » يعني ما يلحقكم من الأذى الذي يضيق الصدر به ولا يهتدى للخروج منه ، ومنه قيل : فلان يعنت في السؤال ، ومنه قوله تعالى « ولو شاء الله لأعنتمكم » (١) أي ضيق عليكم حتى لا تهتدوا للخروج منه ، والعنت إلقاء الشدة . و (ما) في قوله « ما عنتم » بمعنى الذي ، وهو في موضع رفع بالابتداء وخبره (عزيز) قدم عليه . وقال القراء : هو رفع بـ (عزيز) . وقوله « حريص عليكم » فالحرص شدة الطلب للشيء على الاجتهاد فيه . والمعنى : حريص عليكم ان تؤمنوا - في قول الحسن - ثم استأنف فقال « بالمؤمنين رؤوف رحيم » أي رقيق بهم رحيم عليهم .

قوله تعالى

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٣٠) آية .

معنى « فان تولوا » إن ذهبوا عن الحق واتباع الرسول وما يأمرهم به واعرضوا عن قوله . ونقيض التولي عنه التوجه اليه . ومثل التولي الاعراض . وقال الحسن : المعنى فان تولوا عن طاعة الله . وقيل « فان تولوا » عنك ، ومعناه فان ذهبوا عنك هؤلاء الكفار ، ولم يقرؤا بنبوتك « فقل » يا محمد « حسبي الله » ومعناه كفاني الله وهو

من الحساب لأنه تعالى يعطي بحسب الكفاية التي تغني عن غيره، ويزيد من نعمه ما لا يبلغ الى حدّ ونهاية؛ إذ نعمه دائمة ومنه متظاهرة. وقوله « لا إله الا هو » جملة في موضع الحال، وتقديره حسبي الله مستحقاً لإخلاص العبادة والاقرار بأن لا إله الا هو. وقوله « عليه توكلت » فالتوكل تفويض الامر الى الله على الثقة بحسن تدبيره وكفايته، بإخلاص النية في كل شيء يحذر منه؛ ومنه قوله « حسبنا الله ونعم الوكيل » (١) أي المتولي للقيام بمصالح عباده وفي هذه الصفة بلطف. وقوله « وهو رب العرش العظيم » قيل في تخصيصه الذكر بأنه « رب العرش العظيم » ثلاثة أفعال: أحدها - انه لما ذكر الاعظم دخل فيه الاصغر الثاني - أنه خص بالذكر تشریفاً له وتفخيماً لشأنه. الثالث - ليبدل به على أنه ملك الملوك لأنه رب السرير الاعظم. وجرّ القراء كلمهم « العظيم » على أنه صفة للعرش. وقال الزجاج: يجوز رفعه بجعله صفة لرب العرش.

قال ابي بن كعب وسعيد بن جبير والحسن وقتادة: هذه آخر آية نزلت من القرآن ولم ينزل بعدها شيء.



١٠ - سور لا يونس

[مكية وهي مئة وتسع آيات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّاتِلِكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) آية .

إنما لم تعدّ (الر) آية كما عدّ (الم) آية في عدد الكوفيين لأن آخره لا يشاكل رؤس الآي التي بعده ؛ إذ هي بمنزلة المردف بالياء . و (طه) عدّ ؛ لأنه يشاكل رؤس الآي التي بعده . وقرأ (الر) بالتفخيم ابن كثير ونافع وأبو جعفر . وقرأ بالامالة أبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي . واختلفوا عن عاصم : فروى هبيرة عن حفص بكسر الراء . الباقون عنه بالتفخيم . قال ابو علي الفارسي : من ترك الامالة ؛ فلأن كثيراً من العرب لا يميل ما يجوز فيه الامالة كما يمنعها المستعلي . ومن أمال ؛ فلانها اسم لما يلفظ به من الاصوات ، فجازت الامالة من حيث كانت اسماً ولم تكن كالحروف التي تمنع فيها الامالة . وقال الرهاني : انما جاز إمالة حروف الهجاء ، لأن ألفه في تقدير الانقلاب عن ياء .

وقد بينا في أول سورة البقرة معنى هذه الحروف التي في أول السور ، واختلف المفسرين ، وقلنا ، إن أقوى الوجود أنها اسماء السور ، فلا وجه لاعادته .

وقوله « تلك » قال ابو عبيدة معناه هذه . وقال الزجاج : المعنى الآيات التي تقدم ذكرها ، وهو قول الجبائي . وقال قوم : انما قال « تلك » لتقدم الذكر (الرفي) كقولك هندی كريمة . وانما اضيفت الآيات الى الكتاب لأنها أبعاض

الكتاب ، كما أن السورة ابعاضه ، وكذلك محكمه ومتشابهه واسماؤه وصفاته ووعده ووعيده وأمره ونهيه وحلاله وحرامه والآية العلامية النبي تنبئ عن مقطع الكلام من جهة مخصوصة . والقرآن مفصل بالآيات مضمن بالحكم النافية للشبهات وانما وصف الكتاب بأنه حكيم ، لأنه دليل على الحق كالناطق بالحكمة ، ولأنه يؤدي الى المعرفة التي يميز بها طريق الهلاك من طريق النجاة . وقال ابو عبيدة : حكيم ههنا بمعنى محكم وأنشد لأبي ذؤيب :

يواعدني عسكاظ لتنزله ولم يشعر إذن أني خليف (١)
أي مخلف من اخلفته الوعد . ويؤكد ذلك قوله « الر كتاب أحكمت آياته »
والآيات العلامات . والكتاب اسم من اسماء القرآن وقد بيناه فيما مضى . وحكي عن مجاهد أنه قال (تلك) اشارة الى التوراة الانجيل . وهذا بعيد لأنه لم يجز لهما ذكر .

قوله تعالى :

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ
النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ
الْكَافِرُونَ إِنْ هَذَا إِلَّا سَاحِرٌ مُّبِينٌ (٢) آية .

قرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي « لساحر مبين » بألف . الباقون بغير ألف . قال أبو علي الفارسي : يدل على ساحر قوله « وقال الكافرون هذا ساحر كذاب » (٢) ويدل على « ساحر » قوله « ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنما به كافرون » (٣) والقول في الوجهين أنه قد تقدم قوله « أن اوحينا الى رجل منهم » فمن قال « ساحر » أراد به الرجل ومن قال « ساحر » أراد الساذي أوحى « سحر »

(١) ديوان الهذليين ٩٩/١ واللسان (خلف) ومجاز القرآن ١ / ٢٧٣

(٣) سورة ٤٣ الزخرف آية : ٣٠

(٢) سورة ٣٨ ص آية ٤

أي الذي يقول أنه وحي « سحر » وليس بوحي .

ومعنى قوله « أكان للناس عجباً » أكان أيجاًؤنا القرآن الى رجل منهم عجباً؟ وإذارهم عقاب الله على معاصيه كأنهم لم يعلموا أن الله قد أوحى من قبله الى مثله من البشر ، فمعجبوا من وحيناً اليه الآن ؟ فالأف ألف استفهام والمراد به الانكار . وقال ابن عباس ومجاهد وابن جريح : عجبت العرب وقريش أن يبعث الله منهم نبياً فأنزل الله الآية . وقال الحسن : معناه ليس بعجب ما فعلنا في ذلك . والمعنى ألم يبعث الله رسولا من أهل البادية ولا من الجن ولا من الانس . والعجب تغير النفس بما لا يعرف سببه مما خرج عن العادة الى ما يجوز كونه . والانذار هو الاخبار على وجه التخويف ، فمن حذر من معاصي الله فهو منذر . وهذه صفة النبي ﷺ . وقوله « أن أوحينا » في موضع رفع وتقديره أكان للناس عجباً وحيناً و « أن أنذر » في موضع نصب ، وتقديره وحيناً بأن أنذر ، فحذف الجار فصار موضعه نصباً . و « أن لهم » نصب بقوله « وبشر الذين آمنوا » ولو قرىء بالكسر كان جائزاً لأن البشارة هي القول إلا أنه لم يقرأ به . وقوله « وبشر الذين آمنوا » أمر للنبي ﷺ أن يبشر المؤمنين ، وهو أن يعرفهم ما فيه السرور بالخلود في نعيم الجنة على وجه الاكرام والاجلال بالأعمال الصالحة . وقوله « أن لهم قدم صدق عند ربهم » معناه ان لهم سابقة إخلاص الطاعة كإخلاص الصدق من شائب التكذب . وقالوا : له قدم في الاسلام ، والجاهلية . وهو كالقدم في سبيل الله ، قال حسان :

لنا القدم العليا اليك وخلقنا لأولنا في طاعة الله تابع (١)
وقال ذو الرمة :

لكم قدم لا ينكر الناس أنها مع الحسب العادي طمّت على البحر (٢)

وقال أبو سعيد الخدري وأبو عبد الله ﷺ : معناه إن تحراً ﷺ لهم شفيع يوم القيامة ، وهو المروي عن ابي عبد الله ﷺ . وقال مجاهد : معناه لهم

قدم خير بأعمالهم الصالحة . وقال قتادة : معناه لهم سلف صدق . وقال الضحاك : لهم ثواب صدق . وقال ابن عباس : لهم ما قدموه من الطاعات .

وقوله « قال الكافرون إن هذا لساحر مبين » حكاية عن الكفار أنهم يقولون إن النبي ساحر مظهر ، أو ما أتى به سحر مبين على اختلاف القراءات . والسحر فعل يخفى وجه الحيلة فيه حتى يتوهم أنه معجز . والعمل بالسحر كفر لادعاء المعجزة به ، ولا يمكن مع ذلك معرفة النبوة . وقال الزجاج : المراد به (الناس) في الآيسة أهل مكة . وقيل إنهم قالوا : لم يجد الله من يعنه رسولا إلا يتيم أبي طالب !؟

قوله تعالى

إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ
إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) آية

خاطب الله تعالى بهذه الآية جميع الخلق وأخبرهم بأن الله الذي يملك تدبيركم وتصريفكم بين أمره ونهيه ويجب عليكم عبادته « الله الذي خلق السموات والأرض » فآخترهما وأنشأهما على ما فيهما من عجائب الصنعة وامتقن الفعل . وإطلاق الرب لا يقال إلا فيه تعالى ، فاما غيره فإنه يقيد له ، فيقال : رب الدار ، ورب الضيقة بمعنى أنه مالكتها . وكذلك معنى قوله « رب العرش » والربوبية ملك التدبير الذي يستحق به العبادة . وقيل في الوجه « الذي خلق السموات والارض في ستة أيام » بلا زيادة ولا نقصان مع قدرته على إنشائها رفعة واحدة قولان :

أحدهما - أن في اظهارهما كذلك مصلحة للملائكة وعبرة لهم .

والثاني - لما فيه من الاعتبار إذا أخبر عند تصرف المال كما صرف الله

الانسان من حال الى حال ، لأن ذلك أبعد من توهم الاتفاق فيه .
 وقوله « ثم استوى على العرش » معناه استولى عليه بانشاء التدبير من جهته
 كما يستوي الملك على سرير ملكه بالاستيلاء على تدبيره ، قال الشاعر :
 ثم استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مہراق (١)
 يعني بشر بن مروان . ودخلت (ثم) لأن التدبير من جهة العرش بعد استوائه .
 وقوله « يدبر الأمر » فالندير تنزيل الامور في مراتبها على إحكام عواقبها ،
 وهو مأخوذ من الديور ، فتجري على أحكام الدابر في الباري .
 وقوله « وما من شفيع إلا من بعد إذنه » فالشفيع هو السائل في غيره لاسقاط
 الضرر عنه . وعند قوم أنه متى سأل في زيادة منقعة توصل اليه كان شفيعاً . والذي
 اقتضى ذكره - ههنا - صفات التعظيم مع اليأس من الاتكال في دفع الحق على
 الشفيع . والمعنى - ههنا - ان تدبيره للأشياء وصنعتة لها ليس يكون منه بشفاعة
 شفيع ولا بتدبير مدبر لها سواه ، وأنه لا يجسر أحد أن يشفع اليه إلا بعد ان يأذن
 له فيه ، من حيث كان تعالى أعلم بموضع الحكمة والصواب من خلقه بمصالحهم . وقوله
 « ذلکم اللہ ربکم فاعبدوه أفلا تذكرون » معناه إن الموصوف بهذه الصفات هو
 ربکم وإلہکم فاعبدوه وحده ، لأنه لا إله لکم سواه ، ولا يستحق هذه الصفات
 غيره . وحثهم على التذكر والتفكر في ذلك وعلى تعرف صحة ما أخبرهم به
 وقيل: ان العرش المذكور - ههنا - هو السموات والارض ، لأنهن من بنائه . والعرش
 البناء . ومنه قوله « يعرشون » (٢) أي يبنون . وأما العرش المعظم الذي تعبد الله
 الملائكة بالحفوف به والأعظام له وعناه بقوله « الذين يحملون العرش ومن
 حوله » (٣) فهو غير هذا . وإنما ذكر الشفيع في الآية ولم يجز له ذكر ، لأن

(١) مر هذا البيت في ١٢٥ / ٨ و ٣٩٦ / ٢

(٢) سورة ١٦ النحل آية ٦٨ وسورة ٧ الأعراف آية ١٣٦

(٣) سورة ٤٠ المؤمن آية ٧

المخاطبين بذلك كانوا يقولون الأصنام شفعاؤهم عند الله . وذكر بعدما « ريعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » (١) وإذا كانت الأصنام لاتعقل فكيف تكون شافعة؟! مع أنه لا يشفع عنده الا من ارتضاه الله. واختار البلخي أن يكون خلق السموات والأرض في ستة أيام إنما كان لان خلقه لهما دفعة واحدة لم يكن ممكناً كما لا يمكن الجمع بين الضدين ، ولا يمكن الحركة إلا في المتحرك . وهــذا الذي ذكره غير صحيح ، لأن خلق السموات والأرض خلق الجواهر واختراعها ، والجواهر لا تختص بوقت دون وقت ، فلاحال إلا ويصح اختراعها فيه ما لم يكن فيما لم يزل . وانما يصح ما ذكره في الاعراض التي لا يصح عليها البقاء او ما يستحيل جمعه للمتضاد ، فأما غيره فلا يصح ذلك فيه .

قوله تعالى :

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) آية .

قرأ أبو جعفر « حقاً أنه » بفتح الهمزة . الباقيون بكسرها . من فتح ، فمعناه إليه مرجعكم ، لأنه يبدأ . ومن كسر استأنف . قال القراء : من فتح جعله مفعول حقاً كأنه قال حقاً أنه . قال الشاعر :

أحقاً عباد الله ان لست زائراً
بشينة او يلقى الثريا رقيبها (٢)

أخبر الله تعالى أن الذي خلق السموات والأرض هو الله تعالى ، وهو الذي يستحق العبادة لاغيره وان اليه مرجع الخلق كلهم . والمرجع يحتمل معنيين : احدهما - أن يكون في معنى الرجوع فيكون مصدراً .

والاخر - موضع الرجوع فيكون ظرفاً ، كأنه قال : اليه موضع رجوعكم يكونه اذا شاء . ومعنى الرجوع اليه يحتمل أمرين : احدهما - ان يعود الأمر الى ان لا يملك أحد التصرف في ذلك الوقت غيره تعالى بخلاف الدنيا ، لأنه تعالى قد ملك كثيراً من خلقه التصرف في دار الدنيا وممكنهم من ذلك . والثاني - ان يكون معناه انكم ترجعون اليه احياء بعد الموت أي الى موضع جزائه وقوله « وعد الله حقاً » نصب على المصدر وتقديره احقه حقاً او وعد الله وعداً حقاً ، لأن في قوله « مرجعكم » انه وعد بذلك الا انه لما لم يذكر الفعل اضيف المصدر الى الفاعل ، كما قال كعب بن زهير :

يسعى الوشاة جنابها وقيلمهم انك يا ابن أبي سلمى لطقول (١)

اي ويقولون قيلمهم . وقوله « انه يبدأ الخلق ثم يعيده » اخبار منه تعالى انه الذي أنشأ الخلق ابتداء ، وهو الذي يعيدهم بعد موتهم النشأة الاخرى ليدل بذلك خلقه على أنه اذا كان قادراً على الابتداء فهو قادر على الاعادة .

وقوله « ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات » فيه بيان أنه انما يعيد الخلق ليعطيهم جزاء اعمالهم من طاعة ومعصية ، والعطاء اذا كان ابتداء لايسمى جزاء . وقوله « بالفسط » معناه بالعدل ، لأنه لو زاد الجزاء او نقص لخرج عن العدل ، ولكن يجزيهم وفق اعمالهم حتى لا يكون الجزاء على النبوة كالجزاء على الايمان بل كل طاعة يستحق الجزاء على قدرها .

وقوله « والذين كفروا لهم شراب من حميم » معناه ان الذين يجحدون نعم الله ويكفرون بوحدانيته ويجحدون رسله « لهم شراب من حميم » وهو الذي اسخن

(١) ديوانه ١٩ ومجاز القرآن ١ / ١١٢ ، ٢٧٣ وقد مر في ١ / ٣٠٠

بالنار اشدّ اسخان . قال المرقش الاصغر :

وكل يوم لها مقطرة
فيها كباء معدّ وحميم (١)
الكلباء العود الذي يتبخر به . وقوله « وعذاب أليم » معناه مؤلم « بما كانوا
يكفرون » اي جزاء على كفرهم .

قوله تعالى :

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ
لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ
يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) آية .

روى ابن مجاهد عن قنبل ، والحولى عن الربيعي (ضياءً) بهمزة بعد الضاد مكان
الياء حيث وقع . الباقيون بياء بعد الضار ومدة بعدها . قال ابو علي الفارسي :
لا يخلو « ضياء » من أن يكون جمع ضوء كسوط وسياط ، وحوض وحياض ، او
مصدر (ضياء) يضيء ضياءً مثل عاذ يعوذ عياداً أو قام يقوم قياماً ، وعلى أي الوجهين
حملته فالضاد محذوف ، والمعنى جعل الشمس ذات ضياءً ، والقمر ذا نور . أو
يكون جعل النور والضياء لكثرة ذلك فيهما ، فأما الهمزة في موضع العين من
« ضياء » فيكون على القلب كأنه قدم اللام التي هي همزة الى موضع العين واخر
العين التي هي واو الى موضع اللام ، فلما وقعت طرفاً بعد الف زائدة قلبت همزة .
كما فعلوا ذلك في (سقاء وعلاء) وهذا اذا قدّر جمعاً كان أسوغ . كما قالوا
قوس وقسي . فصححوا الواحد وقلبوا في الجمع ، واذا قدّرتهم مصداً كان أبعد ، لأن
المصدر يجري على فعله في الصحة والاعتلال ، والقلب ضرب من الاعتلال فاذا لم
يكن في الفعل يمتنع أن يكون أيضاً في المصدر ألا ترى انهم قالوا : لاذ لو اذا

وباع بياً ، فصححوها في المصدر كصحتها في الفعل ، وقالوا : قام قياماً فأعلموه ونحوه ، لاعتلاله في الفعل . وقرأ ابن كثير وأهل البصرة وحفص (يفصل) بالياء . الباقون بالنون . من قرأ بالياء فلا نسه قد تقدم ذكر الله تعالى فأضمر الاسم في الفعل . ومن قرأ بالنون فهذا المعنى يريد . ويقويه بقوله « تلك آيات الله تتلوها » وقد تقدم « اوحينا » فيكون نفصل محمولاً على « اوحينا » والياء أقوى ، لأن الاسم الذي يعود إليه أقرب إليه من (اوحينا) .

أخبر الله تعالى ان الذي يرجع إليه الخلق هو الله « الذي جعل الشمس ضياءً والجعل وجود ما به يكون الشيء على صفة لم يكن عليها ، فتارة يكون باحداثه وأخرى باحداث غيره . والشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى لما فيهما من عظم النور ، ومسيرهما بغير علاقة ولارعامه ، وفيهما أعظم الدلالة على وحدانية الله تعالى . والنور شعاع فيه ما ينافي في الظلام . ونور الشمس لما كان أعظم الأنوار سماه الله ضياءً ، كما قيل للمنار ناراً ؛ لما فيها من الضياء ، ولما كان نور القمر دون ذلك سماه نوراً ، لأن نور الشمس وضياءها يغلب عليه ، ولذلك يقال أضاء النهار ، ولا يقال اضاء الليل بل يقال انار الليل ، وليلة منيرة . ويقولون : في قلبه نور ، ولا يقال فيه ضياء ، لأن الضوء يقال لما يحس بكثرتة . وقوله « وقدره منازل » انما وحد في قوله « وقدره » ولم يقل وقدرهما ، لأحد أمرين : احدهما - أنه أراد به القمر ، لأن بالقمر تحصى شهور الأهلة التي يعمل الناس عليها في معاملتهم . والاخر - ان معناه التثنية غير أنه وحده للايجاز اكتفاء بالمعلوم ، كقوله « والله ورسوله أحق أن يرضوه » (١) وقال الشاعر :

رمانى بأمر كنت منه والدي بريئاً ومن جول الطوي رمانى (٢)

وقوله « ما خلق الله ذلك إلا بالحق » معناه لم يخلق ما ذكره من السموات والارض والشمس والقمر وقدرهما منازل إلا حقاً . وقوله « يفصل الآيات » اي

(١) سورة ٩ التوبة آية ٦٣ (٢) مر تخريجه في ١٧٢/١ ، ٢٠٣

يميز بعضها من بعض « لقوم يعلمون » ذلك ويتبينونه . وقال قوم : معناه لقوم لهم عقول يتناولهم التكليف ويصح منهم الاستدلال دون البهائم ومن لاعقل له .

قوله تعالى :

إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦) آية .

الاختلاف ذهاب كل واحد من الشئيين في غير جهة الآخر . فاختلاف الليل والنهار ذهاب أحدهما في جهة الضياء والآخر في جهة الظلام . والليل عبارة عن وقت غروب الشمس الى طلوع النجم الثاني ، وهو جمع ليلة كتدرة وتمر . والنهار عبارة عن اتساع الضياء من طلوع النجم الثاني الى غروب الشمس . والنهار واليوم معناه واحد إلا أن في النهار فائدة اتساع الضياء . وقوله « وما خلق الله في السموات والارض » معناه ما قدر فيهما وفعله على مقدار تقتضيه الحكمة : من الحيوان والنبات وغيرهما من غير نقصان ولا زياد ، . وإن في رفعه السماء بلا عمد ، وتسكينه الارض بلا سند ، مع عظمها لأعظم آيات لمن تفكر في ذلك وتعقله ، وينقي مخالفته . والخلق مأخوذ من خلقت الأديم اذا قدرته . وإنما خص ما خلق في السموات والأرض بالذكر للاشعار بوجوه الدلالات إذ قد تكون الدلالة في الشيء من جهة الخلق ، وقد تكون من جهة اختلاف الصورة ومن جهة حسن المنظر ، ومن جهة كثرة النفع ومن جهة عظم الأمر ، كالجبل والبحر . وقوله « لآيات لقوم يتقون » معناه ان في هذه الاشياء التي ذكرها دلالات على وحدانية الله لقوم يتقون معاصيه ويخافون عقابه ، وخص المتقين بالذكر لما كانوا هم المتفهمين بها دون غيرهم .

قوله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا
بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) آية .

معنى « إن الذين لا يرجون لقاءنا » يحتمل أمرين :
احدهما - لا يخافون عقابنا ، كما قال الهذلي :

إذا سمعته النحل لم يرج لسعها وخالفها في بيت نوب عواسل (١)

والثاني - أن يكون معناه لا يطمعون في ثوابنا ، كما يقال تاب رجاء لثواب
الله وخوفاً من عقابه . والملافة وإن كانت لاتجوز الاعلى الاجسام . فانما اضافها
الى نفسه ، لان ملافة ما لا يقدر عليه إلا الله يحسن ان يجعل لقاء الله تفخيماً لشأنه
كما جعل إتيان ملائكته اتياناً لله في قوله « هل ينظرون الا أن يأتيهم الله في ظلل
من الغمام » (٢) وكما قال « وجاء ربك » (٣) وانما يريد وجاء امر ربك .

ومعنى قوله « ورضوا بالحياة الدنيا » قنعوا بها دون غيرها من خير الآخرة
ومن كان على هذه الصفة ، فهو مذموم لانقطاعه بها عن الواجب من أمر الله . وقوله
« واطمأننوا بها » معناه ركنوا اليها على وجه التمكين فيه ، فهؤلاء مكنوا الاحوال
الدنيا ، فصاحبها يفرح لها ويغتم لها ويرضى لها ويسخط لها . وقوله « والذين هم
عن آياتنا غافلون » معناه الذين يذهبون عن تأمل هذه الايات ولا يعتبرون بها .
والغفلة والسو نظائر ، وهو ذهاب المعنى عن القلب بما يضاده وقد تستعمل الغفلة في
التعرض لها ، ولذلك يقولون : تغافل ولا يقولون مثله في السهو .

(١) اللسان (خلف) ومجاز القرآن ١ / ٢٧٥ وقد مر في ٢ / ٢١٠ و ٣ / ٣١٥

(٢) سورة البقرة آية ٢١٠ (٣) سورة ٨٩ الفجر آية ٢٢

قوله تعالى :

أُولَئِكَ مَاؤِهِمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) آية

« أولئك » اشارة الى الذين تقدم ذكرهم في الاية الأولى، والكاف في « أولئك » حرف الخطاب ، مثل الكاف في قولهم أنا ذاك ، ولهذا لم يجز تأكيده ولا البديل منه ، ولو كان اسماً لجاز : أولئك نفسك . وأولاء مبني على الكسر ، وإنما مبني لتضمنه معنى الاشارة الى المعرفة لأن أصله أن يتعرف بعلامة : اذ لم يوضع للمشيء بعينه ، كما وضع زيد وعمرو ، وبني على الحركة لالتقاء الساكنين ، وبني على الكسر لأنها في الأصل في حركة إلتقاء الساكنين إذا كثر ذلك في الفعل لما يدرکه من الجزم فاستحق الكسر لأنه لما يدخله في حال الاعراب و (هؤلاء) لما قرب و (أولئك) لما بعد ، كما تقول في (هذا) و (ذاك) لأن ما بعد يقتضي التعريف بالخطاب وما قرب يكفي فيه التنييد . اخبر الله تعالى أن الذين تقدم وصفهم في الاية الاولى مستقرهم النار جزاء بما كانوا يكسبون من المعاصي .

قوله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) آية .

لما ذكر الله تعالى الكفار وما يستحقونه من المصير الى النار في الآيات الأولى ذكر في هذه « ان الذين آمنوا » يعني صدقوا بالله ورسوله ، واعترفوا بهما وأضافوا الى ذلك الاعمال الصالحات « يهديهم » الله تعالى جزاء بإيمانهم الى الجنة « تجري من تحتهم الانهار في جنات النعيم » يعني البساتين التي تجري تحت أشجارها الانهار التي فيها النعيم يعني أنواع اللذات والمنافع يتمتعون فيها . ومعنى « تجري من تحتهم

الانهار « تجري بين أيديهم ، وهم يرونها من عل ، كما قال تعالى « قد جعل ربك تحتك سرياً » (١) ومعلوم انه لم يجعل السري تحتها وهي قاعدة عليده ، لان السري هو الجدول ، وإنما أراد أنه جعل بين يديها . وقال حاكياً عن فرعون « أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي » (٢) وقيل من تحت بساكنهم وأسرتهم وقصورهم - في قول ابي علي . ومعنى الهدى - هنا - الاشارة الى طريق الجنة ثواباً على أعمالهم الصالحة ، ألا ترى انه قال « يهديهم ربهم بايمانهم » يعني جزاء على إيمانهم ، وذلك لا يليق إلا بما قلناه . ويحتمل أن يكون وصفهم بالهداية على وجه المدح جزاء على إيمانهم بالله تعالى .

قوله تعالى :

دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحْمِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأٰخِرُ
دَعْوَاهُمْ اَنْ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠) آية

معنى « دعواهم فيها » ان دعاء المؤمنين لله في الجنة ، وذكرهم له فيها هو ان يقولوا « سبحانك اللهم » ويقولون ذلك ولهم فيها لذة لاعلى وجه العبادة ، لانه ليس هناك تكليف . وقيل : إنه اذا مر بهم الطير يشتهونه قالوا « سبحانك اللهم » فيؤتون به ، فاذا نالوا منه شهوتهم قالوا « الحمد لله رب العالمين » - هذا قول ابن جريج . وقال الحسن : آخر كلام يجري لهم في كل وقت « الحمد لله رب العالمين » لأنه ينقطع . والدعوى قول يدعى به الى أمر ، ومعنى « سبحانك اللهم » نزهك يا الله من كل ما لا يليق بك ولا يجوز من صفاتك من تشبيهه أو فعل قبيح . وقيل معناه براءة الله من سوء فيما يروى عن النبي ﷺ وقال الشاعر :

(١) سورة ١٩ مريم آية ٢٣

(٢) سورة ٤٣ الزخرف آية ٥١

أقول ط-ا جاءني فخره سبحان من علقمة الفاخر (١)
أي براءة منه . والتحية التكرمة بالحال الجليلة ، ولذلك يسمون الملك
التحية ، قال عمرو بن معد يكرب :

ازور بها أبو قابوس حتى أنيخ على تحيته بجند (٢)
وقال زهير بن خباب الكلبي :

من كل ما نال الفتى قد نلته الا التحية (٣)

وهو مأخوذ من قولهم احياك الله حياة طيبة . والمعنى تحية بعضهم لبعض سلام
اي سلمت وامنت مما ابتلى به اهل النار . و (أن) في الآية هي المخففة من
الثقيلة وجاز ان لاتعمل لخروجها بالتخفيف عن شبه الفعل ، كما قال الشاعر :

في فتية كسيوف الهند قد علموا ان هالك كل من يحفى وينتعل (٤)
والميم في الملم بمعنى (يا) كأنه قال يا الله ، ولم يجعل في موضع (يا) لثلا
يكون كحروف النداء التي تجري في كل اسم .

قوله تعالى :

وَلَوْ يَعَجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضِيَ
إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ
يَعْمَهُونَ (١١) آية

قرا ابن عامر ويعقوب «لقضى اليهم اجلهم» بفتح القاف . الباوقون بضمها على
مالم يسم فاعله . قال ابو علي الفارسي : اللام في قوله «لقضى اليهم اجلهم» جواب
(لو) في قوله «ولو يعجل الله للناس» والمعنى «ولو يعجل الله للناس» دعاء

(١) مر هذا البيت في ١٣٤/١ و ٨١/٣ و ٢٤١/٥

(٢ ، ٣) تفسير الطبري ٥٨/١١ (٤) حاشية الصبان ٢٩٠/١

« الشر » اي ما يدعون به من الشر على انفسهم في حال ضجر و بطر « استعجالهم » اياه بدعاء « الخير » فأضاف المصدر الى المفعول به وحذف الفاعل كقوله دعاء الخير ، وحذف ضمير الفاعل ، والتقدير « ولو يعجل الله للناس الشر » استعجالا مثل « استعجالهم بالخير لقضي اليهم اجلهم » قال ابو عبيدة : معناه الفراغ من اجلهم ومدتهم المضروبة للحياة ، فهلكوا ، وهو قريب من قوله « ويدعو الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا » (١) . وقيل للميت مقضي كأنه قضى إذا مات وقضى فعل ، التقدير استوفى أجله ، قال ذو الرمة :

إذا الشخص فيها هزه الآل أغضت عليه كغماض المقضي هجولها (٢)

والمعنى أغضت هجول هذه البلاد على الشخص الذي فيها ، فلم ير لقربه كغماض المقضي ، وهو الميت . فأما قوله « لقضي اليهم » وبما يتعلق هذا الجار ، فانه لما كان معنى (قضى) معنى (فرغ) وكان قولك (فرغ) قد يتعدى بهذا الحرف وفي التنزيل « سنفرغ لكم » (٣) فانه يمكن أن يكون الفعل يتعدى باللام كما يتعدى بـ (الى) كما ان اوحى في قوله « وأوحينا اليه » قد تعدى بـ (الى) وفي قوله « بأن ربك أوحى لها » (٤) تعدى باللام ، فلما كان معنى قضى فرغ ، وفرغ تعلق بها (الى) كذلك تعلق بقضى . ووجه قراءة ابن عامر واسناده الفعل الى الفاعل ، لأن الذكر قد تقدم في قوله « ولو يعجل الله للناس » فقال (لقضى) الله - على هذا - وقوى ذلك بقوله « ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده » (٥) فتقوله « قضى اجلا » اضافته الى الفاعل فكذلك في هذه الآية . وقوله « واجل مسمى عنده » يعني أجل البعث بدلالة قوله « ثم انتم تمترون » (٦) أي تشكون في البعث .

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ١١

(٢) اللسان وغمض « الآل ما أشرف من البعير ومعنى البيت أن الابل مسرعة .

(٣) سورة ٥٥ الرحمن آية ٣١ (٤) سورة ٩٩ الزلزال آية ٥

(٥ ، ٦) سورة ٦ الانعام آية ٢

ومن ضم القاف وبنى الفعل للمفعول ، فـ...إلا أنه في المعنى مثل قول من بنى الفعل للفاعل .

أخبر الله تعالى في هذه الآية انه لو عجل للخلاق الشر ، والتعجيل تقديم الشيء قبل حينه . وقد يكون تقديم الشيء في المكان ، فلا يكون تعجيلا . والفرق بين التعجيل والاسراع ان التعجيل بالشيء عمله قبل وقته الذي هو أولى به . والاسراع عمله في وقته الذي هو احق به ، وضده الابطاء . والشر ظهور ما فيه الضرر . واصلد الاظهار من قولهم : شررت الثوب اذا اظهرته للمشمس ، ومنه شرر النار لظهوره وانتشاره . وقوله « لقضي اليهم اجلهم » قيل : إن معناه لأمينوا كأنه قيل انقطع اجلهم وفرغ منه قال ابو ذؤيب :

وعليهما مسرورتان قضاهما داود أوضع السوابغ تبع (١)

وقال الحسين بن علي المغربي : معناه ردّ قطع أجلهم اليهم لكون السبب فيه دعاؤهم . وقوله « استعجالهم بالخير » نصب استعجالهم على المصدر وتقديره ولو يعجل الله للناس تعجيله استعجالهم بالخير اذا دعوا . وقيل في معناه قولان احدهما - قال مجاهد وقتادة : وعو كقول الرجل لولده وماله في حال غضبه : اللهم لاتبارك فيد والعنه . وقال الحسن : هو كقوله « ويدعو الانسان بالشر دعاؤه بالخير » (٢) وقال الجبائي : معناه إنهم يطلبون الخير قبل حينه ، وسبيله في أنه لا ينبغي أن يكون كسبيل الشر من الاهلاك بالعقاب قبل حينها فيه من الاقتطاع عن التوبة واللطف . وقوله « فنذر الذين لا يرجون لقاءنا » معناه نترك الذين لا يخافون لقاءنا أو لا يطمعون فيه بمعنى أنهم لا يخافون عقاب معاصينا ، ولا يطمعون في ثواب طاعتنا « في طغيانهم يعمهون » فالطغيان الغلو في ظلم العباد والطاغي والباغي نظائر . والعمه شدة الخيرة ، وتقديره نتركهم وهم يترددون في ضلالتهم ، لأنه يريد منهم العمه

(١) مجاز القرآن ١ / ٢٧٥ وقد هر في ١ / ٤٢٩ و ٤ / ٨٨ ، ١٦٥

(٢) سورة ١٧ الاسراء آية ١١ .

في الطغيان ، لأنه إنما يتركهم ليتوبوا من ذلك ويؤمنوا لكنه بين أنه لا يعاجلهم بالعقاب في الدنيا ، وهم مع ذلك لا يرجعون بل يترددون في الطغيان . وقيل المعنى تتركهم في الآخرة يتحIRON في جزاء طغيانهم .

قوله تعالى :

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا نَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) آية .

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن قلة صبر الإنسان؛ إذا ناله الضر دعا ربه على سائر حالاته التي يصيبه ذلك عليها، سواء كان قائماً أو قاعداً إذا أطاقه ، أو على جنبه من شدة المرض فيجتهد في الدعاء لأن يهب الله له العافية . وليس غرضه بذلك نيل الثواب للآخرة . وإنما غرضه زوال ما هو فيه من الآلام ، فإذا كشف الله عنه ذلك الضرر ، ووهب له العافية ، مرّ معرّضاً عن شكر ما وهبه له من نعمة وعافية فلا يتذكر ما كان فيه من الآلام ، وصار في الأعراض عن ذلك بمنزلة من لم يدع الله كشف ألمه ولا سألته إزالة الضرر عنه الذي كان به . وقوله « كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » قال أبو علي الجبائي : الشياطين الذين دعوا المسرفين إلى المعاصي واغروهم بها وبترك شكر نعم الله زينوا لهؤلاء المسرفين ما كانوا يعملونه من المعاصي والأعراض عن ذكر نعمه وإدراك شكره . والغرض بذلك أنه ينبغي لمن وهب الله له العافية بعد المرض أن يتذكر حسن صنع الله إليه وجزيل نعمه عليه ، فيشكره على ذلك ويسأله إدامة ذلك عليه . ونبه بذلك على أنه يجب عليه الصبر عند المرض وترك الجزع عند احتساب الأجر وطلب الثواب في الصبر على ذلك ، وأن يعلم أن الله محسن إليه بذلك . وليس بظالم لسه . وقال الحسن

التزيين هو التحسين من الشيطان والغواية . وقال غيره هو التحجيب بالشهوة لتحجيب المشتبهى . وقوله « أو قاعداً أوقائماً » نصب على الحال . وقوله « كأن » هي المخففة عن الثقلية ، وتقديره كأنه لم يدعنا ، ومثله قول الخنساء :

كأن لم يكونوا حدى متقى اذ الناس اذ ذاك من عزب^١ (١)
اي كأنهم . وقوله « مر كأن لم » اي استمر على طريقته الأولى كأنه لم يدعنا ولم يسألنا ذلك . وموضع الكاف نصب على أنه مفعول مالم يسم فاعله والمعنى زين للمسرفين عملهم « كذلك » أي مثل ذلك .

قوله تعالى

وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ
بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) آية

أقسم الله تعالى في هذه الآية أنه اهلك من كان قبل هذه الأمة من القرون ، وهو جمع قرن . وسمى أهل كل عصر قرناً لمقارنته بعضهم لبعض . والقرن هو المقاوم لقرينه في الشدة ، ويعني بذلك الذين كذبوا رسل الله الذين بعثهم الله إليهم فكفروا بذلك بربههم وظلموا أنفسهم فأهلكهم الله بأنواع العذاب وفنون الاستئصال كما أهلك قوم لوط وقوم مدسى وغيرهم ، وبين بقوله « وما كانوا ليؤمنوا » ان هذه الأمم التي أهلكهم لم يكونوا مؤمنين ولو أبقاهم الله لم يؤمنوا بالرسل الذين أتوهم والكتب التي جاؤهم بها ، ولما كان ذلك المعلوم من حالهم استحقوا من الله تعالى العذاب فأهلكهم .

وقوله « كذلك نجزي القوم المجرمين » اي نعاقب مثل عقوبة هؤلاء المجرمين اذا استحقوا أو كانوا ممن لا يؤمن ولا يصلح . وجعل ابو علي الجبائي ذلك دليلاً

على ان تبقى الكافر إذا علم من حاله أنه يؤمن فيما بعد واجبة .

قوله تعالى :

ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤) آية .

بين الله تعالى بهذه الآية أنه إنما جعل المخاطبين بهذا الخطاب بعد وإهلاك من أهلك وتكليفه إياهم بطاعته وتصديق رسله مثل ما كان كلفهم «لننظر كيف تعملون» معناه إنكم إن عملتم بالمعاصي مثل ما عمل بها أولئك وكذبتهم الرسل ولم ترجعوا عن الكفر أهلككم ببعض العقاب كما أهلك من تقدم . وإن آمنتم أذابكم الله في الدنيا والآخرة ورضي عنكم ، فجعل قوله «لننظر كيف تعملون» دلالة لهم على اني أفعل بكم احد هذين : الثواب إن آمنتم وأطعتم ، والعذاب إن كفرتم وعصيتم . واستعمل ذلك على هذا المعنى مجازاً كما يستعمله اهل اللغة على هذا المعنى ، لانهم لا يعلمون ما يكون من المكلفين وما يفعل بهم من الثواب والعقاب وهو عالم بذلك . ومثل ذلك يستعمله العرب فيما يعلمه الانسان يقول القائل لغلामه الذي يأمره : إني سأعاقبك وأضربك لأنظر كيف صبرك ، واعطيك ما لا لأنظر كيف تعمل ، وإن كان عالماً بما يؤل إليه الأمر في ذلك .

وموضع (كيف) نصب بقوله «تعملون» وإنما قدم لانه للاستفهام ولايجوز أن يكون معمولاً «لننظر» لأن ما قبل الاستفهام لايعمل في الاستفهام ولو قلت لننظر أخيراً يعملون أو شراً ؟ كان العامل في (خير ، وشر) يعملون .

قوله تعالى :

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا

أَتَيْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ فَهَلْ يَنْبَغُ أَنْ يُرْسِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ آيَاتٍ
فَأَنْتَ تَكْفُرُ
نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ
يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) آية .

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه إذا قرأ النبي ﷺ على الكفار آيات الله وكلامه . و (بينات) نصب على الحال . وهي الآيات التي أمر فيها عباده بأشياء ونهاهم عن أشياء « قال الذين لا يرجون لقاءنا أي لقاء عذاب الله أو ما وعدهم به من ثوابه إن أطاعوه » أئت بقرآن غير هذا « الذي تتلوه علينا » أو بدله « فاجعله على خلاف ما تقرأه علينا ، وإنما فرق بين قوله « أئت بقرآن غير هذا أو بدله » لأن الاتيان بغيره قد يكون معه ، وتبديله لا يكون إلا برفعه ، والاتيان بغيره . وإنما لم يرجوا ثواب الله وعذابه لأنهم كانوا غير مقرين بالله ولا معترفين بنبوته نبيه ﷺ ولا يصدقونه فيما يخبرهم به عن الله ويذكروهم به من البعث والنشور والحساب والجزاء . وكان قولهم هذا له على وجه التعنت والتسبب إلى الكفر به وتكذيبه ، واحتجاجاً عليه بما ليس بحجة لأنه ﷺ كان قد بين لهم أن هذا القرآن ليس من كلامه وأنه ليس له تغييره وتبديله ، فأرادوا أن يوهموا أن الأمر موقوف على رضاهم به ، وليس يرضون بهذا فيريدون غيره . وقال الزجاج : إنه كان غرضهم إسقاط ما فيه من عيب ألهمهم وتسفيه أحلامهم ومن ذكر البعث والنشور ، فأمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم في جواب ذلك : ليس لي « أن أبدله من تلقاء نفسي » أي من جهة نفسي ومن ناحية نفسي كأنه قيل له : قل ليس لي أن اتلقاه بالتبديل كما ليس لي أن اتلقاه بالرد . والتلقاء جهة مقابلة الشيء إلا أنه قد يستعمل ظرفاً فيقال : هو تلقاءه كما يقال : هو حذاءه وقبالةه وتجاهه .

قوله « إن أتبع إلا ما يوحى إلي » أي ليس لي أن أنبع إلا الذي يوحى إلي

« إني أخاف إن عصيت ربي » في اتباع غيره « عذاب يوم عظيم » يعني يوم القيامة .
ومن استدل بهذه الآية على أن نسخ القرآن بالسنة لا يجوز فقد أبعد ! لأنه إذا
نسخ ما يتضمنه القرآن بالسنة ، فالسنة لا يقولها النبي ﷺ إلا بوحي من الله .
وليس بنسخه من قبل نفسه . بل يكون ذلك النسخ مضافاً الى الله . وإنما لا يكون
قرآناً لأنه تعالى قد يوحي الى نبيه ما هو قرآن وما ليس بقرآن ، لأن جميع ما
بينه النبي ﷺ من الشريعة لم يبينها إلا بوحي من الله لقوله « وما ينطق عن الهوى
إن هو إلا وحي يوحى » (١) وان كان تفصيل ذلك ليس بموجود في القرآن
فلاستدلال بذلك على ما قالوه بعيد .

قوله تعالى :

قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ
فِيكُمْ عُمراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) آية .

حكى عن الحسن انه قرأ « ولا أدراكم به » وقرأ ابو ربيعة وقنبل الامالكي
والعطار « ولأدراكم به » بجملائها (لأمأ) ادخلت على (ادراكم) وأمال (أدراكم)
و (ادراك) في جميع القرآن ابو عمرو وحمزة والكسائي وخلف والداحوني عن
ابن ذكوان ، والكسائي عن ابي بكر ، وافقه يحيى والعلمي في هذه السورة .
حكى سيديويه : دريته ودريت به ، قالوا أكثر الاستعمال النعدي بالباء ، يبين ذلك قوله
« ولا أدراكم به » ولو كان على اللغة الاخرى لقال ولا ادراكموه ، وقالوا : الدرية
على وزن (فعلة) كما قالوا الشعرة والفطنة ، وهي مصادر يراد بها ضروب من
العلم . فأما الدرية فكألهداية والدلالة ، وكان الدرية التأني والتعمل لعلم الشيء وعلى
هذا المعنى ما تصرف من هذه الكلمة ، وقالوا : داريت الرجل اذا لاينته وختمته

فعلني هذا لايوصف الله تعالى بالداري ، واما قول الراجز .

اللهم لأدري وانت الداري

فلا يكون حجة في جواز ذلك لأمرين : احدهما - انه لما تقدم قوله :
لأدري استجاز أن يذكر الداري بعده ، ليزدوج الكلام ، كما قال تعالى « فمن
اعتدى عليكم فاعتدوا عليه » (١) ونظائره كثيرة . والثاني - إن الأعراب ربما
ذكروا أشياء امتنع جوازها كما قال :

لو خافك الله عليه حرمه (٢)

وقال آخر :

اللهم إن كنت الذي بعدي ولم تغيرك الأمور بعدي
فاما الهمزة على ما حكى عن الحسن ، فلا وجه له لأن الدرء الدفع ، كم
قال « فأدرعوا عن انفسكم الموت » (٣) وقال « فادأرأتم فيها » (٤) وقوله لَيْسَ
(ادروا الحدود بالشبهات) قال الفراء : ان كان ما حكى عن الحسن لغة ، وإلا
يجوز أن يكون الحسن ذهب الى طبيعه وفصاحته فذهب الى درأت الحد ، وقد يغلط
بعض العرب في الحرف اذا ضارعه آخر في الهمزة فيهمز ما ليس مهموزاً ، سمعت
امرأة من غني تقول : رثأت زوجي بأبيات ، ويقولون : لبأت بالحج وحـ الـأت
السويق . وكل ذلك غلط ، لأن (حلاأت) انما هو من دفع الابل العطاش عن الماء
و « لبأت » من اللبأ الذي يؤكل ، و « رثأت » من الرثية اذا حلبت الحليب
على الرايب ، ومن أمال فتحة الراء وأمال الالف بعدها ، فلان هذه الألف تنقلب
ياء في أدريته ، وهما مدريان . ومن لم يمل فلأن الاصل عدم الامالة ، ولأن كثيراً
من الفصحاء لا يميل ذلك .

ومعنى قوله « ولا ادراكم به » قال ابن عباس ولا أعلمكم به من (دريت به)

(٢) قد مر في ١٨٥/٢

(١) سورة البقرة آية ١٩٤

(٤) سورة البقرة آية ٧٢

(٣) سورة آل عمران آية ١٦٨

وأدراني الله به . ومعنى الآية الأمر للنبي ﷺ بأن يقول لهؤلاء الكفار لو اراد الله ان يضعهم فائدته ما أعلمهم به ، ولا أمر النبي ﷺ بتلاوته عليهم .

وقوله « فقد لبثت فيكم عمراً من قبله » معناه لبثت على هذه الصفة لأنلوه عليكم ولا يعلمكم الله به حتى أمرني به وشاء اعلامكم . وقال قتادة: لبث في قومه أربعين سنة قبل أن يوحى اليه .

وقوله « أفلا تعقلون » معناه هالات تفكرون فيه بعقولكم فتتبينوا بذلك ان هذا القرآن من عند الله انزله تصديقاً لنبيه ﷺ . قال الرماني : والعقل هو العلم الذي يمكن به الاستدلال بالشاهد على الغائب . والناس يتفاضلون فيه بالأمر المتفاوت فبعضهم أ عقل من بعض اذ كان أقدر على الاستدلال من بعض . ومعنى ذلك ان يقول لهم قد لبثت فيكم حيناً طويلاً ونشأت بين أظهركم وعرفتم منصرفي ومنقلبي فلو كان ما أتيت به مخترعاً او كان ما فيه من الاخبار من عند غير الله لكنتم عرفتم ذلك اذ فيكم ولدت ونشأت ومعكم تصرفت « أفلا تعقلون » في التدبير والنظر والانصاف فتفعلون فعل من يعقل على انه ﷺ لو كان اخذ ذلك من غيره وخالط اهله ، او لو كان شاعراً ، او لو كان يعلم السحر - كما ادعوا - ثم خفي ذلك اجمع عليهم حتى لم يعرفوا الوجه الذي منه اخذ لكان في ذلك أعظم الحجة . وعلى ما روي عن قنبل يكون المعنى « لو شاء الله ما تلوته » يكون نقياً للتلاوة « ولأدراكهم » ولأعلمكم ثبوته . ويكون اثباتاً للعالم ، وعلى قراءة الباقيين يكون نقياً للأمريين معاً .

قوله تعالى :

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧) آية.

قوله « فمن اظلم ممن » ظاهره الاستفهام والمراد به الاستعظام والاختبار به انه لا احد اظلم ممن اخترع كلاماً او خبراً ثم اضاف الى الله ويريد به النبي نفسه لو كان فعل « او كذب بآياته » يعنيهم « إنه لا يفلح » اي لا يفوز « المجرمون » وانما قال : لا احد اظلم ممن هذه صفة ، لانه ظلم كفر ، وهو اعظم من ظلم ليس بكفر . والتقدير لا احد اظلم ممن يظلم ظلم كفر ، فعلى هذا من يدعي الربوبية داخل في هذه الجملة لان ظلمه ظلم كفر ، كأنه قيل لا احد اظلم من الكافر ، وليس لاحد ان يقول : المدعي للربوبية اظلم من المدعي للنبوته وهو كاذب . والكذاب بآيات الله ظالم لنفسه بما يدخل عليها من استحقاق العقاب وظالم لغيره ممن يجوز ان تلحقه المنافع والمضار بتكذيبه اياها ورده عليه . لان من شأنه ان يعمه مثل هذا التكذيب . و (من) في الآية للاستفهام وهي لاتوصل لانها تضمنت حرف الاستفهام فعملت معاملة ، كما انها اذا كانت بمعنى الجزاء لم توصل لتضمنها معنى (إن) التي هي ام الباب في الجزاء .

قوله تعالى :

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ
هُوَ لَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ
وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) آية .

قرأ اعل الكوفة الا عامماً «عماتش كون» بالباء هبنا وفي النحل في موضعين وفي الروم . الباقون بالياء . من قرأ بالباء بناه على ما تقدم من قوله « اتنبئون الله بما لا يعلم » فلما خاطبهم بذلك وجه اليهم الخطاب بتمزيبه عما يشركون . ومن قرأ بالياء بناه على الخبر عن الغائب لأن اول الآية مهني على ذلك . وهو قوله « يعبدون من دون الله » و كلاهما حسن .

اخبر الله تعالى على وجه الذم للكفار بأنهم يوجهون عبادتهم الى من هو دون الله من الأصنام والأوثان التي لاتضر ولا تنفع .

فان قيل : كيف ذمهم على عبادة الوثن الذي لا ينفع ولا يضر مع انه لو نفع وضر لم تجز عبادته؟! قلنا : لانه اذا كان من يضر وينفع قد لا يستحق العبادة اذا لم يقدر على اصول النعم ، فمن لا يقدر على النفع والضر اصلا ابعده من ان يستحق العبادة .

وقوله « ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » اخبار منه تعالى عن هؤلاء الكفار انهم يقولون انا نعبد هذه الاصنام لتشفع لنا عند الله ، فتوجهوا ان عبادتها اشد في تعظيم الله من قصده تعالى بالعبادة ، فحلت من هذه الجهة محل الشافع عند الله . وقال الحسن : شفعا في صلاح معاشهم في الدنيا ، لانهم لا يقرون بالبعث بدلالة قوله « واقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يهوت » والعبادة خضوع بالقلب في اعلى مراتب الخضوع ، فكل طاعة فعلت على هذا الوجه فهي عبادة . وانما قال « ويعبدون من دون الله » مع انهم كانوا يشركون في عبادة الله لامرين :

احدهما - ان عابد الوثن خاصة قد اشرك في استحقاق العبادة .

الثاني - ان من عبد الله وعبد الوثن فقد عبده من دون اخلاص العبادة لله . وقوله « اتنبئون الله بما لا يعلم » امر منه تعالى لنبيه ان يقول لهم على وجه الالزام اتخبرون الله بما لا يعلم من حسن عبادة الاوثان وكونها شافعة لان ذلك لو كان صحيحاً لكان الله به عالماً ولما نعى العلم بذلك نفي المعلوم .

وقوله « سبحانه وتعالى عما يشركون » تنزيه منه تعالى لنفسه ، وتنزيه من ان يعبد معه إله او يتخذ من دونه معبود .

قوله تعالى :

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ

قوله تعالى :

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدِ ضِرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ
مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا
تَمْكُرُونَ (٢١) آية .

روى روح « يمكرون » بالياء . الباقون بالناء .

أخبر الله تعالى بأنه إذا أذاق الناس يعني الكافرين « رحمة » بأن أنعم عليهم
واوسع أرزاقهم وأخصب أسعارهم « من بعد ضراء » يعني بعد شدة كانوا فيها من
جذب وضيق نالهم « مكروا في آياتنا » فجواب (إذا) الأولى في (إذا) الثانية
وإنما جعلوا (إذا) جواباً إذا كانت بمعنى الجملة على ما فيها من المفاجأة ، كما
قال تعالى « وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون » (١) . وحقيقة الذوق
تناول ماله طعم بالقم ليوجد طعمه . وإنما قال : اذقناهم الرحمة على طريق البلاغة
لشدة إدراك الحساسة . والمكر قتل الشيء الى غير وجهه على طريق الحيلة فيه ،
فهؤلاء محتالون لدفع آيات الله بكل ما يجدون السبيل اليه من شبهة او تخليط في
مناظرة أو غير ذلك من الأمور الفاسدة . وقال مجاهد : مكرهم استهزاءهم وتكذيبهم .
فقال الله لنبيه ﷺ « قل » لهم « الله اسرع مكرأ » يعني اقدر جزاء على المكر ،
وذلك أنهم : جعلوا جزاء النعمة المكر مكان الشكر ، فقولوا بما هو أشد . والسرعة
عمل الشيء في وقته الذي هو أحق به ، والمعنى : إن ما يأتيهم من العقاب اسرع مما
أتوه من المكر اي وقع في حقه . وقوله « ان رسلنا يكتبون ماتمكرون » إخبار
منه تعالى أن ملائكة الله الموكلين بهم يكتبون ما يمكرون من كفرهم وتكذيبهم ،
ففي ذلك غاية الزجر والتهديد على ما يفعلونه من المكر والحيل في امر النبي ﷺ

وقيل انما سمى جزاء المكر مكرراً ، لأنهم اذا نالهم العذاب على مكرهم بحيث لا يحتسبونه ولا يتوقعونه فكأنه مكر بهم .

قوله تعالى :

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي
الْفُلِّكَ وَجَرَّيْنِ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَ تَبَارِيحٌ عَاصِفٌ
وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا
اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَمَنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكُونَنَّ مِنَ
الشَّاكِرِينَ (٢٢) آية

قرأ ابن عامر و ابو جعفر « ينشركم » بالنون والشين من النشر . الباقرن بالياء
والسين وتشديد الياء من التسيير . قال ابو علي : حجة ابن عامر أن (ينشركم)
مثل قوله « وبث منهما رجالا كثيراً ونساء » (١) فالبت تفريق ونشر . وحجة
الباقرين قوله « قل سيروا في الأرض » (٢) « فامشوا في مناكبها » (٣) فالطعنيان متقاربان .
امتن الله على خلقه في هذه الآية وعدد نعمه التي يفعلها بهم في كل حال ،
فقال « هو الذي يسيركم في البر والبحر » وتسييره إياهم اما في البحر ، فلا نه بالريح
والله المحرك لها دون غيره . فلذلك نسبه الى نفسه ، واما في البر فلا أنه كائن باقداره
وتمكينه وتسييره ، فلذلك نسبه الى نفسه . والتسيير التحريك في جهة تمتد كالسير
الممدود ، والبر الأرض الواسعة التي تقطع من بلد الى بلد ، ومنه البر لاتساع الخير به

(١) سورة ٤ النساء آية ١

(٢) سورة ١٦ الانعام آية ١١ وسورة ٢٧ النمل آية ٦٩ وسورة ٢٩ العنكبوت

آية ٢٠ وسورة ٣٠ الروم آية ٤٢ (٣) سورة ٦٧ الملوك آية ١٥

والبحر مستقر الماء الواسع حتى لا يرى من وسطه حافظاه وجمعه أبحر وبحور ، ويشبه به الجوار ، فيقال انما هو بحر لاتساع عطاءه . وقوله « حتى إذا كنتم في الفلك » خص الخطاب برا كبي البحر . والفلك السفن ، وسميت فلكا لدورانها في الماء ، وأصله الدور ، ومنه فلكة المغزل ، والفلك الذي تدور فيه النجوم . وتفلك ثدي الجارية اذا استدار . والفلك - ههنا - جمع ، وقد يكون واحداً . كقوله « في الفلك المشحون » (١) وقوله « وجرين بهم بريح طيبة » عدل عن الخطاب الى الاخبار عن الغائب تصرفاً في الكلام مع انه خطاب لمن كان في تلك الحال وإخبار غيره من الناس ، قال لييد :

باتت تشكي الي النفس مجهشة وقد حملتك سبعاً بعد سبعينا (٢)

وقوله « وفرحوا بها » يعني بالريح الطيبة « جاءتها ريح عاصف » يعني ريحاً شديدة يقولون : عصفت الريح فهي عاصف وعاصفة ، ومنهم من يقول : أعصفت فهي معصف ومعصفة . والريح مؤنثة، وانما قال عاصف ، لأنه لا يوصف بذلك غير الريح فجرى مجرى قولهم امرأة حائض ، قال الشاعر :

حتى اذا عصفت ريح مزعزعة فيها قطار ورعد صوته زجل (٣)

وقوله « وجاءهم الموج من كل مكان » معناه جاء را كبي الفلك الأمواج العظيمة الهائلة من جميع الوجوه . « وظنوا أنهم أحيط بهم » أي ظنوا انهم هالكون لما أحاط بهم من الأمواج «دعوا الله مخلصين له الدين» أي عند هذه الشدائد والأهوال والتجؤا الى الله ودعوه على وجه الاخلاص ، ولم يذكروا الأوثان والاصنام لعلمهم بأنها لاتنفع ههنا شيئاً وقالوا « لكن انجيتنا » يارب من هذه الشدة « لنكونن » من جملة من يشكرك لنعمك ، ويقوم بآدابها . ويقال لمن اشرف على الهلاك أحيط

(١) سورة ٣٦ يس آية ٤١ وسورة ٢٦ الشعراء آية ١١٩

(٢) مر تخريجه في ١ / ٣٥ ، ٤٧٢ .

(٣) تفسير الطبري « الطبعة الاولى » ١١ / ٦٣

بد ، ومنه قوله « واحيط بثمره » (١) أي اهلكت .

قوله تعالى :

فَلَمَّا أَنْجِيتَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا
النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا
مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) آية

قرأ حنص « متاع الحياة » بنصب العين . الباقيون بالرفع . من رفع يحتمل أمرين : احدهما - ان يكون رفعاً بأنه خبر المبتدأ والمبتدأ قوله « بغيكم » الثاني - ان يكون بغيكم مبتدأ ، وقوله « على أنفسكم » خبره . ورفع متاع على تقدير ذلك متاع الحياة الدنيا . ومن نصب فعلى المصدر . قال أبو علي الفارسي « على أنفسكم » يحتمل أن يكون متعلقاً بالمصدر ، لأن فعله متعد بهذا الحرف كما قال « بغي بعضنا على بعض » (٢) وقال « ثم بغي عليه لينصرنه الله » (٣) فاذا جمعت الجار من صلة المصدر كان الخبر متاع الحياة الدنيا . والمعنى بغي بعضكم على بعض متاعاً في الحياة الدنيا . ويجوز ان تجعله متعلقاً بمحذوف ، ولا تجعله من صلة المصدر ، وفيه ذكر يعود الى المصدر . والتقدير انما بغي بعضكم على بعض عائد على أنفسكم ، فعلى هذا يتعلق بالمحذوف دون المصدر المبتدأ وهو في المعنى كقولك « ولا يحيق المكر السيء الا بأهله » (٤) وقوله « فمن نكث فانما ينكث على نفسه » (٥) فاذا رفعت متاع الحياة على هذا كان خبر مبتدأ محذوف كأنك قلت: ذاك متاع الحياة الدنيا أو هـ - و متاع . ومن نصب احتمل وجهين :

(٢) سورة ٣٨ ص آية ٢٢

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٤٣

(٤) سورة ٣٥ فاطر آية ٤٣

(٣) سورة ٢٢ الحج آية ٦٠

(٥) سورة ٤٨ الفتح آية ١٠

احدهما - ان يجعل من صلة المصدر . فيكون الناصب للمتاع هو المصدر الذي هو البغي ، ويكون خبر المبتدأ محذوفاً ، وحسن ذلك لطول الكلام ، لأن بغيكم يدل على تبغون . والآ خر - ان يجعل على أنفسكم خبر المبتدأ ، ويكون نصب متاع على أحد وجيبين : احدهما - يتمتعون متاع الحياة فيدل انتصاب المصدر عليه . والآ خر - ان يضر تبغون كأنه قال تبغون متاعاً ، فيكون مفعولاً له . ولا يجوز أن يتعلق بالمصدر إذا جملة (على) خبراً . لقوله إنما بغيكم على أنفسكم ، لفصلك بين الصلة والموصول

اخبر الله تعالى في هذه الآية عن هؤلاء الكفار الذين اذا رأوا الأحوال والشدائد في الفلك في البحر فرعوا الى الله ودعوه مخلصين له الدين ، وقالوا متى انجيتنا من هذه « لنكونن من الشاكرين » أنه اذا انجأهم وخلصهم من تلك الشدائد عاودوا الى البغي وهو الاستعلاء بالظلم . واصل البغي الطلب . تقول بغاه يبغيه اذا طلبه . والبيعة الطلبة ، والنجاة التخلص من الهلاك . والتخلص من الاختلاط لا يسمى نجاة . ومعنى « لما » ايجاب وقوع الثاني بالأول كقولك : لما قام قمت ، ولما جاء زيد قام عمرو . والحق وضع الشيء في موضعه على ما يدعو العقل اليه ، والحق والحسن معانها واحد . وقوله « يا ايها الناس إنما بغيكم على أنفسكم » خطاب من الله تعالى للمخلق بأن بغيكم على أنفسكم من حيث ان عقابه يلحقكم دون غيركم « متاع الحياة الدنيا » معناه إنكم تطلبون بالبغي بغير الحق التمتع في الحياة الدنيا . ثم بعد ذلك ترجعون الى الله بعد موتكم فيجازيكم بأعمالكم بعد أن يعلمكم ما عملتموه وما استحققتم به من انواع العقاب . وقال مقاتل : معنى « يبعون في الأرض بغير الحق » يعبدون غير الله . وقال غيره : معناه كلما أنعمنا عليهم بغوا للدين وأهله الفوائل .

قوله تعالى

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ
 بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ
 الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَيْهَا
 أَمْرٌ نَّالِيًّا أَوْزَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِبِ بِالْأَمْسِ
 كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) آية

المثل قول سائر يشبه به حال الثاني بالأول . وقيل « مثل الحياة الدنيا »
 صفة الحياة الدنيا . وقيل في المشبه والمشبه به في الآية ثلاثة اقوال :
 احدها - قال الجبائي : إنه تعالى شبه الحياة الدنيا بالنبات على ما وصفه الله
 تعالى في الاغترار به والمصير الى الزوال كالنبات الذي يصير الى مثل ذلك .
 الثاني - انه شبه الحياة الدنيا بالماء فيما يكون به من الانتفاع ثم الانقطاع .
 الثالث - انه شبه الحياة الدنيا بحياة مقدره على هذه الأوصاف ، لما يقتضيه
 « وظن أهلها أنهم قادرون عليها » أي علموا الانتفاع بها .

وقوله « فاختلط به نبات الأرض » فالاختلاط تداخل الأشياء بعضها في بعض
 فربما كان على صفة مدح ، وربما كان على صفة ذم . وقوله « حتى إذا أخذت
 الأرض زخرفها » فالزخرف حسن الألوان كالزهر الذي يروق البصر ، ومنه قيل
 زخرفت الجنة لأهلها . وقوله « وظن أهلها أنهم قادرون عليها » معناه ظنوا أنهم
 قادرون على استصحاب تلك الحال منها - جعلها على غير شيء منها ، لأن القادر
 عليهم وعليها أهلها . وقولاه « وازينت » أصله تزينت فأردغمت التاء في الزاي
 واجلبت الهمزة لام - كان النطق بها . وقرأ الأعرج وغيره « وازينت » على وزن

(افعلت) والأول أجود لأن عليه القراء . وقوله « كأن لم تعن بالامس » معناه كأن لم تقم على تلك الصفة فيما قبل ، يقال : غني بالمكان إذا أقام به والمغاني المنازل ، قال النابغة :

غنيت بذلك إذ هم لك حيرة منها بعطف رسالة وتودد
وقوله « كذلك تفصل الايات لقوم يتفكرون » معناه مثل ذلك نميز الايات
ونبينها لقوم يفكرون فيها ويعتزون بها ، لأن من لا يفكر فيها ولا يعتبر بها كأنها لم
تفصل له ، فلذلك خصصهم بالذكر .

قوله تعالى :

وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ (٢٥) آية .

أخبر الله تعالى بأن الذي يدعو عباده الى دار السلام . والدعاء طلب الفعل
بما يقع لأجله ، والداعي الى الفعل خلاف الصارف عنه . وقد يدعو اليه باستحقاق
المدح عليه . والفرق بين الدعاء والأمر أن في الأمر ترغيباً في الفعل ، وزجراً عن
تركه ، وله صيغة تنبئ عنه ، وليس كذلك الدعاء ، وكلاهما طلب . وايضاً الأمر
يقنضي أن يكون المأمور دون الأمر في الرتبة . والدعاء يقتضي أن يكون فوقه .
وفي معنى دار السلام قولان احدهما - قال الحسن : السلام هو الله . وداره
الجنة . وبه قال قتادة . الثاني - قال الجبائي والزجاج : معناه دار السلامة .
وقوله « ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم » قيل في الهداية ههنا ثلاثة اقوال :
احدها - يفعل الألف التي تدعوهم الى طريق الحق لمن كان المعلوم أن له لطفاً .
الثاني - الأخذ بهم في الآخرة الى طريق الجنة . الثالث - قال ابو علي : يريد به
نصب الأدلة لجميع المكلفين دون الأطفال والمجانين . والاستقامة المرور في جهة

تؤدي الى البغية ، فالادلة طرق الى العلم على الاستقامة لانها تؤدي اليه .

قوله تعالى :

لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ
وَلَا ذَلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) آية .

أخبر الله تعالى بأن للذين يفعلون الحسن من الطاعات التي أمرهم الله بها جزاء على ذلك « الحسنى » وهي الجنة ولذاتها . وقيل : جامعة المحاسن من السرور واللذات على أفضل ما يكون وهي تأنيث الأحسن . وقوله « وزيادة » معناه إن لهم زيادة التفضل على قدر المستحق على طاعاتهم من الثواب ، وهي المضاعفة المذكورة في قوله « فله عشر أمثالها » (١) ذهب اليه ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة وعلقمة ابن قيس . وقال ابو جعفر عليه السلام « وزيادة » معناه ما أعطاهم الله في الدنيا لا يحاسبهم به في الآخرة . وقوله « ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة » فالرهق لحاق الأمر ، ومنه راهق الغلام إذا لحق حال الرجال ، ورهقه في الحرب إذا أدركه . و(الرهاق) الاعجال . و(القتر) الغبار . والقتر الغبرة . ومنه الاقتار في النقعة لقلته ، قال الشاعر :

متموج برداء الملك يتبعه موح ترى فوقه الرايات والقترا (٢)

والذلة صغر النفس بالاهانه . والذلة نقيض العزة . وقد يكون صغر النفس بضيق المقدرة . وقوله « أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » اخبار منه تعالى بأن الذين وصفهم الملازمون للجنة على وجه الخلود والنعيم فيها ولازوال لذلك عنهم .

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٦٠

(٢) قائله الفرزدق ديوانه ٢٩٠ وتفسير الطبري ١١ / ٦٩ وتفسير القرطبي

٣١١/٨ واللسان « قتر » . ورواية الديوان « معتصب » بدل « متموج »

قوله تعالى :

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرَهُمْ مُّذَمِّينَ ذَلَّةً
مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ
مُظْلَمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) آية .

لما وصف الله تعالى المطيعين ، ومالهم من الثواب الجزيل في الجنة والخلود فيها ، ذكر حكم العصاة الذين يرتكبون السيئات ويكسبونها وأن لهم جزاء كل سيئة مثلها يعني قدر ما يستحق عليها من غير زيادة ، لأن الزيادة على قدر المستحق من العقاب ظلم ، وليس كذلك الزيادة على قدر المستحق من الثواب ، لأن ذلك تفضل يحسن فعله ابتداء . فالمثل - في الآية - المراد به مقدار المستحق من غير زيادة ولا نقصان . والكسب فعل يجتلب به نفع او يدفع به ضرر ، وقد يكتسب الانسان الحسنه والسيئة ، ولهذا لا يوصف الله تعالى بالكسب . وقوله « وترهقهم ذلة » اي يلحقهم هوان في أنفسهم . « وما لهم من الله من عاصم » أي ما لهم مانع من عقاب الله . وفي رفع (جزاء) في الآية وجهان : احدهما - ان تقديره فلهم جزاء سيئة بمثلها ليسا كل « للذين أحسنوا » . والآخر - ان يكون الخبر بمثلها والباء زيادة كزيادتها في قولك ليس زيد بقائم . وقوله « كأنما اغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً » شبه سواد وجوههم بقطع من الليل المظلم وانما ذكر ووحده مظلم لاحد أمرين : احدهما - ان يكون حالاً من الليل . والثاني - على قول الشاعر :

لو أن مدحة حي تنشرن أحداً أحيا أبا كنّ ياليلي الأما دايح

و (القطع) قرأه بتسكين الطاء ابن كثير والكسائي . البا قون بالتحريك ،

وعما لغتان . وقوله « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » اخبار منه تعالى بأن من وصفهم ملازمون للنار خالدون فيها غير زائل عنهم عذابها . قال ابو عبيدة « قطعاً من الليل » وهو بعض الليل تقول اتيت لقطع من الليل اي ساعة من الليل ، وقطع واقطاع . وقال ابو علي : القطع الجزء من الليل الذي فيه ظلمة . فأما قوله « مظلماً » اذا اجرينه على (قطع) فيحتمل نصبه وجهين : احدهما - ان يكون صفة من القطع وهو احسن ، لانه على قياس قوله « وهذا كتاب أنزلناه مبارك » (١) وصف الكتاب بالمفرد بعد ما وصفه بالجملة وجره على النكرة . والثاني - يجوز أن يكون حالاً من الذكر الذي في الظرف . ومن قرأ « قطعاً » لم يكن مظلماً صفة لـ (قطع) ولا حالاً من الذكر الذي في قوله « من الليل » ولكن يكون حالاً من الليل المظلم فلما حذف الألف واللام نصب على الحال .

قوله تعالى :

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ
 أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فزِيلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ
 إِلَّا يَانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) آية

اخبر تعالى في هذه الآية أنه يوم يحشر الخلائق أجمعين . والحشر هو الجمع من كل أوب الى الموقف ، وإنما يقومون من قبورهم الى ارض الموقف « ثم نقول للذين أشركوا » يعني من اشرك مع الله في عبادته غيره ، والمشرك بالاطلاق لا يقال إلا فيمن أشرك في العبادة ، لانها صفة ذم مثل كافر وظالم . وقوله « مكانكم » معناه انتظروا مكانكم . « جميعاً » نصب على الحال و (مكانكم) نصب على الامر كأنه قال انتظروا مكانكم حتى تفصل بينكم . ويقول المنوع لغيره : مكانك

فانتظر ، يستعمل ذلك في الوعيد . وقوله « انتم شركاؤكم » يعني انتظروا انتم مع شركائكم الذين عبدتموهم من دون الله . وقوله « فزيلنا بينهم » مأخوذ من قولهم زلت الشيء عن مكانه ازيله - وزيلنا للكثرة من هذا - اذا نجيت عن مكانه وزايلت فلاناً إذا فارقته . وقال القتيبي : وهو مأخوذ من زال يزول ، وهو غلط وخلاف لقول جميع المفسرين وأهل اللغة . والتزييل التفريق . والمعنى فرقنا بين المشركين بالله وما أشر كوا به .

وقوله « وقال شركاؤهم ما كنتم ايانا تعبدون » قيل في معناه قولان : احدهما - قال مجاهد : انه ينطق الأوثان يوم القيامة فيقولوا : ما كنا نشعر بأنكم ايانا تعبدون . والثاني ... ان ذلك قول من كانوا يعبدونهم من الشياطين . وفي كيفية جحدهم لذلك قولان : احدهما - انهم يقولون ذلك على وجه الاهانة بالرد عليهم . والمعنى ما اعتذرنا بذلك لكم . والاخر - انه في حال دهش ككذب الصبي . وقال الجبائي : يريد انكم لم تعبدونا بأمرنا ودعائنا ولم يرد انهم لم يعبدوها أصلاً ، لأن ذلك كذب وهو لا يقع في الآخرة لكونهم ملجئين الى ترك القبيح . وهذه الآية نظيرة قوله « اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا » (١) وكان مجاهد يقول : الحشر ههنا هو الموت . والأول اولي .

قوله تعالى :

فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنْتُمْ عَنْ عِبَادَتِكُمْ
لَغَافِلِينَ (٢٩) آية .

هذا اخبار من الله تعالى عن شركاء المشركين من الآلهة والأوثان يوم القيامة حين قال المشركون إنا إنما إياكم كنا نعبد ، وأنهم يجحدون ذلك ويقولون :

حسبنا الله شاهداً بيننا وبينكم أيها المشركون بأنه تعالى عالم أنا ما علمنا ما تقولون ، وأنا كنا عن عبادتكم إيانا غافلين ، لانشعر به ولانعلمه . وإنما قال « شهيداً بيننا » ولم يقل علينا ، لأنه إذا قال بيننا فمعناه لنا وعلينا ، فهو أعم وأحسن . ونصب (شهيداً) على التمييز ، وتقديره و كفى بالله من الشهداء . وقال الزجاج : نصب على الحال وتقديره كفى بالله في حال الشهادة . وقوله « إن كنا » فهذه (إن) المخففة عن الثقيلة بدلالة دخول اللام في الخبر للفرق بين (إن) الجحد و(إن) المؤكدة . وقال الزجاج : هي بمعنى (ما) ومعناه ما كنا عن عبادتكم لإغافلين .
قوله تعالى :

هُنَالِكَ تَبَلَّوْا كَيْفَ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلِيهِمْ
الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠) آية .

قرأ أهل الكوفة الاعاصم (تتلوا) بالتماء من التلاوة . الباقون بالباء . من قرأ بالباء فمعناه تختبر من قوله « وبلوناهم بالحسنات والسيئات » (١) أي اختبرناهم ، ومنه قولهم البلاء ثم الثناء أي الاختبار للثناء عليه ينبغي أن يكون قبل الثناء ليكون عن علم بما يوجبه . ومعنى اختبار النفس ما أسلفت إن قدم خيراً أو شراً جزئياً عليه ، كما قال « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » (٢) وغير ذلك . ومن قرأ بالتماء فمن التلاوة . ويقوي ذلك قوله « فأولئك يقرؤون كتابهم » (٣) وقوله « اقرأ كتابك » (٤) وقوله « ورسلمانا لديهم يكتبون » (٥) ويكون (تتلوا) بمعنى تتبع ويكون المعنى هنالك تتبع كل نفس ما أسلفت من

(٢) سورة ٩٩ الزلزال آية ٧ - ٨

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٦٧

(٤) سورة ١٧ الاسرى آية ١٤

(٣) سورة ١٧ الاسرى آية ٧١

(٥) سورة ٤٣ الزخرف آية ٨٠

حسنة وسيئة ، فمن أحسن جوزي بالحسنات ومن أساء جوزي به ، فعلى هذا يكون المعنى مثل قراءة من قرأ بالباء . وقال ابن زيد : معنى « تلو » تعاین . وقال الفراء : معناه تقرأ ، وقال غيره تتبع . وقال ابن عباس معنى (تلو) تخبر قال الشاعر :

قد جعلت دلوي تستليني ولا أحب تبع القرين

أي تتبعني من ثقلها ، ومعنى « هنالك » في ذلك المكان ، وهو ظرف (هنا)

للقريب و (هنالك) للبعيد و (هناك) لما بينهما قال زهير :

هنالك إن يستخبوا المال يخبلوا وإن يسألوا يعطوا وإن يبسروا يغلوا (١)

والأسلاف تقديم امر لما بعده ، فمن أسلف الطاعة لله جزى بالثواب . ومن أسلف المعصية جزى بالعقاب . وقوله « وردوا الى الله » فالرد هو الذهاب الى الشيء بعد الذهاب عنه ، فهؤلاء ذهبوا عن أمر الله فأعيدوا اليه . والرد والرجع نظائر ، ويجوز أن يكون الرد بمعنى النشأة الثانية ، وهو الاليق هبنا . وقوله « مولاهم الحق » فالمولى المالك للعبيد ، ومعناه مالكم لأنه يملك أمرهم ، وهو أملك بهم من أنفسهم . وقوله « وفضل عنهم ما كانوا يفترون » يعني ما كانوا يدعونهم — بافتراءهم من الشركاء — مع الله يضلون عنهم يوم القيامة ويبطلون .

قوله تعالى :

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ
وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ
الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) آية

أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار وغيرهم من خلقه « من يرزقكم من السماء » بانزال المطر والغيث ، ومن الارض باخراج النبات وانواع الثمار .

(١) ديوانه ١١٢ واللسان (خبل) وفيه اختلاف في الرواية .

والرزق العطاء الجاري يقال : رزق السلطان الجند ، الا ان كل رزق ، فالله رازق به ، لانه لو لم يطلته على يد الانسان لم يجيء منه شيء والواحد منا يرزق غيره إلا أنه لا يطلق اسم رازق إلا على الله ، كما لا يقال : (رب) بالاطلاق إلا في الله وفي غيره يقيد ، فيقال رب الدار ورب الفرس . ويطلق فيه ، لأنه يملك الجميع غير مملك . وكذلك هو تعالى رازق الجميع غير مرزوق . ولا يجوز أن يخلق الله حيواناً يريد تبقيته إلا ويرزقه . لانه إذا أراد بقاءه فلا بد له من الغذاء . فان لم يرد تبقيته كالذي يولد ميتاً فإنه لا رزق له في الدنيا . وقوله « أم من يملك السمع والأبصار » يعني من الذي له التصرف فيها بلا مانع يمنعه منها وان شاء اصحها وان شاء امرضاها . و « من يخرج الحي من الميت » معناه من الذي يخلق الحيوان ويخرجه من أمه حياً سوياً اذا ماتت أمه « ويخرج الميت من الحي » يعني من يخرجه غير تام ولا بالغ حد الكمال . وقيل : معناه انه يخرج الحي من النطفة ، وهي ميتة ويخرج النطفة من الحي . وقيل : يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن . و « من يدبر الأمر » اي ومن الذي يدبر جميع الامور في السما والأرض ؟ وليس جواب ذلك لمن انصف ولم يكابر الا ان يقول : الله الفاعل لجميع ذلك . واذا قالوا ذلك واعترفوا به قيل لهم « أفلا تتقون » ومعناه فهلا تتقون خلافة وتحدرون معاصيه ؟ وفي الآية دلالة على التوحيد : لأن ما ذكره في الآية يوجب أن المدبر واحد ولا يجوز أن يقع ذلك اتفاقاً : لاحالة العقل ذلك ، ولا يجوز أن يقع بالطبيعة : لأنها في حكم الموت لو كانت معقولة ، فلم يبق بعد ذلك إلا ان الفاعل لذلك قادر عالم يدبره على ما يشاء ، وهو الله تعالى ، مع ان الطبيعة مدبرة مفعولة فكيف تكون هي المدبرة . وإنما دخلت (أم) على (من) لأن (من) ليست أصل الاستفهام بل أصله الألف ، فلذلك جاز الجمع بينهما

قوله تعالى :

قَدْ لَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ
فَأَنْتِ تُصْرَفُونَ (۳۲) آية .

« ذلك » إشارة الى اسم الله الذي ذكره في الآية الاولى ، ووصفه بأنه الذي يخرج الحي من الميت، والميت من الحي ويرزق الخلق من السماء والارض و(الكاف والميم) للمخاطبين . وإنما جمع لأنسه أراد جميع الخلق ، فأخبر الله تعالى ان الذي وصفه في الآية الأولى هو « الله ربكم » الذي خلقكم ويملك تصرفكم . وإنما وصفه بأنه « الحق » لأن له معنى الالهية دون غيره من الأوثان والأصنام ، وهو الرب تعالى وحده .

وقوله « فماذا بعد الحق إلا الضلال » صورته صورة الاستفهام والمراد به التقرير على موضع المجعة ، لأنه لايجد المجيب محيداً عن الاقرار به إلا بذكر ما لايلتفت اليه ، وكلاماً تدعو اليه الحكمة على اختلافه فهو حق ، والمراد انه ليس بعد الاقرار بالحق والانتقاده إلا الضلال والعدول عنه . وقوله « فأنتي تصرفون » أي كيف تصرفون وتعدلون عن عبادته مع وضوح الدلالة على أنه لامعبود سواه والصرف هو الذهاب عن الشيء ، فالصرف عن الحق ذهاب الى الباطل ، وقد أنكرالله ذلك . وفيه دلالة على أنه من فعل غيره من الغواية لأنه لو كان من فعله لما أنكره كما لم ينكر شيئاً من أفعال نفسه .

قوله تعالى

كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ (۳۳) آية

قرأ أهل المدينة وابن عامر (كلمات) ههنا وفي آخرها ، وفي المؤمن على الجمع . الباقرن على التوحيد . قال ابو علي : من قرأ على التوحيد احتمل في ذلك وجهين :

أحدهما - ان يكون جعل ما أوعده به الفاسقين كلمة وإن كانت في الحقيقة كلمات ، لانهم قد يسمون القصيدة والخطبة كلمة ، فكذلك ما ذكرناه .

والثاني - ان يريد بذلك الجنس وقد اوقع على بعض الجنس كما أوقع اسم الجنس على بعضه في قوله « وإني لكم لتمررون عليهم مصبحين وبالليل » (١) ومن جمع فانه جعل الكلمات التي يوعدون بها كل واحدة منها كلمة ثم جمع ، فقال : كلمات . وأما قوله « كلمة الله هي العليا » (٢) فيجوز ان يكون عنى بها قوله « كتب الله لأغابن انا ورسالي » (٣) كما فسر قوله « وألزمهم كلمة التقوى » (٤) انه لا إله الا الله ، ذكره مجاهد . والكاف في قوله كذلك في موضع نصب والتقدير مثل أفعالهم جازاهم ربك . وقيل في المشبه به « كذلك حقت كلمة ربك » قولان :

احدهما - المعنى في انه ليس بعد الحق الا الضلال فشبهه به كلمة الحق بأنهم لا يؤمنون في الصحة .

الثاني - ما تقدم من العصيان شبه به الجزاء بكلمة العذاب في الوقوع على المقدر . وانما اطلق في الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ، لانه أريد به الذين توردوا في كفرهم . و(انهم) في موضع نصب على قول الفراء والتقدير بأنهم أولأنهم لا يؤمنون فقوله « انهم لا يؤمنون » بدل من كلمة ربك . فأعلم الله أنهم باعمالهم قد منعوا من الايمان ، وجائزان تكون الكلمة ما وعدوا به من العقاب . والفسق في الشرع هو الخروج في المعصية الى الكبيرة فان كانت كفراً فالخروج الى أكبره وكذلك ان كانت منع حق . وفائدة الآية الابانة عن الحال التي لا يفلح صاحبها ليحذر من

- | | |
|-----------------------------|--------------------------|
| (١) سورة ٣٧ الصافات آية ١٣٧ | (٢) سورة ٩ التوبة آية ٤١ |
| (٣) سورة ٥٨ المجادلة آية ٢١ | (٤) سورة ٤٨ الفتح آية ٢٦ |

مثلها ، لأنه قد يكون في المعلوم أنه من بلغ ذلك الحد لم يفلح ، قال : وأصل المعنى حقت كلمة ربك ان الفساق والكفار ما داموا كفاراً فساقاً فلا يكونون مؤمنين . وقال الجبائي : معناه وجدانكم إياهم على الكفر والاصرار عليه دليل على ان ما أخبر الله تعالى عنهم بأنهم لا يؤمنون حق وصدق .

قوله تعالى :

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتِ أَتُؤْفِكُونَ (٣٤) آية .

أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار الذين اتخذوا مع الله آلهة يعبدونها « هل من شركائكم من يبدؤ الخلق » بأن ينشئهم ويخترعهم . ثم اذا أماتهم يعيدهم ويحييهم ، لينبئهم بذلك على انه لا يقدر على ذلك الا الله القادر لنفسه الذي لا يعجزه شيء . وقيل في معنى (شركائكم) قولان : احدهما - انهم الذين جعلوهم شركاء في العبادة . الثاني - الذين جعلوهم شركاء في اموالهم من اوثانهم . كما قال « فقالوا هذا الله بزعمهم وهذا شركائنا ، (١) والاعادة ايجاد الشيء ثانياً ، وقال للبيه قتل لهم : الله تعالى القادر لنفسه هو الذي يبدؤ الخلق فينشئهم ثم يميتهم ثم يعيدهم لا يعجزه شيء عن ذلك . وقوله « فاني تؤفكون » معناه اني تصرفون عن الحق وتقلبون عنه ، ومنه الافك ، والكذب ، لانه قلب المعنى عن جهته .

قوله تعالى :

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا

أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) آية

قرأ أهل الكوفة الإعراباً « يهدي » بفتح الياء وسكون الهاء وتخفيف الدال .
 وقرأه أهل المدينة لإدراجاً بفتح الياء . وسكون الهاء ، وتشديد الدال وقرأه ابن
 كثير وابن عامر وأبو عمرو وورش بفتح الياء والهاء وتشديد الدال ، إلا أن
 السوسي من طريق ابن جيش لا يشبع ففتح الهاء . وكذلك روى الحماشي عن شجاع
 وقرأه يعقوب وحفص والاعشى والبرجمي بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال
 ورواه أبو بكر إلا الأعشى والبرجمي بكسر الياء والهاء وتشديد الدال . قال أبو
 علي : من قرأ « يهدي » بفتح الياء والهاء وتشديد الدال فقد نسبهم إلى غاية الذهاب
 عن الحق في معادلتهم الآلهة بالله تعالى ، ألا ترى أن المعنى أفمن يهدي غيره إلى
 طريق التوحيد والحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي هو إلا أن يهدى ، والتقدير
 أفمن يهدي غيره فحذف المفعول الثاني . فان قيل : هذه التي اتخذوها آلهة
 لا تهتدي وإن هديت لأنها موات من حجارة وأوثان ونحو ذلك ! ؟ قيل : تقدير
 الكلام على أنها إن هديت اهتدت وإن لم تكن في الحقيقة كذلك لأنهم لما اتخذوها
 آلهة عبر عنها كما يعبر عن الذي يجب له العبادة . كما قال « ويعبدون من دون
 الله ما لا يملك لهم رزقاً من السماوات والأرض شيئاً ولا يستطيعون » (١) وقال « ان
 تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم » (٢) فاجرى عليه اللفظ
 كما يجري على من يعلم ، كأنه قال أفمن لا يهدي إلا أن يهدى أي أفمن لا يعلم
 حتى يُعلم ، ومن لا يستدل على شيء حتى يدل ، وإن كان لو دل أو أعلم لم يعلم
 ولم يستدل . و أراد الله بذلك تعجيبهم من أنفسهم وتبيين جهلهم وقلة تمييزهم في
 تسويتهم من لا يعلم ولا يقدر بالله القادر العالم . وقرأ حمزة والكسائي « أم من لا
 يهدي » معناه أم من لا يهدي غيره ، ولكن يهدى أي لا يعلم شيئاً ولا يعرفه ، ولكن

يهدي أي لهداية له ، ولو هدي أيضاً لم بهتد ، غير أن اللفظ جرى عليه كما قلناه فيما تقدم . ومن شدد ، فلأن أصله يهتدي فأدغم التاء في الدال . ومن حرك الهاء القى حركة الحرف المدغم على الهاء لأنها من كلمة واحدة . ومن كسر الهاء لم يلق الحركة تشبيهاً بالمتنقل ، وكسر الهاء لالتقاء الساكنين . ومن سكن الهاء جمع بين الساكنين . ومن أشم فلأن الأشمام في حكم التحريك . ومن كسر الياء اتبع الياء ما بعدها من الكسر لأن أصله يفتعل . وقال قوم : معنى « أم من لا يهدي إلا أن يهدي » لا يتحرك حتى يحرك .

أمر الله تعالى نبيه أن يقول أيضاً لهؤلاء الكفار الذين اتخذوا مع الله شركاء في العبادة « هل من شركائكم » الذين تعبدونهم من دون الله أو تشركون بينهم في العبادة من يهدي غيره إلى الحق وإلى طريق الرشاد ، ثم قال : قل يا محمد « الله يهدي للحق » وأفعال الخير ، ثم قال « أفمن يهدي غيره إلى الحق » وإلى الصراط المستقيم أولى « أن يتبع » ويقبل قوله ، « أم من لا يهدي إلا أن يهدي » أي إلا بعد أن يهدي وحكي عن البلخي أنه قال : هدى واهتدى بمعنى واحد .

وقوله « فما لكم كيف تحكمون » أي بما تدعونه من عبادة - من دون الله - فالهداية المعرفة بطريق الرشاد من الغي ، فكل هداية قائمة إلى سلوك طريق النجاة بدلا من طريق الهلاك . وقال الزجاج « ما لكم » كلام تام ، كأنه قال أي شيء لكم في عبادة الأوثان ثم قال لهم « كيف تحكمون ؟ ! » على أي حال ، فموضع (كيف) نصب بـ (تحكمون) ويقال هديته للحق وإلى الحق بمعنى واحد .

قوله تعالى :

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا

إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمْ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦) آية .

أخبر الله تعالى أنه ليس يتبع أكثر هؤلاء الكفار إلا الظن الذي لا يجزي شيئاً ، من تقليد آبائهم وؤسائهم . ثم قال تعالى « إن الظن لا يغني من الحق شيئاً » لأن الحق إنما يستمع به من عرفه وعلمه حقاً ؛ لأن الظن حقيقة ما قوي كونه المظنون عند الظان على ما ظنه مع تجويز أن يكون على غيره ، فإذا كان معه تجويز كونه المظنون على خلاف ما ظنه . فلا يكون مثل العلم . وقد يكون للظن حكم إذا قام على ذلك دليل إما عقلي أو شرعي ، ويكون صادراً عن إمارات معروفة بالعادة والخبر أو رده الى نظيره عند من قال بالقياس ، وكل ذلك إذا اقترن به دليل يوجب العمل به . وكل موضع يمكن أن يقوم عليه دليل ويعلم صحته من فسادة فلا يجوز أن يعمل فيه على الظن ، لأنه بمنزلة من ترك العلم وعمل على ظن غيره . وقوله « إن الظن لا يغني من الحق شيئاً » معناه انه لا يقوم مقام العلم مع وجوده أو إمكان وجوده ، وإنما يعبد الله في الشرع في مواضع بالرجوع الى الظن مع أنه كان يمكن أن ينصب عليه دليلاً يوجب العلم لما في ذلك من المصلحة . وقوله « إن الله عليم بما يفعلون » فيه ضرب من التوبيخ ، لأنه أخبر أنه تعالى يعلم ما يفعلونه ولا يخفى عليه منه شيء فيجازيهم على جميعه : على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب .

قوله تعالى :

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ
تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَارِيبَ فِيهِ مِنْ
رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) آية .

نفى الله تعالى في هذه الآية أن يكون هذا القرآن الذي أنزله على نبيه ﷺ مفترى من دون الله والافتراء الاخبار على القطع بالكذب ، وهو مأخوذ من فري الاديم ، وهو قطعه بعد تقديره . والقرآن عبارة عن هذا الكلام

الذي هو في أعلى طبقات البلاغة مع حسن النظم والجزالة ، وكل شيء منه فيه فائدة وكل فصل منه فيه فائدة أخرى . وقوله « ولكن تصديق الذي بين يديه » شهادة من الله له بأنه صدق وبأنه شاهد لما تقدم من التوراة والانجيل والزبور بأنها حق ، وشاهد أيضا من حيث انه مصدق لها اذ جاء على ما تقدمت البشارة به فيها . وقيل مصدق لما بين يديه من البعث والنشور والجزاء والحساب . وقوله « وتفصيل الكتاب » أي تبين الفصل من المعاني الملتبسة حتى يظهر كل معنى على حقيقته . والتفصيل والتمييز والتقسيم نظائر ، وضده التلبس والتخليط . وقوله « لاريب فيه » أي لاشك فيه « من رب العالمين » اي نازل من عند مالك العالمين . وقيل : إن معنى « تفصيل الكتاب » أي تفصيل الفروض الشرعية . والكتاب - ههنا - المفروض . وقال الفراء : معنى « وما كان هذا القرآن ان يفترى » اي لا ينبغي ان يكون افتراء ، كما قال تعالى « وما كان لنبي أن يغفل » (١) أي لا ينبغي له . وقال غيره : تقديره وما كان هذا القرآن مفترى .

قوله تعالى :

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ
أَسْتَعْظَمُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) آية

معنى « أم » ههنا تقرير على موضع الحجة بعد مضي حجة أخرى ، وتقديره بل أتقولون افتراء ، فالزموا على هذا الاصل الفاسد امكان أن يأتوا بمثله . وقوله « فأتوا بسورة مثله » صورته صورة الأمر ، والمراد به التحدي باتيان سورة ، وهو الزام لهم على أصلهم اذ أصلهم فاسد يوجب عليهم أن يأتوا بسورة مثله ، فالتحدي يطلب ما يوجبه أصلهم عليهم . وقوله « فأتوا بسورة مثله » معناه

سورة منه . وقيل في معناه قولان : أحدهما - أن فيه حذفاً وتقديره فاتوا بسورة مثل سورته ذكره بعض البصريين . والآخر - اثتوا بسورة مثله في البلاغة ، وهو أحسن الوجهين . والسورة منزلة محيطة بآيات الله كاحاطة سور البناء من أجل الفاتحة والخاتمة ، وكل منزلة من سورة البناء محيطة بما فيها . وقوله «وادعوا من استطتم من دون الله» معناه ادعوهم الى الموازنة على المعارضة بسورة مثله أي استعينوا بكل من قدرتم عليه ، والاستطاعة حالة للمحي تنطاع بها الجوارح للمفعل وهي مأخوذة من الطوع . والقدرة مأخوذة من القدر ، فهي معنى يمكن أن يوجد به الفعل وان لا يوجد لتقصير قدره عن ذلك المعنى . وقوله « ان كنتم صادقين » معناه ان كنتم صادقين في أن هذا القرآن مفترى من دون الله فأنتم تقدرون على معارضته ، فحيث لا تقدرون على ذلك علم أن الامر بخلاف ما تذكرونه من أنه من عند غير الله ، وصح أنه من عند الله ، لأنه لو قدر محمد ﷺ على افتراءه لقدرتم على معارضته لمشاركتكم إياه في النشوء والفصاحة .

قوله تعالى :

بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَا تَبِمَ تَأْوِيلَهُ كَذَلِكَ
كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الظَّالِمِينَ (٣٩) آية

أخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار الذين حكى عنهم أنهم قالوا إن محمداً ﷺ افتري هذا القرآن ولم ينزله الله عليه بأنهم « كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه » ومعناه بما لم يعلموه من كل وجوهه ؛ لان في القرآن ما يعلم المراد منه بدليل ، ويحتاج الى المكرفيه والرجوع الى الرسول في معرفة مراده وذلك مثل المتشابه ، فالكفار لما لم يعرفوا المراد بظاهره كذبوا به ، وقالوا انه افتري على الله كذباً ، ومعنى

كذبوا انهم شهدوا بان الدعاة الى الله والدعاة الى الحق من المؤمنين كاذبون خبلا منهم وتوهماً لاحقيقة لهم ولا حجة معهم به . وقوله « ولما يأتهم تأويله » معناه ما يؤول أمره اليه وهو عاقبته . ومعناه متأوله من الثواب والعقاب . ثم حكى الله أنه مثل ذلك كذب الذين من قبلهم أنبياء الله ورسله فأهلكهم الله ودمرهم ثم قال لنبيه « فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » يعني ما أدى الى إهلاكهم بعذاب الاستئصال على ما تقدم من ظلمهم لانفسهم وغيرهم في كذبهم . وقيل في موضع « كيف كان » نصب بأنه خبر كان . ولا يكون معمول (انظر) لأن ما قبل الاستفهام لا يعمل في الاستفهام .

قوله تعالى

وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ
بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠) آية .

أخبر الله تعالى ان من جملة هؤلاء الكفار الذين كذبوا بالقرآن ونسبوه الى الافتراء من سيؤمن به أي بالقرآن في المستقبل ، ومنهم من لا يؤمن بل يموت على كفره . وقوله « وربك أعلم بالمفسدين » معناه من يدوم على الفساد ممن يتوب ، وإنما بقاخم الله لما في معلومه انه يتوب منهم . وإنما جاز ان يقول « أعلم » وان لم يكن هناك كثرة علوم لاحد أمرين : احدهما - ان الذات تغني عن كل علم . والثاني - انه يراد كثرة المعلوم .

قوله تعالى :

وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلكُمْ عَمَلِكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِنَّا
أَعْمَلْ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) آية .

خاطب الله تعالى نبيه ﷺ فقال « وان كذبوك » هؤلاء الكفار ولم يصدقوك

وردوا عليك بذلك ونسبوك الى الكذب « فقل لي عملي ، أي إن كنت كاذباً فوباله علي » ولكم عملكم « أي ان كنتم غير محقين فيما تردونه علي وتكذبوني ، فلکم جزاء عملکم ، فانتم تبرؤن مما عملت وأنا ابرأ من أعمالکم . وفائدة ذلك الاخبار بأنه لا يجازى احد الا على عمله ، ولا يؤخذ أحد بجرم غيره كما قال تعالى « ولا تزر وازرة وزر اخرى » (١) والبراءة قطع العلقه التي توجب رفع المطالبة وذلك كالبراءة من الدين ، والبراءة من العيب في البيع ، ولم يقل النبي ﷺ هذا القول شكاً منه فيما يجازي الله الكفار والمؤمنين به من الثواب والعقاب . وانما قال على وجه التلطف لخصمه وحسن العشرة ، وأن لا يستقبلهم بما يكرهونه من الخطاب فربما كان داعياً لهم ذلك الى الانقياد والنظر في قوله . وقال ابن زيد : هذه الآية منسوخة بآية الجهاد ، وعلى ما قلناه لا يحتاج الى ذلك .

قوله تعالى :

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الْأَصْمُ وَلَوْ
كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) آية .

اخبر الله تعالى ان من جملة هؤلاء الكفار « من يستمع اليك » يا محمد . والاستماع طلب السمع ، فهم كانوا يطلبون السمع لارد الالفهم ، فلذلك لزمهم الذم ، فهم اذا سمعوه على هذا الوجه كأنهم صم لم يسمعه حيث لم ينتفعوا به . وقوله « أفأنت تسمع الصم » خطاب للنبي ﷺ بأنه لا يقدر على سماع الصم الذين لا يسمعون ، وبهم صم ، وهم الذين ولدوا صماً ، والاصم المفسد السمع بما يمنع من ادراك الصوت ، وقد صم بصمماً . والسمع إدراك الشيء بما به يكون مسموعاً .

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٦٤ سورة ١٧ الأسرى آية ١٥ وسورة ٣٥ فاطر

آية ١٨ وسورة ٣٩ الزمر آية ٧

وتسمى الأذن السليمة سمعاً ، لأنه يسمع بها . وقوله « ولو كانوا لا يعقلون » تشبيهه من الله تعالى لهؤلاء الكفار في ترك إصغائهم الى النبي ﷺ واستماع كلامه طلباً للفائدة بالذين لا يسمعون أصلاً ، وان النبي ﷺ ولا يقدر على اسماعهم على وجه ينتفعون به اذا لم يسمعوا بنفوسهم ، للفكر فيه ، كما لا يقدر على اسماع الصم . وقوله « من » يقع على الجمع كما يقع على الواحد ، فلذلك أخبر عنه بلفظ الجمع بقوله « يستمعون اليك » و (لو) في اكثر الأمر يكون ما بعدها أقل مما قبلها تقول : أعطني دابة ولو حماراً ، وقد يجيء ما بعدها اكثر مما قبلها ، كما يقول الرجل : انا أقاتل الاسد فيستعظم ذلك منه ، فيقال : أنت تقاتل الأسد ولو كان ضارياً ، وعلى هذا مخرج الآية . قال الزجاج : والمعنى ولو كانوا جهالاً كما قال الشاعر :

اصم عما ساءه سميع (١)

قوله تعالى :

وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ (٤٣) آية .

أخبر الله تعالى بأن من جملة الكفار « من ينظر اليك » يا محمد ﷺ ، فلم يخبر بلفظ الجمع لأنه حمله على اللفظ ، واللفظ لفظ الواحد . والنظر المذكور في الآية معناه تقليب الحدقة الصحيحة نحو المرئي طلباً لرؤيته . وقيل : معناه من ينظر الى أدلتك . والنظر يكون بمعنى الاعتبار والفكر ، وهو الموازنة بين الامور حتى يظهر الرجحان او المساواة ، وذلك الجمع بين الشيئين في التقدير بما يظهر به شهادة أحدهما بالآخر ، ثم قال « أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون »

اي نظروهم اليك لاعلى وجهه الاستفاده بمنزلة نظر الأعمى الذي لا يبصر ، فكما لا يقدر ان يهدي الأعمى . فكذلك هؤلاء لا ينتفعون بنظرهم اليك ، فكأنهم لا يبصرون . والعمى آفة تمنع من الرؤية ، وهو على وجهين : عمى العين ، وعمى القلب ، وكلاهما يصلح له هذا الحد . والابصار إدراك المبصر بما يكون به مبصراً ، كما أن السمع إدراك المسموع بما به يكون مسموعاً .

قوله تعالى :

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْنَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ الْنَّاسَ أَنفُسُهُمْ
يَظْلِمُونَ (٤٤) آية

اخبر الله تعالى في هذه الآية على وجه التمدح به بأنه لا يظلم أحداً شيئاً وإنما الناس هم الذين يظلمون أنفسهم بارتكاب ما نهى الله عنه من القبائح فيستحقون بها عقاباً ، فكأنهم الذين أدخلوا عليها ضرراً فلذلك كانوا ظالمين لنفوسهم . والمعنى - ههنا - ان الله لا يمنع احداً الانتفاع بما كلفهم الانتفاع به من القرآن وأدلته ، ولكنهم يظلمون انفسهم بترك النظر فيه والاستدلال به ، وتقويتهم انفسهم الثواب وإدخالهم عليها العقاب . ففي الآية دلالة على انه لا يفعل الظلم ، لان فاعل الظلم ظالم ، كما أن فاعل الكسب كاسب ، وليس لهم أن يقولوا يفعل الظلم ولا يكون ظالماً به ، كما يفعل العلم ولا يكون به عالماً . وذلك أن معنى قولنا : ظالم أنه فعل الظلم ، كقولنا : ضارب ، أنه يفيد انه فعل الضرب . وكذلك يكون ظالماً بما يفعله من الظلم في غيره ، وليس كذلك العالم ؛ لانه يفيد انه على صفة مخصوصة ولذلك قد يكون عالماً بما يفعل فيه من العلم ، ولا يكون ظالماً بما يفعل فيه من الظلم ولا يكون عالماً بما يفعل في غيره من العلم وليس كذلك الظلم ، فبان الفرق بينهما .

وليس لأحد ان يقول : ان الانتقاء من الظلم كالانتقاء من السنة والنوم ، في انه ليس بنقي الفعل ؛ وذلك أن الظلم مقدور قبل العدل ، وليس كذلك النوم واليقظة لانهما يستحيلان عليه . و (لكن) اذا كانت مشددة عملت عمل (إن) واذا خفقت لم تعمل لأن المخففة تدخل على المفرد كما يدخل حرف العطف ، والثقيلة تدخل على الجملة فتزيل الابتداء .

قوله تعالى :

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ
يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا
مُؤْتَمِدِينَ (٤٥) آية .

قرأ حفص « يحشرهم » بالياء . الباقون بالنون . قال أبو علي الفارسي : قوله « كأن لم يلبثوا » يحتمل ثلاثية أوجه : احدها - أن يكون صفة اليوم . والآخر - أن يكون صفة للمقدر المحذوف . والثالث - أن يكون حالاً من الضمير في « يحشرهم » . فاذا جعلته صفة لليوم احتمل أن يكون التقدير « كأن لم يلبثوا » قبله « إلا ساعة » كما قال « فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف » (١) أي أمسكوهن قبله ، وكذلك قوله « فان فاء وا فان الله » (٢) معناه فان فاء وا قبل انقضاء الاربعة أشهر . ويحتمل أن يكون المعنى « كأن لم يلبثوا » قبله ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ، ثم حذف الهاء من الصفة . ومثله « وترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم » (٣) والتقدير وجزاؤه واقع بهم . وإن جعلته صفة للمصدر كان على هذا التقدير الذي وصفناه ، ومثله « كأن لم يلبثوا » قبله

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٣١ وسورة ٦٥ الطلاق آية ٢

(٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٢٦ (٣) سورة ٤٢ الشورى آية ٢٢

وحذف وأقام المضاف اليه مقام المضاف ، ثم حذف العائد من الصفة ، كما يحذف من الصلة في نحو قوله « أهذا الذي بعث الله رسولا » (١) وإن جعلته حالا من الضمير المنصوب لم يحتج الى حذف شيء في اللفظ ، لأن الذكر من الحال قد عاد الى ذي الحال . والمعنى يحشرهم مشابهة أحوالهم أحوال من لم يلبث الا ساعة . ويحتمل أن يكون معمولا بما دل عليه قوله « كأن لم يلبثوا » فاذا جعلته معمولا لـ (يتعارفون) انتصب (يوم) على وجهين : احدهما - أن يكون ظرفاً والآخر - ان يكون مفعولا على السعة ، على يشارك الليلة أهل الدار . ومعنى « يتعارفون » يحتمل امرين :

احدهما - ان يكون المعنى يتعارفون مدة إمامتهم التي وقع حشرهم بعدها وحذف المفعول للدلالة عليه ، أو يكون أعمل الفعل الذي دل عليه (يتعارفون) ألا ترى انه قد دل على سيملمون إذ يتعارفون ، فعلى هذا يكون قوله « ويوم يحشرهم » معمولا « يتعارفون » .

والآخر - أن يكون « يوم يحشرهم » معمولا ما دل عليه قوله « كأن لم يلبثوا » لأن المعنى تشابه أحوالهم أحوال من لم يلبث ، فعمل في الظرف بهذا المعنى ولا يمنع المعنى من أن يعمل في الظرف وان تقدم الظرف عليه كقولهم : أكل يوم لك ثوب ؟ واذا جعلت « يتعارفون » العامل في « يحشرهم » لم يجز أن يكون صفة اليوم ، على أنك كأنك وصفت اليوم بقوله كأن لم يلبثوا ويتعارفون ، فوصفت يوم يحشرهم بجملتين لم يجز أن يكون معمولا لقوله « يتعارفون » لأن الصفة لا تعمل في الموصوف ، وجاز وصف اليوم بالجمل وان أضيف ، لأن الاضافة ليست محضة ، فلم تعرفه . ومن قرأ بالنون فلقوله « وحشرناهم فلم نغادر » (٢) وقوله « فجمعناهم جمعا » (٣) وقوله « ونحشره يوم القيامة أعمى » (٤) . ومن قرأ بالياء فلقوله

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٤١ (٢) سورة ١٨ الكهف آية ٤٨

(٣) سورة ١٨ الكهف آية ١٠٠ (٤) سورة ٢٠ طه آية ١٢٤

« ليجمعنكم الى يوم القيامة » (١) والنون والبياء متعارفان في مثل هذا بدلالة قوله « وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه » (٢) فعلم من هذا ان كل واحد منهما يجري مجرى الآخر .

يقول الله تعالى في هذه الآية أنه يوم يحشر الخلق الى المحشر والموقف « كأن لم يلبثوا الا ساعة من النهار » عند أنفسهم ؛ لقللة بقائهم فيها وسرعة تصرفها عنهم مع طول وقوفهم يوم القيامة ومع علمهم بدوام بقائهم في الآخرة ، شبه قرب الوقت الى ذلك الحين بساعة من النهار لأن كل ما هو آت قريب ، كما قال « اقتربت الساعة » (٣) ودل بذلك على أنه لا ينبغي لأحد أن يغتر بطول ما يأمله من البقاء في الدنيا إذ كان عاقبة ذلك الى الزوال . وقوله « يتعارفون بينهم » اخبار منه تعالى أن الخلق يعرف بعضهم بعضاً في ذلك الوقت خسرانهم ويتذكرونه . وقوله « قد خسروا الذين كذبوا بقاء الله » اخبار منه تعالى بأن الذين كذبوا بالبعث والنشور ولقاء ثواب الله ولقاء عقابه يخسرون نفوسهم . والخسران ذهاب رأس المال ، فالنفس أكبر من رأس المال . وقوله « وما كانوا مهتدين » معناه لا يكونون مهتدين الى طريق الجنة لكونهم مستحقين للعقاب . وقال الزجاج : معنى الآية قرب ما بين موتهم وبعثهم كما قالوا « لبثنا يوماً أو بعض يوم » (٤) و « يتعارفون بينهم » أي يعرف بعضهم بعضاً ، وفي ذلك توبيخ لهم وإثبات الحججة عليهم .

قوله تعالى :

وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّا

(١) سورة ٤ النساء آية ٨٦ وسورة ٦ الانعام آية ١٢

(٢) سورة ٢٠ طه آية ١٢٧ (٣) سورة ٥٤ القمر آية ١

(٤) سورة ٢٣ المؤمنون آية ١١٤ ، وسورة ١٨ الكهف آية ١٩

مَرَجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) آية .

نون التأكيد في الجزاء لا تجوز الا مع (ما) كما لا يجوز الجزاء بـ (اذ ، وحيث) الا مع (ما) يخرجونها عن اخواتها ، فدخلت (ما) لتقريبها منها ، فالنون تدخل في الأمر والنهي والاستفهام والعرض ، وكله طلب ، وكله غير واجب . وليس في الجزاء طلب إلا أنه يشبه غير الواجب .

وقوله « نرينك » من رؤية العين لأنها لو كانت من رؤية الاعلام لتعدى الى مفعولين والبعض شيء يفصل من الكل ، والبعض والقسم والجزاء نظائر . والتوفي القبض على الاستيفاء بالأمانة ، لأن الروح تخرج من البدن على تمام وكمال من غير نقصان . ومعنى الآية إن أريناك يا محمد بعض مانعده هؤلاء الكفار من العذاب عاجباً لا بأن تنزل عليهم ذلك في حياتك ، وإن أخرنا ذلك عنهم الى بعد وفاتك ووفاتهم ، فان ذلك لا يفوتهم ، لأنه الينا مرجعهم ، والله شاهد بأعمالهم ، وعالم بها ، وحافظ لها ، فهو يوفيه عقاب معاصيهم . وقال مقاتل : المعنى إني نرينك بعض الذي نعد المؤمنون من النصر والاعلاء ، وهو يوم بدر . وقوله « ثم الله » عطف في قول الفراء ، وقال غيره : (ثم) بمعنى الواو .

قوله تعالى :

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ
بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧) آية .

أخبر الله تعالى في هذه الآية أن لكل جماعة على دين واحد وطريقة واحدة كأمة محمد وأمة موسى وعيسى عليهم السلام رسولا بعثه الله اليهم وحمله الرسالة التي يؤديها اليهم ليقوم بأدائها . وقوله « فاذا جاء رسولهم » يعني يوم القيامة - في قول مجاهد - وقال الحسن : في الدنيا ، بما أذن الله تعالى من الدعاء عليهم . وقوله « قضى »

بينهم » معناه فصل بينهم الأمر على الحتم . والله تعالى يقضي بين الخصوم أي يفصل بينهم فصلاً لا يرد « بالقسط » يعني بالعدل . والمقسط العادل . والقاسط الجائر ، ومنه قوله « وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً » (١) والأصل واحد ، والمقسط العادل إلى الحق والقاسط العادل عن الحق . وقوله « وهم لا يظلمون » إنما نفى عنهم الظلم بعد أن وصف أنه يقضي بينهم بالعدل ليكون العدل في جميع الأحوال من الابتداء إلى الانتهاء ، لأنه كان يمكن أن يكون العدل في أوله والظلم في آخره ، فتفي بذلك نتيماً عاماً ليخلص العدل في كل أحوالهم .

قوله تعالى

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) آية

حكى الله تعالى عن الكفار والذين تقدم وصفهم أنهم « يقولون متى هذا الوعد » الذي تعدونا به من البعث والنشور والثواب والعقاب « إن كنتم صادقين » في كون ذلك . والقول كلام مضمن في ذكره بالحكاية ، وقد يكون كلام لا يعبر عنه ، فلا يكون له ذكر متضمن بالحكاية ، فلا يكون قولاً ، لأنه إنما يكون قولاً من أجل تضمين ذكره بالحكاية . و « متى » سؤال عن الزمان . و (أين) سؤال عن المكان ، وهما ظرفان يتصلان بالفعل من غير حرف إضافة تقول : متى يكون هذا ، ولا يجوز أن تقول : ما يكون هذا على معنى الظرف . ولكن في ما يكون هذا . والوعد خبر ما يعطى من الخير . والوعد خبر ما يعطى من الشر ، هذا إذا فصل . فان اجمل وقع الوعد على الجميع . والصدق الاخبار عن الشيء على ما هو به .

قوله تعالى

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ

أُمَّةٌ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا
يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) آية

لما حكى الله تعالى عن الكفار استبطاءهم ما وعد الله وقولهم « متى هذا الوعد » امر الله نبيه ﷺ أن يقول لهم على وجه الإنكار عليهم إني « لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً » من الثواب والعقاب بسبل ذلك الى الله ، ولا أملك إلا ما ملكني الله ، فكيف أملك لكم . والملك هو القدرة على التصرف في الشيء على وجه ليس لأحد منعه منه ، فالانسان لا يملك إلا ما ملكه الله ، لأن له تعالى منعه منه . وقد يملك الطفل ومن لا عقل له من المجانين بالحكم . والنفع هو اللذة أو السرور أو ما أدى إليهما أو الى واحد منهما . والضرر الألم نفسه أو الغم أو ما أدى إليهما أو الى واحد منهما . وقوله « إلا ما شاء الله » أن يملكني إياه من نفع أو ضرر ، فيمكنه مما جعل له أخذه أو اوجب عليه تركه . والاجل هو الوقت المضروب لوقوع امر ، كأجل الدين وأجل البيع واجل الانسان واجل المسافر فاخبر تعالى انه إذا اتى اجل الموت الذي وقته الله لكل حي بحياة ، لا يتأخر ذلك ساعة ولا يتقدم على ما قدره الله تعالى .

قوله تعالى :

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَادَا يَسْتَعْجِلُ
مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) آية

امر الله تعالى نبيه بهذه الاية ان يقول لهؤلاء الكفار الذين استبطأوا وعد الله « أرايتم » اي اعلمتم ؟ لانها من رؤية القلب ، لانها دخلت على الجملة من الاستفهام « ان اتاكم عذابه » يعني عذاب الله . والعذاب الالم المستمر واصله

الاستمرار ، ومنه العذوبة لاستمرارها في الحلق « بيتاً » وهو إتيان الشيء ليلاً يقال بيته تبييتاً وبيتاً وبات بيتوتة ، وفلان لا يستبيت إذا لم يكن له ما يبيت به . وجواب « إن » محذوف ، وتقدير الكلام ارايتم ماذا يستعجل المجرمون من العذاب إن أتاكم عذابه بيتاً او نهراً ، ووقع « إن أتاكم » في وسط الكلام موقع الاعتراض . ومعنى (ما) في قوله « ماذا » اللانكار لأن يكون في العذاب شيء يستعجل به ، وجاء على صيغة الاستفهام ، لأنه لأجواب لصاحبه يصح له . وقال ابو جعفر عليه السلام هو عذاب ينزل في آخر الزمان على فسقة أهل القبلة . نعوذ بالله منه . وقال الزجاج : موضع (ماذا) رفع من وجهين : احدهما - ان يكون (ذا) بمعنى (الذي) والتقدير ما الذي يستعجل منه المجرهون . ويجوز أن يكون (ماذا) اسماً واحداً ، والمعنى اي شيء يستعجل منه . والهاء في قوله « منه » عائدة على العذاب ويجوز ان تكون عائدة على الاستعجال .

قوله تعالى :

أَمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ

تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) آية

« ثم » دخلت الف الاستفهام على (ثم) ليدل على ان الجملة الثانية بعد الاولى مع أن للألف صدر الكلام . وقال الطبري معنى (ثم) - ههنا - (هنالك) وهذا غلط ، لان (ثم) بالفتح تكون بمعنى هنالك ، وهذه مضمومة فلا تكون الاللعطف . والعامل في (إذا) يحتمل أمرين : احدهما - ان يكون « آمنتم به » على أن تكون (ما) صلة . الثاني - ان يكون العامل (وقع) وتكون (ما) مسلطة على الجزاء . وإنما جاز ان يعمل الفعل الأول في الجزاء دون الثاني ، ولم يجز في (إذا) لئلا يختلط الشرط بجزائه وليس كذلك (إذا) لانها مضافة الى

الفعل الذي بعدها . والوقوع الحـدوث . وقوله «آلآن» مبني على الفتح ، لأن تعريفه كتعريف الحرف في الانتقال من معنى الى معنى . ومعناه عند سيبويه أنحن من هذا الوقت نفعل كذا ، وفتحت لالتقاء الساكنين . وقال القراء : أصلها (آن) دخلت عليها الالف والسلام وبنيت كالذين ، ودخول الالف والسلام على اللزوم لا يمكنه ، كما لا يمكن الذي . ومعنى الآية أتأمنون حلول هذا العذاب بكم ؟ ثم يقال لكم إذا وقع بكم العذاب وشاهدتموه : آلآن آمنتم به ، وكنتم به تستعجلون . وفائدتها الابانة عما يوجبه استعمال العذاب من التوبيخ عند وقوعه حين لا يمكن استدراك الامر فيه بعد أن كان ممكناً لصاحبه .

قوله تعالى :

ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا
بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢) آية .

قوله (ثم) عطف على الايمان الذي وقع في حال الاجاء اليه . و « قيل » لهم بعد ذلك هذا القول على وجه التوبيخ والتقريع ، لأنها ليست حال استدراك لما فات . والمعنى انه يقال لهؤلاء الذين آمنوا حين نزول العذاب بهم - وقيل لهم آلآن وقد استعجلتم « ذوقوا عذاب الخلد» يعني الدائم . ويقال لهم « هل تجزون» بهذا العقاب الا بما كنتم تكسبون من المعاصي . والذوق طلب الطعم بالنفم في الابتداء ، شبهوا بالذائق لانه أشد إحساساً . وقيل لأنهم يتجرعون العذاب بدخوله أجوافهم .

قوله تعالى :

وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلُّ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ

بِمُعْجِزِينَ (٥٣) آية

معنى « ويستنبؤنك » يستخبرونك أي يطلبون النبأ الذي هو الخبر « أحق هو » يعني هذا الوعيد الذي ذكره الله في هذه الآية الأولى ، فقال الله لنبيه « قل إي وربّي » أي نعم وحق الله انه لحق . والحق في الدين ما شهدت به الادلة الموجهة للعلم او اقتضاه غالب الظن فيما طريقه الظن . وقوله « وما انتم بمعجزين » أي لستم تقدرون على اعجاز الله عما يريد من انزال العذاب بكم .

قوله تعالى:

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ
وَأَسْرَوْا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَوُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) آية .

أخبر الله تعالى على وجه التعظيم لهذا العذاب وشدته بأنه لو كان لمن ظلم بارتكاب المعاصي « ما في الارض » من الأموال « لافتدت به » من هول ما يلحقه من العذاب . وفتحت (أن) بعد (لو) لأنها مبنية على ما هو بمنزلة العامل لاختصاصها بالفعل ، والتقدير لو كان أن لكل نفس ، إلا أنه لا يظهر المعنى عن اظهاره بطلب (أن) له . وجاز أن تقع (أن) بعد (لو) ولم يجز المصدر ، لأن فتحها يدل على إظهار العامل اللفظي وليس كذلك المصدر ، لأنه مما يعمل فيه الابتداء .

والافتداء إيقاع الشيء بدل غيره لدفع المكروه يقال : فداه يفديه فدية وفداء ، وافتداه افتداء ، وفاداه مفاداة وتقارى تقارياً ، وفداه تقدية .

وقوله « واسروا الندامة لما رأوا العذاب » أي أخفوا الندامة . وقيل « وأسروا الندامة » رؤساء الضلالة من الاتباع والسفلة . وقيل « أسروا الندامة » أي اخلصوها .

والندامة الحسرة على ما كان يتمنى انه لم يكن ، وهي حالة معقولة يتأسف صاحبها على ما وقع منه ويود أنه لم يكن أوقعه . وقال ابو عبيدة « أسروا » معناه أظهروا . قال الازهري : هذا غلط إنما يكون بمعنى الاظهار ما كان بالشين المنقطه من فوق وقوله « وقضي بينهم بالقسط » اي فصل بينهم بالعدل « وهم لا يظلمون » في القضاء والحكم بينهم وما يفعل بهم من العقاب ، لأنهم جرّوه على أنفسهم بارتكاب المعاصي . وروي أنه قيل لرسول الله ﷺ ما يغنيهم اسرار الندامة وهم في النار ؟ قال : (يكرهون شماتة الاعداء) وروي مثله عن أبي عبد الله عليه السلام .

قوله تعالى :

الْأَيْنِ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْإِنِّ وَعَدَ اللَّهُ حَقُّهُ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) آية

« ألا » كلمة تستعمل في التنبيه ، وأصلها (لا) دخلت عليها حرف الاستفهام تقريراً وتأكيذاً ، فصارت تنبيهاً وكسرت (إن) بعد (ألا) لأن (ألا) يستأنف ما بعدها لينبه بها على معنى الابتداء : ولذلك وقع بعدها الامر والدعاء كقول امرئ القيس :

ألا انعم صباحاً أيها الطلل البالي وهل ينعمن من كان في العصر الخالي (١)

ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها أحد أمرين : احدهما - للاثبات بعد النفي لأن ما قبلها تقديره ليس للظالم ما يقتدي به بل جميع الملك لله تعالى . والثاني - ان يكون معناه من يملك السموات والارض يقدر على ايقاع ما توعد به . والسموات جمع سماء وهو مأخوذ من السمو الذي هو العلو، وهي المزينة بالكواكب وهي سقف الأرض ، وهي طبقات ، كما قال سبع سموات طباقاً . وجمعت السموات ، ووحدت

(١) ديوانه ١٥٨ وهو مطلع قصيدة له مشهورة .

الارض في جميع القسرات . لان طبقاتها السبع خفية عن الحس وليس كذلك
المدوات . وقوله « ألا ان وعـد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون » صحة ذلك
لجهلهم بد تعالى وبما يجوز عليه وما لا يجوز ، وجهلهم بصحة ما أنى به النبي ﷺ
قوله تعالى

هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦) آية .

في هذه الاية اخبار منه تعالى أن الذي يملك التصرف في السموات والارض
هو الذي يحيى الخلق بعد كونهم أمواتاً وهو الذي يميتهم إذا كانوا أحياء ثم
يرجعون اليه يوم القيامة فيجازيهم بمثل أعمالهم إن كانوا منطبعين بالثواب الدائم ،
وان كانوا كفاراً بالعقاب الدائم . قال أبو علي : في هذه الآية دلالة على أنه لا يقدر
على الحياة إلا الله لأنه تعالى تمدح بكونه قادراً على الاحياء والاماتة ، فلو كان
غيره قادراً على الحياة لما كان في ذلك مدح . وفيها دلالة على كونه قادراً على
الاعادة لان من قدر على النشأة الأولى يقدر على النشأة الثانية .

قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي

الْصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) آية

هذا خطاب من الله تعالى للمكلفين من الناس يخبرهم الله تعالى بأنـدأتاهم
موعظة من الله . والموعظة ما يدعو الى الصلاح ويزجر عن القبيح بما يتضمنه من
الرغبة والرهبه ويدعو الى الخشوع والنسك ، ويصرف عن الفسوق والاثم ، ويريد
بذلك القرآن وما أتى به النبي ﷺ من الشريعة . وقوله « وشفاء لما في الصدور »
فالشفاء معنى كالدواء لازالة الداء . فداء الجهل أضر من داء البدن وعـلاجه أعسر

وأطبأوه اقل والشفاء منه أجل . والصدور جمع صدر وهـ - و موضع القلب ، وهو أجل موضع في الحي لشرف القلب . وقوله « وهدي ورحمة للمؤمنين » وصف القرآن بأنه يقال عما يؤدي الى الحق ودلالة تؤدي الى المعرفة ونعمة على المحتاج لأنه لا يقال للملك إذا اهدى الى ملك آخر جوهرة أنه قدر حمله بذلك ، وإن كانت نعمة يجب بها شكره ومكافأته . وإنما أضافه الى المؤمنين ، لأنهم الذين انتفعوا به دون الكفار الذين لم ينتفعوا به ، كما قال « هدى للمتقين » وإن كان هدى لغيرهم .

قوله تعالى :

قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) آية .

قرأ الحسن « فلتفرحوا » بالتاء . وبه قرأ أبو جعفر المدني ورويس وروي ذلك عن أبي بن كعب . الباقيون بالياء . وكان الكسائي يعيب القراءة بالتاء وأجازها القراء واحتج بقولهم : لتأخذوا مصافكم . واللام في قوله « فليفرحوا » لام الامر وإنما احتج اليها ليؤمر الغائب بها . وقد يجوز أن يقع في الخطاب للمتصرف في الكلام . وقرأ أبو جعفر وابن عامر ورويس « تجمعون » بالتاء . الباقيون بالياء . قال أبو علي : الجار في قوله « فبذلك » يتعلق بقوله « فليفرحوا » لان هذا الفعل يصل به قال الشاعر :

فرحت بما قد كان من سيديكما (١)

والفاء في قوله « فبذلك فليفرحوا » زائدة لأن المعنى فافرحوا بذلك ومثله

قول الشاعر :

(١) قائمه زهير ابن ابي سلمى ديوانه : ١٠٩

فاذا هلكت فعند ذلك فاجزعي (١)

فالفاء في قوله فاجزعي زيادة مثل النبي في « فليفرحوا » وقال الفراء « فبذلك » بدل من قوله « بفضل الله وبرحمته ». ومن قرأ بالياء جعله أمراً للغائب ، واللام انما تدخل على فعل الغائب لان المواجهة استغني فيها عن اللام بقولهم (افعل) فصار مشبهاً للماضي في قولك (يدع) الذي استغني عنه بـ (ترك) ، ولو قلت بالتاء لكنت مستعملاً لما هو كالمرفوض ، وان كان الاصل . ولا يرجح القراءة بالتاء لكونها هي الاصل لانه اصل مرفوض . ومن قرأ بالتاء اعتبر الخطاب الذي قبله من قوله « قد جاء تكم موعظة ٠٠٠ فلتفرحوا » وزعموا أنها في قراءة ابي فافر حوا قال ابوا الحسن : وزعموا انها لغة وهي قليلة بمعنى لتضرب ، وانت تخاطب . فان قيل : كيف جاء الامر للمؤمنين بالفرح ، وقد ذم الله ذلك في مواضع من القرآن كقوله « إن الله لا يحب الفرحين » (٢) وقال « إنه لفرح فخور » (٣) وغير ذلك ؟ . قيل : اكثر ما جاء مقترناً بالذم من ذلك ما كان مطلقاً ، فاذا قيد لم يكن ذماً كقوله « يرزقون فرحين » (٤) وفي الآية مقيد بذلك . فأما قوله « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله » (٥) فانه مقيد ومع ذلك فهو مذموم ، لكنه مقيد بما يقتضي الذم ، كما جاء مقيداً بما لا يقتضي الذم ، فمطلقه يقتضي الذم ، ومقيد به بحسب ما يقيد به ، فان قيد بما يقتضي الذم أفاد الذم وإن قيد بما يقتضي المدح أفاد المدح . فأما قوله « فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم » (٦) وقوله « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » (٧) والفرح بنصر الله للمؤمنين محمود ، كما ان القعود عن رسول الله بالتقيد في الموضوعين مذموم .

(١) قد مر في ١٧٤/٥ (٢) سورة ٢٨ القصص آية ٧٦

(٣) سورة ١١ هود آية ١٠ (٤) سورة ٣ آل عمران آية ١٧٠

(٥) سورة ٩ التوبة آية ٨٢ (٦) سورة ٤٠ المؤمن آية ٨٣

(٧) سورة ٣٠ الروم آية ٤ - ٥

امر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول للمكلفين افرحوا بفضل الله ، وهو زيادة نعمه وانما جاز أن يقول : فضل الله ، وانما هو من افضال الله ، لانه في موضع افضال ، كما ان النبات في موضع إنبات في قوله « أنبتكم من الارض نباتاً » (١) وايضاً فان اضافة الفضل الى الله بمعنى الملك كما يضاف العبد اليه بمعنى انه مالك له . والفرح لذة في القلب بادراك ما يجب ، وان شئت قلت : هو لذة في القلب بنيل المشتهى ، وقد حسنه الله في هذه الاية ، فدل على انه لا يجب الفرحين بمعنى البطرين . وقوله « هو خير مما يجمعون » قيل فضل الله هو القرآن ، ورحمته هو الاسلام « خير مما يجمعون » من الذهب والفضة . ذكره ابن عباس وابو سعيد الخدري والحسن وقتادة ومجاهد . ومن قرأ بالياء عنى به المخاطبين والغيب ، غير أنه غلب الغيب على المخاطبين ، كما غلب التذكير على التأنيث ، فكأنه أراد به المؤمنين وغيرهم . ومن قرأ بالتاء كان المعنى فافرحوا بذلك ايها المؤمنون اي افرحوا بفضل الله ، فان ما آتاكموه من الموعدة شفاء ما في الصدور خير مما يجمع غيركم من اعراض الدنيا . وقال ابو جعفر عليه السلام « بفضل الله » يعني الاقرار برسول الله و « برحمته » الائتمام بعلي عليه السلام « خير مما » يجمع هؤلاء من الذهب والفضة . وإذا حملت الاية على عمومها كان هذا ايضاً داخلاً فيها .

قوله تعالى

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا
وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) آية .

قال الحسن : المعنى بهذه الاية مشركوا العرب قال الله لهم « أرايتم ما أنزل الله لكم من رزق » أي أرزاق العباد من المطر الذي ينزله الله « فجعلتم منه حراماً

وحلالا ، يعني ما حرموا من السائبة والوصيلة والحام ، وما حرموا من زروعهم .
 قل يا محمد لهم « الله أذن لكم أم على الله تفترون؟ » معناه انه لم يأذن لكم في شيء
 من ذلك بل انتم تكذبون في ذلك على الله . واستدل قوم بذلك على أن القياس
 في الاحكام لا يجوز . قال الزجاج (ما) في قوله « ما أنزل الله » في موضع نصب
 بـ (انزل) والمعنى انكم جعلتم البجائر والسوائب حراماً ، والله تعالى لم يحرم
 ذلك وتكون (ما) بمعنى الاستفهام . ويحتمل أن تكون (ما) بمعنى السذي
 وتكون نصباً بـ (رأيتم) . والرزق منسوب كله الى الله لأنه لا سبيل للعبد اليه
 الا باطلاقه بفعله له او اذنه فيه اما عقلاً او سمعاً . ولا يكون الشيء رزقاً بمجرد
 التمكين لانه لو كان كذلك لكان الحرام رزقاً ، لأن الله مكّن منه . قال الرماني:
 التحريم عقد بمعنى النهي عن الفعل والتحليل حل بمعنى النهي بالاذن .

قوله تعالى :

وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَسَدُودٌ

فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٦٠) آية

المعنى أي شيء يظن الذين يكذبون على الله انه يصيبهم يوم القيامة على افتراءهم
 على الله . اي لا ينبغي ان يظنوا ان يصيبهم على ذلك الا العذاب والعقاب . وجعل
 ذلك زجراً عن الكذب على الله . ثم اخبر تعالى « ان الله لسدود فضل على الناس »
 بما فعل بهم من ضروب النعم « ولكن اكثرهم لا يشكرون » نعمه ولا يمتدحون به
 ويجحدونه . وهذا خرج مخرج التقرير على افتراء الكذب . وإن كان بصورة
 الاستفهام وتقديره يؤديهم الى خير ام شر ؟ وافتراء الكذب أفحش من فعل الكذب
 بتزويره وتميجه فالزاجر عنه اشد . وقيل : معنى قوله « لذنو فضل على الناس »
 أي لم يضيق عليهم بالتحريم لما لا مصلحة لهم في تحريمه كما ادعيتم عليه . وقيل :

معناه انه لذه فضل على خلقه بتركه معاملة الكذاب بالعقوبة في الدنيا ، وامهاله إياه الى يوم القيامة .

قوله تعالى :

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ
عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ
مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ
وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١) آية .

قرأ الكسائي « يعزب » بكسر الزاي هنا وفي سبأ . الباقون بضمها ، وهما لغتان . وان كان الضم أفصح واكثر . وقرأ حمزة وخلف ويعقوب « ولا اصغر . . . ولا اكبر » بالرفع فيهما . الباقون بفتحهما . فمن فتح الراء فلأن (افعل) في الموضعين في موضع جر ، لأنه صفة المجرور الذي هو قوله « مثقال ذرة » وانما فتح ، لأن (افعل) اذا اتصل به منكر كان صفة لا تنصرف في النسكرة . ومن رفعه حمله على موضع الموصوف ، لأن الموصوف الذي هو « من مثقال ذرة » الجار والمجرور في موضع رفع ، كما كانا في موضعه في قوله « كفى بالله » (١) ومثل قوله « من إله غيره » (٢) فمن رفع يجوز ان يكون صفة بمنزلة (مثل) ويجوز أن يكون استثناء كما تقول : هالكم من إله الا الله . ومثله « فاصدق واكن

(١) سورة ٤ النساء آية ٥ ، ٤٤ ، ٦٩ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ١٣١ ، ١٦٥ ، ١٧٠ ،

ويونس آية ٢٩ والرعد ٤٥ والاسرى ٩٦ ، والعنكبوت ٥٢ ، والاحزاب ٣ ، ٤٨ والفتح ٢٨ .

(٢) سورة ١١ هود آية ٥٠ ، ٦١ ، ٨٣ وسورة ٢٣ المؤمنون آية ٢٣ ، ٣٢ ،

من « (١) وغير ذلك . ويجوز أن يعطف قوله « ولا اصغر » على « ذرة » فيكون التقدير وما يعزب عن ربك مثقال ذرة ولا مثقال اصغر ، فعلى هذا لا يجوز الاجر لانه لا موضع للذرة غير لفظها ، كما كان لقولك من مثقال ذرة موضع غير لفظه . ولا يجوز على قراءة حمزة ان يكون معطوفاً على (ذرة) كما جاز في قول الباين لأنه اذا عطف على (ذرة) وجب ان يكون اصغر مجروراً ، وانما فتح ، لأنه لا ينصرف و كذلك يكون على قول من عطفه على الجار الذي هو (من) .

معنى قوله « وما تكون في شأن » ليس تكون في حال من الاحوال ، لأن الشأن والبال والحال نظائر وجمعه شؤون . والشأن معنى مفخم على طريق الجملة يقال : ما شأنك وما حالك وما بالك . وقوله « وما تتلو منه من قرآن » اي وليس تتلو من القرآن ، فتكون الهاء كناية عن القرآن قبل الذكر لتفخيم ذكر القرآن ، كما قال « إنه أنا الله العزيز الحكيم » (٢) ويحتمل أن تكون الهاء عائدة على الشأن وتقديره وما يكون من الشأن . وقوله « وما تمملون من عمل الا كنا عليكم شهوداً » اي ليس يخفى على الله شيء من اعمالكم بل يعلمها كلها ويشهدها . والمشاهدة الادراك بالحاسة . والمشاهد المدرك بحاسة اي ذات يعني عن حاسة يقال : شاهد وشهود وشهداء . وقوله « اذ تفيضون فيه » فالإضافة الدخول في العمل على جهة الانصباب اليه ، وهو الانبساط اليه في العمل مأخوذ من فيض الاناء اذا انصب من جوانبه . ومنه قوله « أفضمتم من عرفات » (٣) اي تفرقتم كتفريق الماء الذي ينصب من الاناء . ومثله أفاض الماء عليه وافاض في الحديث وقوله « وما يعزب عن ربك » فالعزوب الذهاب عن المعلوم وضده حضور المعنى للنفس . وتعزب اذا انقرض عن عمله . وقال ابن عباس معنى لا يعزب لا يغيب . وقوله « من مثقال ذرة » فالذر صغار النمل واحده ذرة ، وهو خفيف الوزن جداً . ومعنى مثقال ذرة وزن

(٢) سورة ٢٧ الملل آية ٩

(١) سورة ٦٣ المنافقون آية ١٠

(٣) سورة ٢ البقرة آية ١٩٨

ذرة يقال : خذ هذا فإنه أخف مثقالا اي اخف وزناً . وقوله « ولا اصغر من ذلك ولا اكبر الا في كتاب مبين » معناه لا يخفى عليه ما وزنه مثقال ذرة ولا ما هو اصغر منها ولا ما هو اكبر الا وقد بينه في الكتاب المحفوظ وكتبته ملائكته وحفظوه .

قوله تعالى :

الْإِنِّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) آية .

بين الله تعالى في هذه الآية أن أولياءه لا خوف عليهم يوم القيامة من العقاب « ولا هم يحزنون » اي ولا يخافون . وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : هم قوم ذكرهم الله بما هم عليه من سيماء الخير والأخبات . وقال ابن زيد : هم الذين آمنوا وكانوا يتقون . وقد بينهم في الآية بعدها . وقال قوم : هم المتحابون في الله ذكر ذلك في خبر مرفوع . والأولياء جمع ولي وهو السدي يستحق من الله ان يوليه ثوابه وكرامته، وهو المطيع لله الذي يتولى اجلاله واعظامه . وقيل : الولي النصير ولا يسمى المتولي الانعام على غيره انه وليه ، لانه قد يتولى الانعام عليه للمظاهرة بالجميل في امره واستصلاحه الذي يصرف عن القبيح . وان كان عدوه . ولا يجتمع الولاية والعداوة . والخوف انزعاج القلب لما يتوقع من المكروه . والخوف والفرع والجزع نظائر ، وضده الأمن . والحزن غلظ الهم مأخوذ من الحزن ، وهي الارض الغليظة ، وضده السرور . قال الجبائي : هذه الآية تدل على ان المؤمنين المستحقين للثواب لا يخافون يوم القيامة اصلا بخلاف ما يقول قوم انهم يخافون الى ان يجوزوا الصراط . وقال البلخي : ليس يمتنع ان يخافوا من احوال يوم القيامة وان علموا ان مصيرهم الى الجنة والثواب . وعلى ما نذهب اليه من انه يجوز ان يعاقب الله بعض الفساق ثم يردهم الى الثواب ينبغي ان تكون الآية مخصوصة بمن لا يستحق العقاب اصلا او نقول المراد بذلك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون لذلك . وروي عن الحسين عليه السلام انهم الذين ادوا فرائض الله واخذوا بسنن رسول الله وتورعوا

عن محارم الله وزهدوا في عاجل زهرة الدنيا، ورغبوا فيما عند الله واكتسبوا الطيب من رزق الله لعلهم لا يريدون به التفاخر والتكاثر. ثم انفقوه فيما يلزمهم من حقوق واجبة، فأولئك الذين يبارك الله لهم فيما اكتسبوا ويثابون على ما قدموا منه لا آخرتهم.

قوله تعالى:

الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) آية.

يحتمل موضع (الذين) ثلاثة أوجه من الاعراب : احدها - ان يكون نصباً بأن يكون صفة للأولياء . والثاني - ان يكون رفعاً على المدح . والثالث - ان يكون رفعاً بالابتداء ، وخبره « لهم البشرى » .
 اخبر الله تعالى ان الذين آمنوا هم الذين يصدقون بالله ويعترفون بوحدانيته وهم مع ذلك يتقون معاصيه . والفرق بين الايمان والتقوى ان التقوى مضمّن باتقاء المعاصي مع منازعة النفس اليها . والايمان من الأمن بالعمل من عائد الضرر . والفرق بين الايمان بالله والطاعة له ان الطاعة من الانطباع بجاذب الأمر والارادة المرغبة في الفعل . والايمان هو الامن المنافي لانزعاج القلب . وقوله « يتقون » فالاتقاء اصله من (وقيت) فقلبت الواو ، وادغمت في تاء الافعال كما قلبت في اتجاء وتراث .

قوله تعالى :

لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ
 لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) آية

ذكر الله تعالى ان الذين وصفهم في الآية الاولى من انهم مؤمنون بالله ويتقون معاصيه « لهم البشرى » وهي الخبر بما يظهر من وده في بشرة الوجه . والبشرى

والبشارة واحد . وقوله « في الحياة الدنيا » قيل فيه ثلاثة اقوال :
 احدها - قال قتادة والزهري والضحاك والجبائي : هو بشارة الملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ
 انها الرؤيا الصادقة الصالحة يراها الرجل او يرى له . وقال ابو جعفر عَلَيْهِمُ السَّلَامُ البشري في
 الدنيا الرؤيا الصالحة يراها المؤمن او يرى له وفي الآخرة الجنة . والثالث - بشرى
 القرآن بشرف الايمان - ذكره الفراء والزجاج وغيرهما . وقوله « لا تبديل
 لكلمات الله » معناه لاخلف لما وعد الله تعالى به من الثواب بوضع كلمة اخرى مكانها
 بدلا منها ، لانها حق والحق لاخلف له بوجه . وقوله « ذلك هو الفوز العظيم »
 اشارة الى هذه البشري المتقدمة بأنه الفوز الذي يصغر كل شيء في جنبه .

قوله تعالى :

وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ
 الْعَلِيمُ (٦٥) آية .

ظاهر قوله « ولا يحزنك قولهم » ظاهره النهي والمراد به النسبية للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 عن قولهم الذي يؤذونه به . والنهي في اللفظ القول . وانما هو عن السبيل المؤدي
 الى التأذي بالقول . ومثله لا اراك ههنا والمعنى لا تكن ههنا فمن كان ههنا رأيت ههنا ،
 فكذلك المراد بالآية لا تعباً بالأذى فيمن عني به اذاه . وقوله « ان العزة لله
 جميعاً » كسرت (إن) بالاستئناس بالتذكير لما ينفي الحزن لانها مفعول القول
 لانها ليست حكاية عنهم ، لانهم لم يقولوا ان العزة لله . ولا يجوز نصبها على ان
 تكون مفعول القول لانهم لو قالوه لما احزن ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولو فتحت (ان)
 على معنى (لان) جاز . والعزة القدرة على كل جبار بالقهر بأن لا يرام ولا يضام
 عز يعز عزاً فهو عزيز . والمعنى انه الذي يعزك وينصرك حتى تصير اعز ممن ناواك
 وقوله « هو السميع العليم » معناه انه يسمع قولهم ويعلم ضميرهم فيجازيهم بما
 تقتضيه حالهم ويدفع عنك شرهم .

قوله تعالى

الَا إِنْ لِّلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ
يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا
يَخْرُصُونَ (٦٦) آية

قد بينا فيما مضى أن أصل (ألا) (لا) وانما دخلت عليها حرف الاستفهام
تنبيهاً . والفرق بين (ألا) و (أما) أن (ألا) للاستقبال ولا تقع بعدها (إن)
الا مكسورة . و (اما) تكون بمعنى حقاً كقولهم اما انه منطلق ، لأنها للحال
ويجوز بعد (اما) كسر (ان) وفتحها .

لما سلى الله النبي ﷺ فقال « لا يحزنك » قول هؤلاء الكفار ف « ان العزة
لله » يعني القدرة والقهر فانهم لا يفوتونه ، بين بعد ذلك ما يدل عليه وينبه على صحته
وهو أن له تعالى « من في السموات ومن في الارض » يعني العقلاء . واذا كان له
ملك العقلاء فما عداهم تابع لهم ، ووجب ان يكون ملكاً له وانما خص العقلاء
تعظيماً للأمر . وقوله « وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء » تحتل (ما)
في قوله « وما يتبع » وجهين : احدهما - ان تكون بمعنى (اي) كأنه قال واي
شيء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ، تقبيحاً لفعلهم . الثاني - ان
تكون نافية ، وتقديره وما يتبعون شركاء في الحقيقة والمعرفة .

وقوله « ان يتبعون الا الظن » معناه ليس يتبعون في اتخاذهم مع الله شركاء
الا الظن لتقليدهم اسلافهم في ذلك او لشبهة دخلت عليهم بأنهم يتقربون بذلك الى
الله تعالى وبين بعد ذلك انهم ليسوا الا كاذبين بهذا القول والاعتقاد - في قوله « ان
هم الا يخرصون » . وفائدة الآية الابانة عن انه يجب اخلاص العبادة لمن يملك
السموات والارض وان لا يشرك معه في العبادة غيره .

قوله تعالى

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧) آية

بين الله تعالى في هذه الآية ان الذي يملك من في السموات ومن في الارض
« هو الذي جعل الليل » اي خلقه « لتسكنوا فيه » اي خلقه وعرضه لتسكنوا فيه
وانه لاجل ذلك خلقه ليزول التعب والكلال بالسكون فيه وجعل « النهار مبصراً »
وانما يبصر فيه تشبيهاً ومجازاً واستعارة في صفة الشيء بسببه على وجه المبالغة
ومثله قول جرير :

لقد لمتنا يا أم عيلان في السرى ونمت وما ليل المطي بنائم (١)
وقال رؤبة :

ونام ليلي وتجلى همي (٢)

والفرق بين الجعل والفعل ان جعل الشيء قد يكون باحداث غيره كجعل
الطين خزفاً ولا يكون فعله إلا باحداثه . والفرق بين الجعل والتغيير أن تغيير الشيء
لا يكون الا بتصويره على خلاف ما كان ، وجعله يكون بتصويره على مثل ما كان
كجعل الانسان نفسه ساكتاً على استدامة الحال .

وقوله « ان في ذلك آيات لقوم يسمعون » اخبار منه تعالى وتنبية على ان
هذا الجعل لا يقدر عليه الا الله تعالى ، وانه لا يصح الا من عالم قاصد ، وانه نعمة
على الخلق بما لهم في ذلك من النفع والصلاح ، وانه من الامور اللازمة الدائرة ،
وانه منصوب للفكر لا يغيب عنه طرفة عين .

(١) ديوانه ٥٤٤ وتفسير الطبري ٨٩/١١ ومجاز القرآن ٢٧٩/١

(٢) ديوانه ١٤٣ ومجاز القرآن ٢٧٩/١

قوله تعالى :

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) آية

الذين أضافوا اتخاذ الولد اليه طائفتان : احدهما - كفار قريش والعرب ، فانهم قالوا : الملائكة بنات الله . والآخرى - النصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله ، فكذب الله الفريقيين . ولا يجوز اتخاذ الولد على الله على وجه التبني ، كما لا يجوز عليه اتخاذ إله على التعظيم ، لانه لما استحال حقيقته عليه استحال مجازته المبني عليها . وحقيقة الولد من ولد على فراشه او خلق من مائه ، ولذلك لا يقال : تبني الشاب شيخاً ، ولاتبني الانسان بهيمة لما كان ذلك مستحيلاً ، وهذه الحقيقة مستحيلة فيه تعالى ، فاستحال مجازها أيضاً . واتخاذ الخليل جائز ، لان الخلطة اصفاء المودة التي توجب الاطلاع على سره ثقة به . وان كان مشتقاً من الخلطة - بفتح الخاء - فهو لافتقاره اليه ، لان الخلطة هي الحاجة . ويجوز ان يقال المسيح روح الله ، لان الارواح كلها ملك لله . وانما خص المسيح بالذكر تشريفاً لانه بهذا الذكر كما خص الكعبة بأنها بيت الله ، وان كانت الارض كلها لله تعالى . وقوله « سبحانه هو الغني » تنزيه من الله تعالى نفسه عن اتخاذ الولد لكونه غير محتاج الي ذلك ، لانه مالك ما في السموات والارض . وقوله « ان عندكم من سلطان بهذا » إخبار منه أنه ليس مع هؤلاء الذين يتخذون مع الله ولداً برهان ولا حجة ، لأن السلطان هو البرهان الظاهر ، ووبخهم على قولهم ذلك فقال « أتقولون على الله ما لا تعلمون » لأن من أقدم على الاخبار عما لا يعلم صحته ولا يامن كونه كذباً مقبح عند العقلاء .

قوله تعالى

قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩)
 مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنذِرُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا
 كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) آيتان عند الجميع .

قوله « لايفلحون » وقف تام . أمر الله تعالى نبيه ﷺ ان يقول للمكلفين « إن الذين » يكذبون على الله باتخاذ الولد وغير ذلك « لايفلحون » اي لايفوزون بشيء من الثواب . وكسرت (إن) بعد القول ، لانه حكاية لما يستأنف الاخبار به ولذلك دخلت لام الابتداء في الخبر ، لأنها تؤذن بأنه موضع ابتداء . والكذب يتعاطم الاثم عليه بحسب تعاطم الضرر به وكثرة الزواجر عنه ، فالكذب على الله أعظم لكثرة الزواجر عنه لما فيه من تضييع حق المنعم بأجل النعم . وقوله « متاع في الدنيا » رفع بأنه خبر الابتداء . وتقديره ذاك متاع أو هو متاع . ويجوز أن يكون على تقدير لهم متاع . وإنما خص بالدنيا لثلايفتر به . والمتاع مايقع به الانتفاع من أثاث أو غيره . والانتفاع حصول الالتذاذ . وانما جاز أن يمتعوا في الدنيا دون الآخرة ، لأن الدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء ، ولذلك كان التكليف في الدنيا دون الآخرة . وقوله « ثم اليينا مرجعهم » فالمرجع المصير الى الشيء بعد الذهاب عنه ، فهو لاء ابتدأهم الله ثم يصيرون الى الهلاك بالموت . ثم يرجعون بالانشاء ثانية . وقوله « ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون » معناه انالانتصر على بعثهم بعد موتهم بل نوصل اليهم العذاب الشديدوننزل بهم جزاء بما كانوا يكفرون في دار الدنيا .

قوله تعالى :

وَآتَلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ
كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ
فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً
ثُمَّ اقضوا إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُونِ (٧١) آية.

قرأ نافع في رواية الأصمعي عنه « فاجمعوا » من جمع . الباقون بقطع الهمزة
وقرأ يعقوب « وشركاؤكم » بالرفع . الباقون بالنصب . قال أبو علي : ماروا الأصمعي
عن نافع من وصل الهمزة من جمعت ، والاكثر في الامر يقال أجمعت . كقوله
« وما كنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم » (١) وكما قال الشاعر :

[ياليت شعري والمنى لا تنفع] هل أغدو يوماً وأمرى مجمع (٢)
اي معد، ويمكن أن يكون المراد، واجمعوا ذوي الأمر منكم أي رؤساءكم
ووجهكم ، كما قال « وأولي الأمر منهم » (٣) فحذف المضاف وأجرى على
المضاف اليه ما كان يجري على المضاف لو ثبت . ويجوز ان يكون جعل الامر
ما كانوا يجمعونه من كيدهم ثم الذين يكيدونه به ، فيكون بمنزلة قوله « فاجمعوا
كيدكم ثم اتوا صفاً » على أن أبا الحسن يزعم أن وصل الألف في « واجمعوا
أمركم وشركاءكم » أكثر في كلام العرب . قال: وانما يقطع الهمزة إذا قالوا
أجمعوا على كذا وكذا ، قال: والقراءة بالقطع غريبة . ومن وصل الهمزة حمل
الشركاء على هذا الفعل الظاهر لانك جمعت الشركاء وجمعت القوم ، وعلى هذا

(١) سورة ١٢ يوسف آية ١٠٢ (٢) تفسير الطبري ٩٠/١١ والقرطبي ٣٦٢/٨

(٣) سورة ٤ النساء آية ٨٢

قال « ذلك يوم مجموع له الناس » (١) ومن قطع الهمزة أضمر للمشر كاء فعلاً آخر كأنه قال فاجمعوا أمر كم واجمعوا شر كاء كم أو ادعوا شر كاء كم، قال الشاعر:

علقتها تبنياً وماء بارداً (٢)

وقال آخر:

شراب البان وتمر واقط

وفي قراءة أبي « وادعوا شر كاء كم » ويجوز أن يكون انتصاب الشر كاء على أنه مفعول معه ، وهو قول الزجاج ، كما قالوا: استوى الماء والخشبة، وجاء البرد والطيا لسة ، وقالوا: لوترك القصيل واهه لرضع من لبنها . ومن رفع « وشر كاؤ كم » كيعقوب والحسن حملة على الضمير ، وتقديره فاجمعوا أنتم وشر كاؤ كم . قال الزجاج : وحسن ذلك لدخول المنصوب بينهما . ولو لم يدخل لما حسن . ولا يجوز أن تقول اجمعوا وشر كاؤ كم . وإنما يجوز العطف على الضمير إذا اكـد . وزعم أبو الحسن أن قوماً يقيسون هذا الباب وقوماً يقصرونه على ماسمع . قال أبو علي الفارسي : والاول عندي أقيس .

أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقرأ على هؤلاء الكفار أخبار نوح عليه السلام حين « قال لقومه يا قوم إن كان كبير عليكم مقامي » بين أظهركم « وتذكيري » إياكم « بآيات الله » وحججه وهممتم بقتلي وإذاي فافعلوا ما بدا لكم فاني على الله توكلت وإنما جعل جواب الشرط « فعلى الله توكلت » مع أنه متوكل عليه في جميع احواله ليبين لهم أنه متوكل في هذا على التفصيل لما في إعلامه ذلك من زجرهم عنه لان الله تعالى يكفيه أمرهم . والتوكل والتفويض جعل الامر الى من يدبره للثقة به في تدبيره فمن فوض أمره الى الله فقد توكل عليه وقوله « ثم لا يمكن أمركم عليكم غمة » معناه لا يمكن امركم ظاهراً مكشوفاً ولا يكونن مغطى مستوراً من

(١) سورة ١١ هود آية ١٠٤

(٢) تاويل مشكل القرآن ١٦٥ وأعمالى المترضى ١٧٠/٢ واللسان (علف)

غممت الشيء اذا سترته ، فالغمة ضيق الامر الذي يوجب الحزن ، والغمة والضغطة والكربة والشدة نظائر ، ونقيضه الفرجة . وقيل (غمة) معناه مغطى تغطية حيرة مأخوذة من غم الهلاك . وقوله « فاجمعوا امركم بشر كاءكم » فيه تهديد . وقوله « ثم اقضوا الي ولا تنظرون » معناه افعلوا ما تريدون ، على وجه التهديد لهم ، وانه اذا كان الله ناصره وعليه توكله فلا يبالي بدن عاذاه واراد به السوء فان الله يكفيه امره . وقرىء بالفاء ومعناها متقاربان ، ولان معنى اقضوا توجهوا الي . وقال ابن الانباري معنى « اقضوا » امضوا ، يقال قضى فلان إذا مات ومضى . ومعنى « ولا تنظرون » ولا تؤخرون .

قوله تعالى :

فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ
وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) آية

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ تمام ما حكاه عن نوح انه قال لقومه إن « توليتم » اي هر بتم عن الحق واتباعه ولم تقبلوه ولم تنظروا فيه والتولي والاعراض والانصراف نظائر . وقوله « فما سألتكم من اجر » اي لا اطلب منكم اجراً على ما أوديه اليكم من الله ، فيثقل ذلك عليكم . والاجر النفع المستحق بالعمل . والاجرة مضمنة بشرطة او مجرى عادة . وقوله « ان اجري الا على الله » اي ليس اجري في القيام باداء الرسالة الا على الله .

وقوله « وامرت ان اكون من المسلمين » معناه قل لهم: امرني الله بأن اكون من المسلمين لأمر الله بطاعته ثقة بأنها خير ما يكسبه العباد .

قوله تعالى :

فَكَذَّبُوهُ فَجَبِينَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ

وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُنذَرِينَ (٧٣) آية .

لما حكى الله تعالى ما قال نوح لقومه في الآيتين الأولى. ذكر ما كان من قومه في مقابلة ذلك ، وهو انهم كذبوه اي نسبوه الى الكذب فيما ذكره من انه نبي الله وان الله بعثه اليهم ليدعوهم الى طاعته ، وانه تعالى عند ذلك نجا نوحاً اي خلصه ، وخلص الذين معه في السفينة وجعلهم خلائف معه ، انه جعل الذين نجوا مع نوح لمن هلك بالغرق عبرة . وقيل انهم كانوا ثمانين نفساً . وقال البلخي : يجوز أن يكون اراد به جعل منهم رؤساء في الارض واهلك باقي أهل الأرض أجمع لتكذيبهم لنوح والغرق الاهلاك بالماء الغامر ، وقد يفرق الحصة بالماء على هذا المعنى . واما التعريق في رحمة الله ، فانما هو تشبيه بما اكتنفته الماء الغامر . ثم قال لنبيه ﷺ « انظر كيف كان عاقبة الذين » خوفوا بالله وعذابه فلم يخافوه ، كيف اهداكم الله ليعلمهم بذلك ان حكم هؤلاء الذين كذبوه وجحدوا نبوته حكم اوائلكم في أن الله يهلكهم ويدمر عليهم . يسليه بذلك عن ترك انقيادهم له .

قوله تعالى :

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا
كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ
قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤) آية

أخبر الله تعالى انه بعث رسلا - بعد نوح وإهلاك قومه - الى قومهم الذين كانوا فيهم بعد ان تناسلوا وكثروا فأتوهم بالحجج والمعجزات الدالة على صدقهم وانهم مع

ذلك « ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل » ويحتمل ذلك امرين : احدهما - انهم لم يكونوا ليؤمنوا بما كذبوا به قوم نوح من قبل : من توحيد الله وتصديق انبيائه والثاني - قال البلخي ما كانوا ليؤمنوا بالحجج والبيانات بعد اتيان الانبياء بها بما كذبوا به من قبل يخبر عن عنادهم وعموهم .

وقال « كذلك نطبع على قلوب المعتمدين » معناه إنا جعلنا على قلوب هؤلاء الكفار سمة وعلامة على كفرهم يلزمهم الذم بها ، وتعرفهم بها الملائكة إنا مثل ذلك نفعل بقلوب المعتمدين . وليس المراد بالطبع في الآية المنع من الايمان ، لان مع المنع من الايمان لا يحسن تكليف الايمان . والطبع جعل الشيء على صفة غيره بمعنى فيه . والمعتمدون هم الظالمون لنفوسهم الذين تعدوا حدود الله .

قوله تعالى :

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٧٥) آية .

هذا اخبار عن الله تعالى انه - بعد ارسال من أرسل من الانبياء بعد نوح واعلاك قومه وما ذكره من انهم لم يؤمنوا به وانه طبع على قلوبهم عقوبة لهم على ذلك - بعث أيضاً بعدهم موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ نبيين مرسلين « الى فرعون وملائته » يعنى رؤساء قومه « بآياتنا » اي بأدلتنا وحججنا وانهم استكبروا عن الانقياد لها والايان بها « وكانوا قوماً مجرمين » في ذلك مستحقين للعقاب الدائم . والملاء الجماعة الذين هم وجوه القبيلة مأخوذ من انهم تملأ الصدور هيبتهم عند منظرهم . ومنه قوله ﷺ في قتلى بدر (اولئك الملاء من قريش) . والاستكبار طلب الكبر من غير استحقاق فأما المتكبر في اوصاف الله فهو الظاهر ، فان له اعلى مراتب الكبر ، وهو صفة ذم في العباد ومدح في صفة الله تعالى . والاجرام اكتساب السيئة

وهي صفة ذم. واصل الاجرام القطع يقال: جرم التمر يجرمه جرمًا فهو جارم والجمع جرام إذا صرمه، وزمن الجرام زمن الصرام. وتجربت السنة اذا انصرفت. وفلان جريمة اهله اي كاسبهم. وقوله « لاجرم ان لهم النار » (١) اي لا بد لهم النار قطعاً قال الشاعر :

ولقد طعنت ابا عيينة طعنة جرمت فزارة بعدها ان يغضبوا (٢)
اي حملتهم على الغضب بقطعها اياهم. وانجرم الجسيم، والجرم الصوت، والجرم الذنب. ووزن (موسى) مفعول وهو محمول على قياس العربية فزيادة الميم اولا اكثر من زيادة الالف اخيراً وكذلك زيادة همزة الفعل في افعال لهذه العلة.

قوله تعالى:

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧٦) آية

أخبر الله تعالى عن قوم فرعون الذين ذكروهم وأخبر عنهم بالاستكبار انهم قالوا مع ذلك حين جاءهم الحق من عند الله: ان هذا الذي اتى به موسى من المعجزات والبراهين سحر ظاهر. و (طا) تدل على ماضى ولا بد لها من الجواب و (اذ) طا مضى وتستغني عن الجواب كقولك: مضى اليه اذ قدم اي يوم قدم. (واذا) تكون للمستقبل كحرف الجزاء. والحق معنى معتقده على ما هو به، وهو ما اتت به الرسل من البيان والبرهان عن الله تعالى. والسحر ايهام المعجزة على طريق الخيلة، ويشبه به البيان في خفاء السبب قال الشاعر :

وحديثها السحر الخلال لو أنه لم يجن قتل المسلم المتحرز
والساحر الذي يعتقد صحة سحره كافر؛ لأنه لا يمكنه مع ذلك معرفة النبوة فان كان يمحرق بالسحر ويعلم انه باطل لم يكفر ولم يطلق عليه صفة ساحر.

(٢) مرّ تخريجُه في ٤٢٣/٣

(١) سورة ١٦ النحل آية ٦٢

قوله تعالى :

قَالَ مُوسَى اتَّقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسْحَرُ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ
السَّاحِرُونَ (٧٧) آية .

حكى الله تعالى عن موسى انه قال لقومه الذين نسبوه الى السحر « اتقولون للحق لما جاءكم اسحر هذا » ويريد بذلك تمكيتهم وتهجينهم . ثم قال موسى « ولا يفلح الساحرون » اي لا يفوزون بشيء من الخير . ويجوز أن يكون ذلك اخباراً من الله تعالى لاحكامية عن موسى وذلك يدل على بطلان السحر أجمع . وقيل في تكرير الف الاستفهام في قوله « اسحر هذا » بعد ان قال « اتقولون » ثلاثة اقوال : احدها - انه يكون لتأكيد التفريع على الحذف كأنه قال اتقولون للحق لما جاءكم ان هذا لسحر مبين اسحر هذا . والثاني - على وجه التكرار كقولك اتقول اعندك مال . والثالث - أن يكون حكاية قولهم وان اعتقدوا انه السحر كما يقول الرجل للمجازية اذا أتته أحق هذا . فيقولونه على التعجب . ولو قالوا الحق لا يكون - جراً - ولكن ليس بحق لقال لهم فلو كان حقاً كيف كان الا هكذا من قلب الجماد حيواناً يروونه عياناً وغير ذلك من الايات .

قوله تعالى :

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِئَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمْ
الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) آية

روى العليمي « ويكون » بالياء . الباقون بالتاء . وجد الباء انه تأنيث غير حقيقي . وقد فصل بينهما . ومن قرأ بالتاء فلان الكبرياء لفظها لفظ التأنيث . أخبر الله تعالى عن قوم موسى انهم قالوا فلما اظهر لهم المعجزات ودرعاهم الى

التصديق بنبروته « أجبئتنا لتلفتنا عمما وجدنا عليه آباءنا » اي لتصرفنا عن ذلك واللفت الصرف عن امر تقول : لفته يلفته لفتاً . ولفت عنقه اذا لواهها ، قال رؤبة :
﴿ ولفت لفات لها حصار ﴾

وقال ايضاً

لفتاً وتهزيعاً سواء اللفت

التهزيع السدق واللفت اللي . وقوله « وتكون لكما الكبرياء في الارض » قال مجاهد : الكبرياء الملك . وقال قوم هي العظمة . وقال آخرون هي السلطان . والكبرياء استحقاق صفة الكبر في أعلى المراتب . والالف في قوله « أجبئنا » الف استفهام ، والمراد به الانكار على طريق اللجاج والحجاج منهم . فتعلقوا بالشبهة في انهم على رأي آباءهم . وان من دعاهم الى خلافه فظاهر امره انه يريد التأمير عليهم . وقوله « وما نحن لكما بمؤمنين » حكاية انهم قالوا لموسى وهارون لسنا بمصدقين لكما فيما تدعيانه من النبوة .

قوله تعالى

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) آية .

قرأ أهل الكوفة إلا عاصماً « بكل سحار » بتشديد الحاء والفاء بعدها الباقون (ساحر) على وزن فاعل . وقد بينا الوجه في ذلك في الاعراف .
حكى الله تعالى عن فرعون انه حين أعجزه المعجزات التي ظهرت لموسى ، ولم يكن له في دفعها حيلة قال لقمه ائتوني بكل ساحر عليم بالسحر بليغ في علمه . و (فرعون) لا ينصرف لأنه أعجمي معرفة . وهو منقول في حال تعريفه ولو نقل في حال تنكيره انصرف كياقوت . ووزن فرعون فمعلون ، الواو زائدة ، لانها لحقت عند سلامة الثلاثة . ومثله فردوس . وإنما طلب فرعون كل ساحر ليتعاونوا على دفع ما أتى به موسى وحتى لا يفوته شيء من السحر بتأخر بعضهم . وإنما

توهم مقاومة السحرة لموسى مع قول موسى له «قد علمت ما انزل هؤلاء إلا رب السماوات والارض» لأنه إنما عرف ذلك فيما بعد لما بهره الامر فكان قبل ذلك على الجهل لتوهمه ان السحر يقاوم الحق .

قوله تعالى :

فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَتْ لَهُمْ مُوسَى الْقَوَا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨٠) آية

حكى الله تعالى ان السحرة الذين طلبهم فرعون وامر باحضارهم لما جاؤا فرعون وموسى حاضر « قال لهم موسى القوا ما انتم ملقون » وهذا ظاهره الامر ويحتمل امرين : احدهما - أن يكون قال ذلك على سبيل التحدي والالزام بمعنى : من كان عنده انه يقاوم المعجزات لزمه ان يأتي بها معه حتى تظهر منزلته وانما جاز إلزام الباطل على الخصم ليمتحن ان اصله الفاسد يوجب عليه اعتقاد ذلك الباطل ، كما ان الشيطان يوجب الفساد ويدعوه الى الضلال . الثاني - أن يكون ذلك امراً على الحقيقة بدليل ان كان معه قوله « القوا ما انتم ملقون » انما لم يقتصر على قوله « القوا » لأن المراد به القوا جمع ما انتم ملقون في المستأنف فلا يكفي منه القوا . واللقاء اخراج الشيء عن اليد الى جهة الارض ويشبهه بذلك قولهم القى عليه مسألة والقى عليه كلمة ، واللقاء والطرح نظائر . وفي الكلام حذف ، لان تقديره قال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم فأتوه بهم فقال لهم موسى .

قوله تعالى :

فَلَمَّا أَتَوْا قَالَتْ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) آية

قرأ ابو عمرو وحده «السحر» على الاستفهام . الباقر على الخبر .

قال ابو علي الفارسي: في قراءة ابي عمرو (ما) يرفع بالابتداء، وجئتم به في موضع الخبر والكلام استفهام، لأن الكلام يستقبل بقوله جئتم به. ولو كانت موصولة احتاج الى خبر آخر. وهذا الاستفهام المراد به التقرير كما، قال «أأنت قلت للناس» (١) لان موسى كان عالماً بأن ذلك السحر. وانما ألحق الف الاستفهام بقوله «السحر» لان السحر بدلا من «ما» المبتدأ ولزم ان يلحق السحر الاستفهام ليساوي المبدل منه في انه استفهام، الا ترى انه ليس في قولك السحر استفهام وعلى هذا قالوا كم مالك أعشرون أم ثلاثون، فجعلت العشرون بدلا من كم فألحقت ام لانك في قولك كم درهماً مالك، مدع ان له مالا. ومن قرأ على الخبر جعل (ما) موصولة (وجئتم به السحر) صلاة، والهاء مجرورة عائدة على الموصول والسحر خبر المبتدأ الذي هو الموصول. وحكى الفراء: انه دخل الالف واللام في قوله «السحر» للعهد، لانهم قالوا لما اتى به موسى إنه سحر، قال موسى ما جئتم به فهو من السحر. وفي قراءة انبي ما جئتم به سحر بلا الف ولام. ومن قرأ بالاستفهام جعل (ما) في قوله «ما جئتم به» للاستفهام. ومن قرأ على الخبر جعل (ما) بمعنى الذي وفسرت (ما) بالواحد في السحر. لأن المعنى عليه، وانما ذكر للتوبيخ كقولك ما صنعت الفساد.

حكى الله تعالى انه لما ألقى السحرة سحرهم قال لهم موسى: الذي جئتم به السحر فمن قرأ على الخبر، واي شيء جئتم به السحر مقررأ لهم ثم اخبر ان الله سيبطل هذا السحر الذي فعلتموه «ان الله لا يصلح عمل المفسدين» فالاصلاح تقديم العمل على ما ينفع بدلا مما يضر. والاصلاح استقامة العمل على هذا الوجه. والافساد تعويج العمل الى ما يضر بدلا مما ينفع. والفساد اضطراب العمل على هذا الوجه. والاصلاح مضمن بالنفع لانه اذا اضيف ظهر معنى النفع فيه كقولك صلاح لزيد، وهو اصلح له اي انفع له وان كان فيه فساد على غيره.

قوله تعالى :

وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) آية

هــ هذا عطف على قوله « قال موسى ما جئتم به السحر ان الله سيبطله ان الله لا يصلح عمل المفسدين . ويحق الله الحق بكلماته » وقيل في معناه ثلاثة اقوال : اولها - قال الحسن : بوعده لموسى . الثاني - قال ابو علي : بكلامه الذي يبين به معاني الآيات التي اتاها نبيه ﷺ . الثالث - بما سبق من حكمه في الموح المحفوظ بأن ذلك يكون . واحقاق الحق معناه اظهاره وتمكينه بالدلائل الواضحة والآيات البينة حتى يرجع الطاعن عليه حسيراً والمناصب له مفلولاً . وقوله « ولو كره المجرمون » معناه انه يحق الحق وان كرهه من هو مجرم .

وفي الآية دلالة على انه تعالى ينصر المحققين كلهم لنصره اياهم بالحجة فأما بالعلبة في كل حال فموقوف ، لان المصلحة قد تكون بالتخلية تارة وبالحمولة اخرى . والحق على ضربين : احدهما - ما كان يمكن ان يكون حقاً وغير حق ، فهذا لا يصير حقاً إلا بأن يقصد فاعله على ايقاعه حقاً . فجاز ان يقال انه حق بالفاعل . والاخر لا يؤثر فيه قصد فاعله فلا يقال في ذلك انه حق بالفاعل .

قوله تعالى

فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ
وَمَلَائِكَةٍ أَن يُفْتَنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ
الْمُسْرِفِينَ (٨٣) آية

أخبر الله تعالى انه لم يصدق لموسى بالنبوة الا ذرية من قومه مع خوفهم من فرعون ورؤساء قومه ان يفتنوهم . (والذرية) الجماعة من نسل القبيلة . وحكى

ابن عباس انه اراد الاقليل من قومه . وقيل كانت امهاتهم من بني اسرائيل وآباؤهم من القبط . وقيل سموا ذرية لانهم اولاد الذين ارسل عليهم موسى فلم يستجيب الالباء وقيل: الأبناء . وقيل: هم قوم من بني إسرائيل أخذهم فرعون بتعلم السحر وجعلهم من اصحابه . ويحتمل أن يكون ذرية على وزن (فعلية) مأخوذاً من الذر كقمرية . والثاني - أن يكون علم وزن (فعلية) من الذرو في تذروه الرياح كقولك مزقته، ويجوز أن يكون من ذرأ الله الخلق فترك همزه . والفطنة في الدين الامتحان الذي يصرف عنه، وقد يكون ذلك بالاكراه تارة وبالهدى أخرى، وبالشبهة الداعية الى الضلال . وقوله « إن فرعون لعال في الارض » فالعلمو في الامر عظم الشأن فيه، وكل معنى لا يخلو من أن يكون في صفة عالية أو دانية أو فيما بينهما من الجلالة والضعفة .

والضمير في قوله « ومالائهم » قيل فيمن يعود اليه ثلاثة اقوال : احدها - الى الذرية فقط . الثاني - الى فرعون واتباعه . الثالث - الى فرعون ، لانه معلوم . وقوله « وإنه لمن المسرفين » اخبار منه تعالى ان فرعون لمن جملة من أبعد في مجاوزة الحق . والاسراف قد يكون في القتل وفي الاكثار من المعاصي .

قوله تعالى :

وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) آية .

حكى الله تعالى عن موسى انه قال لقومه : إن كنتم صدقتم بتوحيد الله فتوكلوا عليه إن كنتم مسلمين وانما اعاد قوله « إن كنتم مسلمين » بعد قوله « إن كنتم آمنتم بالله » ليتبين المعنى بالصفتين من الايمان والاسلام وبالتقيد والاطلاق على أن الثقة بالله توجب الاستسلام لامره . والتوكل التوثق باسناد الامر الى الله . والوكالة عقدا الامر لمن يقوم به مقام مالكة . والله عز وجل أسلك بالعبد من نفسه فهو أحق بهذه

الصفة . ويوجب التوكل على الله النجاة من كل محذور ، والفوز بكل سرور وحبور إذا اخلص العمل فيه وسلمت النية فيه. وحذفت ياء الاضافة من قوله « يا قوم » اجتزاء بالكسرة منها وهو في النداء أحسن من اثباتها لقوة النداء على التغيير . وفاء—ددة الآية البيان عما يعمل عليه عند نزول الشدة من ان من كان يؤمن بالله فليتوكل على الله ويسلم امره اليه ثقة بحسن تدبيره له .

قوله تعالى :

فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ
(٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) آيَاتان

الفاء في قوله « فقالوا » فاء العطف وجواب الأمر كما يقال قال السائل كذا فقال المجيب كذا . وانما جازت الفاء في الجواب ولم تجز الواو ، لأن الفاء ترتيب من غير مهلة ، فهي موافقة لمعنى وجوب الثاني بالأول وليس كذلك الواو . لما حكى الله تعالى قول موسى لقومه « إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا » حكى ما أجاب به قومه من قولهم : توكلنا على الله ، وانهم سألوا الله وقالوا « ربنا لا تجعلنا فتنة » أي محنة واعتباراً « للقوم الظالمين » وخلصنا « برحمتك من القوم » الذين كفروا بآياتك ، وكل كافر ظالم لنفسه بتعرضه للعقاب وليس كل ظالم كافراً . والفتنة أصلها البلية وهي معاملة تظهر الامور الباطنة . يقال : فتنت الذهب اذا أحرقتة بالنار ليظهر الخالص وقوله « يوم هم على النار يفتنون » (١) اي يحرقون بما فيه من اظهار حالهم في الضلال وقوله « والفتنة أشد من القتل » (٢) معناه التعذيب للرد عن الدين ، لما فيه من اظهار النصره أشد ، ومعنى « لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين » لاتمكنهم من ظلمنا بما يحملنا على اظهار الانصراف عن ديننا

- في قول مجاهد- وقال ابو الضحى والجبائي معناه : لا يظهر وا علمينا فيروا أنهم خير منا . وقوله « ونجنا » معناه خلصنا مما فيه المخافة والشماتة . وانما جاز وصف الله تعالى بالرحمة مع كثرة استعمالها في الرقة لدلالة التعظيم على انتفاء معنى الرقة ان نعمه في الاسباغ والكثرة تقع موقع ما تبعت عليه الرقة . وانما سألوا النجاة من استبعاد فرعون وملائه إياهم وأخذهم بالأعمال الشاقة والمهن الخسيسة .

قوله تعالى :

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّأْ لِقَوْمِكَ مِمَّا بِيُوتَا
وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) آية .

أخبر الله تعالى انه أوحى الى موسى وأخيه بمعنى ألقى اليهما في خفاء والايحاء والايماء والاشارة نظائر ، وكله بيان ودلالة . وحكى الرماني أن قوماً أجازوا أن يوحى الله الى من ليس بنبي برؤيا أو إلهام ، قال : وليس يجوز عندنا على المعنى الذي يقع الوحي الى الانبياء ، لانه إنما يقع على خلاف مجرى العادة بمعجزة تشهد بأنه تعالى ألقى المعنى اليه . ولا يجوز ان تطلق الصفة بالوحي الا لنبي فان قيد ذلك على خلاف هذا المعنى كان جائزاً ، كقوله « وأوحى ربك الى النحل » (١) ومعنى قوله « تبوءا » اتخذنا يقال : بوأته منزلاً أي اتخذته له وأصله الرجوع من « باؤوا بغضب من الله » (٢) أي رجعوا ، والمبوء المنزل لانه يرجع اليه للمقام فيه ومنه قولهم (بؤ بشسع كليب) أي ارجع به . وقوله « واجعلوا بيوتكم قبلة » معناه مصلى . وقيل قبلة : مسجداً ، لانهم كانوا خائفين فأمروا بأن يصلوا في بيوتهم - في قول ابن عباس ومجاهد وابراهيم والسدي والضحاك والربيع -

(١) سورة ١٦ النحل آية ٦٨

(٢) سورة ٢ البقرة آية ٦١ وسورة ٣ آل عمران آية ١١٢

وقال الحسن يعني قبلة نحو الكعبة . ولم يصرف (مصر) لانه مؤنث معرفة كقولك هند ، ولو صرفته لخفته كما صرفت هند كان جائزاً ، وترك الصرف أقيس . وقوله « وأقيموا الصلاة » أمر من الله اياهم بإقامة الصلاة والدوام على فعلها « وبشر المؤمنين » أمر منه لموسى ان يبشر المؤمنين بالجنة وما وعد الله تعالى من الثواب وانواع النعيم .

قوله تعالى :

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلٰى
أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلٰى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ
الْأَلِيمَ (٨٨) آية

حكى الله تعالى في هذه الآية عن موسى عليه السلام أنه قال يا « ربنا انك اعطيت فرعون وملائته » يعني قومه ورؤساءهم « زينة واموالا في الحياة الدنيا » وإنما اعطاهم الله تعالى ذلك للانعام عليهم مع تعريه من وجوه الاستفساد . و (الزينة) ما يزين به من الحللي والثياب والمتاع . ويجوز أن يراد به حسن الصورة « ليضلوا عن سبيلك » فهذه لام العاقبة ، وهي ما يؤل اليه الأمر كقوله « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً » (١) ويحتمل ان يكون المعنى لئلا يضلوا عن سبيلك فحذفت (لا) كقوله « ممن ترضون من الشهداء أن تضل احدهما » (٢) اي لئلا تضل احدهما ، و كقوله « ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين » (٣)

(٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٨٢

(١) سورة ٢٨ القصص آية ٨

(٣) سورة ٧ الاعراف آية ١٧١

اي لثلاثا يقولوا ، ولا يجوز أن يكون لام الغرض ، لأن الله تعالى لا يفعل بهم الزينة ويعطيهم ويريد منهم ان يضلوا بل إنما يفعل لينتفعوا ويطيعوه ويشكروه . وقال قوم : لو كان أراد منهم الضلال لكانوا إذا ضلوا مطيعين ، لان الطاعة هي موافقة الارادة وذلك باطل بالاتفاق . وقوله « ربنا اطمس على اموالهم » إخبار عن موسى انه دعا على قومه فسأل الله ان يطمس على اموالهم . والطمس محو الاثر تقول : طمست عينه اطمسها طمساً وطموساً وطمست الريح آثار الديار . فدعا موسى عليه السلام عليهم بأن يقلب حالهم عن الانتفاع بها كقوله « من قبل ان نطمس وجوهاً » (١) والطمس تغير الى الدبور والدروس قال كعب بن زهير :

من كل نضخة الذفري إذا عرفت
عرضتها طامس الاعلام مجهول (٢)
وقال قتادة والضحاك وابن زيد وابو صالح : صارت اموالهم حجارة .

وقوله « واشدد على قلوبهم » معناه ثبتهم على المقام ببلدكم بعد إهلاك اموالهم فيكون ذلك اشد عليهم . وقوله « فلا يؤمنوا » يحتمل موضعه وجهين من الاعراب : احدهما - نصب على جواب صيغة الامر بالفاء او بالعطف على « ليضلوا » وتقريره لثلاثا يضلوا فلا يؤمنوا . والثاني - الجزم بالدعاء عليهم ، كما قال الاعشى :
فلا ينسط من بين عينيك ما انزوى
ولا تلقني إلا وانفك راغم (٣)
وقال الفراء : ذلك دعاء عليهم بأن لا يؤمنوا . وحكى الجبائي عن قوم ان المراد بذلك الاستفهام والانكار كأنه قال : إنك لاتفعل ذلك ليضلوا عن سبيلك . وقال احمد بن يحيى ثعلب : هـ - هذه لام الاضافة ، والمعنى لضلالتهم عن سبيلك « اطمس على اموالهم واشدد على قلوبهم » . وحكى البلخي : انه يجوز أن يكون ذلك على التقديم والتأخير وتقديره ربنا ليضلوا عن سبيلك فلا يؤمنوا ربنا اطمس على اموالهم . وقيل إن قوله « فلا يؤمنوا » خرج مخرج الجواب للامر ومعناه

(١) سورة ٤ النساء آية ٤٦ (٢) انظر ٢٢٦/١ تعليقة ١ و ٢١٦/٣

(٣) ديوان الاعشى والاعشىين ٥٨ وتفسير القرطبي ٨ / ٢٧٥

الآخبار ، كما يقولون انظر الى الشمس تغرب . وقيل : ان المعنى لا يؤمنون ايمان الجاء حتى يروا العذاب الأليم وهم مع ذلك لا يؤمنون ايمان اختيار اصلا . وقال بعضهم : اللام لام (كي) وانه اعطاهم الاموال والزينة لكي يضلوا عقوبة وهذا خطأ ، لانه يوجب ان يكون ضلالهم عن الدين طاعة لله .

قوله تعالى :

قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩) آية

حكى الله تعالى أنه اجاب موسى وهارون ، فقال لهما «قد اجيبت دعوتكما» والجواب موافقة للدعوة فيما طلب بها لوقوعها على تلك الصفة . فالله تعالى يجيب الدعاء إذا وقع بشروط الحكمة . واختلفوا في هل يجوز أن يجيب الله تعالى دعوة الكافر أم لا ؟ فقال ابو علي الجبائي : لا يجوز لان اجابته إكرام له كما يقولون : فلان مجاب الدعوة اي هو رجل صالح . والكافر ليس بهذه المنزلة . وقال ابو بكر بن الاخشار : يجوز ذلك إذا كان فيه ضرب من المصلحة . والاجابة قد تكون من الاعلى للادون من غير ترغيب المدعو . والطاعة لا تكون إلا من الادنى للاعلى . ولا يجوز عند اكثر المحصلين ان يدعو نبي على قومه من غير إذن سمعي ، لانه لا يأمن أن يكون منهم من يتوب مع اللطف في التبتية ، فلا يجاب . ويكون ذلك فتنة . والدعوة طلب الفعل بصيغة الامر وقد يدعى بصيغة الماضي كقولك : غفر الله لك واحسن اليك ، وجزاك الله خيراً . وإنما قال «اجيبت دعوتكما» والداعي موسى لان دعاء موسى كان مع تأمين هارون - على ما قاله الربيع وابن زيد وعكرمة - ومحمد بن كعب وأبو العالية - والمؤمن داع ، لان المعنى في التأمين اللهم اجب هذا الدعاء . وقوله « فاستقيما » امر منه تعالى لهما بالاستقامة في دعائهما لفرعون

وقومه على ما أمر تكما به ولا تتبعنا سبيل الجاهلين لوعدي ووعيدي فإنه لا خلف له
 يقال ابن جريح : مكث فرعون بعد هذه الامور اربعين سنة .
 وقوله « ولا تتبعنا سبيل الذين لا يعلمون » نهي منه تعالى طوسى وهارون
 أن يتبعنا طريقة من لا يؤمن بالله ولا يعرفه . وقرأ ابن عامر وحده « ولا تتبعنا »
 مخففة النون الا الداخواني عن هشام ، فإنه خير بين تخفيفها وتشديدعا . وقرأ
 ابن عامر وحده « ولا تتبعنا » ساكنة التاء مخففة مشددة النون . وفي قراءة الاخفش
 الدمشقي عن ابن عامر بتخفيف التاء والنون . الباقر بتشديد التاء والنون . قال
 ابو علي النحوي : من شدد النون فلا ن هذه النون الثقيلة إذا دخلت على (تفعل)
 فتح لام الفعل ، لدخولها وبني الفعل معها على الفتح نحو (لتفعلن) وحذفت النون
 التي تثبت في (تفعلان) في حال الرفع مع النون الشديدة ، وحذف الضم في
 (لتفعلن) ، وإنما كسرت الشديدة بعد ألف التثنية . او قوعها بعد الف التثنية ، فاشبهت
 التي تلحق الألف في رجلان ، لما كانت في هذه مثلها ، ودخلت لمعنى كدخولها ،
 ولم يعتد بالنون قبلها ، لانها ساكنة ، ولانها خفيفة فصارت المكسورة كأنها وليت
 الألف . ومن خفف النون يحتمل أن تكون مخففة من الثقيلة كما خففوا (رب)
 و (ان) ونحوهما ، وحذفوا الاولى من المثلين كما أبدلوا الاولى من المثلين في نحو
 (قيراط ودينار) ولان اصلهما (قراط ودينار) فأبدلوا من إحدى النونين ياء .
 ويحتمل ان يكون الامن قوله « فاستقيما » وتقديره فاستقيما غير متبعين . ويحتمل
 ان يكون على لفظ الخبر والمرار به الامر .

قوله تعالى

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ
 بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا

الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آية.

قرأ أهل الكوفة الا عاصماً « آمنت انه » بكسر الألف . الباقون بفتحها . قال ابو علي : من فتح الهمزة فلأن هذا الفعل فصل بحرف الجر في نحو « يؤمنون بالغيب » (١) و « يؤمنون بالجبت » (٢) فلما حذف الحرف وصل الفعل الى (ان) فصار في موضع نصب او خفض على الخلاف في ذلك . ومن كسر الالف حملاه على القول المضمرة كأنه قال « آمنت » فقلت إنه ، واضمار القول في نحو هذا كثير . وهذا احسن لان قوله (انه لا إله إلا الله) في المعنى ايمان ، واذ قال آمنت فكأنه ذكر ذلك . وقال الرماني : من كسر (إن) جعله بدلا من (آمنت) . ومن فتح جعله معمول (آمنت) وفي الكلام حذف ، لأن تقديره فاتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً فيه فغرقناه حتى اذا ادرك الغرق .

حكى الله تعالى أنه جاوز ببني إسرائيل البحر بمعنى اخرجهم منه بأن جفف لهم البحر وجعله طرقات حتى جاوزوه . والمجاوزه الخروج عن الحد من احدى الجهات الأربعة ، لأنه لو خرج عن البحر بقليل وهو متعلق عليه لم يكن قد جاوزه . والبحر مستقر الماء الواسع بحيث لا يدرك طرفه من كان في وسطه . ويقال : ما فلان إلا بحر لسعة عطائه . وقوله « فاتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً » فالاتباع طلب اللحاق بالأول : اتبعه إتباعاً وتبعه بمعنى . وحكى ابو عبيدة عن الكسائي انه قال إذا اريد انه اتبعه خيراً اوشراً قالوا بقطع الهمزة . واذا اريد انه اقتدى بهم واتبع أثرهم قالوا بتشديد التاء ووصل الهمزة . والبغي طلب الاستعلاء بغير حق . والباغي مذموم لقوله تعالى « فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله » (٣) . و (عدواً) معناه عدواناً وظلماً .

(٢) سورة ٤ النساء آية ٥٠

(١) سورة ٢ البقرة آية ٣

(٣) سورة ٤٩ الحجرات آية ٩

وقوله « حتى إذا أدركه الغرق، قال آمنت انه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا اسرائيل » اخبار منه تعالى أن فرعون حين لحقه الغرق والهلاك قال ما حكاها الله وكان ذلك ايمان إجماع لا يستحق به الثواب كما لا يستحق بالايان الضروي .
وقوله « بغياً وعدواً » نصب على المصدر والمراد بغياً على موسى وقومه واعتداء عليهم .

قوله تعالى :

الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) آية

قرأ أبو جعفر من طريق النهرواني ونافع إلا اباطاهر عن اسماعيل واحمد ابن صالح عن قالون والحلواني عن قالون من طريق الحمامي « الان » في الموضوعين في هذه السورة بالقاء حركة الهمزة على اللام وخذف الهمزة منهما . قال ابو علي النحوي: اعلم ان لام المعرفة إذا دخلت على كلمة أولها الهمزة فخفت الهمزة فان في تخفيفها وجهين : احدهما - ان تحذف وتلقى حركتها على اللام وتقر همزة الوصل فيقال الحمر بالالف . والثاني - ان يقولوا : كالحمر بلا الف فيحذفون همزة الوصل ، فالذين أثبتوا الهمزة فلا أن التقدير باللام بالسكون وان كانت في اللفظ متحركة . واللغة الآخرى كما انشد الكسائي :

فقد كنت تخفي حب سمراء حقة فبح لان منها بالذي انت بائح (١)
فاسكن الحاء لما كانت اللام متحركة ، ولو لم يعتد بالخبركة كما لم يعتد في الوجه الاول تحرك الحاء بالكسر كما يحركه في بح اليوم . ومعنى (الان) فصل بين الزمان الماضي والمستقبل مع انه الى الحاضر ولهذا بني كما بني (اذا) وعرف (الان) بالالف واللام (وامس) بتضمين حرف التعريف لأن ما مضى بمنزلة الماضن في المعنى في أنه ليس له صورة ، والحاضر في معنى المصرح في صحة الصورة.

(١) مرّ هذا البيت في ٣٠٠/١ وهو في اللسان (أين)

واختلفوا فيمن القائل هذا القول، فقال الجبائي: ان القائل له ملك قال ذلك بأمر الله. وقال (غيره) ان ذلك كلام من الله قاله له على وجه الالهانة والتوبيخ وكان ذلك معجزة لموسى عليه السلام ومعنى الآية حكاية ما قيل لفرعون حين قال «آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنوا اسرائيل» بانك تقول هذا في هذه الساعة «وقد عصيت قبل» هذا «وكنت من المفسدين» في الارض بقتل المؤمنين وادعاء الالهية، وغير ذلك من انواع الكفر ! .

قوله تعالى :

فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آتَةً وَإِنْ كَثِيرًا
مِنَ النَّاسِ عَنِ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) آية .

قرأ يعقوب وقتيبة « ننجيك » بالتخفيف . الباقر بالتشديد .
معنى قوله « ننجيك ببدنك » نلقبك على نجوة من الارض ببدنك عريانا دون
روحك قال أوس بن حجر :

فمن بنجوته كمن بعقوته والمستكن كمن يمشي بقرواح (١)
القرواح حيث لاماء ولا مطر، والبدن مستكن روح الحيوان على صورته وكل
حيوان له روح وبدن، والحي في الحقيقة الروح دون البدن عند قوم، وفيه خلاف.
ومعنى قوله « لتكون لمن خلقك آية » قيل فيه قولان .
احدهما - لمن يأتي بعدك ممن يراك على تلك الصفة وقد كنت تدعي الربوبية.
الثاني - ان بني اسرائيل قالوا : ما مات فرعون، فالفاه الله تعالى على نجوة
من الارض ليروه، ذهب اليه ابن عباس وقتادة . وقوله « وإن كثيراً من الناس
عن آياتنا لغافلون » اخبر منه تعالى أن كثيراً من الخلق غافلون عن الفكر في

(١) مرّ هذا البيت في ١ / ٢١٨ و ٣ / ٣٢٦ منسوب الى عبيد بن الابرص

حجج الله وبيّناته أي ذاهبون عنها والغفلة ذهاب المعنى عن النفس وتقيضها اليقظة ، والمراد بدمهم بالغفلة عن آيات الله التعريض بأنهم تركوا النظر في آيات الله .

قوله تعالى :

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صَدَقِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣) آية

قوله « ولقد بوّأنا » اخبار منه تعالى أنه وطأ منزل بني اسرائيل والتبوء توطئة المنزل لصاحبه الذي يأوي اليه، تقول: بوأتته منزلاً تبويئاً وتبوءاً، وباء بالامر بواء أي رجع . وقوله « مباءاً صدق » أي منزل صدق أي فيه فضل كفضل الصدق ، كما يقال: أخو صدق وقيل: انه يصدق فيما يدل عليه من جلاله النعمة . وقوله « ورزقناهم من الطيبات » أي ملكناهم الاشياء اللذيذة . والرزق العقد على العطاء الجاري، ودلت الآية على سعة ارزاق بني اسرائيل . وقوله « فما اختلفوا حتى جاءهم العلم » قيل في معناه وجهان : احدهما - أنهم كانوا على الكفر فما اختلفوا حتى جاءهم الدليل المؤدي الى العلم من جهة الرسول والكتاب ، فأمن فريق وكفر آخرون - وهو قول الحسن وابن جريح وابن زيد - وقال قوم : كانوا على الاقرار بالنبي قبل مبعثه بصفته ونعته ، فما اختلفوا حتى جاءهم معلوم العلم به . والمنزل الصدق الذي أنزلوه قيل فيه ثلاثة اقوال : قال الحسن : هو مصر وهو منزل صالح خصب آمن . وقال قتادة : هو الشام وبيت المقدس . وقال الضحاك : هو الشام ومصر .

وقوله « إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » اخبار منه تعالى انه الذي يتولى الفصل بين بني اسرائيل في الامور التي يختلفون فيها .

قوله تعالى :

فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ الْمُتَمَتِّرِينَ (٩٤) آية

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ يقول له « إن كنت في شك مما »
أي من الذي « أنزلنا اليك » والشك هو توقف النفس فيما يخطر بالبال عن اعتقاده على
ما هو به ، وعلى ما ليس به . وقيل : إن هذا وإن كان خطاباً للنبي ﷺ فإن
المراد به الذين كانوا شاكين في نبوته . وقال قوم : إن معناه فان كنت أيها السامع
في شك مما أنزلنا على نبينا اليك ، ومثله قول القائل لعبده : إن كنت مملو كي فانتبه
الى امري . وقول الرجل لابنه : ان كنت ابني فبرني . وقوله : إن كنت والسدي
فتعطف علي . وحكى الزجاج وجهاً ثالثاً وهو أن يكون معنى (إن) معنى (ما)
والتقدير : ما كنت في شك مما أنزلنا اليك « فاسأل الذين » أي لسنا نريد بأمرك
لاذك شك لكن لتزداد بصيرة ، كما قال لبراهيم « أولم تؤمن قال بلى ولكن
ليطمئن قلبي » (١) وقوله « فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك » قيل : انما أمره
بأن يسأل اهل الكتاب مع جحد اكثرهم لنبوته لامرين :

احدهما - ان يكون امره بأن يسأل من آمن من اهل الكتاب كعبد الله بن
سلام وكعب الاحبار وابن صوريا، ذهب اليه ابن عباس ومجاهد وابن زيد والضحاك .
والثاني - سلمهم عن صفة النبي ﷺ المبشر به في كتبهم ثم انظر فمن وافق في
تلك الصفة . وقال البلخي ذلك راجع الى قوله « فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم
العلم » فأمره بأن يسألهم هل الأمر على ذلك ؟ فانهم لا يمتنعون عن الاخبار به ولم

يأمره بان يسألهم هل هو محق فيه أم لا؟ ولا ان ما انزله عليه صدق ام لا؟ ووجه آخر وهو انه انما امره أن يسألهم ان كان شاكاً ولم يكن شاكاً فلا يجب عليه مسألتهم وهذا معنى ما روي عنه صلى الله عليه وسلم انه قال (ما شككت ولا انا شاك) .

وقوله « لقد جاءك الحق من ربك » قسم منه تعالى بأنه قد جاءك يا محمد الحق من عند ربك لان لام (لقد) لام القسم . وقوله « فلا تكونن من الممترين » اي لا تكونن من الشاكين . والامتراء طلب الشك مع ظهور الدليل، وهو من مري الضرع اي مسحه ليدر ، فلا معنى لمسحه بعد دروره بالحلب . وقال سعيد بن جبير والحسن وقتادة وابو عبد الله عليه السلام : لم يسأل النبي صلى الله عليه وسلم ويقوي ان الخطاب متوجه الى النبي والمراد به غيره قوله بعد هذا « قل يا ايها الناس ان كنتم في شك » .

قوله تعالى :

وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ

الْخَاسِرِينَ (٩٥) آية

هذا الكلام عطف على قوله « فلا تكونن من الممترين . ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله » أي من جملة من يجحد بآيات الله ولا يصدق بها فانك ان فعلت ذلك كنت من الخاسرين . والمراد بالخطاب غير النبي صلى الله عليه وسلم من جملة أمته من كان شاكاً في نبوته . والنون في قوله (لا تكونن) نون التأكيد ، وهي تدخل في غير الواجب لانك لا تقول انت تكونن ، ودخلت في القسم على هذا الوجه لانه يطلب بالقسم التصديق ، وبني الفعل مع نون التأكيد لأنها ركبت مع الفعل على تقدير كلمتين كل واحدة من كلمة مع الاخرى مع ان الاولى ساكنة ، واقتضت حركة بناء لالتقاء الساكنين . وانما شبه الكافر بالخاسر مع ان حاله اعظم من حال الخاسر لان حال الخاسر قد جرت بها عادة . وذاق طعم الحسرة فيها فرد اليها لبيان أمرها ، وخسران النفس الذي هو أعظم منها .

قوله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ
جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧) آيتان عند الجميع

قد ذكرنا اختلافهم في (كلمة وكلمات) وإن من واحد فلأنه اسم جنس. ومن جمع اراد اختلاف الالفاظ . اخبر الله تعالى « ان الذين حقت عليهم كلمة ربك » يا محمد اي وجب على التحقيق بأنهم لا يؤمنون من غير شرط ولا تقييد، تقول: حق الامر يحق حقاً. وانما جاز وصف جملة من الكلام بالكلمة لانه لما كان في معنى واحد صار بمنزلة الكلمة الواحدة ، ولذلك قالوا في قصيدة من الشعر انها كلمة . وقوله « حتى يروا العذاب الاليم » معناه انهم انما يؤمنون اذا شاهدوا العذاب فآمنوا ملجئين ايماناً لا يتقهم . والرؤية في الآية رؤية العين ، لانها تمدت الى مفعول واحد. والعذاب وان كان ألماً وهو لا يصح ان يرى فلأنه ترى اسبابه ومقدماته فصار بمنزلة ما يرى ، فلذلك اخبر عنه بالرؤية له .

وقوله « ولو جاءتهم كل آية » اعلام بأن هؤلاء الكفار لالطف لهم يؤمنون عنده ايمان اختيار وانما جاز تكليفه الايمان باخبار الله تعالى انه لا يؤمن للانعام بالمنافع في احوال التكليف التي لاتحصى كثرة مع ما في ذلك من اللطف لغيره ، ولاظلم فيه لاحد . وانما يظلم الكافر نفسه بسوء اختياره . وانما انت قوله «جاءتهم كل آية » لانه مضاف الى الآية وهي مؤنثة كما قالوا: ذهبت بعض اصابعه . ومعنى الآية الاخبار عن ان هؤلاء لا يؤمنون ايماناً يستحقون به الثواب ، ولا ينافي ذلك قدرتهم على الايمان كما انه اذا اخبر انه لا يقيم القيامة الساعة لم يمنع ذلك من قدرته على اقامتها في الحال . وقيل ان التقدير في الآية ان الذين لا يؤمنون حقت عليهم كلمة ربك .

قوله تعالى :

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ
لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) آية

معنى (فلولا) هـ - لا ، وهي تستعمل على وجهين : احدهما - على وجه التحضيض والثاني - على وجه التأييد كقولك : هـ لا يأتي زيد بحاجتك ، وهـ لا امتنعت من الفساد الذي رغبت اليه . قال الشاعر :

تعدون عقر النيب افضل مجدكم بني ضوطرى لولا الكمي المقنعا (١)
أي هـ لا تعدون الشجعان .

وقوله « الا قوم يونس » نصب لأنه منقطع كما قال الشاعر :

أعيت جواباً وما بالربع من أحد إلا الأوارى لأيا ما ابينها
والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد (٢)

وحكى الفراء : لا إن ما أبينهما وقال : جمع الشاعر بين ثلاثة أحرف في النقي (لا وان وما) وانما جاز فلولا كانت قرية آمنت لان المراد أهل قرية فحذف اختصاراً من غير اخلال بالمعنى . وقوله « فنفعها ايمانها » معناه هـ لا كانت أهل قرية آمنت في وقت ينفعها الايمان ، وجرى هـ - ذا مجرى قول فرعون « حتى اذا أدركه الغرق قال آمنت انه لا اله الا الذي » (٣) فاعلم الله أن الايمان لا ينفع عند نزول العذاب ولا عند حضور الموت ، وقوم يونس لم يقع بهم العذاب كأنهم لم يروا الا آية الدالة على العذاب آمنوا فلما آمنوا كشف عنهم العذاب . والنفع هو

(١) انظر ١ / ٣١٩ ، ٤٣٥

(٢) مرّ هذا الشعر في ١ / ٤٤ ، ١٥١ و ٣ / ٢٢٧ و ٤ / ١٩١

(٣) سورة ١٠ يونس آية ٩٠

اللذة ، ومعناه ههنا انه وجبت لهم اللذة بفعل ما يؤدي اليها كما أن الصلة باطمال نفع ، لانه يؤدي الى اللذة ، وكذلك أكل الطعام الشهي وتناول الكريه عند الحاجة نفع لانه يؤدي الى اللذة . والخزي هو الهوان الذي يفضح صاحبه ويضع من قدره . وقال الجبائي : المراد بأهل القرية - على قول كثير من أهل التأويل - ثمود الذين أهلكهم الله بكفرهم ، والتقدير ههنا أهل قرية سوى قوم يونس آمنوا فنتعهم ايمانهم وزال عنهم العذاب كما آمن قوم يونس لما أحسوا بنزول العذاب ، فكشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعهم وبقاهم احياء سالمين في الدنيا بعد توبتهم الى مدة من الزمان . وهذا الذي ذكره إنما كان يجوز لو كان (إلا قوم يونس) رفعاً وكان يكون « الا قوم يونس » صفة أو بدلا من الاول لان المعنى إلا قوم يونس محمول على معنى ههنا كان قوم قرية أو قوم نبي آمنوا الا قوم يونس ، قال الزجاج : لم يقرأ أحد بالرفع ، ويجوز في الرفع أن يكون بدلا من الأول ، وإن لم يكن من جنس الأول كما قال الشاعر :

وبلدة ليس لها أنيس إلا اليعاقير والالعيس (١)

وقال ابو عبيدة (الا) ههنا بمعنى الواو ، والمعنى وقوم يونس . وقال الحسن . معنى الآية انه لم يكن فيما خلا أن يؤمن أهل قرية بأجمعها حتى لايشذ منهم أحد الا قوم يونس . فهلا كانت القرى كلها هكذا . وقرأ طلحة بن مصرف يونس ويوسف بكسر النون والسين أراد أن يجعل الاسمين عربيين مشتقين من أسد وأنس ، وهو شاذ .

فان قيل : قوله « كشفنا عنهم العذاب » يدل على نزول العذاب بهم فكيف يتنفع مع ذلك الايمان ، وهل ذلك الاضد قوله « فلم يك يتنعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا » (٢) ؟ قلنا : ليس يجب ان يكون العذاب نزل بهم بل لايمتنع أن يكون ظهرت لهم دلائله وان لم يروا العذاب كما أن العليل المدنف قد يستدرك التوبة

(١) مرّ تخريججه في ١ و ١٥١ و ٣ و ٢٢٧ (٢) سورة ٤٠ المؤمن آية ٨٥

يوجد ولو كان شائئاً لم يزل لما جاز ان يقول ولو شاء ربك كما لا يجوز أن يقول
لو شاء لقدّر لما كان كونه قادراً حاصلًا لم يزل .

قوله تعالى:

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ
عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) آية

قرأ ابو بكر إلا الأعشى والبرجمي (ونجمل) بالنون . الباقرن بالياء .
من قرأ بالياء فلانه تقدم ذكر الله فكفى، عنه . ومن قرأ بالنون ابتداءً بالاخبار
عن الله .

ومعنى قوله « وما كان لنفس ان تؤمن إلا بإذن الله » انه لا يمكن احد ان
يؤمن إلا باطلاق الله له في الايمان وتمكينه منه ودعاءه اليه بما خلق فيه من العقل
الموجب لذلك . وقال الحسن و ابو علي الجبائي : اذنه ههنا أمره كما قال « يا أيها
الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم » (١) وحقبة اطلاقه
في الفعل بالأمر، وقد يكون الاذن بالاطلاق في الفعل برفع التبعة . وقيل: معناه وما
كان لنفس أن تؤمن إلا بعلم الله . وأصل الاذن بالاطلاق في الفعل فأما الاقدار على
الفعل فلا يسمى أذنًا فيه ، لان النهي ينافي الاطلاق . قال الرماني : والنفس خاصة
الشيء التي لو بطل ما سواها لم يبطل ذلك الشيء ، ونفسه وذاته واحد إلا انه قد
يؤكد بالنفس ولا يؤكد بالذات . والنفس مأخوذة من النقاسة .

وقوله « ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » قيل في معناه قولان :
احدهما - قال الفراء : الرجس العذاب يجعله على الذين لا يعقلون امر الله ولانه
ولا ما يدعوه اليه . والثاني - قال الحسن : الرجس الكفر أي يجعله بمعنى انه

يحكم انهم اهلكه ذمماً لهم واسماً « على الذين لا يعقلون » اي كانهم لا يعقلون شيئاً ذمماً لهم وعيباً . وقال ابن عباس : الرجس الغضب والسخط . وقال ابو عبيدة الرجز العذاب ومثله الرجس ، ومنه قوله « لان كشفت عنا الرجز » (١) وقوله « فلما كشفنا عنهم الرجز » (٢) وقوله « والرجز فاهجر » (٣) معناه وذا الرجز أي الذي تؤدي عبادته الى العذاب . وقال الحسن : الرجز بضم الراء العذاب ، وبكسرهما الرجز . وقال الفراء : يجوز أن يكون الرجز بمعنى الرجس وقلبت الزاي سيناً كما قالوا اسد وأزد .

قوله تعالى :

قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ
وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١) آية

امر الله تعالى نبيه ﷺ أن يأمر الخلق بالنظر لأنه الطريق المؤدي الى معرفة الله تعالى . والنظر المراد في الاية الفكر والاعتبار . وقال الرماني : هو طلب الشيء من جهة الفكر كما يطلب ادراكه بالعين . ومعنى قوله تعالى « ماذا في السموات والأرض » أي ما فيها من العبر من مجيء الليل والنهار ومجرى البحور والافلاك ونتاج الحيوان وخروج الزرع والثمار ، ووقوف السماوات والارض بغير همد ، لان كل ذلك تدبير يقتضي مدبراً لا يشبه الاشياء ولا تشبهه . وقوله « وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » قيل في معناه قولان :

احدهما - أن تكون (ما) نغياً بمعنى ما يغني عنهم شيئاً بدفع الضر ، اذا لم يفكروا فيها ولم يعتبروا بها كقولك : وما يغني عنك المال شيئاً اذا لم تنفقه في وجوهه .

والاخر - أن تكون (ما) للاستفهام كقوالك أي شيء يعني عنهم من اجتلاب نفع أو دفع ضرر إذا لم يستدلوا بها . والنذر جمع نذير وهو صاحب النذارة وهي اعلام بموضع المخافة ليقع به السلامة .

قوله تعالى :

قَبَلْ يَمْتَنِّظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ
فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢) آية

خاطب الله تعالى نبيه ﷺ بلفظ الاستفهام والمراد بالنفي لان تقديره ليس ينتظر هؤلاء الكفار الامثل أيام الذين خلوا من قبلهم . وانما قابل بين الايام المنتظرة والايام الماضية في وقوع العذاب والحسرة حين لا تنفع الندامة . والانتظار هو الثبات لموقع ما يكون من الحال ، تقول : انتظرني حتى ألحقك ولو قلت توقعني لم تكن أمرته بالثبات . والمثل في الجنس ماسد أحدهما مسد صاحبه فيما يرجع الى ذاته والمثل في غير الجنس ما كان على المعنى يقربه من غيره كقربه من جنسه كتشبيه اعمال الكفار بالسراب وقوله « قل فانتظروا اني معكم من المنتظرين » أمر من الله لنبيه أن يقول لهم : انتظروا ما وعد الله به من العقاب فاني منتظر نزوله بكم مع جميع المنتظرين كما وعد الله به .

قوله تعالى :

ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ
الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) آية

قرأ يعقوب « ثم ننجي » بالتخفيف . وقرأ الكسائي ويعقوب وحفص والكسائي عن ابي بكر « ننجي المؤمنين » بالتخفيف . الباقر بالتشديد فيهما . قال ابو علي

النحوي : يقال نجا زيد نفسه ، فإذا عديته ، فإن شئت قلت أنجيتته وان شئت قلت نجيتته . ومن شدد فللقوله « ونجينا الذين آمنوا » (١) ومن خفف فللقوله « فأنجاه الله من النار » (٢) وكلاهما حسن .

أخبر الله تعالى أنه إذا أراد إهلاك قوم استحقوا الهلاك نجى رسله من بينهم وخلصهم من العقاب، ويخلص مع الرسل المؤمنين الذين أقروا له بالوحدانية وللرسل بالتصديق . وقوله « كذلك حقاً علينا ننجي المؤمنين » وجه التشبيه في ذلك أن نجاة من يقر من المؤمنين كنجاة من مضى في أنه حق على الله ثابت لهم ويحتمل أن يكون العامل في « كذلك » ننجي الاول وتقديره ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك الانجاء ويحتمل أن يعمل فيه الثاني ، وكذلك حقاً علينا .

ومعنى قوله « حقاً علينا » يحتمل أمرين : احدهما - أن يكون معناه واجباً علينا ننجي المؤمنين من عقاب الكفار ، ذكره الجبائي . والثاني - أن يكون على وجه التأكيد كقولك مررت بزيد حقاً إلا أن علينا يقتضي الوجه الاول . والنجاة مأخوذة من النجوة وهي الارتفاع عن الهلاك . والسلامة مأخوذة من إعطاء الشيء من غير نقیصة، اسلمته اليه اذا اعطيته ساطماً من غير آفة .

قوله تعالى :

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ
الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّيكُمْ
وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) آية .

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه ﷺ ان يقول للخلق « يا أيها الناس ان كنتم

في شك من ديني « فان ديني أن «لا أعبد الذين تعبدون من دون الله» أي إن كنتم في شك مما أذهب اليه من مخالفتكم فاني أظهره لكم وأبرء مما أنتم عليه وأعرفكم ما أمرت به وهو أن أكون مؤمناً بالله وحده وأن أقيم وجهي للدين حنيفاً .

إن قيل: لم قال « إن كنتم في شك من ديني » مع اعتقادهم بطلان دينه ؟ قلنا عنه ثلاثة أجوبة : احدها - أن يكون على وجه التقدير أي من كان شاكاً في أمري وهو مصمم على أمره فهذا حكمه . والثاني - انهم في شككم الشاك للاضطراب الذي يجدون نفوسهم عليه عند ورود الآيات . والثالث - ان فيهم الشاك فغلب ذكرهم ، وإنما جعل جواب (ان كنتم في شك) (لا أعبد) وهو لا يعبد غير الله شكوا أولم يشكوا ، لان المعنى لا تطمعوا أن تشككوني بشككم حتى أعبد غير الله كعبادتكم ، كأنه قيل : إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله بشككم ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم أي الذي أحياكم ثم يقبضكم وهو الذي يحق له العبادة دون أوثانكم ودون كل شيء سواه .

قوله تعالى :

وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) آية

هذه الآية عطف على ما قبلها والتقدير وأمرت أن أكون من المؤمنين ، وقيل لي : أقم وجهك وقيل في معناه قولان : احدهما - استقم باقبالك على ما أمرت به من القيام باعباء النبوة وتحمل أمر الشريعة ودعاء الخلق الى الله بوجهك ، اذ من أقبل على الشيء بوجهه يجمع همه له فلم يضجع فيه . والثاني - أن يكون معناه أقم وجهك في الصلاة بالتوجه نحو الكعبة . والاقامة نصب الشيء المنافي لاجتماعه تقول : أقام العود إذا جعله على تلك الصفة فأما أقام بالمكان فمعناه استمر به . والوجه عبارة عن عضو مخصوص ويستعمل بمعنى الجهة كقولهم : هذا معلوم في وجه كذا ، ويستعمل بمعنى الصواب كقولك : هذا وجه الرأي .

وقيل في معنى الحنيف قولان : احدهما - الاستقامة . وقيل للمايل القدم
أحقت تفتاؤلاً . والثاني - الميل ، وقيل الحنف في الدين لأنه ميل الى الحق .
وقوله « ولا تكذبون من المشركين » معناه نهي عن الاشرار مع الله تعالى
غيره في العبادة تصریحاً بالتحذير عن ذلك والذم لفاعله .

قوله تعالى

وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ

إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) آية

قيل في معنى قوله « ولا تدع من دون الله » قولان : احدهما - لاتدعه
إلهاً كما يدعو المشركون الوثن إلهاً . الثاني - لاتدعه دعاء الآلهة في العبادة
بدعائه والدعاء يكون على وجهين : احدهما - بلفظ النداء كقولك : يا زيد
إذا دعوته باسمه . والثاني - أن تدعو الى الفعل وتطلب منه فعله كقول القائل لمن
فوقه : إفعل . وقوله « ولا تدع من دون الله » معناه لاتدع غير الله إلهاً . وإنما قال
« ما لا ينفعك ولا يضرك » مع أنه لو نفع وضر لم تحسن عبادة لامرين :
احدهما - أن يكون معناه ما لا ينفعك ولا يضرك نفع الاله وضره

والثاني - انه إذا كان عبادة غير الله ممن يضر وينفع قبيحة فعبادة من لا يضر
ولا ينفع أقيح وأبعد من الشبهة . وقوله « فان فعلت فانك اذا من الظالمين » معناه
انك إن خالفت ما أمرت به من عبادة الله كنت ظالماً لنفسك بإدخال الضرر الذي
هو العقاب عليها . وهذا الخطاب وإن كان متوجهاً الى النبي فالمراد به أمته ، ويجوز
أن يكون الانسان يضر نفسه بما يفعل بأن يؤديها الى الضرر . ولا يجوز أن ينعم
على نفسه لان النعمة تقتضي شكر المنعم عليه وذلك لا يمكن من الانسان ونفسه
كما لا يمكن أن يثبت له في نفسه مال أو دين .

قوله تعالى

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ
بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ (١٠٧) آية

قوله « وإن يمسك الله بضر » اي ان احل بك الضر ، لان المس الحقيقي لا يجوز عليه ، لان حقيقتها تكون بين الجسمين ، لكن لما ادخل الباء للتعدية جرى مجرى ان تقول يمسك من امسه . وأما اذا لم يتعد فيكون كقوله « مسني الضر » (١) والمماساة والمطابقة والمجامعة نظائر، وضدها المباينة . والكشف رفع الساتر المانع من الادراك . فكأن الضر ههنا كأنه ساتر يمنع من ادراك الانسان .

وقوله « وإن يردك بخير » تقديره وان يرد بك الخير، وجاز على التقديم والتأخير كما يقول القائل : فلان يريدك بالخير ويريد بك الخير . والمعنى انه لاراد لما يريد الله بخلقه فان اراد بهم سوءاً لا يقدر على دفعه احد . وان ارادهم بخير فلا يقدر احد على صرفه عنهم « يصيب به من يشاء من عباده » يعني بالخير . وقوله « وهو الغفور الرحيم » معناه انه الغفار لكل من تاب من شره وذنبه فلا ييأس من ذلك احد في حال تكليفه . وعندنا يجوز أن يغفر الله ذنب المؤمن من غير توبة . و (الرحيم) معناه انعامه على جميع خلقه .

قوله تعالى :

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى

فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا
عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨) آية

امر الله تعالى نبيه في هذه الآية أن يقول للمخلوق قد جاءكم الحق من الله وهو الذي من عمل به من العباد نجا ، وضده الباطل وهو الذي من عمل به هلك ، فمن عمل بالحق كان حكيماً . ومن عمل بالباطل كان سقيماً . والمراد بالحق ههنا ما أتى به النبي ﷺ من القرآن والشرائع والاحكام وغير ذلك من الآيات والسدالات « فمن اهتدى » بها بأن نظر فيها وعرفها حقاً وصواباً « فإنما يهتدي لنفسه » ومعناه فإن منافع ذلك تعود عليه من الثواب دون غيره « ومن ضل » عنها وعدل عن تأملها والاستدلال بها والعمل بموجبها « فإنما يضل » عن منافع نفسه وهو الجاني عليها . وقوله « وما أنا عليكم بوكيل » معناه وما أنا عليكم بوكيل في منعكم من اعتقاد الباطل بل انظروا لانفسكم نظر من يطالب بعمله ولا يطالب غيره بحفظه كأنه قال ما أنا حافظكم من الهلاك اذا لم تنظروا انتم لانفسكم ولم تعملوا بما يخلصها كما يحفظ الوكيل مال غيره .

قوله تعالى :

وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ

الْحَاكِمِينَ (١٠٩) آية

امر الله تعالى نبيه ﷺ ان يتبع ما يوحى اليه . والايحاء إلقاء المعنى في النفس على وجه خفي وهو مايجيء به الملك الى النبي ﷺ عن الله تعالى فيلقية اليه ويخصه به من غير أن يرى ذلك غيره من المخلوق .

وقوله « واصبر » امر من الله تعالى له بالصبر وهو تجرع مرارة الامتناع

من المشتبهى إلى الوقت الذي يجوز فيه تناوله ، كصبر الصائم على الجوع والعطش ،
و كصبر النفس عن تناول المحرّمات . وانما يعين على الصبر العلم بما قبله وكثرة
الفكر فيه وفي الخير الذي ينال به وبذكر ما وعد الله على فعله من الثواب وعلى
تركه من العقاب . وقوله « حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين » امر منه تعالى
للنبي ﷺ بالصبر على اذى المشركين وعلى قولهم انك ساحر كذاب ومجنون، حتى
يحكم فيأمرك بالهجرة والجهاد . قال الحسن: وقد كان الله اعلمه انه سيفرض عليه
جهاد الكفار . وقيل نسخ ذلك فيما بعد بالامر بالجهاد ، والتقدير إلى أن يحكم
الله بهلاكهم وعذابهم في يوم بدر وغيره « وهو خير الحاكمين » معناه خير الحكام
لانه قد يكون حاكم افضل من حاكم مع كونهما محققين كمن يحكم على الباطن
فانه افضل ممن يحكم على الظاهر ، لان الاول لا يقع إلا حقاً ، والاخر يجوز أن
يكون حقاً في الظاهر وان كان فاسداً في الباطن .



١١ - سورة هود

مكية في قراءة قيادة ومجاهد وغيرهما. وهي مئة وثلاث وعشرون آية في الكوفي، واثنان في المدني، وواحدة في البصري وعند اسماعيل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ

خَمِيرٍ (١) آية

روى الكسائي عن أبي بكر « من لدن حكيم » ههنا وفي النمل ، بسكون الدال واشمامها الضم وكسر النون . الباقيون بضم الدال واسكان النون . ولم يعد أحد من القراء (الر) آية كما عد قوم (طه) و (الم) و (حم) آية ؛ لأن ثانيه لا يشبه رأس الـاي بنفس الحرف ولا بالاردف . وقد بينا في أول سورة البقرة اختلاف المفسرين في هذه الحروف وأمثالها وأن الأقوى أن يقال إنها أسماء للسور . وروي عن الحسن أنه قال : ما أدري تأويل (الر) غير ان المسلمين كانوا يقولون : هي أسماء للسور ومفاتها . وخرجت هذه الحروف على وجه التهجي لا يعرب شيء منها ، لأنها حروف ولو كانت أسماء لدخلها الاعراب . وقال القراء « الر كتاب » رفع بحروف الهجاء . وقال غيره « كتاب » رفع بأنه خبر المبتدأ وتقديره هو كتاب او هذا كتاب والمراد بـ (كتاب) القرآن .

وقوله « احكمت آياته ثم فصلت » قيل في معناه ثلاثة أقوال :
 احدها - قال الحسن : احكمت بالامر والنهي ، وفصلت بالثواب والعقاب .
 الثاني - قال قتادة احكمت آياته من الباطل . ثم فصلت بالحرام والحلال .
 الثالث - قال مجاهد « احكمت آياته » على وجه الجملة « ثم فصلت » اي
 بينت بذكرها آية آية . والاحكام منع الفعل من الفساد ، قال الشاعر :
 أبني حنيفة احكموا سفهاءكم إني اخاف عليكم أن أغضبها (١)
 وقوله « من لدن حكيم خبير » معناه من عند حكيم عليم . وقوم يجعلون
 في (لدن) ضميراً فينصبون ما بعده فيقولون لدن غدوة . وقوم يجعلونه غاية
 ولا يضمرون فيه شيئاً بعينه فيرفعون ما بعده لأن ما بعد الغاية مرفوع . فيقولون
 لدن غدوة .

وروي عن عكرمة انه قرأ « فصلت » بفتح الفاء والصاد وتخفيفها . وهي
 شاذة لم يقرأ بها احد .

والحكيم يحتمل معنيين : احدهما - عليم ، فعلى هذا يجوز وصفه بأنه حكيم فيما
 لم يزل . والثاني - بمعنى أنه محكم لافعاله . وعلى هذا لا يوصف به فيما لم يزل .
 والحكمة المعرفة بما يمنع الفعل من الفساد والنقص وبها يميز القبيح من الحسن
 والفاقد من الصحيح . وقال الجبائي في الاية دلالة على أن كلام الله محدث بأنه وصفه
 بأنه احكمت آياته ، والاحكام من صفات الافعال . ولا يجوز أن تكون احكامه
 غيره لانه لو كان احكامه غيره لكان قبل ان يحكمه غير محكم ولو كان كذلك لكان
 باطلا ، لان الكلام متى لم يكن محكماً وجب أن يكون باطلاً فاسداً . وهذا باطل .

قوله تعالى :

أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّ نَبِيَّ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) آية

يحتمل (أن) في قوله « أن لاتعبدوا » أمرين :
 احدهما - أن يكون بمعنى المصدر كقولك كتبت اليه أن لاتخرج بالجزم
 وكان يجوز في العربية أن لاتعبدون على الوجه الأول ، وهو الاخبار بأنهم لايعبدون
 كما تقول : كتبت اليه أن لاتخرج أي بأنك لاتخرج . و « أن لاتعبدوا » في موضع
 نصب وتقديره فصلت آياته بأن لاتعبدوا او لئلا تعبدوا .
 والثاني - يحتمل أن يكون المعنى أمرتم بأن لاتعبدوا ، فلما حذف الباء
 نصب بعدها ، ومعنى (إلا) في الآية ايجاب للمذكور بعدها وهو ما نفي عن كل
 ما سواه من العبادة وهي التي تفرغ عامل الاعراب لما بعدها من الكلام . وقوله
 « اني لكم نذير وبشير » اخبار أن النبي ﷺ مخوف من مخالفة الله وعصيانه
 باليم عقابه مبشر بثواب الله على طاعته واجتناب معاصيه ، والندارة اعلام موضع
 المخافة ليقنى ، ونذير بمعنى منذر كاليم بمعنى مؤلم . والبشارة اعلام بما يظهر
 في بشرة الوجه به المسرة وبشير بمعنى مبشر . وقوله « وابشروا بالجنة » معناه
 واستبشروا .

قوله تعالى

وَإِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا
 إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي
 أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) آية .

هذه الآية عطف على ما قبلها وتقديره ثم فصلت من لادن حكيم خبير بان
 لاتعبدوا إلا الله وبأن استغفروا ربكم بمعنى سلوا الله المغفرة ثم توبوا اليه ، وانما
 ذكرت التوبة بعد الاستغفار ، لان المعنى اطلبوا المغفرة بأن تجعلوها غرضكم ثم
 توصلوا الى مطلوبكم بالتوبة ، فالمغفرة أول في الطلب وآخر في السبب . وقيل ان

المعنى استغفروا ربكم من ذنوبكم ثم توبوا إليه في المستأنف متى وقعت منكم
المعصية ، ذكره الجبائي

وقوله « يدعكم متاعاً حسناً الى أجل مسمى » يعني انكم متى استغفرتموه
وتبتم اليه متعكم متاعاً حسناً في الدنيا بالنعم السابقة والملاذ المختلفة الى الوقت الذي
قدر لكم أجل الموت فيه .

وقوله « ويؤت كل ذي فضل فضله » يحتمل امرين : احدهما - أن يعطي
كل ذي عمل على قدر عمله في الآخرة دون الدنيا ، لأنها ليست دار الجزاء
والثاني - الترغيب في عمل الخير لأنه على مقداره يجازي صاحبه .

وقوله « فان تولوا فاني أخاف عليكم » يحتمل امرين : احدهما - فان
تتولوا ، إلا انه حذف للتضعيف ولذلك شدده ابن كثير في رواية البرقي عنه .
والآخر - ان يكون بمعنى فقل « إني أخاف عليكم عذاب يوم كبير » يعني عذاب
يوم القيامة ووصف ذلك اليوم بالكبير لعظم ما يكون فيه من الأهوال والمجازاة
لكل انسان على قدر عمله .

قوله تعالى

إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤) آية

قيل في معنى قوله « الى الله مرجعكم » قولان : احدهما - اليه مصيركم
بإعادته اياكم للجزاء . والثاني - الى الله مرجعكم بإعادته الى مثل الابتداء من
انه لا يملك لكم ذراً ولا نفعاً سواه تعالى ، والمرجع المصير الى مثل الحال الاولى .
وقوله « وهو على كل شيء قدير » اخبار منه تعالى انه يقدر على كل شيء
إلا ما اخرج الدليل مما يستحيل أن يكون قادراً عليه من مقدرات غيره وما
يقضى وقته من الاجناس التي لا يصلح عليها البقاء .

قوله تعالى

أَلَا إِنَّهُمْ يَشْتُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخْفُوا مِنْهُ الْآحِينَ يَسْتَعْتِبُونَ
ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥) آية

روي عن ابن عباس انه قرأ « إلا انهم يشتون صدورهم » على وزن (يجلون) وأراد المبالغة ومعنى (ألا) النبيه . وما بعده مبتدأ .

أخبر الله تعالى ان الكفار يشتون صدورهم . وقيل في معناه ثلاثة اقوال :
احدها - قال الفراء والزجاج : يشتونها على عداوة النبي ﷺ . وقال الحسن :
يشتونها على ما هم عليه من الكفر . وقال ابو علي الجبائي : يشني الكافر صدره على
سبيل الانحناء ، في خطابه لكافر مثله مدن يختصه لئلا يعرف الله ما أضمره . وقال
ابو عبد الله بن شدار : ولى ظهره إذا رأى النبي ﷺ وغطى وجهه بالثوب واحمل
الثني العطف تقول : ثنيته عن كذا اي غطيته ومنه الاثنان لعطف احدهما على الآخر
في المعنى ، ومنه الثناء لعطف المماقب في المدح ، ومنه الاستثناء لانه عطف عليه
بالاخراج منه

وقوله « لَيَسْتَخْفُوا مِنْهُ » فالاستخفاء طلب خفاء النفس تقول : استخفى استخفاء
وتخفى تخفياً ، ونظيره استغشى وتغشى قالت الخنساء :

أرعى النجوم وما كلمت رعيتهما وتارة اتغشى فضل الطماري (١)

والهاء في منه يحتمل أن تكون عائدة الى اسم الله - في قول الحسن ومجاهد
والجبائي - جهلا منهم بأن الله لا يخفى عليه خافية . وقال ابو عبد الله بن شدار :
هي عائدة على النبي ﷺ .

وقوله « الْآحِينَ يَسْتَعْتِبُونَ ثِيَابَهُمْ » معناه انهم كانوا يتعطفون ثيابهم ثم يتفاوضون

ما كانوا يدبرونه على النبي وعلى المؤمنين ويكتمونه عن الناس ، فبين الله تعالى انهم وقت ما يتغطون بثيابهم ويجعلونها غشاء فوقهم عالم بما يسرون وما يعلنون ، لانه يتجدد له العلم في حال استغنائهم بالثوب بل هو عالم بذلك في الازل . ومعنى « ما يسرون وما يعلنون » اي ما يخفونه في انفسهم وما يعلنونه أي يظهرونه « انه عليهم بذات الصدور » ومعناه عالم بأسرار ذات الصدور

قوله تعالى :

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦) آية .

أخبر الله تعالى أنه ليس في الارض دابة إلا والله تعالى متكفل برزقها . والدابة الحي الذي من شأنه أن يدب يقال : دب يدب ديبباً وأدبه أدباباً ، غير انه صار بالعرف عبارة عن الخيل والبراذين دون غيرها من الحيوان .

وقوله « ويعلم مستقرها ومستودعها » فالمستقر الموضع الذي يقر فيه الشيء وهو قراره ومكانه الذي يأوي اليه . والمستودع المعنى المجهول في القرار كالولد في البطن والنطفة التي في الظهر . وقيل : مستودعها مدفنها بعد موتها . وقيل : مستقرها في اصلاب الآباء ومستودعها في ارحام الامهات . وقيل : مستقرها ما تستقر عليه ، ومستودعها ما تصير اليه .

وقوله « كل في كتاب مبين » خير من الله تعالى أن جميع ذلك مكتوب في كتاب ظاهر يعنى اللوح المحفوظ ، وانما اثبت تعالى ذلك مع انه عالم انه لا يعزب عنه شيء لطافه من اللطف للملائكة او يكون فيه لطف لمن يخبر بذلك .

قوله تعالى :

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ

عَرَّشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتِ إِنَّكُمْ
مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا
سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) آية

اخبر الله تعالى أنه خلق السماوات والارض وأنشأهما في ستة ايام ، وانما خلقهما في هذا المقدار من الزمان مع قدرته ان يخلقهما في أقل من لمح البصر ليبين بذلك ان الامور جارية في التدبير على منهاج ، ولما علم في ذلك من مصالح الخلق من جهة اقتضاء ان ينشأها على ترتيب يدل على انها كانت عن تدبير عالم بها قبل فعلها مثل سائر الافعال المحكمة .

وقوله « وكان عرشه على الماء ليبلوكم » معناه انه خلق الخلق ودبر الامر ليظهر احسان المحسن ، لأنه الغرض الذي يجري بالفعل اليه . وفي وقوف العرش على الماء ، والماء على غير قرار اعظم للاعتبار لمن امعن النظر واستعمل الفكر . والمراد بقوله « في ستة ايام » ما مقداره مقدار ستة ايام ، لانه لم يكن هناك ايام تعد ، لان اليوم عبارة عما بين طلوع الشمس وغروبها .

وقوله « ليبلوكم » معناه ليعاملكم معاملة المبتلي المختبر مظهرة في العدل لئلا يتوهم أنه يجازي العباد بحسب ما في المعلوم أنه يكون منهم قبل أن يفعلوه . وقوله « أيكم أحسن عملا » فيه دلالة على أنه يكون فعل حسن أحسن من فعل حسن آخر لان لفظة أفعل حقيقتها ذلك . ولا يجوز ترك ذلك الا لدليل ، وليس هنها ما يوجب الانصراف عنه .

وقوله « ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا ان هذا الاسحرمين » إعلام من الله تعالى لنبيه انه لو قال لهؤلاء الكفار ان الله يبعثكم بعد موتكم ويجازيكم على أعمالكم لقالوا: ليس هذا القول الا سحر ظاهر . ومن

قرأ (ساحر) اراد ليس هذايه عنون النبي ﷺ الا ساحر مبین . وقال الجبائي في الاية دلالة على انه كان قبل خلق السماوات والارض الملائكة قال : لان خلق العرش على الماء لواجه لحسنه الا أن يكون فيه لطف لمكلف يمكنه الاستدلال به فلا بد اذاً من حي مكلف . والاقوى ان يقال: انه لا يمتنع ان يتقدم خلق الله لذلك اذا كان في الاخبار بتقدمه مصلحة للمكلفين، وهو الذي اختاره الرماني . وكان علي بن الحسين الموسوي المعروف بالمرتضى (ره) ينصره .

وظاهر الاية يقتضي ان العرش الذي تعبد الله الملائكة بحمله كان مخلوقاً قبل السماوات والارض ، وهو قول جميع المفسرين : كابن عباس ومجاهد وقتادة والبلخي والجبائي والرماني والفراء والزجاج وغيرهم . وقال ابن عباس : كان العرش على الماء ، والماء على الهواء . وقال الجبائي : ثم نقل الله العرش الى فوق السماوات

قوله تعالى

وَلَئِنْ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ
مَا يَحْسِبُهُ الْآيُومَ يَا تُبَّيْهُمُ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا
بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨) آية .

اللام في قوله « ولئن أخرنا » لام القسم . ولا يجوز ان تكون لام الابتداء ، لانها دخلت على (ان) التي للجزاء ، ولام الابتداء إنما هي لسلاسم او ماضارع الاسم في باب (ان) وجواب الجزاء مستغنى عنه بجواب القسم ، لانه اذا جاء في صدر الكلام غلب عليه كما انه اذا تأخر او توسط الغي . ومعنى قوله « أخرنا عنهم العذاب الى امة معدودة » اخرالى حين امة معدودة كما قال « واد كر بعد امة » (١) اي بعد حين . وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والزجاج والفراء وغيرهم .

وقال الجبائي : معناه الى أمم بعد هؤلاء يكلفهم فيمصونه فتقتضي الحكمة إهلاكهم وإقامة القيامة . وقال الرهاني : معناه الى جماعة معدودة بانه ليس فيها من يؤمن فإذا صاروا الى هذه الصفة أهلكوا بالعذاب ، كما أهلك قوم نوح في الدنيا . وأهلكوا بعذاب الآخرة لكونهم على هذه الصفة .

وقوله « ليقولن ما يجبهه » فالجبه المنع بالحرص في خباء . ويقال : حبس الماء إذا منع من النفوذ . وحبس السلطان الرزق إذا معنه . وحبس عنهم العذاب إذا منع من اتيانهم الى الاجل المعلوم . والتقدير ما الذي يمنع من تعجيل هذا العذاب الذي نتوعد به ؟ فقال الله تعالى « ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم » ومعناه ان هذا العذاب الذي يستبطنونه اذا نزل بهم في الوقت المعلوم لا يقدر على صرفه أحد عنهم ولا يتمكنون من اذغابه عنهم اذا اراد الله ان تأتيهم به . وقوله « وحق بهم ما كانوا به يستهزئون » معناه انه نزل بهم الذي كانوا يسخرون منه من نزول العذاب ويتحققونه

قوله تعالى :

وَأَعْيُنٌ أَدَقْنَا لِلْإِنْسَانِ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ

كَفُورٌ (٩) آية

أقسم الله تعالى في هذه الآية انه لو احل تعالى بالانسان رحمة من عنده يعني مايفعله الله تعالى بهم في الدنيا من الارزاق ، فانه يعم بها خلقه كافرهم ومؤمنهم . ثم نزعها منه وسلمها ، وسمى احلال اللذات بهم اذاقة تشبيهاً وبجازاً ، لان الذوق في الحقيقة تناول الشيء بالعم لادراك الطعم ، والانسان حيوان على الصورة الانسانية لأن الصورة الانسانية بانفرادها قد تكون للمثال ولا يكون انساناً فإذا اجتمعت الحيوانية والصورة لشيء فهو انسان . قال الرهاني : وكلما لاحياة فيه فليس بانسان

كالشعر والظفر وغيرهما . والنزع رفع الشيء عن غيره مما كان مشابكاً له ، والنزع والقلع والكشط نظائر . واليأس القطع بأن الشيء لا يكون وهو ضد الرجاء ويؤوس كثير اليأس من رحمة الله وهذه صفة ذم ، لأنه لا يكون كذلك إلا للجهل بسعة رحمة الله التي تقضي قوة الأمل . وفائدة الآية الاخبار عن سوء خلق الإنسان وقبوطه من الرحمة عند نزول الشدة وأنه إذا أنعم عليه بنعمة لم يشكره عليها وإذا سلبها منه يئس من رحمة الله وكفر نعمه ، وهو مصروف الى الكفار الذين هذه صفتهم .

قوله تعالى :

وَلِئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ

عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) آية

أقسم الله تعالى في هذه الآية أنه لو أحل بالإنسان « نعماء بعد ضراء مسته » لأن الهاء كناية عن الإنسان الذي مضى ذكره ، والنعماء إنعام يظهر أثره على صاحبه والضراء مضرّة تظهر المآل بها ؛ لأنها أخرجت مخرج الأحوال الظاهرة كحمرء وعوراء مع ما فيها من المبالغة . ومعنى « مسته » نالته . وقوله « ليقولن ذهب السيئات عني » أي يقول عند نزول النعماء به بعد أن كان في ضدها من الضراء : دهب الخصال التي تسوء صاحبها من جهة نفور طبعه أو عقله ، وهو - ههنا - بمعنى المرض والفقر ، ونحو ذلك . وقوله « إنه لفرح فخور » إخبار منه تعالى أن الإنسان فرح فخور . والفرح انفتاح القلب بما يلتذ به وضده الغم ، ومثله السرور والمرح . والفرح لذة في القلب أعظم من ملاذ الحواس . والفخور المتطاوّل بتعديد المناقب ، وفخور كثير الفخر ، وهي صفة ذم إذا اطلقت لما فيه من التكبر على من لا يجوز أن يتكبر عليه . وقيل: للعالم أن يفخر على الجاهل بالعلم لتعظيم

العلم وتحقير الجاهل ، ولذلك تفخر النبي على الكفار .

قوله تعالى :

إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) آية

لما أخبر الله تعالى عن أحوال الخلق وأن أكثرهم إذا حل بهم نعمه تعالى بعد أن كانوا في مضرة شديدة وانهم إذا يقولون ذهب السيئات عنهم وان كثيراً منهم فرح فخور ، استثنى من جملتهم المؤمنين بتوحيد الله الصابرين على طاعته والكف عن معاصيه وأضافوا الى ذلك الأعمال الصالحات . والصبر حبس النفس عن المشتبه من المحارم . والصبر على مرارة الحق يؤدي الى الفوز بالجنة في الآخرة مع ما فيد من الجمال في الدنيا . واستثنى الذين صبروا من الانسان، لانه في معنى الجمع كما قال « والعصر إن الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » (١) وقال الزجاج والأخفش : (إلا) بمنى (لكن) لأنه ليس من جنس الأول . والأول قول القراء . وقوله « أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » إخبار من الله تعالى عن هؤلاء المؤمنين بأن لهم عند الله المغفرة والأجر العظيم .

قوله تعالى :

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ
أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَائِكَةٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ
وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) آية

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه ﷺ يحثه على أداء جميع ما بعثه به وأوحى إليه ، وينباه عن كتمانته ، ويشجعه على الأداء ، ويقول له لا يكون لعظم ما يرد على قلبك ويضيق به صدرك من غيظهم يوهمون عليك انهم يزيلونك عن بعض ما أنت عليه من أمر ربك ، وأنت تترك بعض الوحي ويضيق به صدرك مخافة أن يقولوا أو أثلا يقولوا « لولا انزل عليه كنز » أي هلا انزل عليه كنز فينتقم منه « أوجاء معه ملك » يعينه على أمره بل « إنما أنت نذير » أي منذر مخوف من معاصي الله وعقابه « والله على كل شيء وكيل » أي حافظ يكتب عليهم أفعالهم وأقوالهم ، ومجازيهم عليها ، فلا تمنك أقوالهم ولا أفعالهم ولا يضيق بذلك صدرك فان وبال ذلك عائد عليهم . وضائق وضيق واحد الا ان (ضائق) ههنا احسن لمشاكلته لقوله: تارك ، والضيق قصور الشيء عن مقدار غيره ان يكون فيه ، فاذا ضاق صدر الانسان قصر عن معان يتحملها الواسع الصدر . والصدر مسكن القلب ويشبه به رفيع المجالس ورئيس القوم لشرفه على غير ، والكنز المال المدفون لعاقبته ، وصار في الشرع اسم ذم في كل مال لا يخرج منه حق الله من الزكاة وغيره ، وإن لم يكن مدفوناً.

قوله تعالى :

أَمْ يَقُولُونَ آفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ
وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) آية

هذه الآية صريحة بالتحدي وفيها قطع لاعتلال المشركين وبغيهم ، لأنهم لما عجزوا عن معارضة القرآن قالوا : إن ما فيه من الاخبار كذب اختلقه و اخترعه أو قرأ الكتب السالفة ، فقال الله تعالى لهم : افتروا أستم مثله ، وادحضوا حجته فذلك أيسر وأهون مما تكلفتموه ، فعجزوا عن ذلك وصاروا الى الحرب وبذل النفس والمال وقتل الآباء والابناء . ولو قدروا على إطفاء أمره بالمعارضة لفعلوه

مع هذا التقريع العظيم . وفيه دلالة على جهة إعجاز القرآن وأنها الفصاحة في هذا النظم المخصوص ، لانه لو كان غيره لما قنع في المعارضة بالافتراء والاختلاق . وقوله « فأتوا » وإن كان لفظه لفظ الأمر فالمراد به التهديد والتحدي والمثل المذكور في الآية ما كان مثله في البلاغة والنظم أو ما يقاربه ؛ لأن البلاغة ثلاث طبقات فأعلاها معجز ، وأدناها وأوسطها ممكن ، فالتحدي وقع بما هو في أعلى طبقة في البلاغة ، ولا يجوز أن يكون المراد بالمثل إلا المثل في الجنسية ؛ لأن مثله في العين يكون حكايته وذلك لا يقع به تحدي . وإنما يرجع الى ما هو متعارف بينهم في تحدي بعضهم بعضاً كمناقضات امرئ الفيس وعلقمة ، وعمر بن كلثوم والحارث بن حلزة ، وجريير والفرزدق وغيرهم . ومعنى (أم) تقرير بصورة الاستفهام ، وتقديره بل « يقولون افتراء » . وقال بعضهم : إن الاستفهام محذوف ، كأنه قال أيكذبونك أم يقولون افتراء . وهذا ليس بصحيح لأن (أم) ههنا منقطعة ليست معارضة ، وإنما يجوز حذف الاستفهام في الضرورة . وقوله « ادعوا من استطعتم من دون الله » أي ادعوه الى معاونتكم على المعارضة . وهذا غاية ما يمكن من التحدي والمحااجة . وقوله « بعشر سور مثله » أي مثل سورة منه كل سورة منها . ومعنى « مفتريات » أي مختلقات يقال : افترى واختلق واخترق ، وخلق وخرق وخرص واخترص إذا كذب .

قوله تعالى :

فَإِنتُمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قِيلَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤) آية

قيل في المعنى بقوله « فان لم يستجيبوا لكم » قولان :

أحدهما - ان المراد به المؤمنون ، والتقدير فان لم يقبلوا إجابتك يا محمد

والمؤمنين، ولاياتون بعشر سور معارضة لهذا القرآن ، فليعلم المؤمنون إنما أنزل بعلم الله بهذا الدليل ، وهو قول مجاهد والجبائي .

والآخر - أن يكون المراد به المشر كين ، فالتقدير فإن لم يستجب لكم من تدعونهم الى المعاونة ولا يهيباً لكم المعارضة ، فقد قامت عليكم الحجة .

والاستجابة في الآية طلب الاجابة بالقصد الى فعلها ، يقال : استجاب وأجاب بمعنى واحد . والفرق بين الاجابة والطاعة أن الطاعة موافقة للإرادة المجاذبة الى الفعل برغبة أو رهبة ، والاجابة موافقة الداعي الى الفعل من أجل أنه دعا به .

وقوله « أنزل بعلم الله » يحتمل أمرين : احدهما - بعلم الله انه حق من عنده أي عالم به . والآخر - بعلم الله بمواقع تأليفه في علو طبقتيه . وقوله « وأن لا إله إلا هو ياي فاعلموا أن لا إله إلا هو . وقوله « فهل أنتم مسلمون » معناه هل أنتم بعد قيام الحجة عليكم بما ذكرناه من كلام الله وانه أنزله على نبيه تصديقاً له فيما أدّاه اليكم عن الله مسلمون له موقنون به ؟ لأن كل من سلم له الأمر فقد استسلم له . قال مجاهد : وهذا خطاب لأصحاب النبي ﷺ من المسلمين .

قوله تعالى :

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُوفًا لِيَلِيهِمْ أَعْمَالَهُمْ
فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) آية

شرط الله تعالى بهذه الآية أن « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها » وحسن بهجتها ، ولا يريد الآخرة ، فان الله تعالى يوفيه جزاء عمله فيها يعني في الدنيا ، ولا يبخسه شيئاً منه . والزينة تحسين الشيء بغيره من لبسة أو حلية أو هيئة ، يقال : زانه يزينه وزّينه تزييناً . والتوفية تأدية الحق على تمام . والبخس نقصان الحق ، يقال : بخسه بخساً إذا ظلمه بنقصان الحق . وفي المثل (يبخسها حمقاء) وهي

باخس . وقيل في العمل الذي يوفون حقهم من غير بخس قولان : أحدهما - قال الضحاك ومجاهد : هو أن يصل الكافر رحمه أو يعطي سائلاً سألته أو يرحم مضطراً أو غير ذلك من أفعال الخير ، فإن الله تعالى يعجل له جزاء عمله في الدنيا بتوسيع الرزق ، وإقرار العين فيما خـ. ول ، ودفع مكاره الدنيا . الثاني - الغزومع النبي ﷺ للغنيمة دون ثواب الآخرة ، أمر الله نبيه أن يوفيهم قسمهم وهذا من صفة المنافقين ، ذكره الجبائي . وإنما جاز أن يقول « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم » ولم يجز أن تقول : من جاءني اكرمه ، لأن الاجود في الشرط والجزاء أن يكونا مستقبلين أو يكونا ماضيين بنية الاستقبال ، فإن كان أحدهما ماضياً ، والآخر مستقبلاً كان جائزاً على ضعف كما قال زهير :

ومن هاب أسباب المنيا تملنه ولو رام أسباب السماء بسلم (١)

قلنا عنه جوابان : أحدهما - قال القراء : إن المعنى من يرد الحياة الدنيا (كان) زائداً. والثاني : إن المعنى أن يصح أنه كان، كقوله « إن كان قميصه قد من دبر فكذبت » (٢) ولا يجوز مثل هذا في غير (كان) لأنها أم الأفعال .

قوله تعالى :

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ
مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦) آية

قوله « أولئك » كناية عن الذين ذكرهم في الآية الأولى، وهم الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها ، دون ثواب الآخرة . فأخبر الله أنه ليس لهم في الآخرة مستقر إلا النار ، وأن أعمالهم كلها محبطة لا يستحقون عليها ثواباً ؛ لأنهم أوقعوها

(١) اللسان (سبب) وروايته (المنية يلقها) بدل (المنيا تملنه)

(٢) سورة ١٢ يوسف آية ٢٧

على غير الوجه المأمور به ، وعلى حدّ لا تكون طاعة ، وأن جميع ما فعلوه في الدنيا باطل لاثواب عليه . وقد بينا فساد القول بالاحباط (١) على ما يذهب اليه المعترزة وأصحاب الوعيد ، سواء قالوا الاحباط بين الطاعة والمعصية أو بين المستحق عليها ، فالامعنى للتطويل بذكره ههنا . وقوله « وباطل ما كانوا يعملون » بعد قوله « حبط ما صنعوا فيها » يحقق ما نقوله : إن نفس الاعمال تبطل بأن توقع على خلاف الوجه الذي يستحق به الثواب .

قوله تعالى :

أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْعَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ
كِتَابٌ مُّوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِّن
الْأَحْزَابِ فَأَلْئَنَّا مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ
وَلَكِن أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧) آية.

الالف في قوله « أفمن كان » ألف استفهام ، والمراد بها التقرير ، والتقدير هل الذي كان على بيعة - يعني برهان وحجة من الله - والمراد بالبيعة ههنا القرآن والمعنى بقوله « أفمن كان على بيعة » النبي ﷺ و كل من اهتدى به واتبعه . وقوله « ويتلوه شاهد منه » قيل في معناه أقوال : أحدها - شاهد من الله هو محمد ﷺ . وروي ذلك عن الحسين بن علي ﷺ وذهب اليه ابن زيد واختاره الجبائي . والثاني - قال ابن عباس ومجاهد وابراهيم والقراء والزجاج : جبرائيل يتلو القرآن على النبي ﷺ . والثالث - شاهد منه لسانه ، روي ذلك عن محمد بن علي أعني ابن الحنفية ، وهو قول الحسن وقتادة . والرابع - روي عن أبي جعفر محمد

ابن علي بن الحسين عليه السلام أنه علي بن ابي طالب عليه السلام ورواه الرمانى ، وذكره الطبري باسناده عن جابر بن عبد الله عن علي عليه السلام . وذكر الفراء وجهاً خامساً - قال : ويتلوه يعني القرآن يتلوه شاهد هو الانجيل ، ومن قبله كتاب موسى يعني التوراة . والمعنى ويتلوه في الحجة والبينة . وقوله « ومن قبله كتاب موسى » الهاء في « قبله » عائدة على القرآن المدلول عليه فيما تقدم من الكلام ، والمعنى أنه يشهد به بالبشارة التي فيه . وقوله « إماماً ورحمة » العامل فيه أحد امرين : احدهما - الظرف في قوله ومن قبله . والثاني - وشاهد من قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ، وخبر (من) في قوله « أفمن كان على بينة من ربه » محذوف والتقدير أفمن كان على بينة من ربه وعلى الأوصاف التي ذكرت كمن لا بينة معه ، قال الشاعر :

وأقسم لو شيء أتانا رسوله سواك
ولكن لم نجد عنك مدفعا
وأنشء الفراء :

فما أدري إذا يممت وجهاً أريد الخير أيهما يليني
ألخير الذي أنا أبتغيه أم الشر الذي لا يأتليني (١)

قال : أيهما ، وإنما ذكر الخير وحده ، لأن المعنى مفهوم ، لأن المبتغي للخير متق للشر . وقال قوم خبره قوله « من كان يريد الحياة الدنيا » وقد تقدمه ، واستعني به . وقوله « أولئك يؤمنون به » كناية عن كان على بينة من ربه أنهم يصدقون بالقرآن ويعترفون بأنه حق . وقوله « ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده » معناه إن كل من يجحده ولا يعترف به من الاحزاب الذين اجتمعوا على عداوته . وقال الفراء : يقال : كل كافر حزب النار « والنار موعده » يعني مستقره وموعده « فإلتك » يا محمد عليه السلام في شك من ذلك ، فالخطاب متوجه الى النبي صلى الله عليه وآله والمراد به جميع المكلفين . وقوله « انه الحق من ربك » اخبار منه تعالى بأن

هذا الخبر الذي ذكره حق من عند الله : ولكن أكثر الناس لا يعلمون صحته وصدقه لجهلهم بالله ووجدتهم نبوة نبيه ﷺ . وروى أن الحسن قرأ (في مرية) بضم الميم ، وهي لغة أسد وتميم ، وأهل الحجاز يكسرون الميم وعليه القراء .

قوله تعالى :

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ
عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمُ الْأَلْعَنَةُ
اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) آية

قال الحسن معنى قوله « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً » لا أحد أظلم منه إلا أنه خرج مخرج الاستفهام مبالغة في أنه أظلم لنفسه من كل ظالم ، وإنما كان المقتري على الله كذباً أظلم من كل ظالم ، لأنه يجحد نعم الله ولا يشكرها . وقوله « أولئك يعرضون على ربهم » اخبار منه تعالى أن من هذه صفته يعرض على الله يوم القيامة . والعرض إظهار الشيء بحيث يرى للتوقيف على حاله يقال : عرضت الكتاب على فلان ، وعرض الجند على السلطان ، ومعنى العرض على الله أنهم يقفون في المقام الذي يرى العباد ، وقد جعله الله تعالى للمطالبة بالأعمال فهو بمنزلة العرض في الحقيقة ، لأنهم لا يخفون عليه في حال من الأحوال بل هو تعالى يراهم حيث كانوا . وقوله « ويقول الأشهاد » يعني الملائكة والأنبياء والعلماء ، يشهدون بما كان منهم من الكذب عليه تعالى . وقيل : هو جمع شاهد مثل صاحب وأصحاب ، وقيل : جمع شهيد كشريف وأشرف . وقوله « أللعنة الله على الظالمين » تنبيه من الله تعالى لخلقه بأن لعنته على الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بادخال الضرر عليها وعلى غيرهم بادخال الآلام عليهم ، ولعنة الله إبعاده من رحمته .

قوله تعالى

الَّذِينَ يَصُوتُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيُبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ
هُم كَافِرُونَ (١٩) آية

وصف الله تعالى الظالمين الذين جعل لعنة الله عليهم بأنهم يصدون عن سبيل الله بمعنى أنهم يفترون الخلق ويصرفونهم عن المصير اليه واتباعه ، بغير الحق ، ويجوز أن يكون صدّه عن الفساد بدعائه الى تركه ، والصد عن الحق سبب الامتناع منه إذا صار منه ما يهواه ، فيفعله من أجل ذلك الداعي ، وإنما جاز تمكين الصادق من الفساد لأنه مكلف للامتناع . وليس في منعه لطف بأن ينصرف عن الفساد الى الصلاح ، فهو كشهوة القبيح الذي به يصح التكليف . قال ابو علي : ولو لم يكن إغواء الشيطان إضلالاً لعمد من قبل نفسه ذلك أو شرّاً منه . وقوله « يبغونها عوجاً » معناه إنهم يطلبون لسبيل الله عدولاً عنه . والعوج العدول عن طريق الصواب ، وهو في الدين عوج بالكسر ، وفي العود عوج بالفتح ، فرّقوا بين ما يرى وبين ما لا يرى فجعلوا السهل للسهل والصعب للصعب بالفتح والكسر . والبغية طلبه أمر من الأمور تقول : بغاه يبغيه بغية مثل طلبه يطلبه طلبه . وقوله « وهم بالآخرة هم كافرون » إخبار منه تعالى أن هؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله كافرون بالآخرة وبالبعث والنشور والثواب والعقاب أي جاحدون غير مقرين . وقوله « وهم بالآخرة هم كافرون » كرر (هم) مرتين كما قال « أيعدكم أنكم اذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون » (١) كرر (أنكم) مرتين ، ووجه ذلك أنه لما طال الكلام وفارق فعله كرره مرة أخرى .

قوله تعالى :

أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ
السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) آية

أخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار الذين وصفهم بأن عليهم لعنة الله وأنهم الذين يصدون عن سبيل الله ويغفونها عوجاً بأنهم غير «معجزين في الأرض» أي لم يكونوا فائتين فيها هرباً من الله تعالى إذا أراد إهلاكهم كما يهرب الهارب من عدو، وقد جد في طلبه . والاعجاز الامتناع من المراد بما لا يمكن معه إيقاعه، وانهم لم يكن لهم ولي يستطيع الدفاع عنهم من دون الله . والولي الخصيص بأن يلبي بالمعاونة لدفع الأذية، ومنه قولهم : تولاك الله بحفظه، فلا ولي لهؤلاء يعاونهم ويدفع العقوبة عنهم، لأن الله تعالى قد أبأسهم من ذلك . وقوله «يضاعف لهم العذاب» قيل في معناه قولان : أحدهما - بحسب تضاعف الاجرام . والآخر - كلما مر ضعف جاء ضعف، وكله على قدر الاستحقاق . وقوله «ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون» معناه انه كان يثقل عليهم سماع الحق ورؤيته، كما يقال : فلان لا يستطيع النظر الى فلان، وحقيقة الاستطاعة القوة التي تنطاع بها الجارحة للفعل، ولذلك لا يقال في الله انه يستطيع . وليس المراد بنفي الاستطاعة في الآية نفي القدرة بل ما ذكرناه، لأنه لو لم يكن فيهم قدرة لما حسن تكليفهم . وقد ذكر الفراء فيه وجهاً ملبجاً، فقال : المعنى يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع ولا يعقلون . وحذف الباء كما قال «اليم بما كانوا يكذبون» (١) أي بتكذيبهم وسقوط الباء جائز، كما قال «احسن ما كانوا يعملون» (٢) ويقول

القائل : لأجزيتك ما عملت ، وبما عملت . واختار ذلك البلخي . والسمع إدراك الصوت بما به يكون مسموعاً . والابصار إدراك الشيء بما به يكون مبصراً .

قوله تعالى .

أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) آية

ثم أخبر عنهم بخبر آخر، وهو أنهم « الذين خسروا أنفسهم » من حيث أنهم فعلوا ما يستحقون به العذاب وهلكوا بذلك في خسران أنفسهم ، وخسران النفس اعظم الخسران ، لأنه ليس عنها عوض، وعن هلاك رأس المال عوض ، فسلامة النفس أجل فائدة ، وما كان بعده من نفع فهو ربح . وقوله « وصل عنهم ما كانوا يفترون » قيل في معناه قولان : أحدهما - ذهب عنهم الانتفاع بالافتراء كما كانوا في الدنيا والثاني - ذهب عنهم الأوثان التي كانوا يأملون بها الانتفاع - في قول الحسن - و (أولئك) إشارة الى البعيد ، (وهؤلاء) إشارة الى القريب وأولاء مبني على الكسر ، لأنه اسم للجمع بمنزلة الواحد والكاف في (أولئك) حرف يدل على أن الكلام الذي معد مخاطباً به . ووجه اتصال (ما) في الآية أن (أولئك) إشارة الى من تقدم ذكره و (الذين) صفة لهم وهو موصول و (خسروا) صلته و (أنفسهم) معمول الصلة و (وصل) معطوف على الصلة و (كانوا) صلة فاعل معطوف الصلة و (يفترون) خبر صلة فاعل معطوف الصلة ، وهو تمام (الاسم) .

قوله تعالى

لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ (٢٢) آية

معنى (لاجرم) قال الزجاج : معنى (لا) نفي لما ظنوه أنه يتفهم كأن المعنى لا يتفهم ذلك . ثم ابتداء « جرم انهم » أي كسب ذلك الفعل لهم الخسران . وقال غيره : معناه لا بد انهم ، ولا محالة أنهم . وقيل : معناه حقاً أنهم . واصل (الجرم) القطع فكأنه قال لا قطع من انهم في الآخرة هم الآخرون و (جرم) في قوله (لاجرم) فعل ، وتقديره لا قطع قاطع عن ذا ، إلا أنهم كثر في كلامهم حتى صار كالمثل وهو من قول الشاعر :

ولقد طعنت أبا عبيدة طعنة جرمت فزارة بعدها أن يفضبوا (١)

أي قطعتم إلى الغضب، فرواية الفراء نصب فزارة، والمعنى كسبهم أن يفضبوا . وخسران النفس يتعاطم ، لأن خسران النفس بعذاب دائم أعظم من خسرانها بعذاب منقطع . و (هم) في قوله « هم الآخرون » يحتمل أن يكون فصلاً والآخرين خبر (أن) و (هم) إذا كانت فصلاً لم تقع في النكرة . وقولهم : ما كانوا في الدار هم القائمون . فلا يكون إلا اسماً ، فإن جملة ما فصلاً قلت : كانوا في الدار هم القائمون

قوله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) آية

لما ذكر الله تعالى الكفار ، ووصف ما أعد لهم من العذاب وخسران النفس أخبر - هنا - أن الذين يؤمنون بالله ويعتقدون وحدانيته ويصدقون رساله، وعملوا الأعمال الصالحة التي أمرهم الله بها ورغبهم فيها « وأخبتوا إلى ربهم » أي خشعوا اليه ، والأخبات الخشوع المستمر على استواء فيه ، وأصله الاستواء من الخبت ، وهو -

الأرض المستوية الواسعة . وقيل : إن الاخبات الانابة - ذكره ابن عباس - وقال مجاهد : هو الاطمئنان الى ذكر الله . وقال قتادة : هو الخشوع اليه والخضوع له . وقال الحسن : هو الخشوع للمخافة الثابتة في القلب . وقال الجبائي : الاخبات سكون الجوارح على وجه الخضوع لله تعالى . وليس كل عمل صالح يستحق عليه حمد أو مدح ، لأنه مثل الحسن في أنه ينقسم قسمين : أحدهما - يستحق عليه الحمد . والآخر - لا يستحق عليه كالمباح ، فكذلك الصالحات . والمراد بالصالحات - ههنا - الطاعة ، لأنه وعد عليها الجزاء في قوله « إن الحسنات يذهبن السيئات » (١) . وقوله « وأخبتوا الى ربهم » قال قوم : معناه اخبتوا لربهم ، فوضع (الى) مكان اللام ؛ لأن حروف الاضافة توضع بعضها مكان بعض ، كما قال « أوحى لها » (٢) بمعنى أوحى اليها . والآخر - أن معناه عمدوا باخباتهم الى الله . وقوله « أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » إشارة الى المؤمنين الذين وصفهم بأنهم يعملون الصالحات ويخبتون الى ربهم ، فاخبر عنهم أنهم أصحاب الجنة اللازمون لها وأنهم فيها مخلدون دائمون .

قوله تعالى

مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ
هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤) آية

المثل قول سائر يشبه فيه حال الثاني بحال الأول ، والأمثال لاتغير عن صورتها كقولك للرجل (اطرى انك ناعلة) وكذلك يقال للكافر : هو أعمى أصم أي هو بمنزلة الذين قيل لهم هذا القول ، ويجري هذا في كل كافر يأتي من بعد .

و (الواو) في قوله « كالأعمى والأصم » قيل في دخولها قولان :
أحدهما - العموم في التشبيه أي حال الكافر كحال الأعمى و كحال الأصم
و كحال من جمع العمى والصمم .

الثاني - أن المعنى واحد ، وإنما دخلت الواو لاتصال الصفة الأولى بعلامة .
وإنما قال : هل يستويان ، لأنه أراد الفريقين : الموصوف أحدهما بالصمم
والعمى ، والاخر بالبصر والسمع . وفائدة الآية تشبيه المؤمن والكافر في تباعد
ما بينهما فشبهما ، بالأعمى والبصير . والأصم والسميع ، فالكافر كالأعمى والأصم في أنه
لا يبصر طريق الرشده ، ولا يسمع الحق ، وأنه مع ذلك على صفة القص . والصمم
عبارة عن فساد آلة السمع ، ولو كان معنى يضاد السمع لتعاقبا على الحي ، والأمر
بخلافه ، لأنه قد ينتفي حال الصمم ولا يكون سامعاً ، وكذلك العمى عبارة عن
فساد آلة الرؤية ، وليس بمعنى يضاد الابصار ، لأن الصحيح أن الإدراك أيضاً ليس
بمعنى ، ولو كان معنى لما وجب أن يكون العمى ضده . لأنه لو كان ضده لعاقبه
على حال الحي وكان يجوز أن يحضر المرئي من الاجسام الكثيفة من غير سائر فلا يرى
مع حصول شروط الإدراك لأجل وجود الضد ، وكذلك الصمم ، ولا ضده لأنه
ليس هناك حال يعاقبه على حال مخصوصة كمتعاقبة العجز القدرة على حال الحياة .
وقوله « هل يستويان مثلاً » وإن كان بصورة الاستفهام فهو لضرب من التوبيخ
والتقريع . وقوله « أفلا تفكرون » معناه أفلا تفكرون في ذلك فتعلموا صحة ما ذكرنا .

قوله تعالى :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَنْ
لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ (٢٦) آيَاتان

قرأ ذافع وابن عامر وعاصم وحمزة (إني) بكسر الهمزة . الباقيون بفتحها

قال أبو علي النحوي : من فتحها حملها على (أرسلنا) أي أرسلناه بأني لكم ولم يقل إنه ، لأنه انتقل عن الغيبة الى الخطاب ، ومثله كثير ، قال الله تعالى « وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة » ثم قال بعده « فخذها بقوة » (١) فكذلك الآية . ومن كسر يضمr القول قبلها كأنه قال : أرسلنا نوحاً الى قومه فقال : إني لكم نذير ، ومثله كثير ، قال الله تعالى « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم » (٢) اي يقولون : سلام عليكم ، وقوله تعالى « والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى » (٣) أي قالوا : ما نعبدهم ، ويكون الكلام على ظاهره لم يرجع من الغيبة الى الخطاب . وليس لأحد أن يرجع القراءة بالفتح من حيث أن ما بعده من قوله « أن لاتعبدوا إلا الله » محمول على الارسال ، فاذا فتحت كان أشكل بما بعدها لحملها جميعاً على الارسال . وذلك أن من كسر حمل قوله « اني لكم » وما بعده على الاعتراض بين المفعول وما يتصل به مما بعده . كما أن قوله « إن الهدى هدى الله » اعترض بينهما في قوله « ولانؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله ان يؤتى أحد مثل ما أوتيتم » (٤) فكذلك قوله « إني لكم نذير مبين » لان التقدير ولقد أرسلنا نوحاً لانهذار أن لاتعبدوا الا الله إني أنذركم لتوحيدوا الله وأن تتركوا عبادة غيره .

أقسم الله تعالى في هذه الآية أنه أرسل نوحاً وأمره أن يقول لهم : إني مؤد عن الله ومخوفكم من عقابه وترك طاعاته ، لأن اللام في قوله « لقد » لام القسم ، وهي تدخل على الفعل والحرف الذي يختص بالفعل مما يصح معناه معه ، ولام الابتداء للاسم خاصة . ومعنى (قد) وقوع الخبر على وجه التقريب من الحال تقول : قد ركب الامير - لقوم يتوقعون ركوبه - .

(٢) سورة ١٣ الرعد آية ٢٥ - ٢٦

(١) سورة ٧ الاعراف ١٤٤

(٤) سورة ٣ آل عمران آية ٧٣

(٣) سورة ٣٩ الزمر آية ٣

وقوله « أن لا تعبدوا الا الله » يحتمل أن يكون موضع (تعبدوا) من الاعراب نصباً ، والمعنى أن لا تعبدوا الا الله ، ويجوز أن يكون موضعه جزءاً على تقدير أي لا تعبدوا . ويحتمل أن يكون متعلقاً بقوله « أرسلنا » وتقديره أرسلنا بأن لا تعبدوا الا الله ، على ما بينا من الاعتراض وحملها جميعاً على الارسال . وقوله « اني أخاف عليكم عذاب يوم أليم » أي مؤلم عذابه وانما قال عذاب يوم اليم بالجر ومعناه مؤلم ، لأن الألم يقع في اليوم ، فكأنه سبب الألم . ولو نصبتة على أن يكون صفة للعذاب كان جائزاً ، ولم يقرأ به أحد . وانما بدىء بالدعاء الى العبادة دون سائر الطاعات ، لأنها أهم ما يدعى اليه من خالف الحق فيه ولأنه يجب أن يفعل كل واحدة من الطاعات على وجه الاخلاص والعبادة فيها لله . وانما قال « اني أخاف عليكم عذاب يوم اليم » مع أن عذاب الكافر معلوم لأنه يخاف ما لم يعلم ما يؤل اليه أمرهم من ايمان أو كفر ، وهذا لطف في الاستدعاء وأقرب الى الاجابة في غالب أمر الناس .

قوله تعالى :

فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا
وَمَا نَرَاكَ آتِبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَا
لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) آية

قرأ أبو عمرو « باديء الرأي » بالهمز في بادي . الباقون بلا همز . قال ابو علي : حدثنا محمد بن السدي أن الملحاني قال : يقال : أنت بادي الرأي تريد ظلمنا لا يهمز (بادي) وبادىء الرأي مهموز . فمن لم يهمز أراد أنت أول الرأي ومبتدؤه وهما في القرآن . وقال أبو علي : من قال (بادي الرأي) بلا همز جعله من بدو الشيء وهو ظهوره ، وما اتبعك إلا أراد ذل فيما ظهر لهم من الرأي

اي لم يفعلوه بنظر فيه ولا بتبين له . ومن هم من أراد اتباعك في أول الامر من غير فكر فيه ولا روية ، والقراءتان متقاربتان ، لأن الهمز في اللام منها ابتداء الشيء وأوله وابتداء الشيء يكون ظهوراً ، وان كان الشيء الظاهر قد يكون مبتدأ وغير مبتدأ ، فلذلك يستعمل كل واحد منهما مكان الآخر يقولون : انا بادي بدا وباديء بدء ، فإني أحمد الله .

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن جماعة الرؤساء من قوم نوح الذين كفروا وجحدوا نبوته أنهم قالوا له « ما نراك الا بشراً مثلنا » والبشر مأخوذ من ظهور البشرية، لأن الغالب على الحيوان غير الانسان أن يلبس البشرة منه بالصوف أو الشعر أو الريش أو الصدف . والانسان مأخوذ من النسيان ، لأنهم يصغرونه إنيسيان ويجوز أن يكون من الانسان الا أنهم زادوا الياء في التصغير . والمثل ماسد مسدغيره في الجنس بمعنى أنه لو ظهر للمشاهد لسد مسده كما يسد الاسود مسد الاسود في الجنس من غير فضل . وقوله « ما نراك اتبعك الا الذين هم آراذلنا » حكاية أيضاً عما قاله قوم نوح من أنه ما نرى من اتبعك الا أنه رذل خسيس حقير من جماعتنا تقول : رذل وجمعه أرذل ، وجمع الجمع أرادل مثل كلب وأكلب وأكالب . والعامل في (الذين) قوله « اتبعك » كأنه قال ما اتبعك الا الذين هم آراذلنا ونراك ملغى ، ذكره الفراء . قال ابو علي النحوي : هو نصب على الحال ، والعامل فيه (اتبعك) وأخر الظرف وأوقع بعد (الا) ولو كان غيره لم يجز ، لأن الظرف اتسع فيه في مواضع . ومعنى « باديء الرأي » أول الرأي ما نراه . والرأي والرؤية من قوله « يرونهم مثلهم رأي العين » (١) وهو نصب على المصدر كقولك ضربته أول الضرب . وقال الزجاج : نصبه بـ (اتبعوك أول الرأي) من غير فكر كأنه قيل اتبعوك رأياً غير سديد ، ومن قرأ بادي الرأي بـ لا همز اراد ظاهر الرأي قال الشاعر :

وقد علّنتني ذرأة بادي بدي وريشة تمنض في تشديدي (١)
وقال آخر :

اضحى لخالي شبيهي بادي بدي وصار للفحل لساني ويدي (٢)
وقوله « وما نرى لكم علينا من فضل » تمام الحكاية عن كفار قوم نوح
وانهم قالوا لنوح : اننا لا نرى لك ولا مثالك علينا زيادة خير ، لأن الفضل هو زيادة
الخير ، وانما قالوا ذلك ، لأنهم جهلوا في طريقة الاستدلال . وقوله « بل نظنكم
كاذبين » ايضا تمام الحكاية عن كفار قومه أنهم قالوا له ولمن آمن معه هذا القول.
قوله تعالى :

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَأَتَيْتُمِي
رَحْمَةً مِّن عِنْدِهِ فَعَمَّيْتُمْ عَلَيْكُمْ أُنزِلْ مَكْمُوهًا وَأَنْتُمْ لَسَا
كَارِهُونَ (٢٨) آية

قرأ حمزة والكسائي وحفص « فعميت » بضم العين وتشديد الميم . الباقيون
بتخفيف الميم وفتح العين . وقال ابو علي : من قرأ « فعميت » بالتخفيف فلقوله
« فعميت عليهم الانباء يومئذ » (٣) وهذه مثلها ، ويجوز في قوله (فعميت) أمران :
احدهما - ان يكون عموا هم ، الا ترى ان الرحمة لاتعمى وانما يعمى عنها ، فيكون
هذا من المقلوب ، كقولهم : أدخلت القلنسوة في رأسي ، وأدخلت الخاتم في أصبعي
ونحو ذلك مما يقلب إذا زال الاشكال . والاخر - ان يكون معنى عميت خفيت
كقول الشاعر :

ومهمه أطرافه في مهمه أعمى الهدى في الحائر ين العمه (٤)

(٢ ، ١) اللسان (بدا) (٣) سورة ٢٨ القصص آية ٦٦

(٤) قائله رؤبة ديوانه : ١٦٦ وتفسير الطبري ، ١ / ٣١٠ وقد مرّ في ٨١/١

أي خفي الهدى ألا ترى أن الهدى ليس بندي جارحة تملحها هذه الآفة ،
وقد قيل للسحاب : العمى لخفاء ما يخفيه ، كما قيل له : الغمام ومن ذلك قول زهير :

ولكنني عن علم ما في غد عمي (١)

ومن شدد اعتبار قراءة الأعمش فإنه قرأها فعمّاها عليهم . وروى ذلك الفراء
عن أبي ، والمعنيان متقاربان . قال الفراء : يقال عمي عمي الخبر وعمي بمعنى واحد .
حكى الله تعالى عن نوح ما قاله لقومه جواباً عما قالوه له مما حكيناه
فإنه « قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة » أي برهان وحجة من المعجزة التي
تشهد بصحة النبوة . وخصهم بهذا إذ هو طريق العلم بالحق لاما التمسوا من اختلاف
الخلق . وقوله « آتاني رحمة من عنده » يرد عليهم ما ادعوه من أنه ليس له عليهم
فضل ، فبين ذلك بالهداية الى الحق من جهة البرهان المؤدي الى العلم . وقوله
« فعميت » يحتمل امرين : احدهما - خفيت عليكم ، لأنكم لم تسلكوا الطريق
المؤدي اليها . والاخر - ان يكون المعنى عميت عنها ، واطاف العمى الى البيئة لما
عموا عنها لضرب من المجاز ؛ لأن المعنى ظاهر في ذلك ، كما يقال : ادخلت
الخاتم في يدي والقلنسوة في راسي ، والمراد ادخلت يدي في الخاتم ورأسي في القلنسوة .
ومن قرأ بتشديد الميم وضم العين أضاف التعمية الى غيرهم ممن صدهم عن النظر
فيها واغواهم في ذلك من الشياطين والمضلين عن الحق .

وقوله « أنلزمكموها وانتم لها كارهون » أنظر كم الى موجب البيئة مع
العلم مع كراهتكم لذلك فيبطل تكليفكم الاستدلال بالبيئة المؤدية الى المعرفة
أي أضطر كم الى حال الضرورة . ووجه آخر - وهو أن يكون المراد إن الذي
علي أن أدل بالبيئة ، وليس علي أن أضطر كم الى المعرفة .

وفي قوله « أنلزمكموها » ثلاث مضمورات ضمير المتكلم وضمير المخاطب
وضمير الغائب ، وهو أحسن ترتيب : بدأ بالمتكلم ، لانه اخص بالفعل ثم بالمخاطب

ثم بالغائب ، ولو اتى بالمنفصل لجاز لتباعده عن العامل بما فرق بيند وبينه ، فاشبه
ماضرت إلا إياك ، وماضربني إلا انت . وأجاز الفراء « أنلزمكدها » يتسكين
الميم جعله بمنزلة عضد وعضد وكبد وكبد . ولا يجوز ذلك عند البصريين ، لأن
الاعراب لا يلزم فيه النقل كما يلزم في بناء الكلمة ، وإنما يجيزون مثل ذلك في
ضرورة الشعر كقول امرئ القيس :

فاليوم أشرب غير مستحقب إثمأ من الله ولا واعل (١)

وقال آخر :

وناع يخبرنا بمهلك سيد تقطع من وجد عليه الانامل

وقال آخر :

إذا اعوججن قلت صاحب قوم

قوله تعالى :

وَيَا قَوْمِ لَأَسْأَلَكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنِّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا

بِطَّارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَسْكَنِي أُرْيَكُمْ قَوْمًا

تَجْهَلُونَ (٢٩) آية

في هذه الآية حكاية ما قال نوح لقومه أي لأطلب منكم مالا أجزأ على
الرسالة ودعائكم الى الله فتمتنعون من إجابتي بل أجري وثوابي في ذلك على الله.
وقوله « وما أنا بطارد الذين آمنوا » معناه إني لست أطرد المؤمنين من عندي
ولا أبعدهم على وجه الاهانة . وقيل : انهم كانوا سألوه طردهم ليؤمنوا أتقة أن
يكونوا معهم على سواء ، ذكره ابن جريح والزجاج - وقوله « إنهم ملاقوا ربهم »
اخبار بأن هؤلاء المؤمنین ملاقوا جزاء ربهم بعقاب من طردهم . في قول الزجاج .

وقوله « ولكني اراكم قوماً تجهلون » معناه اراكم تجهلون انهم خير منكم لايمانهم بربهم وكفركم به .

وقال قوم : إنهم قالوا له إن هؤلاء اتبعوك طمعاً في المال على الظاهر دون الباطن ، فقال لهم نوح انهم ملاقوا جزاء اعمالهم فيجازيهم على ما يعلم من بواطنهم وليس لي الا الظاهر احملهم على ظاهر الايمان فانتم تجهلون ذلك .

قوله تعالى :

وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْ أَفْلاً
تَذَكَّرُونَ (٣٠) آية .

ثم قال لهم نوح ﷺ « يا قوم » وأراد به الجماعة الذين يقومون بالأمر و (قوم) اسم جمع لا واحد له من لفظه . « من ينصرني من الله » أي من يمني من الله ، يقال : نصره من كذا يعني منعه منه ، ونصره عليه بمعنى أعانه عليه حتى يغلب ، ونصره الى كذا بمعنى نصره معه ، ومنه قوله « من أنصاري الى الله » (١) ويجوز أن يفسد الله الكافر على الكفر ، ولا يجوز أن ينصره عليه لأن النصره على الشيء زيادة في القوة ليقع ذلك الشيء ، وهذا لا يجوز على الله . والقدرة تصلح للمضدين على منزلة سواء ولا دليل فيها على ارادة احدهما .

وقوله « أفلا تذكرون » معناه أفلا تتفكرون ، فتعلمون أن الامر على ما قلته . وفرق الطبري بين التذكر والتفكر بأن قال : التذكر طلب معنى قد كان حاضراً للنفس و(التفكير) طلب معرفة الشيء بالقلب وان لم يكن حاضراً للنفس . و (النصره) المذكورة في الآية ليست من الشفاعة في شيء ، لأن النصره هي المنع على وجه المغالبة والقهر . والشفاعة هي المسألة على وجه الخضوع . وليس لأحد ان يستدل بذلك على نفي الشفاعة للمذنبين .

قوله تعالى :

وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ
إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ
خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) آية

في هذه الآية تمام الحكاية عما قال نوح لقومه وحاجتهم به ، وهو أن قال لهم مضافاً الى ماضى حكايته « ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول اني ملك » والمعنى اني لا أرفع نفسي فوق قدرها ، فأدعي أن عندي خزائن الله من الأموال فأعطيكم منها وأستطيل عليكم بها ، أو أقول اني أعلم الغيب ، أو أقول لكم اني ملك روحاني غير مخلوق من ذكر وأنثى بخلاف ما خلقني الله ، بل أنا بشر مثلكم وانما خصني الله بالرسالة وشرفني بها . وقيل معنى خزائن الله مقدراته لأنه يوجد منها ما يشاء . وفي وصفها بذلك بلاغة . وقيل « لا أقول لكم عندي خزائن الله » فادعوكم الى أن أعطيكم منها ، ذكره ابن جريح . و (الغيب) ذهاب الشيء عن الإدراك ، ومنه الشاهد خلاف الغائب . واذا قيل : علم الغيب معناه علم من غير تعلم ، وهو جميع الغيب ، وعلى هذا لا يعلم الغيب إلا الله تعالى . وقوله « ولا أقول للذين تزدري أعينكم » أي لست أقول للذين احتقرتهم أعينكم . و (الازدراء) الافتعال من الزراية ، يقال : زريت عليه إذا عبته ، وزريت عليه إذا قصرت به ، والازدراء الاحتقار . وقوله « لن يؤتيهم الله خيراً » معناه لا أقول لهؤلاء المؤمنين الذين احتقرتموهم انهم لا يعطيهم الله في المستقبل خيراً من أعمالهم ، ولا يشيهم عليها ، من حيث لا علم لي بباطنهم بل الله اعلم بما في انفسهم ، هل هم مؤمنون في باطنهم أم لا ، ومتى قلت لا يعطيهم خيراً كنت اداً من الظالمين الذين ظلموا أنفسهم وغيرهم .

قوله تعالى:

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا
إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) آية

في هذه الآية حكاية عما قال قوم نوح لنوح جواباً عما قاله لهم فيما تقدم « يا نوح قد جادلنا » اي خاصمتنا وحاججتنا فأكثرت مجادلنا ، وروي فأكثرت جدلنا - والمعنى واحد ، فلسنا نؤمن لك « فأتنا بما تعدنا » من العذاب « إن كنت من الصادقين » فيما تقوله على الله تعالى . وحقيقة المجادلة المقابلة بما يقبل الخصم من مذهبه بالحجة أو شبهه ، وهو من الجدل لشدة الفتل ، ويقال للصرع أجدل ، لأنه أشد الطير . و(الأكثار) الزيادة على مقدار الكفاية . و« الأقلال » النقصان عن مقدار الكفاية . والفرق بين الجدال والحجاج : ان المطلوب بالحجاج ظهور الحجة ، والمطلوب بالجدال الرجوع عن المذهب . والمرء مذموم لأنه مخاصمة في الحق بعد ظهور الحق كمرى الضرع بعد دروره ، وليس كذلك الجدال . وفي الآية دلالة على حسن الجدال في الدين ، لأنه لو لم يكن حسناً لما استعمله نوح مع قومه ، لأن الأنبياء لا يفعلون إلا ما يحسن فعله .

قوله تعالى :

قَالَ إِنَّمَا يَا تَيْكُمُ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) آية

فأجابهم نوح عليه السلام عما قالوه فقال : إنما يأتي بالعذاب الله تعالى دون غيره يأتي به متى يشاء ، ولستم تفوتونه هرباً . ومعنى (إنما) اختصاص ما ذكر طعنى دون غيره ، تقول : إنما زيد كريم أي هو كريم دون غيره ، وإنما دخل (إنما) بمعنى الاختصاص بالمدكور دون غيره ؛ لأنها لتحقيق المعنى : ومن تحقيقه أن

يكون لها دون غيره إذ المشرك لم يحقق على شيء بعينه ، وإذا دخلت (إنما) هذه على (اسم) كان الاسم مرفوعاً ، لأن (ما) كافة للعامل ، ولولا ذلك لما دخلت على الفعل ، والاعجاز هو الفوت بالهرب . وفي الآية دلالة على أن المجادلة تقوم بها الحجة على مخالف الحق ، لأنه لو لم تقم بها الحجة ماجادلهم نوح ولما قال الله تعالى للنبي ﷺ « وجادلهم بالتي هي أحسن » (١) .

قوله تعالى

وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ نَصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) آية

هذه الآية عطف على قول نوح : إنما يأتيكم بالعذاب الله إن شاء ولستم تفوتونه ، « ولا ينفعكم نصحي » . ويحتمل قوله « يريد أن يغويكم » أمرين : احدهما - ان كان الله يريد أن يخيبكم من رحمته وثوابه بأن يحرمكم ثوابه ، ويعاقبكم لكفركم به ، ولا ينفعكم نصحي يقال : غوى يغوي غياً ، ومنه قوله تعالى « فسوف يلقون غياً » (٢) أي خيبة وعذاباً وقال الشاعر :

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً (٣)

فلما كان الله قد خيب قوم نوح من رحمته وثوابه وجنته أعلم نبيه نوحاً بذلك في قوله « لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن » (٤) وأنهم سيصيرون الى خيبة وعذاب ، أخبرهم الله بذلك على لسان نبيه ، فقال « ولا ينفعكم نصحي » مع إتيانكم ما يوجب خيبتكم والعذاب الذي جزّ عليكم قبيح أفعالكم ، ويريد الله إهلاككم وعقوبتكم على ذلك . وحكي عن طي أنها تقول : أصبح فلان غاويأ أي

(١) سورة ١٦ النحل آية ١٢٥ (٢) سورة ١٩ مريم آية ٥٩

(٣) مرّ تخريجُه في ٣١٢/٢ (٤) سورر ١١ هود آية ٣٦

مريضاً . وحكي عن غيرهم سماعاً منهم : أغويت فلاناً أهلكته ، وغوي الفصيل إذا فقد اللبن فمات : بكسر الواو في الماضي ، وفنحها في المستقبل ، ومنه قوله تعالى « وعصى آدم ربه فغوى » (١) اي خاب من الثواب الذي كان يحصل له بتركه .

والوجه الثاني - أن يكون جرى على عادة العرب في تسمية العقوبة باسم الشيء المعاقب عليه : فيكون المعنى ان كان الله يريد عقوبتكم على اغوائكم الخلق واطلالكم اياهم ، فسمى عقوبته اياهم على اغوائهم اغواء كما قال « وجزاء سيئة سيئة » (٢) « ومكروا ومكر الله » (٣) و « الله يستهزئ بهم » (٤) ونظائر ذلك كثيرة . ومثله قوله حكاية ابليس « بما أغويتني » (٥) فانه يحتمل هذين الوجهين ، الأول يحتمل أن يكون فيما خيبتني ، والثاني - فيما جازيتني على اغوائي الخلق عن الهدى . ولا يجوز أن يكون المراد بذلك أن يجعلهم كفاراً على ما يذهب اليه المجبرة ؛ لأن الاغواء بمعنى الدعاء الى الكفر او فعل الكفر لا يجوز عليه تعالى . لقبه كقبح الامر بالكفر . والنصح اخلاص العمل من الفساد على الاجتهاد فيه . والنصح نقيض الغش . وكان نصح نوح لقومه اعلامهم موضع الغي ليتقوه ، وموضع الرشد ليتبعوه . وانما شرط النصح بالارادة - في قوله « ان أردت أن أنصح » مع وقوع هذا النصح - استظهاراً في الحججة ؛ لأنهم ذهبوا الى أنه ليس بنصح ، فقال : لو كان نصحاً ما نتفع من لا يقبله . وقوله « هو ربكم واليه ترجعون » اخبار من نوح أن الله الذي عذبكم وخببكم من رحمة هو الذي خلقكم ويميتكم ثم يردهم بأن يحييكم ليجازيكم على افعالكم ويعاقبكم على كفركم بنعمه حيث لا ينتفعكم استدراك ما فات ، ولا ينتفعكم الندم على ما مضى . وقال الحسن : معنى الآية ان كان الله يريد أن يعذبكم وينزل بكم عذابه فانتم عند ذلك لا تنتفعكم

(١) سورة ٢٠ طه آية ١٢١ (٢) سورة ٤٢ الشورى آية ٤٠

(٣) سورة ٣ آل عمران آية ٥٤ (٤) سورة ٢ البقرة آية ١٥

(٥) سورة ٧ الاعراف آية ١٥ وسورة ١٥ الحجر آية ٣٩

نصحي ، لأن الله تعالى لا يقبل الايمان عند نزول العذاب .
وقال بعض العلماء : ان قوم نوح كانوا يعتقدون أن ما هم عليه بارادة الله
لولا ذلك لغيره وأجبرهم على خلافه، فقال نوح على وجه الانكار عليهم والتعجب
من قولهم : ان نصحي لا ينفعكم ان كان القول كما تقولون وتعتقدونه ، حكى
ذلك البلخي .

قوله تعالى :

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيْ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ
مِمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) آية .

معنى قوله « أم يقولون » اخبار من الله تعالى بأن هؤلاء الكفار الذين ليس
يقبلون ما أتاهم به من عند الله يقولون : ليس هذا القرآن من عند الله بل افتراء
وتخرصه وكذبه على الله ، فمعنى (ام) في الآية (بل) ، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ
ان يقول لهم : إن افتريته ، فعلي اجرامي . وقيل في معناه قولان : احدهما -
انه وعيد ، بأنني ان كنت افتريته فيما اخبرتكم به من الخبر عن نوح فعلي عقاب
جرمي ، وان كانت الاخرى فعليكم عقاب تكذبي ، وستعلمون صدق قلبي وأينا
الاحق . والثاني - انه قال ذلك على وجه الاحتجاج بصحة امره بأن لا يتقول مثل
هذا مع ما فيه من العذاب في الآخرة والعار في الدنيا مع انه ذو امانة وصيانة . وهو
في خطاب محمد ﷺ عليه السلام .

وقوله « وانابريء مما تجرمون » معناه ليس علي من اجرامكم ضرر وانما
ضرر ذلك عليكم فاعملوا بحسب ما يقتضيه العقل من التفكير في هذا المعنى .
والفرق بين افتراء الكذب وبين قول الكذب : ان قول الكذب قد يكون على وجه
تقليد من الانسان لغيره ، واما افتراؤه فهو افتعاله من قبل نفسه . ومعنى اجرم

اذنب ومثله جرم قال النميري حار الزبيرقان :

طريد عشيرة ، ورهين ذنب بما جرمت يدي وجنى لساني (١)
ومعنى أجرم اقترف السيئة بفعلها لأنه من القطع ، وأذنب اي تشبه بالذنب
في السقوط ، وجرم وأجرم في المأثم أكثر ، قال الشاعر :
كذا الناس مجروم عليه وجارم

قوله تعالى

وَأَوْحِيَ إِلَىٰ آلِ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ
فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) آية

اخبر الله تعالى في هذه الآية انه اوحى الى نوح ، وقال له انه لن يؤمن
احد من قومك في المستقبل اكثر من الذين آمنوا ، فلا تبتئس أي لا تنقم ولا
يلحقك حزن لاجلهم . يقال ابتأس ابتأساً فهو مبتئس ، وقد يكون البؤس الفقر
والابتأس حزن في الاستكانة انشد ابو عبيدة .

ما يقسم الله أقبل غير مبتئس منه وأقعد كريماً ناعم البال (٢)
واصله البؤس وهو الفقر والمسكنة . ولما اعلم الله نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ أن أحداً من
قومه لا يؤمن فيما بعد ، ولامن نسلهم قال « رب لاتند على الارض من الكافرين
دياراً انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » (٣) ذكره قتادة
 وغيره . والعقل لا يدل على أن قوماً لا يؤمنون في المستقبل وإنما طريق ذلك
السمع ، وقد يغلب في الظن ذلك مع قيام التجويز ، ألا ترى انه يغلب في ظنوننا

(١) تفسير الطبري ١٨/١٢ واللسان والتاج (جرم)

(٢) قائله حسان ديوانه ٣٢٦ واللسان (بأس)

(٣) سورة ٧١ نوح آية ٢٦ - ٢٧

أن الروم مع كثرتهم لا يؤمنون جملة إلا أنه ليس يمتنع مع ذلك أن يؤمنوا ،
لان الله كلمهم الايمان ، فلو لم يكن ذلك جائزاً لما كلمهم .

قوله تعالى :

وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا وَلَا تَخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ
ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧) آية

في هذه الآية اخبار من الله تعالى عما أمر به - عز وجل - نوحاً عليه السلام
حين أياسه من ايمان قومه فيما بعد ، وأنه مهلكهم بالطوفان . بأن يتخذ الفلك
ويصنعها ، والصنع جعل الشيء موجوداً بعد أن كان معدوماً ، ومثله الفعل ،
وينفصالان من الحدوث من حيث أن الصنعة تقتضي صناعاً ، والفعل يقتضي فاعلاً
من حيث اللفظ ، وليس كذلك الحدوث ؛ لأنه يفيد تجدد الوجود لا غير . والصناعة
الحرفة التي يكتبسب بها ، والفلك السفينة ، ويكون ذلك واحداً وجمعاً ، كما
قيل في أسد وأسد قالوا : في فلك وفلك ، لأن (فعلاً وفعلاً) جمعهما واحد ،
ويأتيان بمعنى واحد كثيراً يقال عجم وعجم ، وعرب وعرب ، ومثله فلك وفلك .
والفلك والفلكة يقال لكل شيء مستدير أو شيء فيه استدارة ، وفلك ثدي المرأة
إذا استدار ، ومنه الفلك . وقوله « بأعيننا » معناه بحيث نراها وكأنها ترى بأعين
على طريق المبالغة ؛ والمعنى بحفظنا إياك حفظ من يراك ويملك دفع السوء عنك .
وقال الجبائي بأعين أوليائنا من الملائكة الذين يعلمونك كيفية عملها ، والموكلين
بك . وقيل : معناه بعلمنا . وقوله « ووحينا » اي على ما أوحينا اليك من صفتها
وحالها . قال ابن عباس : امره الله تعالى ان يبنيها على هيئة جوجو الطائر . ويجوز
أن يكون المراد بوحينا اليك أن اصنعها . وقوله « ولا تخاطبني في الذين ظلموا
إنهم مغرقون » نبي لنوح عليه السلام أن يراجع الله تعالى ويخاطبه ويسأله في امرهم

بأن يمهلهم ، ويؤخر إهلاكهم ، لأنه حكم بأهلاكمهم وأخبر بأنه سيغرقهم ، فلا يكون الأمر بخلاف ما أخبر به . ويجوز الأمر بما علم أنه لا يكون ، ولا يجوز أن يدعو بما يعلم أنه لا يكون ، لأن في ذلك إيهاماً بأنه لا يرضى باختياره ، وليس كذلك الأمر ، لأنه يتناول من يجوز عليه هذا المعنى . وكسر (إنهم) على الابتداء .

قوله تعالى :

وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ
 قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ
 تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٩) آيتان

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن نوح أنه أخذ في عمل السفينة ، قال الحسن : كان طولها ألف ذراع ومئتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع . وقال قتادة : كان طولها ثلثمائة ذراع ، وعرضها خمسين ذراعاً ، وارتفاعها ثلاثين ذراعاً ، وبابها في عرضها وقال ابن عباس : كانت ثلاث طبقات طبقة للناس ، وطبقة للطير وطبقة للدواب والوحش .

وقوله « وكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ » اخبار من الله عن أشرف قومه ورؤسائهم أنهم كلما اجتازوا به وهو يعمل السفينة هزئوا من فعله . وقيل : إنهم كانوا يقولون : يانوح صرت نجاراً بعد النبوة على طريق الاستهزاء . وقال الرهاني : السخرية إظهار خلاف الباطن على جهة يفهم منها استضعاف العقل ومنه التسخير : التذليل استضعافاً بالقهر . والفرق بين السخرية واللعب أن في السخرية خديعة واستنقاصاً ، ولا يكون إلا للحيوان ، وقد يكون اللعب بجمار لأنه طلب الفرجة من غير مراعاة لما يعقب ، كفعل الصبي . وانما كانوا يسخرون من

عمل السفينة ، لأنه كان يعملها في البر على صفة من الهول ، ولأما هناك يحمل مثلها فكأنوا يتضحكون ويتعجبون من عمله . وقوله « إنا نسخر منكم كما تسخرون » جواب من نوح لهم بأننا نسخر منكم يعني ندمكم على سخريتكم ، وسماه سخرية ، كما قال « وجزاء سيئة سيئة مثلها » (١) وقوله « ومكروا ومكر الله » (٢) وأطلق عليه إسم السخرية على وجه الازدواج . وقال قوم : معناه إن تستجهلونا في هذا الفعل فإنا نستجهلكم ، كما تستجهلون ، ذكره الزجاج . وقوله « فسوف تعلمون » (سوف) ينقل الفعل عن الحال الى الاستقبال مثل السين سواء إلا أن فيه معنى التسويف وهو تعليق النفس بما يكون من الامور . وقوله « من يأتيه عذاب » قيل في معنى (من) قولان : أحدهما - أن يكون بمعنى (أي) كأنه قال فسوف تعلمون أي يأتيه عذاب يخزيه .

الثاني - أن يكون بمعنى الذي ، والمعنى واحد . و (من) إذا كانت استفهاماً استغنت عن الصلة ، وإذا كانت بمعنى الذي فلا بد لها من الصلة ، كما استغنت (كم . وكيف) لأن البيان مطلوب من المسؤل دون السائل . والخزي العيب الذي تظهر فضيخته والعار به ، ومنه الذل والهوان وقوله « ويحل عليه » معناه ينزل عليه . وقال الرماني : الحلول النزول للمقام وهو من الحلل خلاف الارتحال . وحلول العرض وجوده في الجوهر من غير شغل حيز . وقوله « عذاب مقيم » أي دائم لا يزول .

قوله تعالى :

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ آتْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ

وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) آية

قرأ حفص « من كل زوجين » بتنوين في اللام هنا ، وفي المؤمنون . وقال أبو الحسن : يقال للاثنين هما زوجان ، قال الله تعالى « ومن كل شيء خلقنا زوجين » (١) يقال للمرأة زوج ، وللرجل زوجها ، قال الله تعالى « وخلق منها زوجها » (٢) وقال « امسك عليك زوجك » (٣) وقال بعضهم زوجة ، قال الأخطل : زوجة أشمط مرهوب بواده قد صار في رأسه التخويص والنزع (٤) وقال أبو الحسن : يقال للاثنين هما زوج . قال أبو علي الفارسي : يدل على ان الزوج يقع للواحد، قوله « ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين » الى قوله « ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين » (٥) وقال الكسائي أكثر كلام العرب بالهاء . وقال القاسم بن معن أنه سمعها من العرب من اسد شنوعة ، وليس في القرآن بالهاء ، وهو أفصح من اثباتها عند البصريين . ومن قرأ بالاضافة كان قوله « اثنين » مفعول الحمل . والمعنى احمـل من الأزواج اذا كانت اثنين اثنين زوجين ، فالزوجان من قوله « من كل زوجين » يريد بهما الشياخ ، ولايراد به الناقص من الاثنين ، ومنه قول الشاعر :

فمالك بالأمر الذي لا تستطيع بدارا

ومن نون حذف المضاف من (كل) والمعنى من كل شيء أو من كل زوج زوجين اثنين ، فيكون انتصاب اثنين على انه صفة لزوجين ، وذكر تأكيداً كما قال « الهين اثنين » (٦) .

(١) سورة ٥١ الذاريات آية ٤٩ (٢) سورة ٤ النساء آية ١

(٣) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٣٧ (٤) ديوانه ٦٩ واللسان (خوص) الشمط :

البياض من السواد، وإذا بدا في رأسه البياض قيل : خوصه الشيب . والنزع : الصلع

(٥) سورة ٦ الانعام آية ١٤٣ - ١٤٤ (٦) سورة ١٦ النحل آية ٥١

اعلم الله نوحاً في هذه الآية ان وقت هلاك قومه الكفار فور التنور ، وفي (التنور) اقوال : منها أن الماء اذا فار من التنور الذي يخبز فيه . وقيل : التنور عين ماء معروفة ، وتنور الخابزة وافقت فيه لغة العرب لغة العجم . وقيل : ان التنور وجه الأرض ، ذكره ابن عباس ، واختره الزجاج . وقيل التنور تنور الصبح ، روي ذلك عن علي عليه السلام . و (حتى) متعلقة بقوله « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ٠٠٠ حتى » .

أخبر الله تعالى أنه لما جاء أمره باهلاك قوم نوح عليه السلام لاستحقاقهم ذلك بالكفر ، وفار التنور يعني خروج الماء من موضع لم يعهد خروجه منه علامة لنوح عليه السلام وهو تنور الخبز - في قول ابن عباس والحسن ومجاهد - وقيل : هو تنور آدم عليه السلام ويقال : فار إذا ارتفع ما فيه ، كما يفور القدر بالغلجان ، فار يفور فوراً وفوراً . وقال ابن عباس : فار إذا نبع . وقوله « قلنا حمل فيها من كل زوجين اثنين » إخبار منه تعالى أنه أمر نوحاً أن يحمل معه في سفينته من كل جنس زوجين : والزوج واحد له شكل إلا أنه قد كثر على الرجل الذي له امرأة : قال الحسن : في قوله « من كل شيء خلقنا زوجين » فالسماة زوج ، والأرض زوج والشتاء زوج ، والصيف زوج ، والليل زوج ، والنهار زوج ، حتى يصير الأمر الى الله الفرد الذي لا يشبهه شيء قال الاعشى :

وكل زوج من الديباج يلبسه أبوقدامة محبوباً بذاك معا (١)

وقوله « وأهلك » معناه واحمل معك أهلك « الا من سبق عليه القول » بالاهلاك قال الضحاك وابن جريح : هو ابنه وامرأته . وقوله « ومن آمن » تقديره واحمل من آمن . ثم أخبر تعالى فقال « وما آمن معه الا قليل » . قال ابن جريح : القليل الذين نجو معه كانوا ثمانية . وقال الاعمش : كانوا سبعة ، وقال ابن عباس : كانوا ثمانين ، وكان فيهم ثلاثة : بنيه : يافث ، وسام ، وحام . وثلاث كسائن له

ويافث جد الترك والروم والصقالبة وأصناف البيضان . وحام جد السودان ، وهم الحبش والنوبة والزنج وغيرهم . وسام أبو فارس وأصناف العجم .

قوله تعالى :

وَ قَالَ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرُبًا وَمُرْسِيًّا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ

رَحِيمٌ (٤١) آية

قرأ حمزة والكسائي « مجراها » بفتح الميم . الباقون بضمها ، وكلهم ضم ميم مرساها . ومن ضمها قابل بينها وبين مرسها لما بينهما من المشاكلة . ومن فتح فلانه قال بعده « وهي تجري » ومن اختار الأول ، قال التقدير اجري فجرت . قال أبو علي الفارسي : يجوز في « بسم الله مجراها ومرساها » أن يكون حالا من شيئين : أحدهما - أن يكون من الضمير الذي في (اركبوا) أو من الضمير الذي في (فيها) ، فإن جعلت « بسم الله مجراها » خبر مبتدأ مقدم في قول من لا يرفع بالظرف ، أو جعلته مرتفعاً بالظرف ، ولم يكن قوله « بسم الله مجراها » الاجمالة في موضع الحال من الضمير الذي في (فيها) ولا يجوز أن يكون الضمير في قوله « اركبوا فيها » ، لأنه لا ذكر فيها يرجع الى الضمير ، ألا ترى أن الظرف في قول من يرفع به ارتفع به الظاهر ، وفي قول من رفع مثل هذا بالابتداء قد حصل في الظرف ضمير المبتدأ ، فإذا كان كذلك خلت الجملة من ضمير يعود من الحال الى ذي الحال . وإذا كان كذلك لم يكن الا حالا من الضمير الذي في (فيها) . والثاني - يجوز أن يكون قوله « بسم الله » حالا من الضمير الذي في (اركبوا) على ان لا يكون الظرف خبراً عن الاسم الذي هو (مجراها) على ما كان في الوجه الأول ، ويكون المعنى اركبوا الآن متبركين بسم الله في الوقتين اللذين لا يفتك الراكبون فيها منهما من الارساء والاجراء ، وليس يريد اركبوا في وقت الجري

والرسو ، فموضع «مجرها» نصب على هذا الوجه بأنه ظرف عمل فيه على المعنى .
وفي الوجه الأول رفع . بالابتداء وبالظرف . ومن فتح الميم فلأنه قال «وهي
تجري» . ومن ضم ، فلأن جرت بهم وأجري بهم متقاربان في المعنى ، ويقال :
جرى الشيء وجريت به وأجريت به ، وإنما ضموا الميم من (مرساها) لقوله «أيان
مرساها» (١) وقوله «والجبال أرساها» (٢) ومن أمال اوترك الامالة ،
فكلاهما حسان .

اخبر الله تعالى عما قال نوح حين دنا ركبهم السفينة «اركبوا فيها» يعني
في السفينة ، والركوب العلو على ظهر الشيء ، فمنه ركوب الدابة وركوب السفينة
وركوب البر وركوب البحر .

والعامل في «بسم الله» يحتمل ثلاثة أشياء : احدها - (اركبوا) . والثاني -
ابتدؤا بسم الله . والثالث - أجزاها وأرساها . والمجري يحتمل ثلاثة اوجه :
أحدها - أن يكون موضع الاجراء . والثاني - وقت الاجراء . والثالث - نفس
الاجراء . وقيل: كان اذا اراد أن تجري قال «بسم الله» فجرت ، فاذا اراد أن
ترسوا قال «بسم الله» فرست ذكره الضحاك . قال لبيد :

عمرت حين ثلاثاً قبل مجرى داحس لو كان للنفس اللجوج خلود (٣)
والارساء إمساك السفينة بما تقف عليه أرساها إرساء ورست ترسوا قال عنتره:
فصرت نفساً عند ذلك حرة ترسوا إذا نفس الجبان تطلع (٤)
وقوله «ان ربي لغفور رحيم» إخبار منه تعالى حكاية عما قال نوح لقومه
«ان ربي لغفور رحيم» أي سائر عليهم ذنوبهم رحيم بهم منعم عليهم .

ووجه اتصال الآية بما قبلها أنه لما ذكرت النجاة بالركوب في السفينة

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٨٦ وسورة ٧٩ النازعات آية ٤٢

(٢) سورة ٧٩ النازعات آية ٣٢ (٣) ديوانه : ٢٥ واللسان والتاج (جري)

(٤) ديوانه : ٢٩ والدر المستور ٣ / ٣٢٨

ذَكَرَتِ النِّعْمَةَ بِالمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةَ لِجِتْلِبِ الطَّاعَةِ كَمَا اجْتَلِبِ النِّجَاةَ .

قوله تعالى :

وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَمَا لِالجِبَالِ وَ نَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ
فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الكَافِرِينَ (٤٢) آية

أخبر الله تعالى عن حال السفينة بعد الغرق أنها كانت تجري على الماء في أمواج كالجبال . والجري مرّ سريع كمرّ الماء على وجه الأرض . والسفينة تجري بالماء والغرس يجري في عدوه ، ويقال : هذه العلة تجري في أحكامها ، أي تمر فيها من غير مانع منها . والموج جمع موجة ، وهي قطعة عظيمة ترتفع عن جملة الماء الكثير ، ومنه أمواج البحر وأعظم ما يكون إذا اشتدت به الرياح ، وشبه الله تعالى الامواج بالجبال في عظمها ، والجبل جسم عظيم الغلظ شاخص من الأرض هو لها كالوعد في عظمه . وجمعه اجبال وحيال . وقوله « ونادى نوح ابنه وكان في معزل » فالمعزل موضع منقطع عن غيره . وكان ابن نوح في ناحية منقطعة عنه حين ناداه وقرأ عاصم « يا بني اركب » بفتح الياء . الباكون بكسرها . وفي قوله « يا بني » ثلاث ياءات ، ياء التصغير ، وياء الأصل ، وياء الاضافة . وفي قوله « يا بني ان الله اصطفى لكم الدين » (١) يا آن ، ياء الجمع ، وياء الاضافة . قال أبو علي الفارسي : الوجه كسر الياء ، لأن اللام من (ابن) ياء أو واو ، وحذفت من (ابن) كما حذفت من (إسم) فاذا حققت ألحقت ياء النحقير ، لزم أن ترد اللام الذي حذفت لأنك لو لم تردها لوجب أن تحرك ياء التصغير بحركات الاعراب ، وهي لا تحرك أبداً بحركات الاعراب ولا غيرها ، فاذا أضفته الى نفسك اجتمعت ثلاث ياءات : ، الأولى التي للتحقير ، والثانية لام الفعل ، والثالثة هي التي للاضافة تقول : بني ،

فإذا ناديت جاز فيه وجهان : إثبات الياء وحذفها ، فمن قال يا عبادي فأثبت الياء فقياسه أن يقول يابني ، ومن قال يا عباد يقول يابنيّ حذف التي للاضافة ، وابتقت الكسرة دلالة عليها . وهذا هو الجيد عندهم . ومن فتح الياء أراد الاضافة كما أرادها في قوله يابنيّ اذا كسر الياء التي هي آخر الفعل ، كأنه قال يابني ثم أبدل من الكسرة الفتحة ، ومن الياء الالف . فصار (يابنيّا) كما قال :

يابنت عما لاتلومي واهجمي

ثم حذف الالف كما كانت تحذف الياء : في يابني إليها ، وقد حذف الياء التي للاضافة إذا أبدلت الألف منها قال أبو الحسن :

فلست بمدرك ما فات مني بلهف ولا بليت ولا لو أني (١)

كذلك سمع من العرب ، فقوله : بلهف إنما هو بلهفا ، فحذفت الالف . قال أبو عثمان : ووضع الالف مكان الياء في الاضافة مطرد وأجاز يا زيد اقبل إذا أردت الاضافة .

قوله تعالى :

قَالَ سَأُوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ
مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ
الْمُغْرَقِينَ (٤٣) آية

حكى الله تعالى في هذه الاية ما أجاب ابن نوح أباه ﷺ فانه « قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء » أي سأرجع الى مأوى من جبل يعصمني من الماء أي يمنعي منه ، يقال آوي يأوي أوياً إذا رجع الى منزل يقيم فيه و (العصمة) المنع من الآفة والمعصوم في الدين الممنوع باللطف من فعل القبيح لاعلى وجه الحيلولة.

فإن قيل كيف دعا نوح ابنه الى الوكوب معه في السفينة مع أن الله تعالى نهاه أن يركب فيها كافراً . قلنا : فيه جوابان : أحدهما - أنه دعاه الى الر كوب بشرط أن يؤمن . الثاني - قال الحسن والجبائي : انه كان يوافق باظهار الايمان . فان قيل : هلا كان ما صار اليه ابن نوح من تلك الحال الهائلة إلقاء ؟ . قلنا : لا . لان الإلقاء لا يكون إلا بأحد شيئين : احدهما - بأن يخلق فيه العلم بأنه متى رام خلافه منع منه . الثاني - تتوفر الدواعي من ترغيب او ترهيب ، ولم يحصل له واحد من الأمرين ، لأنه جوز أن يكون من عجائب الزمان ، وأنه وقع الى نوح علم به ، فتقدم فيه . وقوله « لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم » حكاية لما قال نوح لولده حين « قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء » بأنه لا مانع اليوم من أمر الله . واستثنى من رحم ، وقيل فيه ثلاثة اقوال : أحدها - أنه استثناء منقطع ، كأنه قال من رحم فانه معصوم . الثاني - لا عاصم إلا من رحمة الله سبحانه لنا كأنه قال : لا عاصم إلا من عصمه الله فنجا ، وهو نوح عليه السلام ، وهو اختيار أبي علي النحوي . وقال : لانه يحتمل أن يكون (عاصم) بمعنى معصوم مثل دافق بمعنى مدفوق ، فيكون الاستثناء متصلاً . وقال ابن كيسان : لما قال (لا عاصم) كان معناه لا معصوم ، لأن في نقي العاصم نقي المعصوم ثم قال « إلا من رحم » فاستثناه على المعنى ويكون متصلاً . وقوله « وحال بينهما المطوح » إخبار منه تعالى انه حال بين نوح وولده المطوح ، « فكان من المغرقين » .

قوله تعالى :

وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاةُ اقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ
وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ (٤٤) آية

حكى الله تعالى في هذه الآية قصة نوح وقومه بأوجز لفظ وأبلغه ، وبلوغ الغاية التي لاتدانيها بلاغة ولاتقاربها فصاحة ، لأن قوله « وقيل يا أرض ابلمي ماءك » اخبار منه عن إذهاب الماء عن وجه الارض في أوجز مدة فجرى ذلك مجرى ان قال لها ابلمي فبلعت . والبلع في اللغة انتزاع الشيء من الحلق الى الجوف ، فكانت الأرض تبلع الماء هكذا حتى صار في بطنها الغراء ، يقال : بلعت وبلعت بفتح اللام وكسرها . وقوله « وياسماء اقلعي » اخبار أيضاً عن اقشاع السحاب ، وقطع المطر في أسرع وقت ، فكانه قال لها اقلعي فأقلعت . والاقلاع إذهاب الشيء من اصله حتى لايبقى منه شيء . وأقلع عن الأمر إذا تركه رأساً . وقوله « وغيض الماء » أي أذهب به عن وجه الأرض الى باطنها . يقال : غاض الماء يغيض غيضاً إذا ذهب في الارض . وقوله « وقضي الأمر » معناه أوقع الهلاك بقوم نوح على تمام والقضاء وقوع الأمر على تمام وإحكام . وقوله « واستوت على الجودي » جبل معروف . قال الزجاج بناحية أمد ، وقال غيره : بقرب جزيرة الموصل ، قال زيد بن عمر بن نفيل :

وقبلنا سبح الجودي والحمد .

وقيل : أرسى على الجودي شهراً ، وقال قتادة : اهبطوا يوم عاشوراء .
وقوله « وقيل بعداً للقوم الظالمين » معناه أبعدهم الله من الخير بعداً ، على وجه الدعاء . ويجوز أن يكون الله تعالى قال لهم ذلك . ويجوز أن يكون المؤمنون دعوا عليهم بذلك ، وهو منصوب على المصدر .

وقيل في هذه الآية وجوه كثيرة من عجب البلاغة : منها أنه خرج مخرج الأمر على وجه التعظيم من نحو « كن فيكون » (١) لأنه من غير معاناة ، ولا

(١) سورة ٢ البقرة آية ١١٨ وسورة ٣ آل عمران آية ٤٧ ، ٥٩ وسورة ٦ الانعام آية ٧٣ وسورة ١٦ النحل آية ٤٠ وسورة ١٩ مريم آية ٣٥ وسورة ٣٦ يس آية ٨٢ وسورة ٤٠ المؤمن آية ٦٨ .

لغوب . ومنها حسن تقابل المعنى ومنها حسن ائتلاف الألفاظ . ومن ذلك حسن البيان في تصوير الحال . ومنها الايجاز من غير إخلال . ومنها تقبل الفهم على أتم الكمال الى غير ذلك مما عليه هذا الكلام في الحسن العجيب واللفظ البديع .

قوله تعالى :

وَ نَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) آية

حكى الله تعالى عن نوح أنه حين رأى قومه قد أهلكهم الله تعالى « فقال يارب ان ابني من أهلي وإن وعدك الحق » لأنه تعالى كان وعده بأنه ينجيه وأهله ، وأمره بأن يحملهم معه في الفلك في قوله « وقلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك » فسأل نوح ربه أن ابنه إن كان ممن وعده بنجاته أن ينجيه ، فسأله بهذا الشرط لأنه لا يجوز أن يسأل نبي من أنبياء الله أمراً لا يجاب اليه ، وخاصة على رؤس الملأ لأن ذلك يتفر عنهم . وانما يجوز أن يسأل بما يظهر له بشرط مقترن بالكلام وحال يدل عليه ، فيعرف أنه لم يحصل الشرط . والرب والمالك واحد . وقيل : ان الرب المالك للشيء من كل وجه يصح أن يملك به ، وهو أتم الملك ، ولا تصح الصفه به على الاطلاق الا لله تعالى . والانسان قديكون مالكا بالاطلاق . وقوله « وانت احكم الحاكمين » يعني في قولك وفعلك ؛ لأنه حق تدعو اليه الحكمة ، فقال نوح ذلك على وجه الاعتراف تعظيماً لله تعالى .

قوله تعالى :

قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَعِزَّ بِمَالِكٍ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ

الْجَاهِلِينَ (٤٦) آية

قرأ الكسائي ويعقوب « انه عمل غير صالح » على الفعل ، ونصب (غير) الكسائي . الباقون « عمل » اسم مرفوع منون (غير) رفع . وقرأ ابن كثير (تسألن) بالتشديد ، وفتح النون ، وافقه نافع في التشديد الا انه كسر النون . الباقون بالتخفيف وكسر النون الا أن أبا عمرو يثبت الياء في الاصل . قال أبو علي النحوي (سألت) فعل يتعدى الى مفعولين وليس مما يدخل على المبتدأ وخبره ، ويمتنع ان يتعدى الى مفعول واحد . فمن قرأ بفتح اللام ، ولم يكسر النون عداه الى مفعول واحد في اللفظ . والمعنى على التعدي الى ثانٍ ومن كسر النون دل على انه عداه الى مفعولين ، احدهما : اسم المتكلم . والاخر - الاسم الموصول ، وحذف النون المتصلة بياء المتكلم ، كما حذف من قولهم (اني) كراهة اجتماع النونات . ومن اثبت الياء فهـ الاصل ، ومن حذفها اجتزأ بالكسرة الدالة عليها .

في هذه الآية حكاية مما أجاب الله به نوحاً حين سأله نجاته ابنه بأن قال له « يانوح انه ليس من اهلك . . . » وقيل في معناه ثلاثة أقوال :

أحدها - قال ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك واكثر المفسرين : انه ليس من اهلك الذين وعدتك بنجاتهم معك ، وانه كان ابنه لصبيه ، بدلالة قوله « ونادى نوح ابنه » فأضافه اليه اضافة مطلقة . والثاني - انه اراد بذلك أنه ليس من أهل دينك ، كما قال النبي ﷺ (سلمان منا أهل البيت) وإنما اراد على ديننا . وثالثها - قال الحسن ومجاهد : انه كان لغيره ، وولد على فراشه ، فسأل نوح على الظاهر فأعلمه الله باطن الأمر ، فنقاه منه على ما علمه ، فيكون على هذا هو نفسه عمل غير صالح ، كما يقولون : الشعر زهير وهذا الوجه ضعيف ، لأن في ذلك طعناً على نبي وإضافة ما لا يليق به اليه . والمعتمد الأول . وقال ابن عباس :

مازنت امرأة نبي قط ، وكانت الخيانة من امرأة نوح انها كانت تنسبه الى الجنون والخيانة من امرأة لوط انها كانت تدل على أضيافه . وروي عن علي عليه السلام أنه قرأ ونادى نوح ابنها فنسبه الى المرأة ، وأنه كان يريه . وروي عن محمد بن علي بن الحسين عليه السلام وعروة بن الزبير أنهما قرءا « ونادى نوح ابنه » بفتح الهاء وترك الالف كراهة ما يخالف المصحف ، وأرادا أن ينسباه الى المرأة ، وأنه لم يكن ابنه لصلبه . وقال الحسن : كان منافقاً يظهر الايمان ويستتر الكفر .

وقوله « انه عمل غير صالح » فمن قرأ على الفعل ، فمعناه انه ليس من اهلك لانه عمل غير صالح ، وتقديره انه عمل عملا غير صالح ، وحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه ، وذلك يستعمل كثيراً ، وهذه القراءة تقوي قول من قال : إن ابنه لم يكن على دينه ، لأن الله تعالى علل كونه ليس من أهله بأنه عمل عملا غير صالح .
وأما من قرأ على الرفع والتنوين على الاسم فتقديره إنه ذو عمل غير صالح فجاء على المبالغة في الصفة كما قالت الخنساء :

ترتع مارتعت حتى إذا أدّ كرت فانما هي إقبال وإدبار (١)

قال الزجاج : تقديره فانما هي ذات إقبال وإدبار ، تصف الناقة في حنينها الى ولدها . وقيل : ان المعنى ان سؤالك اياي هذا عمل غير صالح ، ذكره ابن عباس ومجاهد وابراهيم . وهذا ضعيف ؛ لأن فيه اضافة القبيح الى الأنبياء عليهم السلام وذلك لا يجوز عندنا على حال . فالأول هو الجيد . ويحتمل ان يكون المراد ان كونه مع الكافرين وانجيازه اليهم وتركه الر كوب مع نوح عمل غير صالح .

وقوله « فلا تسألني ما ليس لك به علم » معناه لا تسألني ما لا تعلم أنه جائز في حكمي لأن هذا من سؤال الجاهلين ، نهاه عن ذلك ؛ ولا يدل على أن ما نهاه عنه قد وقع كما أن قوله « لئن أشركت ليحبطن عملك » (٢) لا يدل على وقوع

(١) مرّ تخريج في ٢ : ٩٥ وهو في تفسير القرطبي ٩ : ٤٩.

(٢) سورة الزمر آية ٦٥

الشرك . وقوله « اني اعظك أن تكون من الجاهلين » فالوعظ الزجر عن القبيح بما يدعو الى الجهل على وجه الترغيب والترهيب . والصحيح أن الجهل قبيح على كل حال . وقال الرماني : انما يكون قبيحاً اذا وقع عن عمد ، فاما اذا وقع غلطاً او سهواً لم يكن قبيحاً ولا حسناً . وهذا ليس بصحيح ، لأن استحقاق الذم عليه يشترط بالعمد فاما قبحه فلا كما نقوله في الظلم سواء .

قوله تعالى :

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) آية

في هذه الآية اخبار عما قاله نوح عليه السلام حين عرفه الله حال ولده وأنه لا يستحق الغفران ووعظه بان يكون من الجاهلين ، فانه قال « اني أعوذ بك أن أسالك ما ليس لي به علم » فالعيادة طلب النجاة بما يمنع من الشر ، يقال : عاذ يعوذ عوداً وعياداً فهو عائد بالله . والعيادة الاعتصام بما يمنع من الشر . والمعنى اني أعتصم بك أن اسالك ما لا أعلمه ، وانما اعتصم من ذلك ؛ لأن ما يعلمه الانسان يجوز أن يكون حسناً ويجوز كونه قبيحاً . ولا يحسن أن يسأل ما يجوز كونه قبيحاً وان شرط حسن السؤال . وينبغي أن يشترط ان كان ما سأله حسناً فيحسن السؤال حينئذ . وقال الرماني : لا يحسن أن تسأل فتقول : اللهم احبي اقاربي في دار الدنيا على ما يصح ويجوز . لأنه قد دل الدليل على أن ذلك لا يحسن في الحكمة فلا يجوز أن يسأله بحال . وانما جاز اطلاق « ما ليس لي به علم » مع أنه قد علمه سؤالا . لأن هذا العلم لا يعتمد به لأن المراد علم ماله أن يسأله اياه . وانما حذف (يا) من قوله « رب اني أعوذ بك » وأثبتته في قوله « يا نوح » لأن ذلك نداء تعظيم . وهذا نداء تنبيه فوجب أن يأتي بحرف التنبيه . وقوله (به)

يحتمل وجهين : احدهما - أن يكون كقوله « وكانوا فيه من الزاهدين » (١) و « اني لك من الناصحين » (٢) و « انا على ذلكم من الشاهدين » (٣) قال ابو الحسن : انما يجوز في حروف الجرّ ذلك ؛ لأن التقدير فيه التعلق بمضمّر يفسره هذا الذي يظهر بعد ، وان كان لايجوز تسليطه عليه . ومثله « يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين » (٤) فانصب « يوم يرون » بما دل عليه « لا بشرى يومئذ » ولايجوز فيما بعد (لا) هذه أن يتسلط على (يوم) وكذلك « ما ليس لك به علم » يتعلق بما دل عليه (علم) المذكور وإن لم يجز أن يعمل فيه . والثاني - أن يكون متعلقاً بالمستقر ، وهو العامل فيه كتعلق الظروف بالمعاني كما تقول : ليس لك فيه رضاء ، فيكون (به) في الاية بمنزلة (فيه) .

قوله تعالى :

قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ
مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُنَبِّئُكُمُ ثُمَّ يَمْسُرُكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) آية

في هذه الآيّة حكاية ما أمر الله تعالى به نوحاً حين استوت السفينة على الجبل ، وأنه قال له « اهبط » أي انزل من الجبل ، فالهبوط نزول من أعلى مكان في الارض الى مادونه ومن السماء . وقوله « بسلام منا » قيل في معناه وجهان :

احدهما - بسلامة منا وتحية منا ، قال لبيد :

الى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن ييك حولا كاملا فقد اعتذر (٥)

قيل : انه بمعنى السلام عليكما . وقيل : معناه بتسليم منا عليك . وقوله

(١) سورة ١٢ يوسف آية ٢٠ (٢) سورة ٢٨ القصص آية ٢٠

(٣) سورة ٢١ الانبياء آية ٥٦ (٤) سورة ٢٥ الفرقان آية ٢٢

(٥) ديوانه ٢ / ١ واللسان « عذر »

« وبركات عليك » معناه ونعم دائمة وخير ثابت حالا بعد حال ، وأصله الثبوت ، فمنه البروك ، والبركة لثبوت النماء فيها قال الشاعر :

ولا ينجي من الغمرات إلا برا كاء القتال أو الفرار (١)

أي الثبوت للقتال . ومعنى تبارك الله ثبت تعظيم ما لم يزل ولا يزال . وقوله « وعلي أمم ممن معك » فالأمة الجماعة الكثيرة على ملة واحدة متفقة ، لأنه من (أمه يؤمه أماً) إذا قصده ، أو الاتفاق في المنطق على نحو منطق الطير والمأكل والمشرب والمنكح ، حتى قيل : إن الكلاب أمة . وقيل في معناه - هنا - قولان : أحدهما - أنه أراد الأمم الذين كانوا معه في السفينة ، فأخرج الله أمماً من نسلهم وجعل فيهم البركة . وقال قوم : يعني بذلك الأمم من سائر الحيوان الذين كانوا معه ، لأن الله تعالى جعل فيها البركة ، وتفضل عليها بالسلامة حتى كان منها نسل العالم . وقوله « وأمم ستمتعهم ثم يمسه منا عذاب أليم » معناه إنه يكون من نسلهم أمم ستمتعهم الله في الدنيا بضروب من النعم ، فيكفرون نعمه ويجحدون ربوبيته ، فيهلكهم الله . ثم يمسه بعد ذلك عذاب مؤلم موجه . وانما رفع (أمم) لأنه استأنف الاخبار عنهم .

قوله تعالى :

تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ

وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) آية

الإشارة بقوله « تلك » الى ما تقدم ذكره من اخبار نوح وقومه وما احل الله بهم من الاهلاك ، والتقدير تلك الانباء من انباء الغيب ، ولو قال ذلك كان جائزاً ، لأن المصادر يكتنى عنها بالتأنيث تارة وبالتذكير أخرى يقولون : قدم فلان

(١) قائله بشر بن ابي خازم اللسان (برك)

ففرحت بها وفرحت به أي بقدمه أو بقدمته . والغيب ما غاب عن النفس معرفته بطريق الستر له بخلاف السهو لأنه ذهاب المعنى عن النفس بحال ينافي الذكر . وقوله « نوحياً اليك » أي نوحى اليك تلك الاخبار . وقوله « ما كنت تعلمها أنت ولا قومك » معناه إن هذه الاخبار التي أعلمناك اياها لم تكن تعلمها قبل وحبنا اليك ولا قومك من العرب يعرفونها قبل إيجائنا اليك . وقوله « فاصبر ان العاقبة للمتقين » أمر للنبي ﷺ بأن يصبر على أذى قومه وجهلهم بموضعه كما صبر نوح مثل ذلك على قومه ؛ وهو أحد الوجوه التي لأجلها كرر الله تعالى قصص الانبياء : في الاعراف ، وهود ، والشعراء ، ليصبر النبي ﷺ على أذى قومه حالاً بعد حال . وقوله « إن العاقبة للمتقين » اخبار منه تعالى بأن العاقبة المحمودة لمن اتقى معاصي الله وتحرز من عقابه .



تم المجلد الخامس - ويليه المجلد السادس

وأوله قوله تعالى : وإلى عاد اخاهم هوداً قال

يا قوم اعبدوا الله... آية (٥٠) من سورة هود

الفهارس

١ - فهرس الاحاديث

صفحة	
٢٢	عن ابي جعفر <small>عليه السلام</small> في تفسير « آتيناها آياتنا فانسلخ منها ... »
٦٢	عن النبي <small>صلى الله عليه وآله</small> : رحم الله سهل القضاء سهل الاقتضاء .
٦٣	عن النبي <small>صلى الله عليه وآله</small> أن جبرائيل قال له معنى « وأمر بالمرء أن يقطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك ... »
٧٢	عن ابي جعفر وابي عبد الله <small>عليهما السلام</small> : الأنفال كل ما أخذ من دار الحرب بغير قتال ... وميراث من لاوارث له ...
٧٣	عن النبي <small>صلى الله عليه وآله</small> : ايما سرية خرجت بغير إذن إمامها فما أصابت من شيء فهو غول .
٨١	حديث النبي <small>صلى الله عليه وآله</small> : مع اصحابه عند خروج قريش لحماية العير ...
٩٩	عن ابي جعفر <small>عليه السلام</small> : « إن شر الدواب » نزلت في بني عبد الدار ...
١٠١	عن ابي عبد الله <small>عليه السلام</small> في معنى « يحول بين المرء وقلبه » قال : لا يستيقن القلب أن الحق باطل أبداً ، ولا يستيقن أن الباطل حق أبداً .
١٠٩	حديث مبيت علي <small>عليه السلام</small> على فراش رسول الله <small>صلى الله عليه وآله</small>
١٢٢	عن النبي <small>صلى الله عليه وآله</small> ايما امرأة نكحت بغير إذن مولاها فكأحها باطل .

- ١٢٤ عن النبي ﷺ : إن ذوي القربى بنو هاشم وبنو المطلب .
- ١٥٨ عن النبي ﷺ : الغنائم أحلت لي ولم تحل لنبي قبلي .
- ١٥٨ عن ابي جعفر عليه السلام حديث النبي ﷺ مع العباس وهو أسير يوم بدر .
- ١٦٢ عن ابي جعفر عليه السلام : ان المؤمنين كانوا يتوارثون بالموآخات الأولى .
- ١٦٤ عن النبي ﷺ : لاهجرة بعد الفتح .
- ١٦٩ حديث عن ابي عبد الله عليه السلام في أول الأشهر الحرم وآخرها .
- ١٦٩ عن النبي ﷺ : لا يبلغ عني إلا رجل مني .
- ١٨٣ عن علي وأبي جعفر عليه السلام أئمة الكفر نزلت في أهل الجمل .
- ١٩٠ عن ابي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام أن قوله تعالى « اجعلتم سقاية الحاج . . . كمن آمن بالله . . . » نزلت في العباس وعلي عليه السلام
- ٢٠٩ عن ابي جعفر عليه السلام في قوله تعالى « ليظهره على الدين كله » أن ذلك يكون عند خروج القائم عليه السلام . . .
- ٢١٢ عن علي عليه السلام : كلما زاد عن اربعة آلاف فهو كنز ، أدت زكاته أو لم تؤد ، وما دونها فهو نفقة .
- ٢١٢ عن النبي ﷺ : أنه سئل أي مال يتخذ فقال : لساناً ذا كراً وقلباً شاكراً وزوجة تعين أحدكم على دينه .
- ٢٣١ عن النبي ﷺ : ترا صوافي الصفوف لا يتخللكم أولاد الخذف .
- ٢٤٣ عن النبي ﷺ : ليس المسكين الذي تردّ الأكلة والأكلتان والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى فيغنيه ، ولا يسأل الناس إلحافاً .
- ٢٤٤ عن ابي جعفر عليه السلام : أن سهم المؤلف كان خاصاً على عهد رسول الله .
- ٢٤٤ عن ابي جعفر عليه السلام : أن الغارمين هم الذين ركبتم الديون في غير معصية .

صفحة

- ٢٤٥ عن ابي جعفر و ابي عبد الله عليهما السلام : إن لقاسم الزكاة أن يضعها في أي الأصناف شاء .
- ٢٤٨ عن النبي صلى الله عليه وآله : من اختار أن ينظر الى الشيطان فلينظر الى نبتل بن الحارث...
- ٢٥٥ عن النبي صلى الله عليه وآله : والذي نفسي بيده لنتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم حجر صب لدخلتموه . (يعني بني اسرائيل)
- ٢٦٨ روي عنه صلى الله عليه وآله : في الاستغفار للمنافقين أنه قال : لو علمت أني لو زدت على السبعين مرة لغفر لفعلمت ...
- ٢٨٩ عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال - في خطبة الجمعة - لرجال : أخرجوا فانسكم منافقون ...
- ٢٩٤ عن النبي صلى الله عليه وآله : الصدقة قد تقع في يد الله قبل أن تصل الى يد السائل .
- ٢٩٥ في خبر أن أعمال العباد تعرض على النبي صلى الله عليه وآله في كل اثنين وخميس فيعلمها وكذلك تعرض على الائمة عليهم السلام فيعرفونها
- ٢٩٦ قصة كعب بن مالك عندما تخلف وأقر بأن لا عذر له .
- ٢٩٨ حديث أمر النبي صلى الله عليه وآله بهدم مسجد ضرار وحرقه .
- ٣٠٠ عن النبي صلى الله عليه وآله قال لأهل قباء : فان الله أحسن عليكم الشاء
- ٣٠٧ عن النبي صلى الله عليه وآله : سياحة أمتي الصوم .
- ٣١٥ خبر أبي خيشمة عند تخلفه ثم لحوقه بالمجاهدين .
- ٣٥٦ عن النبي صلى الله عليه وآله : نظر الله الى أهل الأرض فمقتهم إلا بقايا ...
- ٣٦٥ عن ابي جعفر عليه السلام في معنى قوله تعالى « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » قال : ما أعطاهم الله في الدنيا لا يحاسبهم به في الآخرة .
- ٣٩٠ عن ابي جعفر عليه السلام في أن قوله تعالى « إن أتاكم عذابه ... » هو عذاب ينزل في آخر الزمان على فسقة أهل القبلة .

- ٣٩٣ سئل النبي ﷺ عن قوله تعالى « واسروا الندامة لما رأوا العذاب » ما يعنيهم
 إسرار الندامة وهم في النار؟ قال : يكرهون شماتة الاعداء .
- ٤٠١ - ٤٠٢ عن الحسين عليه السلام في وصف أولياء الله الذين لاخوف عليهم
- ٤١٢ عن النبي ﷺ في قتلى بدر : أولئك الملائمة من قريش
- ٤٣١ عن النبي ﷺ : ماشككت ولا أنا شاك .
- ٤٦٠ ، ٤٦١ عن علي وابي جعفر والحسين عليهم السلام في معنى قوله تعالى
 « ويتلوه شاهد »
- ٤٩٤ عن النبي ﷺ : سلمان منا أهل البيت .



٢ - فهرس الردود، والاجوبة والادلة

	صفحة
ردّ على من يقول : لا يهدي الى الحق إلا الله	٧
رد على من يقول : أخرج الله ذرّية آدم من ظهره وهم مثل الذر ، واشهدهم على انفسهم . . .	٢٨
رد على من يفسر قوله تعالى « آتينا آياتنا فانسلخ منها » أنه كان نبياً فعصى الله .	٣٢
٤١ ، ٥٠ ، ٨١ ، ١٠١ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٥٦ ، ٢٠٨ ، ٢٣٩ ، ٣٨٣ ، ٤٣٥ ، ٤٧٩	
ردود على المجبرة فيما ينسبونه الى الله .	
رد على الجبائي في استدلاله بقوله تعالى « إنما علمها عند الله » على بطلان قول الرافضة بالنص على الأئمة المعصومين .	٤٨ ، ٤٩
رد على من يقول : لا تكون القدرة إلا مع الفعل .	٥٠
حوار حول تفسير قوله تعالى « فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء » ورد على من يقول : إن آدم وحواء أشركا إبليس . . .	٥٢ - ٥٥
رد على الغلاة القائلين : الله حال بمحمد .	٩٣
رد على من يقول : الفعل من الله بالايجار ومن العبد بالاكتاب .	٩٤
رد على من يجوز أن يكون في مقدور الله لطف لو فعله بالكافر لا من .	١٠٠
١١١ ، ١١٥ ، ١٧٥ ، ٢٢٩ ردود على من يقول المعارف ضرورية .	
جواب من يسأل : إذا جاز مهارة الكفار ، فهل جاز المهارة في الامامة؟	١٥٠
استدلال على أن قوله تعالى « وان جنحوا للسلم فاجنح » غير منسوخ .	١٥٠
رد على الجبائي في قوله : كان من النبي معصية .	١٥٧

	صفحة
دليل على أن الذمي اذا أظهر الطعن في الاسلام وجب قتله .	١٨٣
• يستدل على أن اليهود والنصارى غير عارفين بالله .	٢٠٢
جواب من يسأل عن الاخبار عن اليهود بأنهم يقولون عزيز بن الله مع انهم ينكرون ذلك .	٢٠٥
رد على من يتوهم أن قوله تعالى « اذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » فيه فضيلة لابي بكر .	٢٢٢
رد على من يستدل بعدم النسخ بأن المنسوخ هو ما لا يجوز فعله .	٢٢٤
رد على من يقول: إن قوله تعالى « عفا الله عك لما أذنت لهم » يدل على وقوع ذنب من النبي ﷺ .	٢٢٧
جواب من يسأل : أي الجهادين أفضل أجهاد السيف أم جهاد العلم ؟	٢٢٨
جواب من يسأل : ما الفائدة من كتب ما يكون قبل كونه ؟ .	٢٣٤
رد على من يستدل بآية النفر على حجية الخبر الواحد .	٣٢٢
رد على من يستدل بقوله تعالى « ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي » على عدم صحة نسخ القرآن بالسنة .	٣٥١
جواب من يسأل : كيف ذم الله المشركين على عبادة الوثن ، لأنه لا يضر ولا ينفع مع انه لو ضر ونفع لم يجز لهم أن يعبدوه .	٣٥٥
٣٧٨ ، ٤٥٧ استدلال على أن القرآن معجز ورد على من يشك به .	
رد على من يقول بالاحباط من المعتزلة وأصحاب الوعيد .	٤٦٠
جواب من يسأل : كيف دعا نوح ابنه للركوب في السفينة مع ان فهاه ان يركب فيها كافراً .	٤٩١
يرد على الرهاني في قوله : إنما يكون الجهل قبيحاً إذا كان متعمداً .	٤٩٦

٣ - فهرس المباحث اللغوية

	صفحة
بحث في (بؤس ، ببس) ومشتقاتها وأمثالها	١٥
بحث في (خلف) بتجريك اللام واسكانها .	٢١
بحث في (ذرية) .	٤١٩ ، ٢٦
بحث في (خلد ، أخلد) .	٢٣
بحث في (لحد ، ألحد)	٢٩
بحث في (مدّ ، أمدّ) .	٦٩
الفرق بين الدعاء الى الفعل والأمر به .	١٠٠ ، ٣٦٤
بحث في اشتقاق دنيا وامثالها .	١٢٧
بحث في (سلم) واللغات فيها .	١٤٩
بحث في (أسير ، أسرى ، أسارى)	١٥٥ - ١٥٦
بحث في (أئمة) ونظائرها .	١٨٢
بحث في (ألا ، لا ، ليس ، أليس)	١٨٤
بحث في (أبد) ومعانيها والفرق بين الأبد والخلود .	١٩٣
متى يجوز دخول (إلا) في الايجاب ومتى لايجوز .	٢٠٨
بحث في النسيء ، والنسيء) وأمثالها .	٢١٦
بحث في (أذن) مثلث الهمزة .	٢٤٦
الفرق بين لام الابتداء ولام القسم .	٢٦٣
بحث في (لما ، اذا ، إذ ، متى ، لو) والفرق بينهما .	٢٦٣
بحث في (خوالف) وأمثالها .	٢٧٥

	صفحة
بحث في (السوء) بضم السين وفتحها ، وأمثالها .	٢٨٤
بحث في (قرينة) وجمعها واللغات فيها .	٢٨٦
الفرق بين (الآخر) بفتح الخاء و (الآخر) بكسر الخاء .	٢٩٦
بحث في (تقوى) ومشتقاتها وأمثالها .	٢٩٩
بحث في (جرف) .	٣٠٢
بحث في (كاد) وأمثالها وعملها وتأنيث الفعل وتذكيره .	٣١٢ - ٣١٤
بحث (غلظ) واللغات فيها .	٣٢٤
بحث في (ضئاء) وأمثالها و اللغات فيها .	٣٣٩ - ٣٣٨
بحث في (أدراك) وأمثالها . وادراك به . وادراكه .	٣٥١ - ٣٥٢
الفرق بين القاسط والمقسط .	٣٨٨
الفرق بين الجعل والفعل والتغيير .	٤٠٥
بحث في نون (تفعلان) اذا دخلت على الفعل نون التوكيد .	٤٢٥
الفرق بين الاجابة والطاعة .	٤٥٨
بحث في (عوج) بفتح العين وكسرها	٤٦٣
بحث في (جرم ، لاجرم)	٤٦٦
بحث في العمى والصم والسمع والبصر	٤٦٨ : ٤٧٣
بحث في (بادي ، بادىء)	٤٧٠ - ٤٧٢
بحث في (اراذل) وفي (انسان)	٤٧١
الفرق بين الجدال والحجاج	٤٧٧
بحث في (قَعْل ، مُعْمَل)	٤٨٢
بحث في (زوج ، زوجة)	٤٨٥
بحث في ياء المتكلم حال النداء مثل (يا بني)	٤٩٠

٤ - فهرس المواضع

رقم السورة	صفحة
٧	٥
	تفسير آية ١٥٧ من سورة الاعراف قوله تعالى : يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً... .
٨	٧١
	سورة الانفال يسألونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول
٩	١٦٧
	سورة التوبة براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين...
١٠	٣٣١
	سورة يونس الر تلك آيات الكتاب الحكيم ...
١١	٤٤٥
	سورة هود الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت ... الى آية ٤٩ من سورة هود، وهو قوله تعالى : تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين . وبتفسيرها ينتهي المجلد الخامس من التبيان ويليه المجلد السادس وأوله قوله تعالى : والى عاد أخاهم هوداً . . . آية ٥٠ من سورة هود .

